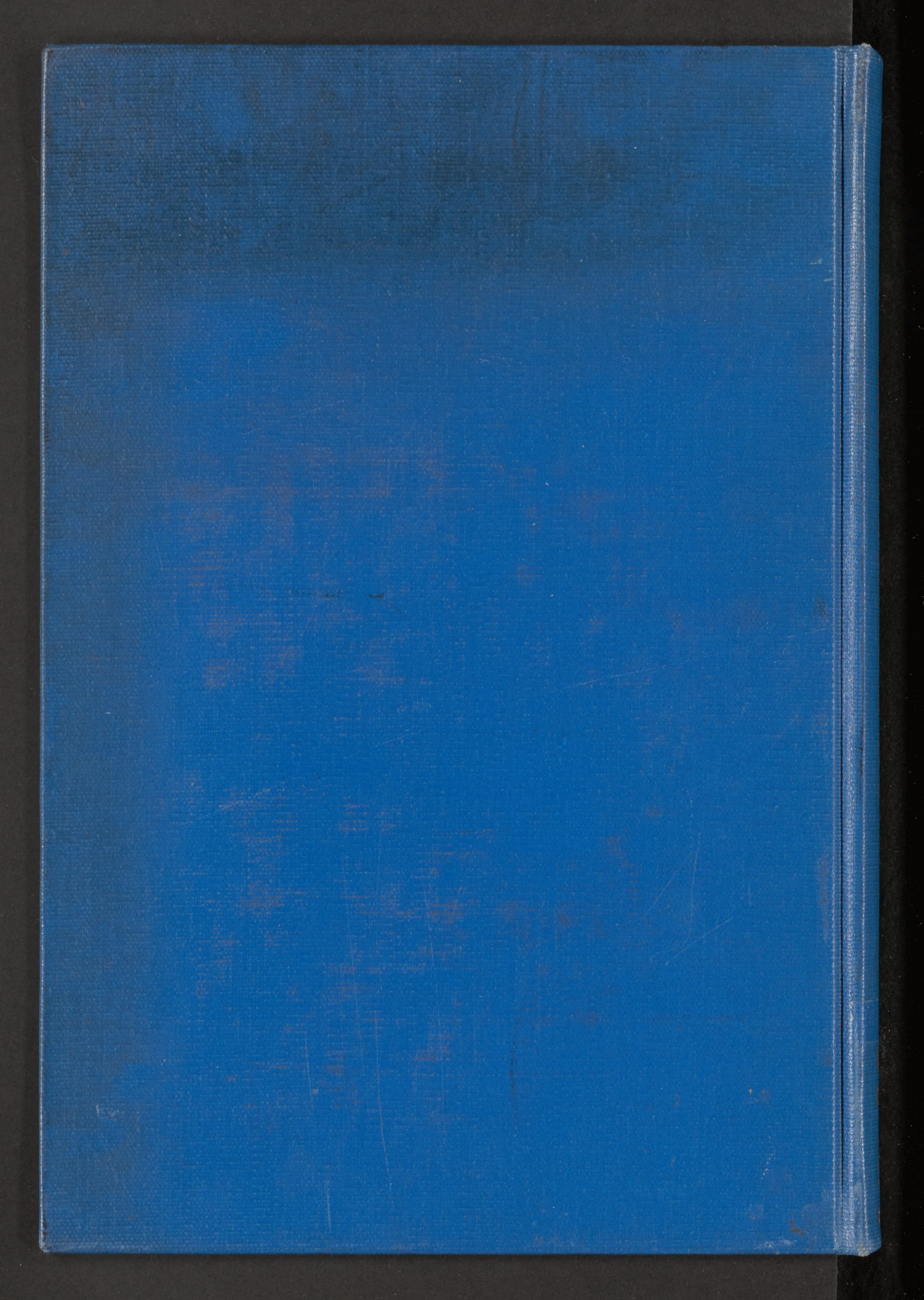
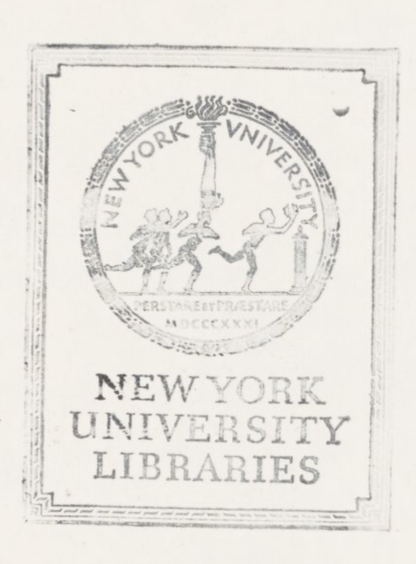
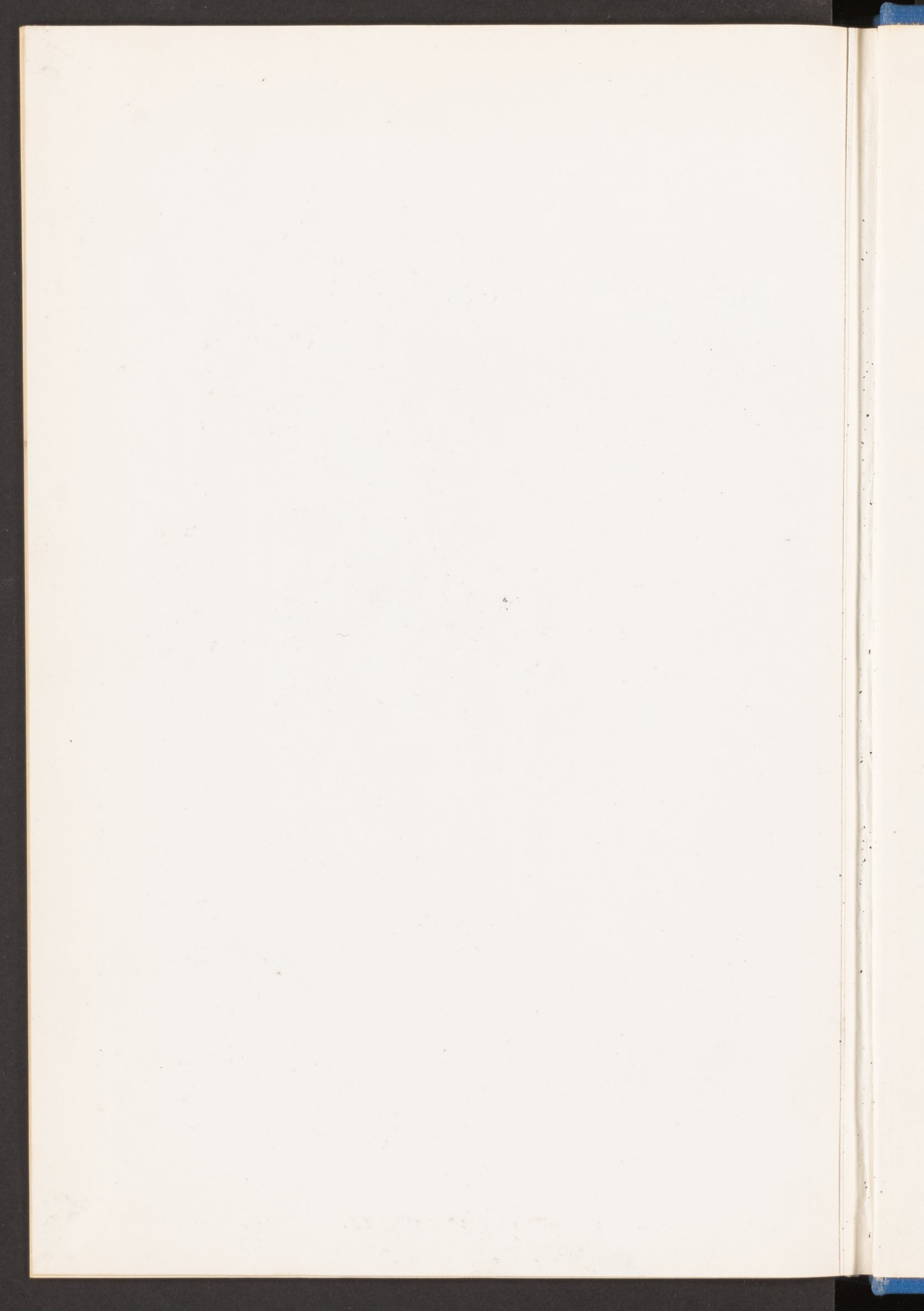
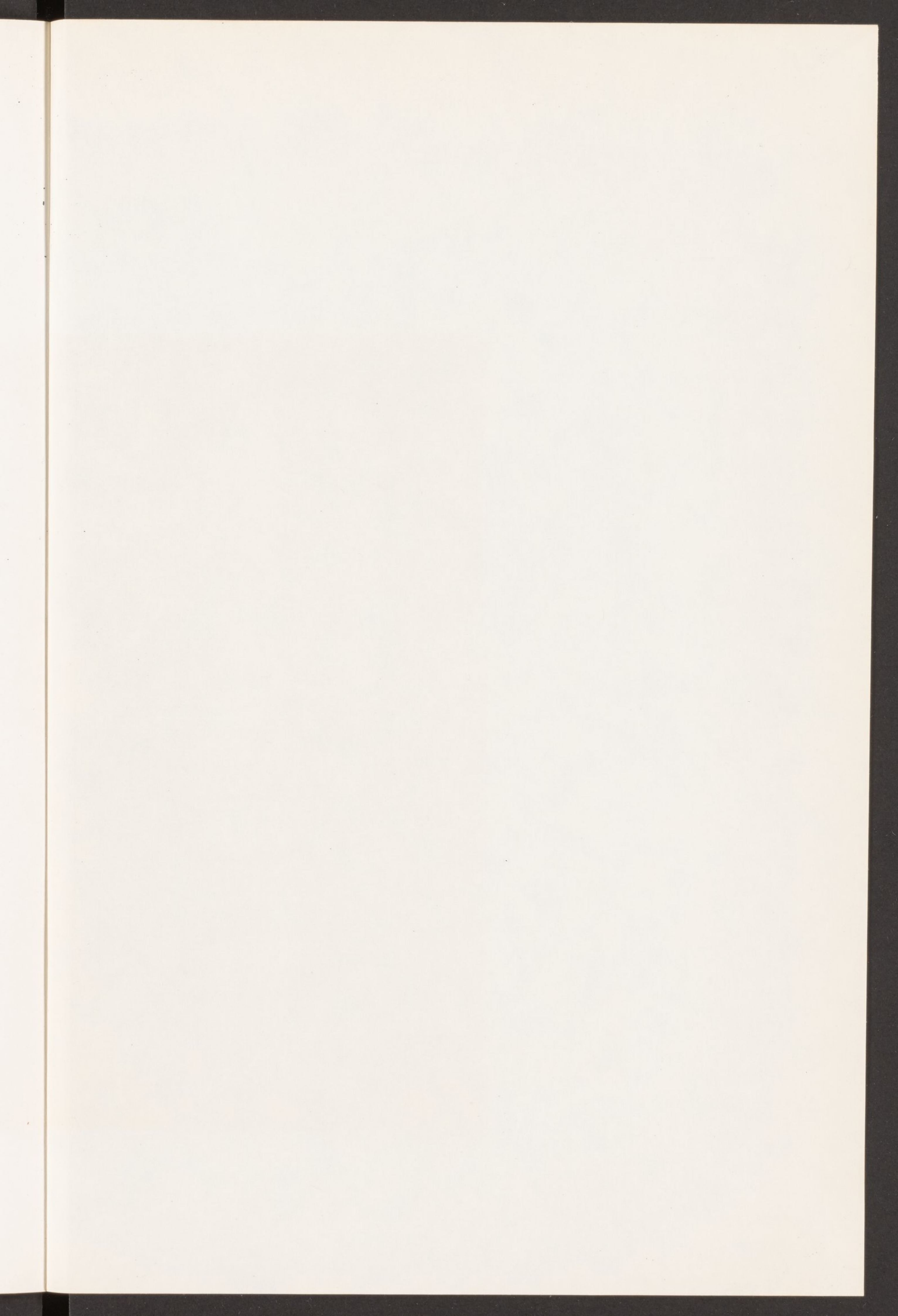
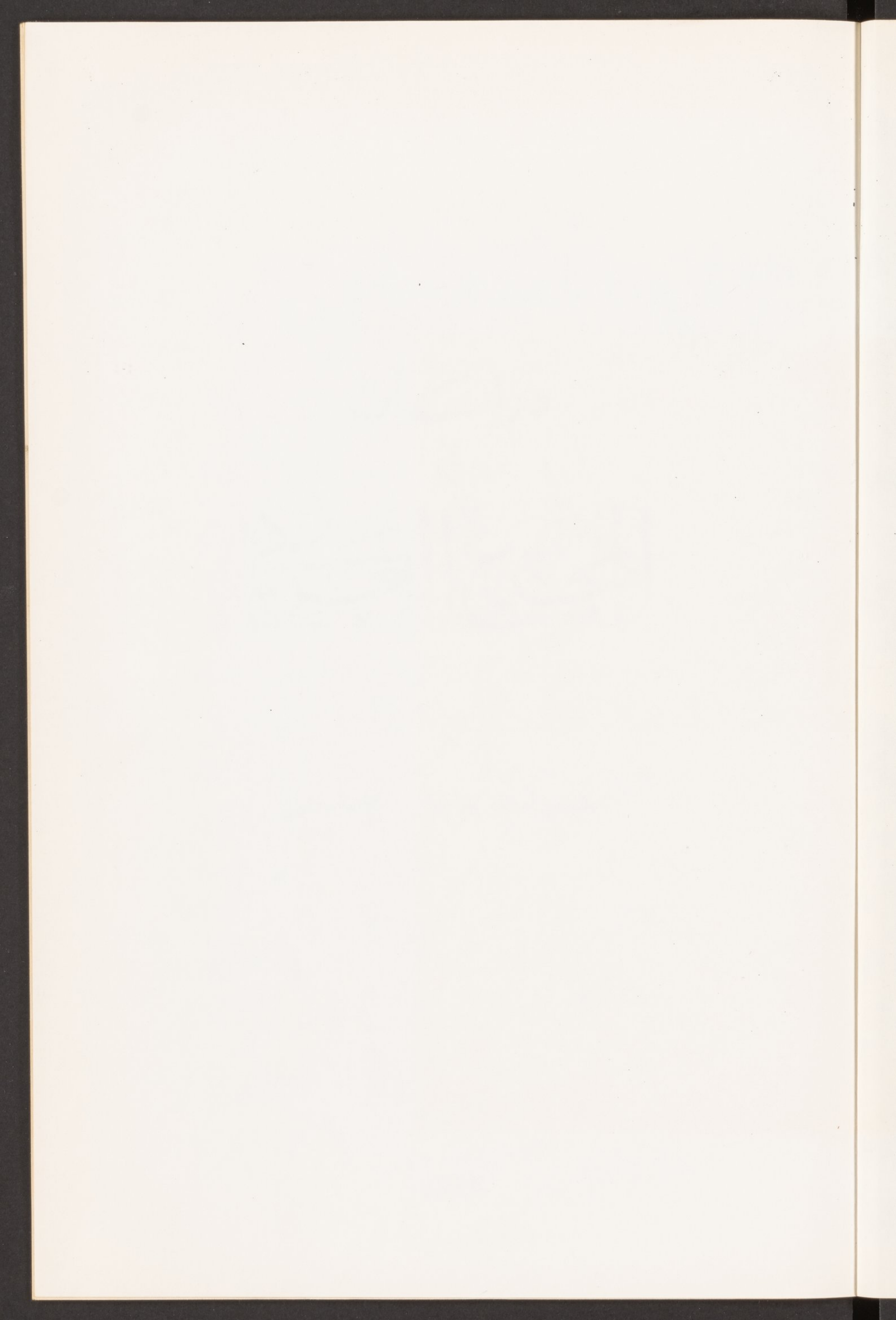


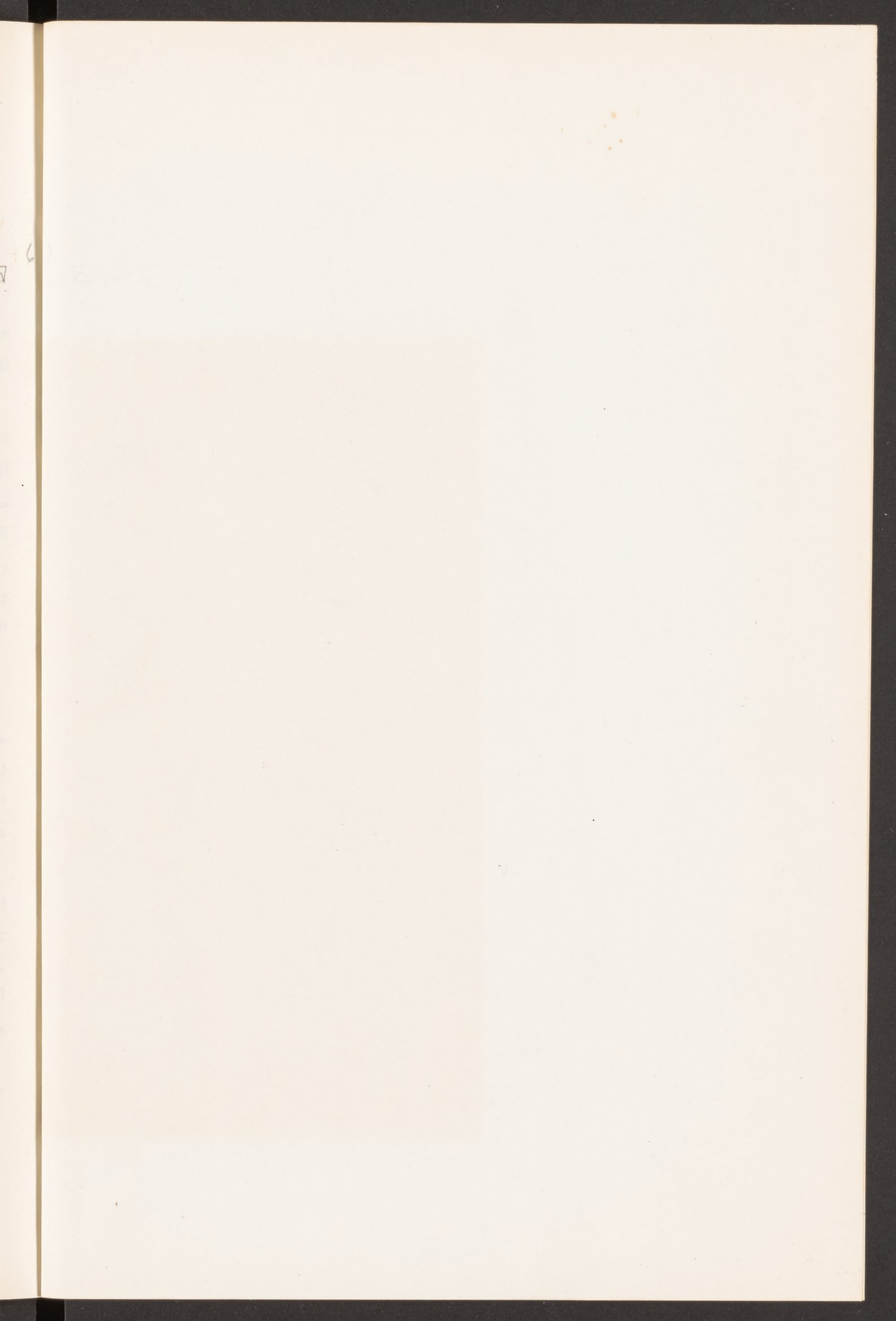

BOBST LIBRARY
3 1142 02839 8231


NEW YORK VNIVERSITY
PERSTARE ET PRÆSTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES









Dirāsāt fī al-mujtamaʻ al-ʻArabī

دراسات
في
المجتمع العربي

بقلم

لفيف من اساتذة كلية الآداب بجامعة دمشق

المقدمة

يتطلع المجتمع العربي الحديث إلى الحياة الأفضل . وهو يدرك بملء وعيه المدى الواسع بين ماضيه المشرق وواقعه الأليم،ويشعر بحافز قوي يدفعه إلى طي الزمن البائد ، وقهر التخلف المقيم ، ومسايرة الركب الحضاري المتسارع الخطا بكل قواه العميقة ومظاهره التقدمية .

ولقد رأى لفيف من أساتذة كلية الآداب بجامعة دمشق ، بدافع من عاطفتهم القومية ، أن ينيروا السبيل أمام الأجيال العربية الصاعدة، ويطلعوها على أمهات القضايا الكبرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، التي تواجه المجتمع العربي من الخليج إلى المحيط ، لتعرف حقيقتها ، وتتخذ حيالها موقفاً ايجابياً ، وتعمل على تحقيق ماتصبو اليه الأمة العربية من حياة كريمة ومساهمة نشيطة في بناء المجتمع الانساني الكبير .

فعسى أن يكون في هذا الجهد بعض الفائدة ، والله من وراء القصد

فكرة القومية

ان تاريخ القرن التاسع عشر والقرن العشرين مطبوع بطابع الحركات القومية • وان دراستنا لتاريخ هذه الحركات تدعونا لان ننظر للتاريخ من وجهة الفكرة القومية والمبدأ القومي فالفكرة يقصد منها مفهوم القومية ، والمبدأ يراد منه تبنّي الفكرة كهدف وغاية ومبرر للسياسة المتبعة •

واذا تحرينا الفكرة القومية في حيز العمل وجدنا ان مهمتها خلق الدولة • والفكرة القومية هي الفكرة التي تهدف الى جمع شمل ابناء القوم الواحد ، من حيث انهم ينتمون الى هذا القوم أو ذاك ، وتأسيس الدولة القومية • ولكن قد يقع ان ابناء هذا القوم أو ذاك يخضعون الى سلطة اجنبية عنهم ، ولـذا فان مهمتهم الاولى ان يتحرروا من كل سيطرة اجنبية ثم ان يؤسسوا الدولة القومية الحرة المستقلة • وما تاريخ الحركات القومية في هذا القرن العشرين والقرن الفائت الا تاريخ التحرر من السيطرة الاجنبية ان وجدت، ومن ثم تأسيس الدولة القومية • ومن هنا يمكننا ان ندرك ان لمبدأ القوميات ، أي لتبني الفكرة القومية ، شأنا عظيما في التاريخ وذلك لانه يسيّر الحوادث البشرية وبدفع بالطموح البشري الى تحقيق الذات القومية •

وقبل دراستنا للقومية لا بد لنا من تفسير بعض الكلمات المتعلقة بها •

فهنالك كلمة الشعب وتدل على وجود الناس مع بعضهم فقط أي وجودهم على أرض معينة جنبا الى جنب • والامة ، وقد اختلف مفهومها عبر التاريخ ، وهي تدل على واقع اجتماعي وتحمل صفة التماسك المعنوي والترابط الاجتماعي بين الاشخاص لا على مجرد علاقة عددية فيما بينهم • والوطن ، هو البلد الذي يلد فيه الانسان ، بلد آبائه واجداده ، بلده الذي يكون عنده موضع عطف وحب واعتراف • ومن هنا نرى ان مدلول الوطن يتضمن مفهوما عاطفيا ، كما تتضمن الامة مفهوما اجتماعيا •

و « الدولة » تدل على الشكل السياسي للمجتمع وتبين تواشج العلاقات بين السكان وتنوّع المصالح المختلفة من سياسية واقتصادية وحقوقية التي تسيّر الهيئة الاجتماعية • فهي اذن واقع اجتماعي ولكنهـا تتضمن مفهوما حقوقيا وذلك لان الدولة تؤلف شخصية حقوقية لها حقوقها وعليها واجباتها الخاصة المبينة من وجهة النظر الحقوقية • وهي من جهة اخرى تعتبر الرقيب والناظم لحقوق الاشخاص الآخرين الطبيعية أو القانونية أو الاخلاقية التي توجـد في المجتمع • فالدولة في الحقيقة هي التي تقـول الحق وتعرفـه وتصرح به وهي التي يلقى على عاتقها تأمين تنفيذه •

والدولة كما يرى رجال القانون في الحقوق العامة تتألف من ثلاثة عناصر :

١ — السكان ، أي وجود جماعة من الناس اعتادوا العيش معا •

٢ — الارض ، أي ارض معينة محدودة •

٣ — السلطة العامة او السيادة ، أي سلطة خاصة لتتخذ قرارات ضرورية لحياة هذه الجماعة وتنظم الخدمات العامة التي تؤمن العلاقات بين الناس •

ولا يخفى ان هنالك احوالا مختلفة يمكننا ان نتصور بها هذه العناصر الثلاثة •

فالسكان يمكن ان يكونوا مؤلفين من عناصر مختلفة في العرق واللغة والمفاهيم ، أو على العكس يمكن ان يكونوا مؤلفين من عناصر واحدة ومتجانسة •

والسلطة يمكن ان تكون على اشكال مختلفة كأن تكون ملكية مع جميع درجات السلطة مطلقة أو مقيدة ، دستورية أو جمهورية ، بأشكال ديمقراطية كثيرا أو قليلا •

اما الارض فمن الممكن ان تكون ذات امتداد معين أو شكل خاص أو شخصية جغرافية معينة • ويمكننا ان نتصور هذه العناصر الثلاثة باشكال مختلفة غير ان توافرها ضروري لتأسيس الدولة •

ويمكن للدولة ان تأخذ اشكالا مختلفة • ولكنها تجنح الى خلق وحدة من هذه العناصر التي تؤلفها وصهر هذه العناصر في كل متجانس •

وتعتبر الأمة شكلا من أشكال الدولة ولكن الدولة تعتبر قوة ابداع للأمة ، فقد وجدت دول اصطناعية وتوصلت لخلق أمة • وهذا العمل يمكن ان يقوم به رجل واحد عبقري عظيم يوجه الدولة ، أو سلالة ، أو طبقة ارستقراطية ، أو اقلية محرّضة ومحرّكة • ولكن يجب ادخال عامل آخر وهو الزمن لتستطيع الدولة الوصول الى تأسيس هذه الجماعة المتجانسة • وفي مثل هذه الحال تنطبق معاني الكلمات على بعض ولا تؤلف الا معنى واحدا ، ولا يكون لهذا التمييز أقل معنى • ويصبح مدلول الوطن والشعب والامة والدولة شيئا واحدا •

والشيء الذي يهمنا في هذه الناحية هو ان الأمة تتضمن عاطفة معنوية وتتألف من روابط اجتماعية وروحية • وهي ليست مجموعة روابط سياسية فقط كما في الدولة ، أو من روابط طبيعية كما في الشعب بل ان الشيء الاساسي والجوهري فيها هو الشعور بهذه الشخصية الجماعية الخاصة •

ثم هنالك كلمة الجنسية ، ويقصد منها الواقع الحقوقي وهو التبعية لدولة ما بصورة شرعية كأن تقول الجنسية الفرنسية أو الالمانية أو الانكليزية الخ •••

وأخيرا كلمة القومية التي ليست واقعا وانما هي كيفية • وهي بالعربية مأخوذة من النسبة الى كلمة قوم ، وبالفرنسية Nationalité أو الانكليزية Nationality اذا تضمنت معنى سياسيا • وهذه الكلمة حديثة النشأة في بلاد الغرب الاوروبي وقد اجمعت الآراء تقريبا على انها استعملت لأول مرة بالفرنسية من قبل السيدة دوستال Mme De Stael في كتابها عن المانيا • وقد نحتت هذه الكلمة حوالي العام ١٨١٣ • وقد أخذنا نحن العرب هذه الكلمة « القومية » عن القوم ونريد به المعنى السياسي في الوقت الحاضر من حيث الانتساب الى العرب كقوم لا التبعية الى دولة عربية بالذات لانها تدل في هذا المعنى على الجنسية من الوجهة الحقوقية •

فما هو تعريف القومية ؟ ان المصطلح المعجمي للقومية هو شرط جماعة من الناس يؤلفون في الواقع

أو يطمحون الى تأليف أمة متميزة عن غيرها من الامم وذلك بالنظر الى اصلهم وتقاليدهم ومصالحهم المشتركة • فالقومية اذن هي مجموع الصفات المميزة والعناصر المقومة للأمة •

وفي الواقع التاريخي نجد دولا ليست بأمم أو أمما لا تؤلف دولا كأن تكون داخلة في جسم دولة اخرى مع غيرها من العناصر • فالامبراطورية العثمانية ، مثلا ، ضمت أمما مختلفة عاشت جنبا الى جنب ، وكذا الامبراطورية النمساوية الخ ••• وعلى عكس ذلك الأمة البولونية وجدت خلال فترة من الزمن مقسمة بين دول مختلفة : بروسيا والنمسا وروسيا •

والتاريخ لا يرينا دوما أو غالبا تطابقا بين القومية والدولة ، أي ان الدولة ليست قومية مائة بالمائة •

اما المبدأ القومي فيرى من الوجهة النظرية ان تنطبق الدولة على القومية ، وحركة القوميات في القرن التاسع عشر كان اتجاهها أو هدفها ان ينطبق هذان العنصران الدولة والقومية على بعضهما لتشكيل الدولة القومية • ولكن تبين ان تحقيق هذا الهدف صعب المنال وان كان تشكيل الدولة الحديثة قد أخذ بالمبدأ القومي •

وهنالك مسائل توضع على بساط البحث عند النظر في التطور التاريخي وفي مفهوم القومية • مثال ذلك :

١ — لأي درجة يجب ان يكون هنالك اندماج بين الدولة والقومية • وأي العنصرين يجب ان يكون ملحقا بالآخر واذا اقتضت الحال ان يضحّي به ؟

٢ — هل تتألف الدولة اذا كانت القومية منتشرة على اراضي مختلفة لدرجة يصبح فيها من المتعذر عليهما، أي الدولة والقومية ، ان تعيشا معا ضمن نطاق جغرافي معين ؟

٣ — هل تستطيع الدولة ان تنطبق على القومية ، اذا لم يكن لهذه الدولة حدود يمكن حمايتها ؟

وهنالك اسئلة اخرى منها هذا السؤال :

الى أي الصفات المميزة والعناصر المقومة ننسب تعريف القومية التي تعتبر قوام الأمة ؟

ولا يخفى في مثل هذه الحال ان هنالك عناصر كثيرة ومعقدة لتشكيل القومية • فهنالك العرق ، اللغة، الدين ، الحياة المشتركة ، التاريخ ، التقاليد ، التراث ، الثقافة ، ماضي الحياة المشتركة ، العواطف المشتركة، الخ ••• ان كل هذه العناصر موجودة وكل منها يعتبر مقوّما للقومية ، فالى أي منها يجب ان نولي اهتمامنا أكثر من الآخر ؟

ان هنالك أنواعا متعددة من النظريات المتعلقة بالقومية • وقد انتقلت هذه النظريات الى عالم السياسة، سواء في العلاقات الداخلية للدولة بين مختلف العناصر التي تؤلفها ، أم في العلاقات الدولية • وقد اقتضى مبدأ القوميات مناقشات عديدة ، ومنازعات ، وحروبا، ونظريات مختلفة •

الاصول الفكرية لمبدأ القوميات

لقد تعددت النظريات التي تبحث في الاصول الفكرية لمبدأ القوميات ، ولكننا نجد نظريتين أساسيتين: النظرية الفرنسية ــ الايطالية ، والنظرية الالمانية •

١ — النظرية الفرنسية : اذا نظرنا الى فرنسا من الوجهة السياسية ، وصرفنا النظر عن انكلترا ، لوجدنا ان تشكيل الدولة الفرنسية متقدم على باقي دول اوروبة • ان ما يميز فرنسا هو قدم الأمة الفرنسية • فقد تشكلت من جميع عناصر مختلفة وعروق عديدة أتت اليها عن طريق الغارات واختلطت بالاصل القديم الغالي ، ومن جمع المقاطعات ذات النعرة الاقليمية على أيدي الملوك • ومن هذا الخليط تشكلت فرنسا وألفت جسما واحدا •

والشيء الذي يهمنا من كل ذلك ان العاطفة القومية بدأت مبكرة في فرنسا وبالشكل الذي سيكون في المستقبل أساسا للمذهب الفرنسي في القومية •وهذا الشكل للقومية لا يراد منه الشكل الغريزي فحسب بل الشكل الواعي أيضا وهو المهم أي ان الامة لها حق الحياة • وهذا الحق لا يمكن ان يمس أي ان يعتدي عليه أحد ، أو ان ينقل الا برضى الافراد أنفسهم • ومن هنا نرى في أساس الأمة فكرة العقد•

ونظرية « العقد الاجتماعي » الفرنسية قال بها جان جاك روسو ، وتتلخص بقوله في ان الناس مرّوا بمراحل متعاقبة : في الحالة الطبيعية ثم في الحالة الهمجية ، ثم في الحالة الاجتماعية التي هي الحالة الحاضرة على ما فيها من عيوب وانحطاط للانسان • واخيرا الحالة المدنية التي ارتبط فيها الناس بعقد وألفوا الدولة باسم المصلحة العامة • والعقد الاجتماعي في رأي روسو هو أساس المجتمع المدني بل والانموذجي • ويستنتج منه ان اساس المجتمع هو ارتباط المواطنين • وهذه الارادة العامة التي تحل محل الارادة الفردية في الحالة الاجتماعية انما هي تعبير لكائن اجتماعي وجماعة قومية • وهذا الكائن الاجتماعي يجب احترام حقه في الحياة وحقه في التعبير • ومن نظرية العقد بهذه الروح القومية المؤلفة من ارتباط المواطنين مع بعض • ومن جهة اخرى ان فلسفة روسو في مفهومه هذه تخرج فكرة الحاق الدولة ، وهي الجسد السياسي، للدين ترجع الى الضمير أو الوجدان • وعلى هذه الفلسفة يبني احترام الفرد •

ومن نظريات جان جاك روسو تخرج أيضا فكرة تتعلق بالقومية وخاصة بالدولة : وهي ان الغاية من التشريع يجب ان يعطي الى روح الشعب سماه الخاصة ، ويحيي في القلوب ، عن طريق التربية ، تقاليد الوطن واخلاقه وطباعه • ولذا يجب تكييف الدولة حسب الروح القومية •

ويهمنا من روسو روح نظرياته وهي فكرة الديموقراطية والجمهورية وفكرة السيادة الشعبية •

وقد نمت نظريات روسو على أيدي تلاميذه وأتباعه ، وكلها تؤدي الى احترام الشخص البشري واستقلاله الذاتي وعدم فرض ارادة اجنبية على الروح الاجتماعية ، والامر المطلق للوجدان ، وان الاخلاق هي نفسها بالنسبة للأمة كما هي بالنسبة للفرد ، فلا مبرر اذن للاغتصاب التاريخي والاعتداء على حق الآخرين •

وهذه النظريات جميعها تؤول الى تصوّر القومية كارتباط ارادات حرة ، وان السيادة للأمـة ، وان القانون هو التعبير عن الارادة العامة . والارادة العامة وحدها تملك القانون، وتعرف سيادة الأمة ووجودها. وعلى هذا فالدولة لا توجد الا باختيار المحكومين الحر . ومن هنا نستخلص نتيجة مزدوجة : رفض حق الفتح من جهة ، وحق انفصال الامم المغلوبة على امرها .

وعلى هذا فالنظرية الفرنسية تعتمد على العقد الاجتماعي ، أي الارادة المشتركة ، أي ان الأمةوبالتالي الدولة تتأسس بارادة افرادها المشتركة التي تستند الى الوجدان القومي الذي هو نفسه نتيجة تطور مديد.

٢ — النظرية الالمانية : ان الظروف التاريخية التي مرت بها المانيا تختلف عن ظروف فرنسا . الـذي استحكم عندها حتى القرن التاسع عشر ، بينما استطاعت فرنسا ان تتخلص منه بصورة مبكرة .

وفكرة السيادة في المانيا اخذت في الاصل شكل الامبراطورية ، أي شكل مفهـوم عام . وفكرة الامبراطورية ليست مرتبطة بالدولة ولا بالارض بل انهـا توضعت فوق الدول الاخرى . والامبراطور عاهل فوق الملوك العاديين . فهو يمثل الفكرة المسيحية من الوجهة السياسية ، كما يمثلها البابا من الوجهة الروحية . ومن هنا نفهم ان فكرة الامبراطورية تمتدبحدودها الى ما وراء المانيا نفسها . وهذا ما يوضح لنا تفتت القومية الالمانية والنظام السياسي الالماني لانالمفهوم الامبراطوري لا يمثل فكرة الامة الالمانية . ولقد كانت هذه الامبراطورية تتألف من (٣٦٠) دولةوهي أشبه ما تكون بفسيفساء من الدول .

أضف الى ذلك ان المفكرين الالمانيين في آخر القرن الثامن عشر لم يكونوا ليفكروا بشيء اسمه الوطن أو المانيا من الوجهة السياسية ، لقد كانوا مواطنينعالميين يحتقرون الوطنية القومية . ومن أشد هؤلاء ازدراء للوطنية القومية « هردر » الذي خرجت عنه نظرية القومية الالمانية .

كان « هردر » مفكرا واسع الاطلاع ومنتجا خصب الانتاج متنوعة . اهتم بالتاريخ والفلسفة والادب الشعبي والملاحم والاساطير والاخلاق والعادات والاستعمالات الشعبيـة . واهتم خاصـة في العصور التاريخية لنمو الشعب ورأى ان الشعر ولد من الطبيعة ، وان لكل شعب صفته الخاصة ككل فرد ، وان كل ما يخرج بصورة عفوية من اعماق الشعب يوضح عبقرية الشعب . وعلى العكس ان كل ما هو دخيل بالتقليد يصبح ضئيلا وخطيرا يهدد بتشويه فكرة الشعب هو اللغة ، واللغة من حيث الاصل ليست اتفاقا أو فنا بل هي في رأي « هردر » كل عضوي يولدويعيش ويموت . انها روح الشعب تبدو ظاهرة للعيان وبها يعبر عن مزاجه وحساسيته وفكرته واصالته .وكنتيجة لذلك ان تطور اللغـة لشعب من الشعوب يعطي تاريخ هذا الشعب ، فهي بمثابة مفتاح له . وباللغة يعرف الشعب ، وباللغة يستطيع الشعب ان يشعر بمقدراته .

ومن هذه الافكار يخرج مفهوم « هردر » عن القومية : فهو يرى ان الأمة انما هي عضوية حية لهـا وجودها الخاص والبدائي ، ولقد منحتها الطبيعة غريزة حياتية وعبقريـة تتضح بصورة عفوية بلغتهـا واستعمالاتها البدائية ومجموع سلوكها الاخلاقي . وعلى هذا فالقومية شيء طبيعي وغير ارادي وله حياة

تاريخية • وهو بهذا ينتهي الى مفهوم عن القومية مؤسس على عناصر مغايرة تماما لنظرية روسو وغيره من الفرنسيين •

وهكذا نرى ان النظرية الفلسفية الفرنسية تقول ان القومية عقد ارادة حرة ، والنظرية التاريخية الالمانية تقول : ان القومية كائن عضوي ظاهرته الاساسية اللغة البدائية للشعب ، ولم يكن هذان المفهومان نتاج اتفاق أو تصادف بل على العكس تعبيرا لتاريخين وتطورين تاريخيين متناقضين : فمن جهة تاريخ بلد تشكل من عناصر مختلفة صهرت جميعا وسوّى منها كل متماسك • والدولة والامة والقومية فيه ليست سوى شيء واحد • وهذه هي حال فرنسا • ومن جهة اخرى تاريخ بلد ينقصه على العكس التماسك السياسي ، فقد تألف من بقائه في مكان واحد في قلب اوروبة ، وتاريخه تاريخ شعب بقي في ملجأ عن سيطرة الاجانب وغاراتهم ، وتبخرت عنده فكرة الدولة في مفهوم فقد كل أساس جغرافي وتعبير سياسي ، وكل ما بقي لديه كعنصر مقوّم للقومية هو هذا العنصر البدائي المشترك وهو اللغة التي تعبّر عن وحدة أصل هذا الشعب •

ومما لا شك فيه ان مفهوم النظرية الفرنسية ومفهوم النظرية الالمانية قد تطورا مع الزمن ، أي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولكن اساسيهما ظلا باقيين وما زالت الحركات القومية في القرن العشرين مطبوعة بطابع هاتين النظريتين من حيث الارتباط الحر والارادة المشتركة واللغة •

الحركات القوميـة

ولد الناس احرارا وسيعيشون احرارا بالرغم مما يتخبطـون به من صعـوبات في حاضرهم القلق • والعصر الذي نعيش فيه يتشوق بل يتحرق في البحث عن توازن جديد • لقد أوجدت الدول الكبرى والمنافع المادية والمصالح الاستعمارية والتسلطات التوسعية توازنا مبنيا على الفكر المبدع ، وجبروت العلم وتقدم الصناعة واستخدام الآلة ، وافادت من جهل الشعوب المتخلفـة المستضعفـة ، ومن الامكانيات العـديدة المتوافرة في بلادها واستعمرتها بالحديد والنار • واحتلت أرضها دون شفقة أو رحمة ، ولم تترك وسيلة من وسائل العنف الا استعملتها متسترة وراء مظاهر براقة للحضارة الحديثة لتوهم ابناء هذه الشعوب انها تعمل لخيرهم ورفع مستواهم في حين انها لا تبغي الابقاءهم في حالة انحطاط وتخلّف •

ولكن الظروف تغيرت ، وعجلة الزمان اصبحت تدور لغير الصالح الاستعماري ، ولم يعـد بامكان الشعوب المقهورة والمغلوبة والتابعة ، على أثر التطورات الجذرية التي أخذت تجتاح العالم اجمع ، ان تقيم على ضيم الاستعمار ، وظلم الانسان لأخيه الانسان ، ولذا فهي تريد ان تقوض التوازن القائم لتقيم مقامه توازنا مبنيا على الحرية والعدل والاخاء والمساواة بين الشعوب •

ولقد زالت بالتدريج الاطر التقليدية لصالح قوى جديدة ناشئة لم تستقر ولكنها في طريق التكامـل والنمو • ولم تعد اوروبة وامريكا تمسكان بأيديهما صولجان التفوق ، لان انتشار التعليم المستمر وتمازج الحضارات المختلفة ، واتساع طرق المواصلات ، جعلت الشعوب القاصرة تتطلع الى ادارة شؤونها بنفسهـا ونبذ كل حماية أو رعاية أو وصاية ، ومكافحة كـل استعمار مهما كان نوعـه • وهذا ما أحـدث مرارة شديدة في نفس من كانوا يعتقدون انهم السادة وغيرهم العبيد وانهم اوصياء على الشعوب الاخرى •

وبعد ان كان أبناء الشعوب المتأخرة يؤخذون بسر « تقدم الغرب » اذا بهم يستبينون « أفول الغرب » وبعد ان كانت القارتان آسيا وافريقية مستغلا للدول الكبرى ، اذا بهما تنفضان غبار القرون الخـوالي لتنشأ الحياة من جديد على أسس عقلانية •

ان هذا التطور القومي الذي نلمس آثاره في جميع انحاء العالم وخاصة في القارتين الكبيرتين من العالم القديم لمدين حقا الى عدة عوامل ، ولكنها كلها تتجمع في اذكاء الفكر الانساني ونمو الشخصيـة البشرية وتكامل الوعي عند الشعوب لتقدر نفسها حق قدرها وتحقق مصيرها بيدها ، وهذا ما نطلق عليه من وجهة النظر السياسية اسم الحركات القومية •

وهذه الحركات القومية وليدة افكار وعواطف تتفاعل مع بعض ، وتؤلف قوة نشيطة تحرك الشعوب وتدفع بها الى تحقيق الذات القومية • وبلوغ هذا الهدف الذي قد يكون بعيدا او صعب المنال لا بد له من سابق تخمر فكري واعداد عاطفي وجهد متواصل ومرور زمان تؤدي كلها الى ما نسميـه « بالشعور القومي » أو « الوجدان القومي » أو « الوعي القومي » •

وهذا الوعي القومي على درجات ويبدأ من مرحلة العاطفة الوطنية أي حب البلد الذي تتفتح فيه عينا الانسان للنور ، بلد الآباء والاجداد ، بلده الذي يحنّ اليه اذا نأى عنه ، ويحميه اذا اعتدى عليه ، بلده الذي يكون عنده موضع عطف وحب واعزاز ، وينتهي بمرحلة التفكير القومي وليس لها حد ولكن المراد منها لا يختلف فيه احد وهو جمع شمل ابناء القوم الواحد ولم شعثهم والخلاص من الاجنبي الذي يرزحون تحت نيره ان وجد وانشاء دولة مستقلة تضم تحت لوائها من تجمعهم وحدة الافكار والمصالح والعواطف والذكريات والآمال والعيش المشترك ضمن اطار جغرافي معين تحدده في الغالب اللغة القومية .

ان هذه الفكرة الجامعة قوة من القوى النشيطة في التاريخ الحديث . ويرجع اصلها الى القرن الثامن عشر ، عصر النور وعبادة العقل والتفكير الديموقراطي ، والحقوق الطبيعية ، وحق تقرير المصير القومي وغيرها من هذه الافكار العلوية التي بشّر بها فلاسفة الانكليز في البدء ووسّعها الفلاسفة الفرنسيون وألفت أول تطبيق لها في استقلال الولايات المتحدة الاميركية وقيام الثورة الفرنسية ، ثم انتشر خلال القرن التاسع عشر في كل اوروبة ، وأصبحت في القرن العشرين حركة واسعة شملت انحاء العالم ، وما زالت اهميتها في قارتي آسيا وافريقية آخذة بالنمو عاما بعد عام ، وستظل قائمة ما دام على أديم الارض حق مهضوم وشعب مغلوب على أمره يطالب بحقه في الحياة .

ولكن الفكرة القومية ليست هي نفسها في كل زمان ومكان ، انها حادث تاريخي ، ومخلوق حي ، يتطور ويتأثر بالافكار السياسية والمبنى الاجتماعي في البلاد التي تتأصل فيها . انها فتح من فتوح البشرية وانتصارها ، وفيها نرى اصدق تعبير للطموح البشري في شتى أشكاله وألوانه ، هذا الطموح الذي يحرك الافراد كما يحرك الجماعات .

وفي الحقيقة ان كثيرا من الحوادث التاريخية التي تمت في القرن الفائت وفي هذا القرن حدثت وتأثرت بهذه الفكرة القومية والمبدأ القومي ، لان هذه الحوادث لا تظهر لنا وكأنها مجرد تصادف أو محض اتفاق ، بل تبدو انها مسيّرة حسب مفاهيم كبرى . وهذا ما يجعلنا نقبل بأن للافكار والعواطف أهميتها في الحوادث التاريخية .

ولكن المؤرخين الماركسيين ومن جرى على سننهم من انصار مذهب المادية التاريخية يسقطون من حسابهم أهمية الافكار والعواطف في تاريخ البشرية وينزعون الى تفسير حوادث التاريخ بعوامل اقتصادية وهذا النمط من التفكير صحيح الى حد ولكنه لا يخلوا من مبالغة . فنحن وان كنا في تاريخ العالم المعاصر لا نهمل شأن هذه العوامل ، وفي بعض الاحيان نعطيها القيمة الكبرى ، فقد تجدنا أمام حالات اخرى لا يمكن أن تفسر فيها الحوادث الا بعوامل فكرية وعاطفية .

ان غاية كل حركة تاريخية تؤدي الى تجمع الشعوب هي تأسيس الدولة القومية . ولكن يجب الا تتصور ان الوصول الى هذه الغاية أمر سهل المنال في الغالب ، أو انه يتم في زمن قصير ، وذلك لان الفكرة النظرية لا تجد حقائق واقعية تطابقها الا بصوورة بطيئة ، حتى ان هذا التطابق بين النظريات والحقائق كثيرا ما يكون مضطربا ومختلفا قليلا أو كثيرا . ولنذكر على سبيل المثال انه مضى ما يقارب نصف القرن

بين ظهور النظريات القومية والحقائق التي نجمت عنها • وقد يمر وقت طويل بين يقظـة القومية ونمو الوعي القومي وتحقيق السيادة القومية •

ولذا يجب الا نفكر بأن التاريخ يرينا ان القوى الجماعية عند شعب من الشعوب تظهر فجأة ودفعة واحدة ، فليس على هذه الطريقة يسير المنطق التاريخي ، ولا على هذا النحو تدعو النظريات الوقائع • بل ان ما يقع في الغالب هو ان فكرة من الافكار تظهر في بلد ما أو في بضعة بلدان ، وعند احد من الناس أو عند بعضهم ، فلا يلتفت لها أحد من الناس أو عنـد بعضهم ، فلا يلتفت لها أحد ثم لا تلبث ان تزول بعد حين ، وقد يمضي زمن قصير أو طويل وهي في حالة اغفاء أو سبات أو كبت أو خفاء ، ثم تعود ذات يوم من الايام ، وعلى أثر حادث من الحوادث فيلتف حول الفكرة نفر من الناس ، أو تتجمع حولها نخبة صالحة تؤمن بها ، وتخلص لها ، وتجعل منها عقيدة ، وتحاول بدورها ان تنشرها في الاوساط وقد تبذل في سبيلها النفس والنفيس غير هيابة ولا وجلة ، وقـد تنتظر الوقت ليعمل عمله في النفوس •

ان الشيء الذي نلمسه في هذه الحالة هو ان الفكرة انتقلت من حيز النظر الى حيز العمل أو من حيز النظر الى حيز العمل أو من حيز القوة الى حيز الفعل ، وبدت ذات حيوية نشيطة بالرغم من القوى المضادة التي تحاول طردها أو وأدها ، وأخذت تتحرك ، ويحدث عراك بين متبني الفكرة ومساوميها ومقاوميها الى ان تسفر الواقعة عن نصر الفكرة وانتشارها أخيرا في السواد الاعظم من الناس أي في الكتل الشعبية ، وعندئذ يقوى عود الفكرة ويشتد ساعدها وتوقظ القوى الجماعية عند الجماهير • وهكذا تصبح الفكرة قوة شديدة البأس لا يمكن غلابها أو طمس معالمهـا الا بصعوبة ولأجل محدود •

على ان الفكرة القومية وان بقيت حية فقد تأخذ أشكالا مختلفة حسب الظروف وحسب البلاد وحسب مراحل نموها وانتشارها ، ولكن يجب ألا تتمثلها في ذهننا كواقع ينمو ببطء ويتكامل باستمرار بل على العكس يجب ان تتصور دوما انها تتطور بانقطاع لا باستمرار ، أو بتعبير آخر بانقطاع مستمر نظرا للقوى المضادة التي تقف في سبيلها لتعيق سيرها أو لتقضي عليها • ولذا تضطر الى الخفاء والسير بعض الوقت ، ثم تظهر وتعاود سيرها الى ان ترسخ وتتوطد أركانها وتكتب لها الحياة بعد الظفر •

ومن هذه الفكرة النشيطة ، المحرضة ، الدافعة ، النابعة من الحياة نفسها ، ومن لا شعور الشعوب الى شعورها ، الى وعيها المتكامل ، يتوالى سير الحركات القومية باقدامه واحجامه ، بالتوائه وانحرافه ، بظهوره واختفائه ، بسره وعلانيته ، الى ان يتحقق النصر المبين في انشاء الدولة القومية •

والجدير بالذكر أيضا ان الدول القومية ، التي تشكلت في التاريخ ، لم تبدع ابـداعا ولم تصطنع اصطناعا ، بل كانت موجودة قبل ان تظهر بشكلها الجديد ، أي انها كانت حقائق ولم توجد من العدم ، ولكنها كانت على درجات متفاوتة بعضها كان مضطربا لم يأخذ شكلا منتظما ومعينا ولا يمكن تمييزه في البيئة التي وجد فيها ، وهذه هي حالة السلافيين مثلا في الامبراطورية النمساوية • وهذا ما جعلهـا آخر القوميات التي استيقظت للحياة في اوروبة • وبالمقابل نجد في الطرف الآخر من السلسلة ، شعوبا لها كيانها المستقل ، واحتفظت بفرديتها بالرغم من انها وقعت تحت ضغط غيرها من الشعوب الاخرى ، وظلت حية

تمحي ولكن دون ان تشعر بنفسها ، ودون ان تكون لها ارادة باظهار شخصيتها . ويكفي لمثل هذه القوميات ظروف تاريخية تتيح لها الفرصة لتستيقظ من سباتها وتدرك عاطفة الاستقلال التي حرمت منها .

والواقع ان هذه الامم انمحت من الوجود كشخصية سياسية ولكنها احتفظت بمقومات قوميتها ، ولكن ينقصها الروح ، فيكفي اذن ان تنفخ فيها الروح لتعي نفسها وتشعر بوجودها الحقيقي وهذه حال البولونيين واليونان والهونغاريين والعرب في ظل الامبراطورية العثمانية .

ودرجة نفوذ الحكم الاجنبي تختلف بالنسبة لكل أمة من الامم لان جوهر شخصية كل منها يختلف عن جوهر الاخرى . فبولونيا مثلا بقيت حية بالرغم من تقطيع أوصالها بين جيرانها وزوالها من الخارطة الاوروبية في القرن التاسع عشر . غير ان ضغط الفاتح قد يبلغ في بعض الاحايين درجة يفقد الامة صوابها فلا تشعر بانحطاطها وسقوطها ، وهذا ما حصل مع الايرلنديين في ظل الحكم الانكليزي عندما كانت ايرلندا تؤلف جزءا من الامبراطورية البريطانية . لقد بلغ الانحطاط بالايرلنديين دركا فقدوا عنده كل كرامة، واعتادوا الالم ، فلم يعودوا يشعرون به حتى ان الانكليز كانوا يضربون بهم المثل بقولهم : « ضع ايرلنديا على السفود تجد دوما ايرلنديا آخر يحركه » .

ووضع الامم يبقى على مثل هذه الحال جسدا بلا روح حتى تتاح له منبهات مختلفة تبعث فيه الروح من جديد ليمور بالحياة . وقد ألفت الشعوب هذه الروح عندما قامت حرب الاستقلال الاميركية وبصورة خاصة الثورة الفرنسية تلبيان فلسفة النور والعقل من جهة وتناديان بحقوق الانسان والشعوب ، وأكثر من ذلك عندما قامت الشعوب تناهض نابليون . وهكذا نرى ان القوميات قديمة ولكن الشعور بها حديث . وقد بدأ في اوروبة قبل غيرها من القارات .

لقد عرفت اوروبة منذ نشوب الثورة الفرنسية الى نهاية امبراطورية نابليون ، دورا مليئا بالتقلبات والتطورات لم تر له من قبل مثيلا في التاريخ ، ذلك لان الثورة والامبراطورية أدخلتا شيئا جديدا في سير الحوادث وهو العنصر الفكري .

لم تكن الثورة حوادث تجري ودماء تسيل فحسب ، بل كانت أيضا افكارا تتحرك . فقد زعمت انها تريد ان تقيم الحق والعقل مقام القوة والظلم ، ونادت بحقوق الانسان وشنّتها حربا ضروسا في الدفاع عن الحرية وحق الشعوب ، ودعمت هذه الحرب بدعاية واسعة النطاق . وانا لنرى كثيرا من الكتاب والناشرين والمؤلفين من أمثال « كاميل دومولان » ، و « مارا » و « لينغيه » وغيرهم كانوا يطالبون بحقوق الشعوب الاوروبية ومناداتها بالقيام على ملوكها . وقد صرح « ايسنار » احد زعماء الجيرونديين على منصة الجمعية التشريعية بقوله : « لننقل الى اوروبة : اذا حضت الحكومات الملوك على حرب الشعوب فسنحض الشعوب على حرب الطغاة ، وعندها تتعانق الشعوب امام الطغاة المعزولين وقد تعزت الارض وقرت عين السماء » .

وفي اليوم نفسه يخطب « كوندورسيه » باسم اللجنة الدبلوماسية امام المجلس : « ان لكل أمة الحق وحدها في ان تسن قوانينها بنفسها ، كما ان لها الحق في تغيير هذه القوانين ، وان من يسلب هذا الحق

بالقوة من شعب أجنبي عنه ، انما يعلن عن عدم احترام هذا الحق عند الشعب الذي ينتمي اليه . وهذا يعني خيانة الوطن وعداء الجنس البشري » .

وعندما انعقد المؤتمر الوطني اتخذ قرارا هذا نصه : « ان الامة الفرنسية تقدم اخاءها وعدتها لجميع الشعوب التي تريد استرداد حريتها ، وتوكل السلطة التنفيذية باعطاء الاوامر الضرورية للقادة للعمل على نجدة الشعوب وحماية المواطنين الذين ينالهم أذى بسبب الحرية » [١] .

ويقول « كارنو » باسم اللجنة الدبلوماسية في حكومة الثورة [٢] « ان مبدأنا هو ان كل شعب ، مهما كانت رقعة الارض التي يسكنها ضيقة ، سيد شؤونه في بلده ، وانه مساو في الحق كبر الشعوب ، وليس لاحد ان يعتدي على استقلاله بصورة شرعية» . ويعتبر هذا التصريح توكيدا علنيا لمذهب الثورة وسياستها . وهو الصوت الذي تتجاوب معه الشعوب وتتمسك به عندما تصيح بسمعها لندائه .

ومما لا شك فيه ان الثورة دعت الى الاخاء العالمي الذي هو بعيد عن فكرة القومية الضيقة ، ولكنها في النداء الذي وجهته الى الشعوب كانت ترمي الى تحليل دول النظام القديم لتركيب عناصرها من جديد على أسس قومية . وبذا تكون الثورة قد اتاحت فرصة للمطاليب القومية .

أما أثر الرثورة فيختلف حسب الحكومات والشعوب . ومن الطبيعي ان تنظر اليها الحكومات واصحاب الامتيازات نظر حيطه وحذر ومقاومة لانها أوجزت خيفة منها وألفت فيها خطرا يهدد كيانها ، ولكن أثرها في الشعوب ولّد أملا وبداية عمل ونزوعا الى الحرية والاستقلال والمساواة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان تأثير الثورة ضعيفا في عالم الواقع ، ولكنه كان عظيما في عالم الفكر . لقد أثرت الثورة في اوروبة والعالم أثناء قيامها وبعد نشوبها ، وعاشت في الافئدة والالباب وبقيت ذكراها عالقة في خلو الشعوب ترددها كقصص الابطال والاساطير ، وظلت ابدا فكرة مثالية يفيض منها الالهام وتشع عنها الحرية .

وهذه الافكار المثالية هي التي تركت آثارها في الشعوب ، لان الثورة ألقت بزورها ، وليس من الضروري ان تعطي هذه البزور ثمارها مباشرة ، بل سيمر عليها الوقت الكافي لتنضج وتحدث بدورها تبدلات وتغيرات اخرى . وقد ظهر فعل هذه البزور في الحقل السياسي بالحركات الدستورية والحركات القومية .

غير ان هذا المذهب العلوي ما لبث ان حاد عن جادة الصواب . وانحرف عن غايته الاولى . فما تجاوزت الثورة حدود فرنسا الا واصبحت غازية فاتحة . وقد تجلى هذا الانحراف في عهد حكومة الادارة (الديركتوار) . فقد سلكت هذه سياسة واقعية تماما ، سياسة المصلحة الفرنسية الصرفة ، وسياسة الحرب والشدة ، وسياسة السلب والنهب والعدوان على حق الشعوب .

---

(١) عام ١٧٩٣ .

(٢) في ١٩ تشرين الثاني ١٨٧٢ .

وفي عهد نابليون كان التلاعب بالمذهب الثوري في حق الشعوب سافرا لذى عين ، وان ادعى نابليون، ابن الثورة العاق ، انه يعمل لخير الشعوب • ولقدكان يهزأ بحق الشعوب وبفرنسا ايضا في سبيل طموحه الشخصي • وهذا ما أثار رد الفعل من كل جانب ، وبدا بالدفاع الوطني ضد العدوان الاجنبي ، هذا الدفاع العفوي الذي يثير الشعوب على الغازين بصورة عاطفة وطنية دون وعي او دون فلسفة ومذهب فكري نظري •

ومهما يكن من أمر الطغيان الفرنسي فقد تقلص نفوذه المادي بعد حرب التحرير ومع ذلك فقد أبقى آثارا لا تحمي • لان التغيرات التي اجراها في البلاد المفتوحة أدت الى تبسيط الجهاز السياسي ، ودمج الدول بعضها ببعض وازالة غبار الدول الصغيرة التي لا قيمة لها ، كما حدث مثلا في المانيا والنمسا وايطاليا • أضف الى ذلك التغيرات التي حصلت في تركيب المجتمع • فقد حذفت الامتيازات ، وسلطة النبلاء والنعرات الاقليمية ، والعقبات التي تحول دون علاقة الناس ببعضهم في داخل البلد الواحد كالجمارك والرسوم وغيرها • وهذا ما ساعد على احتكاك طبقات المجتمع وأدى الى الشعور بنعمة القربى وصلة النسب وروح التضامن وغيرها من العوامل التي لم تكن موجودة من قبل ، أو وجدت وكانت نادرة او قليلة او لا يشعر بها •

غير أن هذه العواطف البسيطة لا تكفي لان تكون اساسا للقومية بل يجب على القوميات ان تنتقل من هذه المرحلة الى مرحلة ثانية وهي مرحلة السياسة • وقد حصل ذلك فعلا بعد تداعي الامبراطورية ودخول أوروبة في الوضع الجديد الذي أملاه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، لان القومية لم تعد في هذا الدور مجرد عاطف فحسب ، بل اصبحت غرضا يرمي اليه وحرية يطالب بها ، ولا مجرد غريزة عفوية، بل مذهبا فكريا قائما بذاته •

يجب ألا تتصور في ذهننا ان العمل الانشائي الذي قام به مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ عمل أوجدته المطامع والترتيبات السياسية ، أو عمل أملته الصدف والظروف فحسب ، بل يجب ان نرى فيه مذهبا ومفهوما للحق العام ايضا • لقد وحدت اوروبة آنذاك ولاول مرة منذ قرون خلت ، بحاجة الى الانشاء والبناء على أساس جديد ، وامام ضرورة فرضت على الدول ، وهي ان كثرة الآلام التي عانتها الشعوب خلال خمس وعشرين سنة قضتها في الحرب ،واضطرتها ان تجد مذهبا أو نظاما تستطيع فيه الحيلولة دون رجوع الحرب مرة اخرى ،ي وقد اعتمد هذا النظام على بعض افكار سياسية وهي :

أولا : طرح القوة كقاعدة لاكتساب وضع من الاوضاع أو حق من الحقوق ، والسيادة على بلد من البلاد لا تكتسب بالفتح ، والقوة لاتخلق الحق • وليكسب امير دولة من الدول بصورة حقوقية ، يجب ان يتنازع طوعا سيد الدولة عن دولته ، وعلى هذا فالتنازل يخلق لا الفتح •

ثانيا : بناء السلام العام على عقد مشترك • وخرق هذا العقد المذيل بتواقيع اوروبة يعتبر خروجا على الحق العام •

ثالثا : خضوع العلاقات الدولية الى قواعد العقل والعدل والاحترام المتبادل أي مجموع القواعد التي يطلق عليها اسم « حقوق البشر » •

لقد كانت غاية دبلوماسي فيينا تأمين راحة اوروبة بتوطيد نظام مبني على توزيع معقول للقوى ، أي تأسيس علاقات دولية ينجم عنها سياسة توازن حقيقي ودائم • ولكن ظروفا اخرى وجهت عمل المؤتمر وجهة سياسية اخرى وطبعته بطابع رجعي وأوجدت في الاذهان التباسا بين عمل ١٨١٥ والنظام القديم ، كالالتباس الذي جمع نابليون والحرية • والسبب في ذلك يرجع الى سياسة مترنيخ ، مستشار النمسا ، فقد بسط الامور وقال : « ان اساس السياسة المعاصرة هو ، ويجب ان يكون ، الراحة لان اوروبة بأجمعها ترغب بها ، ولم يأل جهدا في استغلال هذه العاطفة العامة لصالح النمسا • »

وكما نعلم كانت النمسا دولة اصطناعية تضم عدة قوميات يربط بينها استبداد الموظفين • ولذا فان كل حركة في داخلها تنذر بحدوث انقلاب • ولهذه الاسباب المختلفة وسع مترنيخ بسياسة عامة ما كان منفعة النمسا وحدها ولخص بنفسه برنامجه السياسي ببعض عبارات ، فقال : « ان هدف الامور التي تجري واحد ، وهو قلب جميع الاشياء الموجودة شرعا • ولذا فالمبدأ الذي يجب أن يعارض بـه الملوك هو مبدأ المحافظة عليها • وهذا ما جعل مترنيخ يمثل الرجعية والاستبداد » •

وفي السنوات التي تلت مؤتمر فيينا قامت الحركات القومية في أوروبة • والجدير بالذكر ان الحريات الدستورية كانت في مقدمة المطاليب التي تقدمت بها الشعوب ، وذلك لان سادة اوروبة عندما عادوا الى عروشهم بموجب الحق الشرعي الذي أقره المؤتمر ، رجعوا وهم مشبعون بأفكار الحكم الاستبدادي المطلق ، ولم يعيروا التطورات التي حصلت في الرأي خلال الدور السابق • ووضعت في داخل كل دولة قضية جديدة ترجع الى التناقض الذي حصل بـين الاصلاحات التي تمت كالمساوات القانونية والحريات الخاصة ،والحرية الدينية وتأميم اموال الكنيسة ، ووحدة التشريع ، وتنظيم الادارة ، واستقلال العدالة مع جميع اشكال اصول المحاكمات التي يضمنها القانون ، وبين الحكم المطلق الذي عاد وتوضع فوقها ، هذا فضلا عن ان الملوك اثناء حرب التحرير منّت الشعوب بالوعود المعسولة بالحريـة ليثيروها ضـد نابليون ، ولكن وعودهم كانت عرقوبية لان اوروبةلم تنظم على اسس وقواعد قومية ولان الحكم المطلق عاود سيرته الاولى • ولهذه الاسباب اختلطت فكرةالحرية الدستورية مع الفكرة القومية وأخذت حركة الحرية شكل الحركة القومية •

ان افكار الحرية التي ايقظتها ثورة ١٧٨٩ لم تسكن في هذا العهد الرجعي بل تبنتهـا الجمعيات السرية وقامت بنشرها المؤلفات والكراريس والصحف والمجلات وغذتها ثورات عام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، كانت بمثابة نواة تجمعت حولها مختلف العناصر الاخرى • ومن أهم هذه العناصر اللغة واتجه الرأي الى ان الناس ، الذين يتكلمون لغة واحدة ، تربطهم روابط طبيعية وهدف مشترك ، ومن العدل ان يوحدوا في منظومة اجتماعية واحدة •

وفي جميع البلاد التي استيقظت فيها العاطفة الوطنية وجد مفكرون وشعراء وروائيين يغذون الآداب

القومية بنتاج قرائحهم وفيض خواطرهم ، كما وجدت الآداب الشعبية سوقا رائجة وآذانا صاغية • ورافق هذا الاتجاه الحركة الابداعية في الادب والفن فأحيت جميع التقاليد الشعبية ، ومجدت الماضي وجعلت منه مصدر حساسية وخيال • ونهضت آنذاك حركة التأليف في التاريخ ، وقام المؤرخون القوميون ينقبون عن ماضي امتهم وينبشون تراثهم ويبحثون عن أمجاد قوميتهم •

ثم قامت المؤسسات الاخرى كالجامعات والمتاحف والمؤتمرات العلمية تؤدي رسالتها التي انشئت من أجلها ، فافادت في اثارة الشعور وتقريب ابناء القوم الواحد • ووجد في كل بلد من البلدان رجالات ينشؤون الحياة ، ويصنعون التاريخ بقوة شخصيتهم وقناعتهم وايمانهم وفصاحتهم وجاذبيتهم وحسن بلائهم ودفاعهم وأخذ ابناء قومهم يتعلقون بهم ويتبنون آراءهم ويعملون بتوجيههم وهذا يعني ان العنصر الفكري أخذ يعمل عمله في الجماهير القومية ويدفعها للقيام والمطالبة بالحرية والاستقلال وتأسيس الدولة القومية لتتبوأ مكانها تحت الشمس وتتمتع بحقها في الحياة •

ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر ويطل القرن العشرون الا وتحررت معظم القوميات الاوروبية وكوّنت وحداتها بالرغم من الصعوبات المادية المختلفة ، وبالرغم من التيارات الفكرية المضادة الاخرى كتيار الاشتراكية وتيار الأممية •

واستجمعت بعض هذه الدول الناشئة الجديدة اسباب القوة على أثر التقدم الصناعي واستخدام الآلة وما رافق ذلك من ازدهار اقتصادي ، وشرعت تحاول الاستيلاء على غيرها من البلاد بطرق مختلفة ولا تتوانى عن سلوك الحرب والابادة وغيرها من أساليب الاستعمار المعروفة • وعلى هذا النحو تم الغزو الاستعماري لبلاد آسيا وافريقية وشعوبها الآمنة • واصبحت الشعوب التي كانت تنادي بالحرية أو تطالب بها أول من يعتدي على حق الشعوب •

ولا ريب في ان الدول الاستعمارية كان يؤدي بها الطموح لاستغلال الشعوب الاخرى الى التنافس والحرب احيانا ، ولكن الصلح بينها كان يسوّى على حساب الشعوب الضعيفة وبما يتنافى مع حرية الشعوب في تقرير مصيرها واحترام حقوق القوميات • حتى ان الحلول التي اتخذتها الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الاولى لتسوية القضايا القائمة والمعلقة ، كثيرا ما جنت على مبدأ القوميات وكانت مضادة له • وبالرغم من ان معاهدات السلام التي تلت حرب ١٩١٤ حررت كثيرا من الشعوب التي كانت خاضعة حتى ذلك الحين للنفوذ الاجنبي ، فان هذه المعاهدات من جهة اخرى ، وضعت مصورا سياسيا جديدا للعالم وأوجدت فيه أقليات قومية جديدة في الدول التي انشأتها ، وهذا ما أثار مشاكل جديدة لم تكن موجودة من قبل •

على أن هذه التسويات وان لم تكن بالغة حد الكمال ، فقد هبطت برقم الاقليات القومية في اوروبة من ٦٠ مليونا الى ٣٠ مليونا •

وعلى عكس ذلك لم يعمل شيء لصالح القوميات في خارج اوروبة • فقد تقاسمت الدول الظافرة الاسلاب والغنائم في بلاد قارتي آسيا وافريقية ، وحلت المشاكل الدولية الاوروبية على حساب هذه البلاد ، وجعلت منها مستغلات ومستعمرات وان ادعت ، كما تزعم ، انها ما أتت لهذه البلاد الا للحماية

والوصاية وتأدية الرسالة الحضارية الى ابنـاء الشعوب المتخلفة ، الى آخر ما هنالك من تعابير جوفاء .

غير أن فترة ما بين الحربين شهدت نضال الشعوب المغلوبة على أمرها بعـد ان افاقت من سباتهـا وأخذت تزيح عن كاهلها نير الاستعباد وتحاول جاهدة الاخذ باساليب الغرب ومكافحة بوسائله مااستطاعت لذلك سبيلا ، كما شهدت في الحركات القومية لبعض البلاد مطاليب تتجاوز جمع الشمل لواء الوحدة ، وتتعداه الى البحث عن المجال الحيوي ، كما ان الدول الكبرى في الحرب العالمية الثانية ، واذا انحسر مد دولة جاءت الدولة الثانية تفرض نفسها على ابناء البلاد وتجعل يوم دخولها عيد للتحرر القومي تقام فيـه الزينة والافراح . وكأن هذه الشعوب ليس لها من ارادة تبديها سوى الرضى بالامر الواقـع والتسليم بكل ما يجري .

ولكن الشعوب المتطلعة الى الحرية والاستقلال ظلت تناضل وتقاوم وزاد أملها بما صرح به موقعو ميثاق الامم المتحدة من ايمان بحقوق الانسان الاساسية وبالكرامة وقيمـة الشخص الانساني ومساواة حقوق الرجال والنساء ، والامم الكبرى والصغرى دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين وتأكيدهم لحق الشعوب في تقرير مصيرها .

وهكذا شهد العالم منذ ١٩٤٥ ولادة دول قومية متعدد في آسيا وافريقية ممتـدة من اندنوسيا في المحيط الاطلسي ، كانت شعوبها في القرن التاسع وفي النصف الاول من القرن العشرين خاضعة سياسيا وعسكريا لنير الدول الاوروبية .

ووحدة المصاب بالاستعمار والنضال والامل بالاستقلال والعيش الكريم قد شدت اواصر الصداقة والتفاهم بين شعوب آسيا وافريقية وربطت بينها برباط التضامن الافريقي لانهاء الاستعمـار والقضاء عليـه قضاء مبرما .

ولامرية في ان العهد الجديد الذي تجتازه هذهالدول الفتية الناشئة مثقـل وسيكون مثقلا بالصعاب والمشاكل الداخلية والخارجية التي تتطلب الحل عاجلا أو آجلا . ولكنها على أي حال أحسن عيشا وأوفر كرامة وأعجل تقدما منها في العهد البائد . وستجد من نفسها القوة ومن رجالها الخالص التوجيه ، بما يساعد على النهوض وتذليل الصعوبات وتحقيق القدر الذي ترتأيه لنفسها .

الأسس التاريخية للمجتمع العربي

مقدمة :

يحسن بنا قبل كل شيء تحديد كلمة « العربي » • من هو العربي ؟ • ان تحديد هذا الاصلاح يحتاج الى شرح • فمن الممكن ان يكون العرب أمة ، ولكنهم ليسوا بعد قومية بالمعنى القانوني للكلمة ، فالشخص الذي يدعو نفسه بالعربي نراه يحمل جواز سفر كتب فيه أنه سوري أو لبناني او اردني او مصري أو عراقي او سعودي ، ولا نجد جوازا كتب فيه ان حامله عربي الجنسية • هناك دول عربية وجامعة عربية ، ولكن ليس هناك دولة يسمي افرادها انفسهم مواطنين عرب •

الامة العربية اليوم تمر في مرحلة انتقالها التاريخي الحاسم • تنتقل من الحاضر المقسم المجزأ الذي هو تركة التاريخ الطويل من الاستعمار الذي بدأ بالاحتلال العثماني لهذه البلاد في مطلع القرن السادس عشر ، الى المستقبل الموحد الذي يعيد لهذه الامة صفحات جديدة تضاف الى ماضيها المشرق الذي أضاء العالم قرونا طوالا •

ولعل أقسى التجارب المظلمة التي مرت بها الامة هي فترة القرون الاربعة التي كانت فيها تحت الحكم العثماني والتي أقل ما يقال فيها أنها حرمت هذه الامة من كل مظاهر التقدم وأعادتها الى ظلام القرون الوسطى • فالماضي الذي لم يحقق انسانية الفرد العربي ولم يمنحه فرصة الحياة الحرة الكريمة المنتجة كان لا بد تحت ضغط التطور والموجة العربية العارمة ان يخلي الطريق للمستقبل المشرق الزاهر المستقبل المتطور الموحد المتحرر الذي تسوده العدالة الاجتماعية والفرص المتكافئة ، والذي يتيح للامة العربية ان تعبّر عن أصالتها ومعنى وجودها في رسالة لا تنفصل عن القيم الانسانية في كل مكان من العالم • ونحن الذين كتب لنا ان نعيش في هذه المرحلة من مراحل تاريخ الامة العربية كتب لنا ان نشهد التاريخ العربي في فجر انطلاقه نحو الكيان او الوجود القومي الوحد • وحين تتوفر للفرد العربي في المجتمع العربي المقبل النظم الاجتماعية والاقتصادية النابعة من طبيعة الامة ومشاكلها وحاجاتها ، وحين تتهدم العادات والتقاليد البالية التي لا تمت الى اصالة هذه الامة أو تاريخها ، وحين تنطلق المرأة ــ نصف المجتمع ــ من سجنها وترمي عن كتفيها غبار عصور الانحطاط والظلام وحين توفر الاسرة لابنائها المحيط السليم وحين تخرج المدرسة جيلا واعيا مزودا بالزاد العلمي الصحيح والاخلاق القويمة والاستعداد للبذل والعطاء، وحين تلقى المؤسسات الصناعية والزراعية الرعاية واعناية اللازمة يمكن للعرب ان يحققوا رسالتهم الاجتماعية والانسانية •

وفي دروسنا القادمة سنحاول ان نسلط الاضواء على المجتمع العربي في ماضيه وحاضره وسنحاول ان نستفيد من عبرة ما ضيه في بناء حاضره وسنكون موضوعين في هذه الدراسة حتى يكون هذا

الدرس لا منبر خطابة بل محاولة جدية صادقة لفهم الحاضر العربي ووسائل النهوض بالمجتمع العربي الكبير •

ان اعتزاز العربي بعروبته والروابط التي تربطه بأبناء قوميته الذين يعيشون في اقاليم الوطن العربي المختلفة ، هما تتيجة للاصول التاريخية المشتركة التي تربطه بغيره ممن يسمون انفسهم عربا • فما هي هذه الروابط التي توحد من يسمون انفسهم عربا • هل هي اللغة ؟ هل العربي هو من كانت العربية لسانه الأم فقط ؟ أم هل هناك صفات اخرى للعربي ؟ •

لقد حدد بعضهم لفظة العربي بانها تدل على : « كل من يعيش في البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ويعتز بالثقافة العربية والماضي العربي المجيد » •

ان أصل كلمة « عربي » غير معروف على التحديد رغم التفاسير المختلفة التي يقدمها علماء اللغة للكلمة • فيقول بعضهم ان الكلمة مشتقة من اصل سامي معناه « الغرب » وان سكان بلاد ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الاقوام التي تسكن في غربي منطقة وادي الفرات •

هذا القول صعب الاثبات تقوم حجج كثيرة ضده • ويحاول آخرون ان يجدوا الصلة بين كلمة « عربي » وحياة البداوه ، فيربطون بين هذه الكلمة وكلمة Arabha التي تعني الارض القاحلة وعدم الاستقرار والتنقل • وهذا الربط بين كلمة عربي وحياة البداوة يحتمل شيئا من الصحة لان العرب انفسهم استعملوا الكلمة للتفريق بين البدو وسكان المدن والقرى الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية فقالوا العرب والأعراب •

ان أقدم اشارة الى العرب وشبه جزيرتهم تقع في نقش آشوري يعود لسنة ٨٥٣ ق • م حيث نقرأ ان الملك شلمناصر الثالث تمكن من قمع فتنة كان أحد افرادها « جنديبو العربي » • ويتتالي بعد ذلك ظهور كلمة « عربي » في النصوص الآشورية والبابلية وتأخذ أشكالا مختلفة ك « عريبي » « وعرابو » • وتتولى بعد ذلك الاشارة الى العرب بشكل لفظي أو بآخر في الكتابات والنقوش اليونانية، ويذكر المؤرخ هيرودتس اسم جزيرة العرب وسكانها في كتاباته التاريخية وكانت جزيرة العرب بالنسبة اليه تشمل الصحارى الواقعة في المناطق المسماة الآن بالشرقين الادنى والاوسط • وتظهر كلمة عربي والعرب في النقوش العربية التي وجدت في منطقة جنوبي الجزيرة التي ازدهرت فيها حضارات عريقة في اليمن والتي يعود تاريخها الى اواخر فترة ما قبل الميلاد أو أوائل القرون الميلادية • في هذه النقوش الجنوبية تدل كلمة « عربي » على « بدوي » أو « غاز » أو ما شابه • اما أقدم ذكر للعرب في نقوش مستخرجة من شمال الجيزرة العربية فيقع في النقش المعروف باسم Namara Epitah والذي يعود للقرن الرابع للميلاد ، وفيه نقرأ اسم امرىء القيس « ملك جميع العرب » والنقش مكتوب بحروف نبطية آرامية •

وحين قام الاسلام في القرن السابع الميلادي أخذت كلمة « عربي» معنى جديدا • فالقرآن الكريم يطلق كلمة « الاعراب » على البدو وليس على السكان المتحضرين الذين كانوا يعيشون في المدن كمكة

والمدينة وغيرهما. هذا، ومن جهة أخرى، فان القرآن الكريم يسمي اللغة التي يتكلمها سكان هذه المدن بـ « العربية » .

وجاء بعد ذلك عصر الفتوحات الكبرى، وحملت الجيوش العربية معها اللغة العربية الى قارات العالم الثلاث : آسيا وافريقيا واوروبا . وقامت امبراطورية عربية تمتد من آسيا الوسطى عبر بلاد الشرق الادنى والاوسط وشمال افريقيا حتى المحيط الاطلسي . خلال هذه الفترة من تاريخ المجتمع العربي حين كان الاسلام دينا عربيا صرفا وكانت الخلافة رئاسة دنيوية وروحية للعرب، أصبحت كلمة « عربي » تعني هؤلاء الذين يتكلمون اللغة العربية، والذين ينحدرون من قبيلة عربية، والذين أصلهم من جزيرة العرب . وهكذا قام التفريق بين من جاؤا من الجزيرة وحملوا معهم لواء الاسلام وبين الشعوب المفتوحة التي وقعت تحت حكم العرب .

وفي القرون التي تلت القرن السابع الميلادي أي منذ مطلع القرن الثامن للميلاد حين انضوى تحت لواء الاسلام شعوب كثيرة غير العرب واصبحت الامبراطورية العربية تضم عناصر ولغات شتى بقيت اللغة العربية لغة الادارة والتجارة والثقافة . وقامت حضارة عربية اللغة والمضمون الى حد بعيد، بالرغم من مساهمة الشعوب المفتوحة في بناء هذه الحضارة . والمهم ان خصائص هذه الحضارة خصائص عربية من حيث الشكل والمضمون بقطع النظر عن أصل العناصر التي ساهمت في خلقها .

وكانت كلمة « عربي » في هذه الفترة تأخذ معنى جديدا . فانتشار الاسلام صاحبه انتشار اللغة العربية واختلطت عناصر السكان في البلاد المفتوحة بعناصر عربية بعد هجرة بعض القبائل العربية الى هذه البلاد . ويكفي ان نقول انه في حوالي القرن العاشر للميلاد كانت جميع المقاطعات غربي فارس قد نسيت لغتها المحلية واصبحت تتكلم العربية عوضاعنها .

وحين وقعت البلاد العربية تحت الحكم العثماني اصبحت كلمة « ابن عرب » أو « أولاد العرب » تستعمل للدلالة على سكان المدن والقرى العربية للتفريق بينهم وبين الحكام الاتراك من جهة وبين البدو الرحل من جهة اخرى .

وفي القرنين الاخيرين حين بدأت الشخصية العربية تستعيد انفاسها بعد ان رزحت قرونا طوالا تحت نير الاستعمار، وحين قامت الحركات القومية في العالم، واصبحت القومية تعني امة ذات وطن واحد ولغة واحدة وخصائص ثقافية وتاريخية معينة، قامت حركة الاحياء العربية . وبدأت هذه الحركة في سوريا وانتشرت منها الى معظم اقاليم الوطن العربي بما في ذلك الشمال الافريقي .

واليوم فان كلمة « عرب » تعني مجموع أفراد الامة العربية الذين يعيشون في الوطن العربي والذين يتكلمون اللغة العربية وتجمعهم وحدة التاريخ والثقافة العربية .

وعرب العصر الحاضر كما يراهم جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » هم نتيجة امتزاج العرب الفاتحين بعرب البلاد المفتوحة واستعراب هذه الشعوب، ويقول ان العرب هم أغلبية المواطنين في العالم العربي الذين يتحدثون باللغة العربية ويتطبعون بالطابع العربي بقطع النظر عن الدين الذين يدينون به .

واليوم يمكننا ان نصف العربي المعاصر بأنه هو من يعيش في الوطن العربي يتحدث باللغة العربية ويربطه من اخوانه في الوطن العربي رابط من الارض والتاريخ والتقاليد والثقافة والوضع الاجتماعي ، مهما كان اسم الدولة التي يتبعها ومهما كان دينه أو مذهبه ، ومهما كان أصله او نسبه .

أصل الجنس العربي :

يذهب بعض الذين يتحدثون في علم الاجناس الى القول بأن افراد كل أمة يرجعون الى أصل واحد أو جد مشترك انحدروا منه وتكاثروا على مرور الزمن . فهم بالنسبة لمن يقولون هذا القول افراد اسرة كبيرة انحدروا من صلب أب واحد . وتقسم بعض المذاهب الفكرية البشر الى أجناس ممتازة واخرى منحطة . وذهبوا الى القول بنبل دم بعض الطبقات وتميزها على غيرها عن بقية افراد المجتمع الواحد . والواقع ان هذه الآراء لا يثبتها أي منطق أو تاريخ . فما من أمة أو من مجتمع ينتمي جميع افرادها الى جد أو أب واحد ، وما من منطق يقبل بنظرية العرق السيد . فالأمة او المجتمعات هي نتيجة امتزاج عدة عناصر تنحصر وتتداخل على مر العصور وتتبلور في شخصية تميزها عن غيرها .

والامة العربية ، كغيرها من الامم ، تتألف من جماعات تنتسب الى سلالات بشرية مختلفة ، اختلطت دماءها بعضها ببعض بنتيجة الهجرات المستمرة والتزاوج وغير ذلك من العوامل .

ولا بد لكل باحث في أصل الجنس العربي من أن يبدأ حديثه بالاشارة الى اتفاق معظم المؤرخين الاوروبيين الذين بحثوا في اصل الشعوب على ان العرب والساميين شيء واحد ، فمن قائل ان العرب من أصل سامي ومن قائل ان الساميين من اصل عربي أو انهم والساميون شيء واحد والعرب صفوة الشعوب السامية . ونحن اذا اردنا التحدث عن الجنس السامي لا بد لنا من اقول بأن الجنس السامي كغيره من الاجناس مجموعة من البشر يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم عن غيرهم من الامم وخاصة في اللغة التي هي أهم ما يميز اساميين ، وهكذ يبدو لنا ان تقسيم الشعوب يستند على أسس لغوية وحضارية اكثر من استناده على أسس بيولوجية .

ولا ريب ان الساميين يتكلمون بلغات مختلفة ولكنها ذات خصائص مشتركة عديدة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بانها من اصل واحد . واهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة الاساس فيها الفعل الماضي ، الى جانب الصيغ المتشابهة في تصريف الافعال وقضية التذكير والتأنيث وغير ذلك .

١ — المجتمع العربي في الجاهلية وقبيل ظهور الاسلام :

يقسم العرب انفسهم الى قسمين كبيرين ، عرب الشمال وعرب الجنوب ، ونحن وان كنا لا نعرف الاساس الذي بني عليه هذا التفريق يمكننا ان نقول ان هناك فرقا واضحا بين عرب الشمال وعرب الجنوب من ناحية اللغة والابجدية ومن ناحية الحالة الاجتماعية ، فعرب الشمال رحّل في الغالب وعرب الجنوب مستقرون متحضرون .

ومنذ القديم كان في جنوب الجزيرة العربية مجتمع مستقر له حكومات وحضارات فقد قامت دولة سبأ حوالي القرن العاشر قبل الميلاد وانشأت حضارة اشهر مخلفاتها سد مأرب الذي بني حوالي سنة ٧٥٠ ق . م وأقامت مستعمرات واسعة في افريقيا . وأعقب سقوط دولة السبأيين قيام دولة الحميريين حوالي القرن الخامس للميلاد وكان أشهر ملوكهم ذو نواس الحميري الذي اعتنق اليهودية واضطهد النصارى وانتهى عهده بهجوم الاحباش على ملكه بتحريض من بيزنطة حامية المسيحية في العالم . وأعقب الفتح الحبشي في سنة ٥٧٥ م فتح فارسي استمر حتى ظهور الاسلام .

كان المجتمع في جنوب الجزيرة العربية مجتمعا زراعيا يعتمد على نظام رى وسدود واقنية وهناك ما يؤكد تقدم الزراعة فيه وازدهارها . وكان نظام الحكم فيها ملكيا وراثيا ولم يكن الملوك مقدسون. وكان عرب الجنوب وثنيين يعبدون آلهة متعددة كغيرهم من الامم السامية في هذه المرحلة من التاريخ . ومما يتثبت التقدم الحضاري للمجتمع العربي في جنوب الجزيرة العدد من النقوش التي عثر عليها المنقبون والتي تروي قصة مجتمع متحضر ، الى جانب الآثار العمرانية التي تنطبق بعظمة هذه الحضارة .

واذا انتقلنا من جنوب الجزيرة الى وسطها وشماليها لوجدنا واقعا يختلف كثيرا عن واقع الجنوب . لقد كان لوقوع وسط وشمالي الجزيرة العربية على طريق التجارة العالمي في العصور القديمة أثره في خلق أمارات ودويلات مستقلة على الاطراف المتاخمة لسوريا وشمالي الجزيرة أهم هذه الدويلات هي دولة الانباط التي وقع تحت سيطرتها ـ في ابان قوتها ـ المنطقة الممتدة من خليج العقبة الى البحر الميت بما في ذلك قسم كبير من شمالي الحجاز . وكانت عاصمتها البتراء وأقدم ذكر لها يعود الى القرن الثاني قبل الميلاد .

وفي القرن الثالث الميلادي قامت دولة تدمر في بادية الشام وكان أحد ملوكها « أذينة » الذي أعقبته زوجته « زنوبيا » التي حكمت لفترة من الزمن قسما كبيرا يعرف اليوم ببلاد الشرق الادنى . وقد انتهى مجد زنوبيا سنة ٢٧٣ للميلاد حين قهرها الامبراطور اورليان وأخذها أسيرة الى روما حيث سارت في موكب النصر مكبلة بقيود من الذهب .

وبالرغم مما تمتعت به هاتان الدولتان من ازدهار وتقدم ، فقد كانت غالبية سكانها من البدو وأنصاف الرحل وقامت أهميتها على موقعهما التجاري الممتاز بين روما وغربي الجزيرة العربية والشرق الاقصى .

وفي قلب الجزيرة قامت دولتا لحيان وثمود التي ورد ذكرهما في القرآن الكريم . ويبدو انهما كانتا لفترة من الزمن تحت حكم الانباط واستقلتا فيما بعد . وحين جاء القرن الرابع الميلادي بدأت بوادر

التفكك والانحطاط تظهر على المؤسسات الحاكمة في جنوب الجزيرة وشمالها . فقد تأخرت الزراعة في الجنوب وتخربت السدود والاقنية وقامت هجرات من الجنوب الى الشمال ووقعت الامارات المستقلة على اطراف الجزيرة تحت حكم الرومان المباشرة وانتشرت البداوة على مقياس واسع بين سكان الجزيرة بكاملها في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام والتي اصطلح العرب على تسميتها بالجاهلية كانت البداوة المظهر الرئيسي لحياة المجتمع العربي .

في الجاهلية كان هناك « عرب » ولكنه لم يكن هناك « دولة عربية » أو « مجتمع عربي » متحد متماسك . لم يكن هناك وحدة سياسية تنتظم شأن العرب وتجمع شملهم . وفي المجتمع البدوي تكون القبلية هي الوحدة السياسية والوحدة الاجتماعية التي يتركز حولها التنظيم الاجتماعي ، ويضمحل الفرد ويذوب في جسد القبيلة الكبير .

والقبيلة في حد ذاتها مجتمع اشتراكي متكامل يجمعها روابط الدم والاصل المشترك . وتعتمد القبلية في معاشها على قطعان الماشية والمراعي والغارة على القبائل الاخرى ، وهناك ما يدل على ان ملكية القطعان كانت في فترة من الفترات مشاعا بين أفراد القبيلة . وكان يرأس القبيلة سيد او شيخ منتخب ليس له ما يميزه عن غيره سوى الرئاسة ، وكان يساعده في حكمه مجلس من الرجال ذوي الرأي في القبيلة . وكان ينتظم حياة القبلية سلسلة من الاعراف والعادات يحكم بموجبها شيخ القبيلة الذي لم يكن له سلطة فوق القانون أو العقوبة على الافراد . وكانت عادة الاخذ بالثأر تقضي على قريب القتيل الأخذ بثأر قريبه من القاتل او أحد افراد قبيلته . وكان هؤلاء البدو وثنيين في دياناتهم يعبدون الحجارة والاشجار والينابيع .

كان لحرمان شبه الجزيرة العربية من حكومة مركزية أثر كبير في حياتها الاجتماعية ، فالحكومة هي التي تعزز جانب النظام والقانون وتدعم المجتمع . ولم يكن عند العرب في جاهليتهم ناظم للقضاء او الادارة أو الاجتماع ، ولم يكن هناك من قوة تفرض على المجتمع قوانين وتضعها موضع التنفيذ .

وقد شذ عن هذه البداوة في الحياة سكان بعض الواحات حيث قامت جماعات مستقرة لها تنظيم اجتماعي وسياسي . كان يرأس هذه الجماعات المستقرة في الواحات فرد ينتمي الى اسرة متنفذة يفرض نفوذه على سكان بلده وعلى سكان بعض الواحات المجاورة او القبائل التي تضرب في تخوم واحته . أهم هذه المجتمعات المستقرة هي دولة كندة التي ازدهرت في أواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس للميلاد . وكان لقيام دولة كندة أثر كبير في جمع كلمة العرب وتوحيد قبائلهم المتنافرة .

فلم يأت القرن السادس للميلاد حتى قامت لهجة عربية واحدة وتراث ثقافي واحد يعتمد على الرواية الشفهية . هذه اللهجة الموحدة والتراث الثقافي الواحد يعود الفضل في ظهورهما الى كندة التي انضوى تحت لوائها كثير من القبائل التي تعيش في وسط وشمال الجزيرة .

قامت ايضا في الجزيرة العربية مدن لها حضارات زاهرة وذات مجتمع مستقر متقدم . وأهم هذه المدن مكة التي كان يسكنها افراد ينتمون الى بطون قبيلة مختلفة والتي بنى فيها ابراهيم بأمر من الله الكعبة .

رغم كل مظاهر التأخر التي قد يلاحظها الدارس لتاريخ الجزيرة العربية في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ، وكانت التيارات الحضارية تشق طريقها الى هذه الجزيرة وتفعل فيها فعلها . فالحضارة البيزنطية والحضارة الفارسية تغلغلت بفضل الصلات التجارية الى قلب الجزيرة ولونت الحياة فيها . يضاف الى هذا وجود المستعمرات اليهودية والنصرانية في مختلف أجزاء الجزيرة العربية وما كان لها من أثر في نقل الحضارة الهللينية الآرامية ، وقيام دويلات عربية على حدود فارس وبيزنطة ـ المناذرة والغساسنة ـ والدور الذي كان لهما في التطور الحضاري في قلب الجزيرة .

ويتضح أثر هذا التفاعل الحضاري مع الاقوام التي تعيش خارج حدود الجزيرة حين نذكر معرفة العرب استعمال انواع الاسلحة واطلاعهم على الفنون العسكرية للامم الاخرى ، وحين نرى استعمالهم المنسوجات والاطعمة والاشربة التي كانت عند من يجاورهم من الاقوام اما من الناحية الفكرية فيكفي ان يذكر المرء ان بلاد العرب كانت ملتقى التيارات الفكرية المختلفة وكان اهلوها على اتصال دائم بمن دانوا باليهوديا والنصرانية .

واذا كان المجتمع العربي قبل ظهور الاسلام ، كما قد يبدو مما قلناه آنفا ، ضعيفا مفككا ، الا انه لم يكن منحلا ميتا . واذا كان هناك في هذا المجتمع عادات وتقاليد مرذولة ، الا انه كان الى جانبها كرم ونجدة ومروءة وشهامة . ولا يجوز لنا اذا اردنا ان ننصف مجتمعنا العربي في جاهليته ان ننسى انه كان رغم ما ساده من رذائل اجتماعية (كالميسر وشرب الخمر والانصاب والأزلام ووأد البنات) أرقى الى حد بعيد من كثير من المجتمعات المعاصرة له .

في هذا الوسط الذي وصفناه ولد محمد بن عبد الله الرسول الكريم والذي كان لمولده أكبر الاثر في تحويل مجرى حياة الامة العربية والمجتمع العربي .

٢ ـ أثر الاسلام والفتوحات على المجتمع العربي :

فرضت طبيعة بلاد العرب بصحاريها القاحلة وجبالها الوعرة وأوديتها العميقة وهضابها الوعرة نشوء مجتمع متباعد متفكك يصعب اتصال افراده وعيشهم ضمن اطار سياسي أو اجتماعي يجمع شملهم . كانت القبلية هي الوحدة الاجتماعية وكانت لها شخصيتها المميزة المستقلة . والقبيلة وحدة صغيرة لاتمثل كيانا ككيان الامة .

الى جانب التقاليد والعادات المشتركة ، كانت اللغة هي الرابطة الكبرى بين القبائل العربية قبل ظهور الاسلام . ولكن هذه الرابطة اللغوية كانت تتفكك مع مرور الايام وتظهر لهجات مختلفة للقبائل العربية . يضاف الى هذا ان وحدة التقاليد والعادات بين القبائل وعدم وجود مثل أعلى يجمعها .

ويعلق الباحثون اهتماما كبيرا على قضية فقدان المثل الاعلى الذي يجمع القبائل العربية في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ويدعون تبعا لهذا ان محمدا صلوات الله عليه قصد الفترة الاولى من تاريخ دعوته الى اقامة ايد يولوجية عربية تنظر في مشاكل المجتمع العربي وتصف الادواء لها ولم يكن يقصد على حد دعوى هؤلاء الباحثين الى التبشير بدين للعالم أجمع .

كان المجتمع العربي اذن في الفترة التي سبقت ظهور الرسول الكريم يتطلع الى عامل قوي يكون المحور الذي تدور حوله حياته الاجتماعية ونقطة الارتكاز التي يستقطب حولها هذا الرغم من ان المجتمع العربي في هذه الفترة ما كانت تنقصه مكارم الاخلاق والفضائل الرفيعة .

كان المثل الاعلى الذي يمكن له ان يجمع العرب ويوحد شملهم لابد له ان يكون نابعا من صميم حياتهم آخذا بعين الاعتبار حاجاتهم المادية والمعنوية . ولم تكن الاديان الوثنية المنتشرة في بقاع الجزيرة العربية من العمق أو الصلاح بحيث يمكن لها ان تسد الفراغ وتوحد الشمل .

كانت الوثنية العربية تتصف بالفوضى والسطحية ولا تتمتع باحترام اتباعها . عبد الوثني العربي النجوم والكواكب ومظاهر الطبيعة المختلفة ، كما عبد الاصنام والحجارة . ولكنه كان في كل اطوار وثنية مستعدا لان ينتقص من قدر هذه الآلهة التي لا تسمن ولا تغني من جوع . فقد كسر سهامه ورماها في وجه إلهه الحجري ، وحين عض الجوع بني حنيفة لم يتورعوا عن أكل صنمهم المصنوع من التمر ، الى غير ذلك من مظاهر عدم الاحترام والاستخفاف .

الى جانب الوثنية عرف المجتمع العربي قبل ظهور الاسلام . النصرانية واليهودية والحنيفية . وقد نظر العربي الى هذه الاديان الموحدة نظرة ملؤها الامل بحل مشاكله وتطلع اليها تحدوه الرغبة في التخلص من الفوضى التي كانت تكتنف حياته ولكنه لم يصل الى مايريد لاسباب أهمها أولا : ان هذه الاديان فرضت عليه في بعض الاحيان فرضا من الخارج (كمحاولة ذو نواس الحميري نشر اليهودية في بلاد اليمن، ومحاولة الاحباش والرومان نشر المسيحية واقامتهم كعبة نجران وغزوهم للحجاز عام الفيل) . وثانيا : لان هذه الاديان لم تنبع من صميم المجتمع ولم تتطلع الى حاجاته. اما الحنيفة فرغم كونها حركة عربية داخلية، ورغم ان فريقا من العرب المستنيرين آمنوا بها وحاولوا تثبيت دعائمها ، فقد فشلت في ان يكتب لها النجاح لانها كرست جهدها للاصلاح الاجتماعي بل لاستبدال عبادة الاصنام بالوحدانية فقط بقطع النظر عن حاجات المجتمع وامراضه .

في هذا المجتمع الذي يضطرم بالفوضى ويفتقر الى المثالية ويموج بالامراض والاسواء ولد الرسول الكريم وعاش حتى بلغ الاربعين من عمره حين دعاه ربه ليبلغ الامانة ويدعو الى الدين الحق.

لم يكن الاسلام دينا يهتم بالجانب الروحي من الحياة فحسب ، بل كان عقيدة عامة في الحياة ورسالة انسانية شاملة تهدف الى اقامة مجتمع عربي اسلامي قوي وحضارة جديدة لها أهدافها ووسائلها .

رأى الاسلام ان صلاح المجتمع يبدأ بصلاح الفرد فدعاه الى الصفاء الخلقي ونبذ العادات المرذولة والتحرر من الغرائز الجنسية . وانتقل الاسلام بعد ذلك الى تنظيم المجتمع على أسس جديدة ، وكان أول مجتمع خاطبه الاسلام وأوصل اليه مبادئه هو المجتمع العربي . لقد طلب الاسلام من أبناء المجتمع العربي الذين انضوا تحت لوائه ان يتعاونوا ويتآخوا وينسوا احقادهم وضغائنهم . ثم انتقل بعد هذا التوضيح وتوثيق الصلة بين شطري المجتمع : الرجل والمرأة ، اهتم الاسلام بالاسرة فنظم علاقة الاب بأبنائه وزوجته ونظم الزواج والطلاق والارث وغير ذلك من علائق الاسرة الواحدة .

والتفت الرسول الى توحيد القبائل العربية التي كانت تتقطعها الحزازات والضغائن والثارات وصهرها في بوتقة الدين الجديد • وهكذا انتقلت العلاقات بين القبائل من عهد الفرقة والضغائن والثارات الى عهد الخضوع لسلطة الرسول والدين الجديد والمثل الاعلى الذي نبع من ارضهم وبيئتهم وآلف بين قلوبهم •

وفي المحيط العام رفع الاسلام العرب الى ما وراء مادية الحياة اليومية ومشاكل الغذاء والماء ، وغذّى روح الالفة وسما بكرامة الفرد وقضى على الفردية وقضى على الفردية والفساد والطبقية وارتفع بمبادىء الحق والعدالة والمساواة ، وبشّر بالاخوة والمحبة والعلوم •

وهكذا بدأت الفردية العربية تضمحل وتزول لتحل محلها روح الجماعة ، هذه الروح التي كانت الحافز الذي تضافر مع العقيدة فحمل العرب لفتح العالم ونشر رسالة الاسلام ولعل أهم التغاييرت التي ادخلها الاسلام على المجتمع العربي ابان حياة الرسول الكريم هي انه استبدل العصبية القبلية المبينة على رابطة من الدم بالعصبية الدينية المبينة على المثل الاعلى الذي يجمع الامة بكافة أفرادها بقطع النظر عن احسابهم وأنسابهم وقبائلهم وقراباتهم ويوحدهم في سبيل غاية كبرى وهدف لا يخص فرديتهم فحسب بل ينقلهم الى آفاق انسانية لم يعرفوا لها مثيلا من قبل •

وللمرة الاولى في تاريخ عرب الشمال على الاقل تنظيم حياة المجتمع قوانين وتشريعات لكل ناحية من نواحي الحياة وتقوم حكومة يرأسها الرسول الذي تمده العناية الالهية بوحي يصف لكل داء دواء ولكل مرض علاج • وهكذا قامت فكرة الحكومة المسؤولة للمرة الاولى في تاريخ عرب الشمال وأسلمت للمرة الاولى الامة قيادها الى من يسهر على رعاية شؤونها ويوجهها الوجهة التي توصلها الى أهدافها كمجتمع مستقر متماسك •

وللمرة الاولى نظمت شؤون المجتمع المالية • فقد فرض القرآن الكريم الزكاة على المسلمين يدفع كل مسلم نسبه معينة مما يملك الى بيت مال المسلمين الذي كان بمثابة الخزانة المركزية للدولة المسؤولة عن تنظيم شؤون الامة المالية • اما الذميون فقد فرضت على القادر الذكر منهم الجزية مقابل حماية المسلمين لارواحهم وممتلكاتهم وعدم تكليفهم بالخدمة العسكرية ولم تفرض الجزية على النساء والصبيان والشيوخ والمرضى وغير القادرين على الكسب • كل هذا حتى تستطيع الدولة مواجهة الاعباء المادية الملقاة على عاتقها • هذا وقد حث الاسلام اتباعه على فعل الخير والتصدق على المعوزين حتى يسود الاخاء في المجتمع وتقوى اواصر الود والتراحم •

وهكذا وفي غضون السنوات القليلة التي اعقبت ظهور الاسلام توحدت القبائل العربية تحت لواء الاسلام وقد مهدت هذه الرابطة الدينية لظهور الوحدة السياسية التي كانت نواة الامبراطورية العربية وما أوجدت من تراث حضاري كان له ابعد الاثر في الحضارة الانسانية • ولن يفوتنا ان نقول في هذه المناسبة انه للمرة الاولى في تاريخ المجتمع العربي خضع الافراد لدستور مكتوب ينظم نواحي حياتهم ، الا وهو القرآن •

والتغيير الجزري الذي ادخله الاسلام على المجتمع العربي يمكننا تلخيصه بقولنا ان الوحدة الدينية

التي كانت نقطة الارتكاز في الانطلاقة العربية بعد ظهور الاسلام خلقت كيانا اجتماعيا جديدا هو « الامة » الذي حل محل « القبيلة » . و « الامة » الاسلامية الجديدة لم تقطع صلتها بعادات وتقاليد القبيلة العربية . ، بل احتفظت بالكثير مما كان عند القبيلة العربية من عادات ونظم وتقاليد ومكارم اخلاق . واحتفظت « الامة » الاسلامية التي عاشت وحدتها الدينية والسياسية للمرة الاولى في المدينة بكثير من الاعراف القبلية العربية في قضايا الملكية والزواج والعلاقات بين أفراد القبيلة الواحدة (المحبر ـ ابن حبيب) . على ان المرء لا يعدم ان يرى بعض التغييرات التي ادخلها الاسلام على التقاليد القبلية ولا سيما في حقل العلاقات الاجتماعية . ولعل أهم هذه التغيرات هي استبدال رابطة الدم التي هي الاساس في العصبية القبلية برابطة العقيدة الواحدة التي كانت تجمع افراد « الامة » الاسلامية وتربطهم بعضهم الى بعض . وقد كان لهذا التغيير في الرابطة أثر كبير على العلاقات بين الافراد ولعل اظهر آثاره استقصاء فكرة الاخذ بالثأر واللجوء الى التقاضي امام قاض يمثل رئيس السلطة الادارية . ولا يقل أهمية عن هذا ، التغير الذي طرأ على مفهوم السلطة في المجتمع . فبعد ان كان رئيس القبيلة ينتخب انتخابا وصلاحياته محدودة ولا سلطة تشريعية له ،اصبح رئيس الامة الاسلامية رسول من عند الله لم يختره افراد الامة للقيام بهذه المهمة بل بعثه الله واصبح وحده صاحب الحق في تفسير كلام الله ألا وهو القرآن الكريم مصدر التشريع ودستور الامة الاسلامية . وواضح ان هناك فرقا كبير بين من سلطته مستمدة من افراد القبيلة ومن سلطته مستمدة من عند الله .

وهكذا أصبح « للامة » الاسلامية شخصية مزدوجة . فهي من جهة جسد سياسي رأسه الرسول الكريم واعضاؤه المسلمون ـ كاليهود في المدينة ـ ممن كانوا يعيشون ضمن حدود منطقة النفوذ الاسلامية ويقبلون سلطة الرسول الكريم . وهي من جهة ثانية جسد ديني وافرادها يشكلون جماعة دينية . ولم يكن المجتمع العربي الاسلامي في هذه الفترة ليضع حدودا أو فواصل بين الدين والسياسة ، فقد كانت الاهداف السياسية متأثرة ولا يمكن فصلها عن الاهداف الدينية للامة الاسلامية التي كان يرأسها الرسول الكريم . وهنا يبدو الفرق واضحا بين المجتمع العربي قبل الاسلام والمجتمع العربي بعد قيام الدين الجديد . فقد كان الدين قبل الاسلام تابعا للسياسة لا موجها لها ، اما بعد قيام الاسلام فقد اصبحت السياسة انعكاسا لحاجات الدين ومصالحه لا العكس .

لقد اصبح الدين بعد قيام الاسلام هو الموجه والمحور الذي تدور حوله السياسة الداخلية والخارجية للامة الاسلامية . وقد يساعد على فهم الصلة الوشيجة التي قامت بين الدين والسياسة في المجتمع العربي بعد ظهور الرسول الكريم ان نذكر ان كل الحركات التي قامت في الجزيرة العربية والتي كانت تهدف الى انتزاع السلطة من الرسول ادعى اصحابها النبوة وسموا انفسهم انبياء وحاولوا ان يسندوا دعواتهم بقرآن جديد . (مسيلمة الكذاب الاسود العنسي ، سجات) .

عصر الفتوحات وانطلاق القومية العربية

الخطر الاول الذي هدد الاسلام والمجتمع العربي بعد انتقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه كانت ردة بعض القبائل العربية ورفضها الاعتراف بسلطة حكومة المدينة التي يرأسها أبو بكر الصديق • كانت هذه الردة دينية في ظاهرها ولكنها في الواقع تمرد على فكرة السلطة المركزية التي بدأت مع قيام الاسلام واستمرت بانتخاب ابو بكر كرئيس للمجتمع الجديد • الى جانب ظاهرها الديني كانت الردة محاولة لاغتصاب السلطة من صاحبها الشرعي وثورة على فكرة النظام والعقد السياسي بين الدولة والرعية التي ادخلها الاسلام على المجتمع العربي •

ونجح أبو بكر في القضاء على المرتدين فأعاد الى المجتمع العربي في الجزيرة وحدته التي كانت مهددة لفترة من الزمن • وبانتهاء حروب الردة تبدأ فترة الفتوحات التي ادت الى اصطدام المجتمع العربي بالمجتمعات الاخرى •

لقد ظل العرب في جزيرتهم لا يحفزهم حافز الفتح فترة طويلة قبل ظهور الاسلام ، ولم نشهد في تاريخنا الذي سبق الاسلام سوى هجرات تقوم بهاالقبائل العربية الى الاطراف والاقطار المجاورة كالعراق والشام ومصر وغلايرها •

ولم تقم جيوش منظمة لها صفة عسكرية بترك الجزيرة والانطلاق الى الاقاليم المختلفة بقصد الفتح قبل ظهور الاسلام • وهنا لا بد من الاشارة ولو بسرعة الى العوامل التي جعلت قيام الفتوحات ممكنا ، وبالتالي الى الحوافز التي دفعت العرب الى خارج حدودهم •

القبلية والفرقة وانعدام المثل الاعلى ، كانت كلها عوامل في تفتيت قوي الامة العربية والحد من فعاليتها ، لذا ظلت الامة العربية فترة طويلة من تاريخها قابعة في صحرائها لا تعرف الا الغزو والمناوشات المحلية • وحين جاء الاسلام ووحدت العرب رابطة الدين وتهيأ لهم المثل الاعلى ، هذا المثل الاعلى الذي نص على فكرة الجهاد في سبيل نشر العقيدة ، خرجوا من عزلتهم وانساحوا في الارض وأقاموا الامبراطورية العربية •

لم يكن العرب قبل عصر الفتوحات هم سكان الجزيرة العربية فحسب ، بل كان هناك بعض العرب يعيشون خارج حدود الجزيرة العربية منذ القديم ، والهجرات الى الهلال الخصيب مستمرة منذ سنة ٣٥٠٠ ق ٠م • وكانت هذه الهجرات تنتهي عادة بتكوين جماعات مستقرة هذه الموجات لم تكن تحمل طابع الفتح ولا الاحتلال ، بل كانت تحركاتفرضتها طبيعة الجزيرة الصحراوية وشح موارد الغذاء والماء • كان يسكن العراق قبل الفتح قبائل عربية منربيعة ومضر ، كما سكن الشام قبائل عربية كغسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة منذ القرن السادس والسابع للميلاد •

كان غرض ابي بكر من توجيه الفتوحات هو نشر الاسلام خارج الجزيرة وايجاد حل لمشكلة ازدياد السكان التي كانت لا تتناسب مع الطبيعة الصحراويةللجزيرة التي لا تنتج ما يكفي من الغذاء لابنائها • المهم ان الفاتحين العرب حين وصلوا الى الاقاليم الجديدة وجدوا ابناء عم لهم يسكنون في هذه البلاد ، وهكذا أدت هذه الفتوحات الى ضم هذه المجتمعاتالعربية الصغيرة الى المجتمع العربي الكبير •

وقد يكون من المهم في هذه المناسبة ان نسأل السؤال التالي : ماذا كان موقف المجتمعات العربية الصغيرة في العراق والشام من الفتوحات العربية الجديدة ؟ هل رحبوا بهذه الفتوحات واندمجوا في المجتمع العربي الكبير ، أم هل آثروا ان يحفظوا لمجتمعاتهم بكيان مستقل ؟

في الجواب على هذا السؤال ، يجب ان نفرق بين العرب غير النصارى والعرب النصارى • اما العرب غير النصارى ، فلا نملك معلومات دقيقة تساعدنا على تحديد موقفهم بالضبط ، ويبدو ان الموجة الاسلامية سرعان ما طوتهم وانضموا الى الجانب الاسلامي • اما العرب النصارى فقد كان موقفهم أكثر تحديدا ووضوحا ، ففي اخبار خلافة عمر بن الخطاب ان هذا الخليفة قد أعفي قبيلة تغلب النصرانية من دفع الجزية لفترة معينة لان هذه القبيلة ساعدت الجيوش العربية أثناء فتح العراق • من هذا الخبر وكثير غيره تبين لنا ان القبائل العربية التي كانت تسكن في الاقاليم المفتوحة والتي كانت لا تدين بالولاء السياسي لقوي اجنبية رحبت بقدوم الموجة العربية من قلب الجزيرة رغم تفاوت الدين وانضمت اليها وساعدتها على أعدائها • اما القبائل العربية التي كانت تدين بالنصرانية والتي كانت تدين بالولاء لقوة أجنبية فقد وقفت موقف المعارضة وحاولت الحد من سير الموجة العربية • والمثال على هذا النوع الثاني من القبائل العربية هو عرب الحيرة الذين عرفوا بولائهم للفرس لما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي خلال الحكم الفارسي ، ولذا قاوموا الفتح الاسلامي لانهم رأوا انه سيحرمهم من هذا الاستقلال السياسي •

ومع الزمن خفت حدة هذه المقاومة وانضم عرب العراق والشام الى المجتمع العربي الكبير وانتهى الامر بالقبائل العربية المسيحية الى الاندماج بطريق سلمي في جسد المجتمع الجديد •

وهنا لا بد من وقفة قصيرة لبحث العلاقة بين العروبة والاسلام •

تتضح الصلة القوية بين العروبة والاسلام حين نذكر موقف العرب من الذين دخلوا الدين الجديد من ابناء الشعوب المفتوحة غير العرب • لقد اضطر هؤلاء المسلمون الجدد ان ينتسبوا بالولاء الى قبيلة من القبائل العربية وان يكونوا هكذا موالي لهذه القبيلة • ورغم ان الاسلام قد سوّى بين اتباعه ، من العرب وغير العرب اذا كانوا مسلمين فقد نظر العرب الى هؤلاء الموالي المسلمين نظرة من هو أعلى الى من هو دونه وحرموهم من حق المساواة في كثير من القضايا (مثلا قضية عدم اعطاء الموالي العطاء من بيت المال كبقية المسلمين حين دوّن عمر بن الخطاب الديوان) • يضاف الى هذا ان توسع حدود العروبة الى سائر انحاء العالم العربي الحالي قد تم بفضل الفتوحات التي سارت تحت راية الاسلام • صحيح ان الذين حملوا هذه الراية كانوا عربا ، ولكن الفتح نفسه قدتم باسم الاسلام • وتتميز الموجة البشرية التي تدفقت من قلب الجزيرة العربية في عصر الفتوحات ، بانها بخلاف سابقاتها من الموجات ، لم تقطع صلتها بالوطن الام ، بل ظلت على صلة وثيقة به ماديا ومعنويا ، تستمد منه وتعطيه • وقد كان لهذه الموجة الجديدة فضل تعريب سكان البلاد المفتوحة ونشر اللغة العربية بينهم • وهنا لايمكن لباحث ان ينسى ان القرآن الكريم كان له فضل حماية اللغة العربية من التفكك وتفرعها الى لغات عديدة • وقد كان من الممكن ان تتفكك اللغة العربية الى لغات كثيرة حسب اللهجات المحلية المختلفة ـ كما حدث في اللغات اللاتينية ـ

لولا ان القرآن ظل حافظا لوحدة العرب اللغوية • وملاحظة هامة اخرى في حقل تأثير العرب اللغـوي على البلاد المفتوحة هي ان العربية اصبحت لغة الصلاة والدين عند العرب غير المسلمين • فقد ترجم العرب النصارى الكتاب المقدس الى اللغة العربية وأقاموا صلاتهم بهذه اللغة أيضا •

الى جانب هذا كله يمكننا ان نضيف ان الاسلام وحّد مفاهيم الامة العربية ونظرتها الى الوجـود ومقاييسها الاخلاقية • واذا كان الاسلام بالنسبة الى العربي المسلم دينه وعقيدته ، فهو بالنسبة للعربي غير المسلم تراثه القومي ومادة ثقافته وأرثه الحضاري • وعلى صعيد الدين فانا نرى ان الصلة بين الاسلام والمسيحية كانت متينة على مر العصور • فقد فسح الاسلام المجال للنصرانية لتعيش الى جانبه وحمـى مقدساتها وصان معابدها ، وهكذا فقد كان نصارى العرب وما زالوا ركنا مكينا من أركان القومية العربية، يعتزون بالاسلام أشد الاعتزاز لانه مادة ثقافتهم ،وفي صفحات تاريخه مفاخر أمتهم وأمجادها • يتبين من كل هذا ان الاسلام كان عاملا هاما في انطلاق القومية العربية وتوسعها لانه :

١ — كان القوة الدافعة التي حملت العرب في فتوحاتهم التي نشرت اللغة العربية ومدت آفاق الوطن العربي •

٢ — لما كان للقرآن الكريم من فضل لا يوازيه فضل في حفظ اللغة — التي هي عامل اساسي من عوامل وحدة العرب — ضد عوامل التفكك وظهور اللهجات •

الا ان هذا لا يعني ان القومية العربية ظلت مرتبطة بالاسلام في كل اطوار حياتها لانه ظهرت فيمـا بعد مجموعات اسلامية غير عربية ، ومجموعات عربية غير مسلمة •

كانت النتيجة الكبرى لقيام الفتوحات المزج بين القبائل العربيـة وتحطيم ما كان بينهـا من حواجز تفصلها بعضها عن بعض وتفرقها الى جماعات • كما نتج عنها اصطدام المجتمع العربي بغيره من المجتمعات غير العربية • لقد كانت الغلبة في الصراع الذي قام بين المجتمع العربي والمجتمعات المحلية الاخرى التي التقى بها بعد الفتح ، للمجتمع العربي الذي حاول بنجاح جذب الافراد غير العرب ليستعربوا وينصهروا في البوتقة العربية ، وقد كانت عملية الصهر هذه سهلـة في البلاد التي كانت تحت حكم الرومان ، صعبة في البلاد التي كانت تحت حكم فارسي • ورغم ان العرب حاولوا جهد طاقتهم ان يحافظوا على اصالتهم العربية فانهم لم يتمكنوا ان يبقوا بمعزل عن المؤثرات الجديدة التي بدأت تدب الى حياتهم نتيجة امتزاجهم مع غيرهم من الشعوب وتزاوجهم معهم وعيشهم معهم تحت سقف واحد • لقد شملت عمليـة الامتزاج بين الفاتحـين والمفتوحين مختلف مرافق الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وحتى دينية • ولا بد في هـذه المناسبة من ان نذكر ان عملية الامتزاج هذه أدت الى اختلاط الدماء — عن طريق الزواج — وقد كان للدم الجديد الذي دخل الاسرة العربية أثر لا ينكر في تطوير الفرد العربي •

وما كادت مرحلة الاعمال العسكرية للجيوش الفاتحة ان تنتهي حتى عادت العصبية القبلية للظهور • فتناست القبائل العربية التي وحدها الدين الجـديد وآلف بينها ما كان بينها من أواصر الاسلام وعادت الى

ما كانت عليه من عداء وتنافس وتعصب وهكذا وبعد فترة قصيرة من قيام الاسلام الذي حارب العصبية حربا لاهوادة فيها عادت هذه العصبية تطل برأسها البغيض لتهدد وحدة الامة الجديدة وتعرقل سيرها . والى جانب هذه العصبية القبلية ، قامت عصبيات من نوع جديد منها : عصبية الاقليم وعصبية الجماعة . فقد تعصب أهل البصرة على الكوفة ، وأهل العراق على الشام، والمهاجرون على الانصار وهكذا...

لقد كان هذا الصراع الداخلي ناقوس الخطر الذي يهدد الكيان العربي الجديد ، وقد بدا واضحا في العصر الاموي .

١ ـ دولة الامويين العربية :

في التاريخ العربي الاسلامي ، قام نظامان سياسيان كبيران : اولهما دولة قوامها عربي خلقها العرب وحكمها العرب وسادتها نظم عربية في مختلف المرافق ، هذه الدولة هي الدولة التي بدأت بقيام الحكم الاموي وسقطت بسقوطه . وثانيهما دولة ذات مظهر اسلامي يشارك في السلطة فيها جماعات اسلامية غير عربية ، والعرب فيها جماعة من المسلمين ، هذه الدولة هي الدولة العباسية التي رغم اصطباغها بصبغة اسلامية أخذت الكثير من نظمها وتقاليدها من الماضي العربي والتي كان يرأسها خليفة عربي الدم من جهة الاب على الاقل .

والدولة الاموية التي أسسها معاوية بن ابي سفيان كان لا بد لها من ان تواجه منذ بدء حياتها بضع مشاكل نجمت عن الحروب الطويلة التي خاضتها الاحزاب السياسية المتناحرة منذ خلافة عثمان . وقد أدى ضعف السلطة المركزية في مطلع حكم معاوية والفوضوية القبلية التي رافقت النزاع بين علي ومعاوية ، وضعف الرابطة الدينية الاخلاقية التي كانت تربط أفراد المجتمع العربي ، أدى كل هذا الى خلق العقبات التي لا بد من تذليلها قبل القيام بأي عمل على نطاق سياسي أو اجتماعي . لقد تحطمت الرابطة الدينية المتينة التي ضمت شتات المجتمع العربي أيام الراشدين وفي عصر الفتوحات ، بمقتل عثمان والحروب الاهلية التي تلت ، بنقل كرسي الخلافة من المدينة الى سورية . وكانت قد تحطمت قبل هذا سلطة الارستقراطية التجارية في مكة التي كانت تدين لها بالطاعة أو بالولاء بعض القبائل العربية . لهذا كله كان على معاوية مؤسس الدولة الاموية الجديدة أن يوجد أساسا جديدا يرتكز عليه في بناء سلطته ويجمع حوله شتات امبراطوريته . وقد وجد معاوية الحل في قلبه للسلطة من الاساس الديني الذي كانت ترتكز عليه ايام الراشدين الى فكرة الدولة العربية التي تعتمد على العنصر العربي الفاتح .

وليس يعني اعتماد معاوية على العرب وتبنيه لفكرة السيادة العربية ان دولة الامويين كانت لادينية أو لا تحل الاسلام محله اللائق أو لا تعمل بموجب أوامره ونواهيه . صحيح ان معاوية ومن خلفه من بني امية اهتموا بنواحي الحكم السياسية والاقتصادية ولكنه صحيح أيضا ان الامويين لم يهملوا عامل الدين حين وجهوا قواتهم وأساطيلهم أكثر من مرة لضرب عاصمة البيزنطيين اعداء الاسلام وبهذا قادوا حربا مقدسة المقصود منها رفع راية ا لاسلام ضد اعدائه وليس المقصود منها توسيع الحدود ومد النفوذ السياسي .

كانت الرابطة الجديدة التي حلت محل الرابطة الدينية رابطة قومية ، مقوماتها تعود باصولها الى فكرة الخضوع الى رئيس القبيلة الجاهلي • كانت رئاسة معاوية رئاسة عربية ، فكأنها عودة أو امتداد لفكرة السيد التي كانت معروفة في المجتمع العربي قبل الاسلام • لم يكن معاوية ولا خلفاؤه ـ عدا عمر بن عبد العزيز ـ رؤساء دينيين ، كما انهم لم يكونوا قياصرة أو أباطرة ، بل كانوا ، كما يصفهم المؤرخ تيوفانس Theophans البيزنطي Proto Symbolos بروتوسيموبولوس أو ما كان معروفا عند الرومان باسم القنصل الاول الذي لم تكن له صفات ديكتاتورية مطلقة كالقياصرة •

لقد كان نظام الادارة للدولة العربية ايام معاوية مستمدا من ديموقراطية القبيلة العربية التي كانت تؤمن بالشورى وتتبع نظاما برلمانيا قبليا يتمثل في مجلس القبيلة الذي كان يتألف من شيوخها وذوي الرأي فيها • فقد اعتمد معاوية على الشورى في حكمه واستدعى ممثلين عن القبائل وأعطى لمجالس الشورى هذه سلطات استشارية وتنفيذية في بعض الاحيان ، كما انه في كثير من المناسبات استدعى الوفود التي كانت تشبه برلمانات صغيرة تستدعي بمناسبة أزمة طارئة • وكمثال على البرلمانية القبلية أيام الامويين يمكننا ان نذكر قضية ولاية العهد ليزيد بن معاوية • فقد اتخذ الخليفة معاوية القرار بتولية عهده لابنه ، فوافقت عليه شورى دمشق ، ومن ثم أكدت القبائل العربية المختلفة موافقتها على هذا القرار عن طريق الوفود التي ارسلتها الى دمشق • ولم تلعب القوة دورا كبيرا في قضية توليه لعهد ليزيد ، بل كان للاقناع والرشوة أكبر الاثر في اتمام هذه الصفقة ، وغير خاف ان هذه الطريقة الاخيرة تلازم أكثر عمليات الاقناع البرلماني • يتضح من هذا المثال ان البرلمانية القبلية كانت هي طريقة الحكم ايام الامويين وان هذه البرلمانية كانت على اتساق وتلاؤم مع فكرة الشورى القبلية قبل الاسلام ، هذه الفكرة التي أبقى عليها الاسلام وأوصى باتباعها •

وفي ايام الامويين توسعت الحدود الجغرافية للدولة العربية وتوغلت الجيوش العربية المظفرة في قلب آسيا وافريقيا ، وتطورت اسلحة الجيش العربي وتمكن الاسطول العربي الجديد من تدعيم القوات البرية في عملياتها ضد بيزنطة وممتلكاتها في البحر الابيض المتوسط • لقد حققت المعارك التي خاضها الجيش العربي ايام الامويين ضد بيزنطة نصرا عسكريا غير حاسم اظهرتهم بمظهر حامل لواء الدين والجهاد ضد اعداء الاسلام •

لقد كان المجتمع الاموي مبنيا على أساس سيطرة وتفوق العنصر العربي على بقية عناصر المجتمع • وكان الاساس في هذا التفوق هو ان العرب كانوا الامة الفاتحة التي أعطت للمفتوحين اعظم ميرات انساني ألا وهو الدين الاسلامي ، ولم يكن بمكنة أي انسان ان يتمتع بهذه الميزة الا اذا كان عربيا بالمولد • لقد كان من مظاهر تفوق العنصر العربي ايام الامويين ان العرب كانوا الوحيدين الذين لا يدفعون عن اراضيهم أية ضريبة (العشر فقط) ، وكانوا هم وحدهم يتولون حكم الامصار ، وكانوا يشكلون غالبية أفراد الجيوش الفاتحة وبالتالي أصحاب العطاءات الاكبر وأصحاب النصيب الاوسع من الغنائم والاراضي التي يغنمها الفاتحون من البلاد المفتوحة • وكانت ملكية العرب للارض حدثا جديدا بالنسبة لافراد المجتمع العربي لم يكونوا يعرفونه من قبل •

كانت الارض فيما سبق تتمثل في المرعي الذي هو ملك مشاع بين أفراد القبيلة جميعا • وكان هناك الحمى الذي هو عبارة عن قطعة من الارض يعلن تسلط سلطته عليها ويمنع غيره من الرعي فيها • اما فكرة ملكية الارض الزراعية فقد كانت معروفة عند نفر قليل من أثرياء الطائف والمدينة ، وفي المدينة اليهود • وبدأت بعد قيام الاسلام تظهر الطبقة المالكة للارض وذلك منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين• اما في عهد الامويين فقد ظهرت طبقة كبيرة ملاك الاراضي العرب الذين حصلوا على الارض أما بالشراء من غير العرب أو كقطائع من اراضي الدولة تمنح للسادة ولمن تريد الدولة شراء ودهم •

ولعل أهم مظهر للسيادة العربية في العصر الاموي هو الفارق الكبير في الوضع الاجتماعي بينهم وبين من كانوا يسمون بالموالي • فقد كانت كلمة مولى تدل على كل مسلم لا يعود نسبه لاحدى القبائل العربية • وهكذا كانت كلمة مولى تدل على جميع الفرس والآراميين والمصريين والبربر وغيرهم من العناصر التي دخلت الاسلام ، كما تدل أيضا على اعداد قليلة من العرب الذين لسبب أو لآخر اضاعوا صلتهم بقبائلهم أو اصبحوا موالي لها أو لغيرها •

لقد تقاطرت اعداد كبيرة من هؤلاء الموالي الذين هم من اصل غير عربي على امصار الامبراطورية الاسلامية وشكلوا طبقة احترفت الصناعات المختلفة وافتتحت الدكاكين وقاموا بأغلب الاعمال التي كان يترفع عنها أفراد الارستقراطية العربية • نظريا كان هؤلاء الموالي مساوين تماما لابناء دينهم من العرب وكان لهم نفس الحقوق ويجب ان يتمتعوا بنفس المكانة الاجتماعية • ولكن هذه المساواة لم تتحقق قط للموالي ايام الامويين • ورغم ان اعدادا قليلة من الموالي ملاك الارض لم يدفعوا الا العشر عن اراضيهم، كبقية المسلمين العرب ، فقد ظلت الغالبية العظمى منهم تدفع خراجا عن اراضيها ، ولم يأت عهد عبد الملك بن مروان حتى قام عامله الحجاج يعيد الموالي الى قراهم ويجبرهم على العمل في الارض حتى يعيد ميزان واردات بيت المال الى توازنه الذي كان مهددا •

وفي المجال العسكري ، رغم ان الموالي حاربوا الى جانب العرب ولا سيما في الجيوش التي قامت بعمليات عسكرية في منطقة خراسان والمناطق الغربية فانهم لم ينالوا الا قسطا صغيرا من العطاء والغنائم بحجة انهم من المشاة بينما كان العرب من الفرسان ولا يجوز ان يسوى بالدفع بين المشاة والفرسان • في الناحية الاجتماعية فقد كان الموالي موضع احتقار افراد المجتمع العربي ، وكان زواج المولى من عربية جريمة اجتماعية لا يغفرها المجتمع ولا يسمح بارتكابها •

لقد كانت الدولة العربية ايام الامويين تقوم على اساس اقلية عربية تتمتع بالسيادة والسيطرة على أكثرية مسلمة غير عربية • وقد وجد الموالي تنفسا لتخلفهم الاجتماعي والاقتصادي من جهة ولحقدهم على العنصر العربي من جهة اخرى ، في الحركة الشيعية التي بدأت كحركة سياسية داخلية صرفة ولكنها ما لبثت ان توسعت وأخذت شكلا دينيا وضمت اليها عناصر غير عربية •

كان لنقمة الموالي على السيادة العربية والطبقة الارستقراطية العربية أثر كبير في انهاء حياة الدولة الاموية العربية • وقامت عوامل اخرى عجلت في نهاية هذه الدولة العربية • فقد كانت الفكرة الاستقلالية

القبلية ما تزال نشيطة في نفوس أفراد المجتمع ، هذه الاستقلالية التي لم تكن موجهة ضد الامويين بقدر ما كانت موجهة ضد فكرة الدولة والمركزية في الحكم . وقد ظهرت هذه الروح الاستقلالية بعدة مظاهر واشكال . فقد نظم المتدينون المكيون والمدنيون الذين لم يعترفوا قط بالسلطان الاموي معارضة شديدة لحكم هذه الاسرة وبنوا معارضتهم على أساس ديني . وتجلت فكرة رفض السلطة المركزية أيضا عند بعض القبائل الاخرى فقامت حركة الخوارج ـ التي كان لها مقومات دينية والتي كانت تريد العودة ببعض النظم القبلية العربية قبل الاسلام ـ (كرفض فكرة التحكيم والاحتكام للسيف وحده . وكرفض فكرة الخضوع لبيت حاكم) . فالخوارج يمثلون فكرة الحكم بالقبول والرضا لا بالقوة (وهي فكرة جاهلية) وفكرة تفوّق الرأي الشخصي على الآراء المفروضة من الخارج (وهي من روح العقلية الجاهلية أيضا) . ولعل أهم ما فت في عضد المجتمع العربي ايام بني امية كان ما عاد الى الظهور من الحزازات والعصبية القبلية التي نامت لفترة محدودة من الزمن ايام الراشدين وعصر الفتوحات وعادت واستيقظت بعد استقرار الجيوش الفاتحة في البلاد المفتوحة . لقد تجمعت هذه العوامل كلها وساعدت على انهاء حياة الدولة العربية التي كانت التعبير الاول عن الاصالة العربية في الحكم والادارة والسياسة .

ولعل أهم ما يجدر ذكره عن هذه الفترة من حياة المجتمع العربي هو ما حققته دولة الامويين في حقل الادارة من تعريب الدواوين ونقلها من القبطية والرومية والفارسية الى العربية ، وسك العملة العربية . فكانت بذلك قد وضعت حجر الاساس لعملية التعريب في مختلف مجالات الحياة .

ولا بد من التنويه قبل انهاء هذه الفقرة من بحثنا بالتمازج الحضاري الذي بدأ في مختلف الحقول بين العرب والفرس ولا سيما في مجال اللغة والآداب والموسيقى والعادات والنظم الاجتماعية ، سيما حين دخلت الاماء غير العربيات البيوت العربية وأنجبن الاطفال وأشرفن على تربيتهم .

ولن نعود هنا الى التذكير بالتفاصيل التي أدت الى سقوط الدولة الاموية ، ويكفي ان نذكر ان نجاح البيت العباسي في الاستيلاء على الحكم من الامويين كان نصرا كبيرا لغير العرب من اتباع الامبراطورية الاسلامية ، ونكسة شنيعة للعنصر العربي الحاكم .

٢ ـ الدولة العباسية وضعف السلطة العربية في المجتمع :

كان انتقال الحكم من البيت الاموي الى البيت العباسي أكثر من مجرد تغيير اسرة حاكمة باسرة حاكمة اخرى . كان نقطة تحول هامة في تاريخ المجتمع العربي لا تقل أهمية عن الثورة الفرنسية والروسية بالنسبة للمجتمع الغربي في القرون الحديثة .

ولم يتم انتقال السلطة الى العباسيين بنتيجة مؤامرة سياسية أو انقلاب عسكري ولكنه تم بفضل دعاية ثورية منظمة عبّرت عن استياء قسم كبير من أفراد المجتمع من نظام الحكم السابق ، هذه الدعاية التي عملت بصمت وحذر خلال أمد طويل من الزمن . لقد تم استيلاء العباسيين على الحكم بتضافر عدد من المصالح بجمعها هدف واحد وهو ابعاد فئة حاكمة سادت بحق الفتح وأخذت لنفسها مكان الصدارة في المجتمع .

ويفسر بعض المستشرقين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر وتأثروا بنظريات غوبينو Gboineau العرقية ، يفسرون النزاع الاموي العباسي على اساس انه نزاع عرقي بين العرب الساميين والفرس الآريين ويعتبرون النصر العباسي نصرا فارسيا على العرب ثم بنتيجة قيام امبراطورية ايرانية مسلمة عوضا عن المملكة العربية المنهارة . وتلاقي هذه النظرية تأييدا من بعض الكتاب المسلمين كالجاحظ الذي يعتبر دولة العباسيين دولة فارسية خراسانية في حين انه كان يرى في دولة الامويين دولة عربية . ولكن الواقع والنظرة العلمية الصحيحة تظهر بشكل لا يقبل الجدل انه بالرغم من صحة الزعم القائل بأن المنازعات العرقية كان لها دورها في انهاء حياة الدولة الاموية ، فانه لا يمكن ان يعزى لهذه الحزازات العرقية وحدها فضل انتقال السلطة الى العباسيين . فلم يحرز الحزب العباسي النصر رغم تأييد العناصر الفارسية له لانه فارسي الهوى ولم يخسر الحزب الاموي المعركة لانه يمثل النزعة العربية فقط . لقد ضم الحزب العباسي عناصر عربية كثيرة ولا سيما من عرب الجنوب الذين تمتعوا ايام الامويين بميزات أقل بكثير من ميزات عرب الشمال . ولم يكن عنصر الموالي الذي كان أكبر عامل في تهديم قوة الامويين عنصرا فارسيا فحسب بل ضم عراقيين ومصريين وسوريين بل وحتى عناصر عربية من قبائل الجنوب . ويمكننا ان نقول اكثر من هذا ، فقد كان بعض دهاقنة الفرس من أشد انصار الامويين حماسا ومن أكثر المدافعين عنهم قوة . من هذا كله يتبين لنا ان الخصومة العرقية الفارسية العربية لم تكن السبب الاساسي في انتقال السلطة في المجتمع العربي من ايدي الامويين الى أيدي العباسيين .

ان السبب الاساسي لنجاح العباسيين في ثورتهم على الامويين يكمن في النزاع الطبقي الذي قام بين الطبقات المحرومة من كل ميزة والتي كانت تعيش في المدن الجديدة التي انشأها العرب ، والارستقراطية العربية التي كانت تتربع في أعلى مكان في المجتمع وتستمتع بخيرات الدولة وموارد الرزق فيها . وقد كانت الطبقات المحرومة من ميزة المساواة والتي تتمثل بشكل واضح في الموالي تقبل سيادة العنصر العربي وتمتعه بالميزات باعتبار ان هذا العنصر هو الارستقراطية العسكرية التي تقوم بالفتوحات تحقق الامجاد العسكرية ، ولكن حين بدأت موجة الفتوحات العربية ايام الامويين تضعف ولم يعد للارستقراطية العربية العسكرية امجاد تبرر حقها في السيادة شعرت الطبقات المحرومة بأنه لم يعد هناك ما يبرر هذه السيادة وهذه المميزات . وتتوضح هذه الفكرة حين نذكر ان المجتمع العربي منذ اواخر عهد الوليد بن عبد الملك بدأ يعيش حياة مستقرة لا تتقطعها الاعمال العسكرية الكبيرة في الخارج والفتن والحزازات في الداخل . فبدأ يزدهر فيه اقتصاد مستقر قائم على الزراعة والتجارة والصناعة مما أدى الى ظهور الارستقراطية العسكرية العربية بمظهر العبء الثقيل على المجتمع لانها لا تقوم بدور فعّال في الحياة الاقتصادية وتتمع رغم هذا بخيرات الدولة .

تبع انتقال السلطة الى العباسيين سلسلة من التغيرات السياسية والاجتماعية : فرئيس الدولة بعد ان كان يقتفي آثار السيد العربي في طريقة حكمه ويتبع ديمقراطية برلمانية قبلية تعتمد على شورى القبائل العربية التي هي مصدر الطبقة الحاكمة ، اصبح الخليفة العباسي ذا سلطات مطلقة وحقوق مقدسة ــ بوصفه

ابن عم الرسول ــ يعتمد في دعم حكمه على جيش نظامي ويساعده في تصريف شؤون الدولة عدد من الاختصاصيين في شؤون الادارة • ولعل أهم ما يدل على أهمية عنصر القوة الجديد الذي دخل الادارة زمن العباسيين قيام وظيفة الجلاد الذي كان يرافق الخليفة عند مختلف المناسبات ، وتغير لقب الخليفة من خليفة رسول الله الى « خليفة الله » أو « ظل الله على الارض » • يضاف الى هذا ان الخليفة ما عاد شخصا من الناس يصل اليه من يريد من اصحاب الحاجات ، بل أحاط نفسه بحاشية كبيرة وأصبح الوصول اليه ميزة الطبقات العليا فقط •

وفي مجال الجيش لم يعد العرب النواة والقوة الاساسية لهذا الجيش ، ولم يعد لهم النصيب الاكبر من العطاء ، بل أصبح الجيش يضم قوات نظامية تتقاضى رواتب وأرزاق مقطوعة ، وقوات غير نظامية تدعى بمناسبة عمل عسكري معين وتسرّح بانتهائه وتتقاضى على هذه المهمة أجرا معينا • وهكذا يتضح ان الميزات العسكرية التي كان يتمتع بها العرب زمن الامويين والتي كانت الاساس الذي بنيت عليه سيادتهم قد زالت زمن العباسيين ، ولم يبق منهم الا قوة عسكرية صغيرة يطلق عليها اسم « عرب الدولة » قوامها بعض أفراد من القبائل الموالية للبيت العباسي • ولم تعش هذه الفرقة العربية طويلا وانتهى الامر بأن اصبح الجيش بكامله من المماليك غير العرب •

لقد كان الدين من جملة العناصر التي اعتمدت عليها الدعوة العباسية في أول الامر وحاول العباسيين فيما بعد ان يستغلوا صفتهم الدينية ــ كأبناء عم الرسول في تدعيم سيطرتهم ونفوذهم • لذلك نرى الخلفاء العباسيين الاول يحيطون أنفسهم بحاشية من رجال الدين ويفتحون قصورهم للعلماء والاتقياء ، ويحافظون بدورهم على مظاهر التدين ــ ولو ظاهريا ــ مما حدا بالمؤرخين الى وصف الحكم العباسي بانه مزيج من الدين والدنيا ، فكان نصف من أطاعهم متدينا والآخر خائفا • وقد كانت الرابطة الدينية هذه التي ضمت شتات المجتمع مستمدة من واقع المجتمع العباسي الذي يضم عناصر مختلف يآلف بينها اسلاميتها • فكأن الدين في هذا المجتمع الملون بقوميات مختلفة كأن الرابط الذي يشد الافراد بعضهم الى بعض ويسد الفراغ الذي أحدثه تصدع الصف العربي وتفرق شملهم •

وهنا يجب ان نلاحظ ان التغيرات الاقتصادية التي رافقت قيام الدولة العباسية أثرت في التنظيم الاجتماعي وأعادت ترتيب طبقات المجتمع حسب نظام جديد • فالطبقة الارستقراطية العربية التي بنت حقوقها بالسيادة على التفوق العسكري اضاعت في المجتمع العباسي مكانها كصاحبة المركز الاعلى في المجتمع • فتبع هذا فقدها لحقوقها المادية على خزينة الدولة ــ العطاء ــ ومميزاتها الاجتماعية • وباختفاء الميزات المادية والاجتماعية للارستقراطية العسكرية العربية قلّ ذكر المؤرخين للمنازعات القبلية وزال اهتمامهم بسرد اخبار النزاع القبلي والعصبيات المختلفة • وليس يعني هذا ان العصبية القبلية زالت من المجتمع العربي ــ لقد ظلت هذه العصبية القبلية حية حتى القرن التاسع عشر في سورية حين نقرأ عن عصبيات قيس ويمن وأثرها في الحياة السياسية والمنازعات العائلية في لبنان ــ ولكن فقد الارستقراطية العربية لميزاتها في المجتمع وزوال سلطانها كقوة سياسية ذات أثر أدى الى ضعف أثر هذه العصبية على الحياة السياسية بشكل عام وبالتالي لم يعد المؤرخون يهتمون بذكرها •

على انه من الاساسي ان نذكر في هذا المجال ان العنصر العربي في المجتمع العباسي لم يضع كل مظاهر سيادته • فقد كانت أغلب الوظائف العليا في العهد العباسي الاول بيد العرب ، وكانت الاسرة الحاكمة نفسها عربية تعتز بنسبها العربي ، وكانت اللغة العربية والثقافة العربية لغة المجتمع ومادة ثقافته •

وقد أدت هذه السيادة العربية في نواحي اللغة والفكر الى ظهور الحركة الشعوبية بين أوساط المثقفين غير العرب ، وكان الهدف الاساسي لهذه الحركة هو اظهار فضل الشعوب غير العربية ـ ولا سيما الفارسية ـ التي كانت تدين بالاسلام وتنضوي تحت لواء الدولة العباسية ، في نواحي اللغة والثقافة والحضارة • ان ظهور الحركة الشعوبية لهو دليل على سيادة اللغة والثقافة العربية في المجتمع العباسي ومحاولة اعداء العروبة النيل من هذه السيادة •

شهدت هذه الفترة من تاريخ المجتمع العربي تغييرا أساسيا في معنى كلمة عربي • فلم تعد كلمة عربي تعني انسانا ينتسب بالدم الى قومية معينة وشعب معين ، بل أصبحت هذه الكلمة أكثر مرونة وأخذت تدل على كل المسلمين الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية • لقد جاء هذا التغيير في معنى كلمة « عربي » بنتيجة ارتفاع المستوى الاجتماعي لمن كانوا يسمون بالموالي أو بحصول هؤلاء الموالي أو المسلمين غير العرب على حقوقهم في المجتمع مما رفعهم وجعل العرب الاصليين لا يجدون غضاضة في قبولهم ضمن قوميتهم • وتبع هذا عملية تعريب واسعة ساعد عليها ـ حتى في المناطق النائية كغربي ايران ـ سكنى بعض القبائل العربية التي تركت شؤون الحرب في مختلف مناطق الامبراطورية العباسية • ولم تنته أيام الدولة العباسية حتى كانت كل عناصر المجتمع بما في ذلك غير المسلمين تتكلم اللغة العربية وتستعملها في طقوسها الدينية •

لقد حل في المجتمع الجديد عنصران جديدان كأساس للشرف عوضا عن الدم الذي كان أساس التقسيم الطبقي في عصر الدولة الاموية العربية • فقد أصبحت أعلى الطبقات طبقة غنية متعلمة بيدها السلطة وهي المهيمنة على شؤون الدولة • فالعنصران الجديدان اذن هما الغنى والثقافة اللذان حلا محلا الدم ليرفعا صاحبهما الى مكان الصدارة في المجتمع • ولا نحتاج لان نقول بأن الغنى والثقافة لم يكونا مقصورين على العرب فقط في العصر العباسي ولذلك فقد كانت الطبقة الارستقراطية تضم عناصر غير عربية شرفها مالها وعلمها •

بعد مضي أقل من مائة عام على تأسيس الدولة العباسية بدأت تظهر بوادر الضعف على جسد المجتمع العربي ، وضاق الخليفة المعتصم (٢١٨ هـ) بالعرب والفرس ونزاعهم المستمر فاستعان بالاتراك ظنا منه انهم بعيدون عن العصبية والشعوبية ، ولكن سرعان ما ظهر خطأ ظنه وبدأ عهد جديد من الصراع بين القومية العربية والقوميات الفارسية والتركية واضطرت القومية العربية والفارسية ان تتحد في بعض الاحيان للوقوف في وجه الخطر الجديد المتمثل في القومية التركية •

أدى صراع القوميات العربية والفارسية والتركية الى ضعف الدولة العباسية وتفتت المجتمع العربي وظهور الدويلات المستقلة عن جسد الدولة العباسية • كان بعض هذه الدويلات فارسيا وبعضها الآخر عربيا • فقد نجح بنو طاهر الفرس في اقامة دولة في شرقي فارس عرفت باسم الدولة الطاهرية سنة ٨٢٠ م ، ونجح

الصفاريون (فيسنة ٨٦٧ م) والسامانيون في (سنة ٩٨٢ م) وهم من الفرس أيضا في اقامة دولتين أخرتين في مواقع اخرى من فارس • وفي الغرب قامت دول مستقلة عربية في اسبانيا ومراكش وتونس • اما مصر فقد استولى على الحكم فيها واغتصب السلطة من العباسيين عبد تركي الاساس اسمه احمد بن طولون • ومنذ عهد الطولونيين بدأت بواكير الوحدة بين سورية ومصر ، فقد حكم الطولونيون مصر وضموا اليهم بعد هذا سورية ، وتمت هذه الوحدة أيضا في أغلب العهود التي قامت بعد ذلك في مصر • وفي سورية ظهرت في القرن العاشر الميلادي امارة الحمدانيين وهي امارة عربية حكمت حلب والموصل ، ولم يبق للخليفة العباسي الا حكم بعض اجزاء العراق •

استمرت سلطة الخلفاء العباسيين في التدهور وظهر أثر هذا التدهور واضحا منذ ايام المعتصم والواثق حين بدأ الخلفاء يسلمون قيادة جيوشهم الى قواد اجانب ما لبثوا أن اصبحوا أصحاب السلطة في البلاد • كان أغلب هؤلاء القواد من اصل تركي ولم يمض وقت طويل حتى تسلطوا على الخلافة نفسها وأخذوا يعزلون الخلفاء وأصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية في المجتمع العربي • أعقب هذا التسلط التركي ظهور وظيفة « أمير الامراء » التي كان صاحبها هو الحاكم الحقيقي للدولة عوضا عن الخليفة • وفي سنة ٩٤٥ م عاد النفوذ الفارسي الى الظهور باستلام البيت البويهي الحكم في الدولة العباسية • والبويهيون في الاساس عائلة فارسية كانت تحكم في منطقة غربي ايران ، وحين شعروا بقوتهم هاجموا عاصمة الخلافة العباسية واستلموا مقاليد السلطة ، وهكذا وقعت السلطة مرة ثانية في يد الفرس وان بقيت الخلافة اسميا في يد الخليفة العربي الدم من جهة الاب على الاقل •

اصبحت الخلافة العباسية وظيفة اسمية لا يملك صاحبها من القوة الفعلية شيئا ويزاول السلطة الفعلية للخليفة زالت الميزة التي احتفظ بها العنصر العربي طويلا وهي رئاسة المسلمين •

٣ ــ غزوات المغول والصليبيين وأفول نجم السلطة العربية في المجتمع :

ما كادت طلائع القرن الحادي عشر للميلاد تطل على المجتمع العربي الاسلامي حتى كانت علائم ضعف كثيرة قد ظهرت على جسد هذا المجتمع • كان من أهم مظاهر ضعف السلطة العربية في المجتمع فقدان الخليفة العربي سلطانه على المقاطعات البعيدة عن العاصمة وانتقال هذه السلطة الى ايدي القواد والامراء الذين استقلوا بحكم هذه المقاطعات • اصبح الخلفاء العباسيون في هذه الفترة مجرد لعب في ايدي هؤلاء القواد ولم يعد لهم أي نصيب فعلي في ادارة المملكة التي كانت تابعة لهم اسميا • لقد كان استلام الامراء البويهيين للسلطة في بغداد سنة ٩٤٥ م الحدث التاريخي الذي دق المسمار الاخير في نعش السلطة الفعلية للخلفاء العباسيين وفتح باب النفوذ غير العربي على مصراعيه •

وتجلي ضعف الجهاز السياسي للمجتمع حين تعرض هذا المجتمع في القرن الحادي عشر للميلاد الى سلسلة الهجمات البربرية في الداخل والخارج • ففي اوروبا تقدمت قوى مسيحية في كل من اسبانيا وصقلية وتمكنت بعد سلسلة من الهجمات من اغتصاب السلطة في هذين البلدين كانا جزء لا يتجزأ من الامبراطورية الاسلامية • وفي افريقيا قامت حركة دينية بين بربر جنوبي مراكش ومنطقة نيجيريا

والسنغال ، ويتم بنتيجة هذه الحركة قيام امبراطورية بربرية ضمت قسما كبيرا من شمال غربي افريقيا وبعضا من اجزاء اسبانيا التي بقيت تحت حكم المسلمين • وفي الشرق هاجمت القبيلتان العربيتان هلال وسليم اللتان كانتا تعيشان في مصر العليا ، هاجمتا ليبيا وأوقعتا اضرارا بهما وتمكنا في سنة١٠٥٦م من نهب القيروان •

كان كل هذا يجري والسلطة المركزية في بغداد عاجزة عن القيام بأي عمل في سبيل حماية هذه الاجزاء من الوطن التي كانت تنسلخ عنها وتذهب بالتبعية لغيرها •

في فترة الضعف هذه من حياة المجتمع العربي الاسلامي ، وعلى التحديد في سنة ١٠٩٦ للميلاد بدأت غزوات الصليبيين تتوافد على الوطن العربي •

ورغم الظاهر المثالي الذي حاول ارباب الحملات اخفاءه عليها ورغم الشعارات الدينية التي حاول الصليبيون ان يتستروا ورائها ، فان هذه الحملات كانت أقدم تجربة في تاريخ التوسع الاستعماري الاوربي الذي كان يهدف الى استغلال خيرات هذه البلاد وامتصاص دمها •

كانت الاهداف الاستعمارية الاقتصادية هي المحرك الاساسي لهذه الحملات وكان الدين غلافا ظاهريا التحف به المستعمرون الاوروبيون الاول وحاولوا ان يغلفوا به حركتهم • لقد كان الصليبيون الذين قدموا الى هذه البلاد في غالبيتهم العظمى تجارا من ابناء الامارات التجارية الايطالية لهم علاقة قديمة مع بيزنطة والدولة الفاطمية في مصر ويريدون ان يصلوا الى منابع المواد الخام التي تشكل هذه التجارة ، وكانوا امراء مغامرين يريدون توسع رقعة ملكهم ، وكانوا امراء شباب يريدون انشاء مستعمرات يحكمونها ، وكانوا مذنبين يبحثون عن التوبة ولكنهم لم يكونوا كما حاولوا ان يصوروا حماة للقبر المقدس ومدافعين عن حرية الحجاج المسيحيين في طريقهم الى الاراضي المقدسة •

وفي السنين الثلاثين الاولى ساعدت تفرقة المسلمين وانقسامهم الى شيع ودول على تسهيل مهمة الصليبيين وفتحت الطريق امامهم للتقدم على طول الشاطيء السوري حتى وصلوا الى فلسطين وانشأوا سلسلة من الامارات اللاتينية الاقطاعية اهمها انطاكية والرّها وطرابلس والقدس • لقد كانت اهداف الصليبيين الاستعمارية في هذه الفترة واضحة اشد الوضوح وبدت على حقيقتها في النظم الاقطاعية التي تبنتها هذه الامارات اللاتينية على طول الشاطىء السوري وفي محاولتها لاستغلال خيرات البلاد الاقتصدادة دون أي التفات للشعارات الدينية التي حملها الصليبيون وصدّروا حملاتهم •

ولعل ما يجلب الانتباه في هذه الفترة هو التأثير القوي للمجتمع العربي في سورية على هذه الموجات الصليبية ، هذا التأثير الذي تجلى في تبني المستعمرين الصليبيين لكثير من مظاهر الحياة المحلية لا سيما في نواحي العادات والتقاليد واللباس والزواج وغير ذلك وقد وصف احد مؤرخي الحملة الصليبية الاولى Fulcher de Chartres هذا التأثير العربي السوري بقوله : « لقد اصبحنا الآن نحن الغربيين شرقيين • لقد اصبح من كان منا ايطاليا او فرنسيا جليليا (من سكان الجليل) أو فلسطينيا ، واصبح من كان من سكان ريمس Rheims أو شارتر Chartres في فرنسا » صوريا (نسبة الى صور)

أو انطاكيا • لقد نسينا الاماكن التي ولدنا فيها وغدا الكثيرون منا يجهلون هذه الاماكن التي ما عادوا يسمعون بها ، لقد اصبح لنا بيوتا في هذه المناطق وتزوجنا بالسوريات والارمنيات والعربيات المسيحيات فغدا من كان غريبا من ابناء البلاد ومن كان مهاجرا اصبح مواطنا أصيلا •

ويلحق بنا في كل يوم اهلنا واقربائنا الموجودون في الغرب تاركين وراءهم ما يملكون لانا اصبحنا هنا من الاغنياء وتبدلت قروشنا القليلة بكميات من الذهب والفضة وممتلكاتنا الصغيرة هناك بممتلكات كبيرة هنا • فلماذا نعود الى الغرب ما دام الشرق يمنحنا كل هذا الغنى وهذه الخيرات » • وتشبه هـذه الملاحظة في مدلولها ملاحظة اخرى للمؤرخ السوري اسامة بن منقذ (من القـرن الثاني عشر) الذي يقول ان بعض الفرنجة الذين استقروا في بلاد الشام وسكنوا جنبا الى جنب هم أفضل من الآخرين الذين يجيؤون مع الموجات الصليبية الجديدة •

هذا ولا بد من الاشارة الى ان الصليبيين حتى في الفترة من تاريخ حملاتهم على هذه البلاد لم يتمكنوا من السيطرة الا على بعض مناطق الشاطىء السوري فظل القسم الداخلي من البلاد بمنأى عن نفوذهم وبعد العدة للانقضاض عليهم وطردهم مما اغتصبوه من ارض الوطن • ففي سنة ١١٢٧ قام ضابط سلجوقي اسمه زنكي واستولى على مدينة الموصل وانشأ دولة اسلامية قوية في شمال بلاد ما بين النهرين وسورية، وتمكن نور الدين بن زنكي هذا من احتلال دمشق في سنة ١١٥٤ م وبهذا الشكل قامت في سورية دولة اسلامية أخذت على عاتقها أمر الوقوف في وجه الخطر الصليبي • ولم يكن بمكنة هذه الدولة الجديدة ان تضمن النجاح في وجه الخطر الصليبي الا اذا أتيح لها تعاون وثيق مع مصر التي كان يحكمها الفاطميون الذين كانت دولتهم تلفظ انفاسها • وتمكن صلاح الدين الايوبي (الذي كان قائدا في خدمة الزنكيين وعمل كوزير للفاطميين أول الامر) من ان ينهي حياة الدولة الفاطمية وان يجمع لشخصه فيما بعد (بعد وفاة نور الدين بن زنكي) حكم مصر وسورية معا وان يضمهما في وحدة جبارة تقف سدا منيعا في وجه الصليبيين وتكبدهم الخسائر • وقبل ان يتوفى صلاح الدين سنة ١٩١٣ م كان قد تمكن بفضل جيشه السوري المصري القوي وبفضل قيادته الحكمة من احتلال القدس وطرد الصليبيين من سائر مناطق الساحل السوري عدا منطقة صغيرة تتشكل من عكا وصور وطرابلس وانطاكية •

ولم يتح لهذه الوحدة بين سورية ومصر ان تعيش طويلا بعد وفاة صلاح الدين ، فقد انقسمت سورية زمن خلفائه الايوبيين الى عدة دول صغيرة وبقيت مصر وحدة سياسية قوية تمثلت فيها مناعة الوطن العربي في وجـه الاخطار التي كانت تحيق بـه • وبفضل مصر نجـا الشرق الاسلامي في هذه الفترة من حياته من الحملات المتكررة التي كانت تهدف الى احتلال رقع جديدة من وطن المجتمع العربي •

ورغم الاضرار التي ألحقتها الحملات الصليبية بهذا الوطن فقد كان لهذه الحملات فضل توحيد ابناء الوطن العربي وجمع شملهم لمجابهة خطر خارجي استعماري جـاء يتهددهم في عقر دارهم ، فتآلفت القلوب وانطلقت القوى لرد هذا الخطر الداهم ، وكان لهذه الحروب ايضا آثار هامة في تنشيط تجـارة الوطن العربي ، فقد ازدهرت امارات تجارية على شواطىء الساحل السوري واقامت علاقات تجارية مع امارات

اوروبا التجارية واستمرت هذه العلاقات التجارية بعد استرداد المسلمين العرب لسيطرتهم على هذه الامارات وظلت عمليات الاستيراد والتصدير مستمرة بين الشرق والغرب • ويقول صلاح الدين الايوبي في أحد كتبه الى الخليفة العباسي في بغداد ان البندقيين والجنوبيين والبيزيين (سكان بيزا) يجلبون الى مصر أحسن منتجات الغرب ، لاسيما الاسلحة والمعدات الحربية ، وان هذا كسب للاسلام وضرر للنصرانية • ويبدو ان نظرية صلاح الدين هذه كانت صحيحة الى حد كبير اذ اننا نرى ان الكنيسة تغضب أشد الغضب لهذه التجارة وتهدد بالطرد لكل من يقوم بتجارة مع المشرق •

وما كاد الخطر الصليبي ينحسر قليلا حتى قام خطر جديد يهدد المجتمع العربي قادم هذه المرة من المشرق وليس من الغرب • ففي شرق آسيا قام جنكيز خان ووحد قبائل منغوليا ودفعهم في عملية فتح كانت من اهم احداث التاريخ البشري • وتمكنت جيوش هولاكو في منتصف القرن الثالث عشر من فتح جميع اقاليم العالم الاسلامي حتى مصر • (هولاكو قائد من قواد جنكيز خان وأحد امراء المغول) • وفي سنة ١٢٥٨ م تمكن هولاكو من اجتياح بغداد وقتل الخليفة العباسي وانهاء الخلافة العباسية كلها •

كان معنى انهاء الخلافة العباسية على أيدي المغول ، هذه الخلافة التي كانت تستقطب حولها ولو نظريا فكرة السلطة العربية في المجتمع ، ان صفحة طويت في حياة هذا المجتمع وان صفحة جديدة قد بدأت • فبالرغم من ضعف الخلافة العباسية الذي بدأ منذ أمد طويل ، وبالرغم من تسلط عناصر مختلفة على جسد هذه الخلافة ، فقد كانت السلطة الاسمية في المجتمع سلطة عربية تشتمل في شخص الخليفة العباسي العربي • ولكن الآن وبعد سقوط بغداد فقد زالت السيادة الاسمية للعرب نهائيا والى غير ما رجعة ، أو على الاقل زالت حتى مطلع فجر نهضتنا الحديثة حين عادت السيادة السياسية للعرب في بلادهم ومواطنهم •

الى جانب هذه الضربة الساحقة للسيادة العربية السياسة ، كان للغزو المغولي آثار مخربة في نواحي اخرى من نواحي حياة هذا المجتمع • لقد كان المغول حين هاجموا اقاليم الوطن العربي وثنيين لايعرفون الوحدانية ، كما انهم لم يكونوا اصحاب ثقافة وحضارة ؛ لذلك حلت النكبات انّى حلّوا وهدموا ماكان يصاددفهم من معالم حضارية وثقافية • وقد ظهرت آثار النكبة المغولية باجلى صورها في العراق الذي أصبح جزء من الامبراطورية المغولية كان مركزها في فارس ، وقد نجت مصر وسورية من الخطر المغولي بفضل حكامها الامويين •

وللمرة الثانية منذ ضعف السلطة المركزية العباسية تحقق سورية ومصر الوحدة • فبعد الوحدة السورية المصرية ايام صلاح الدين ، تقوم الآن وفي القرن الثالث الميلادي وحدة جديدة بين هذين الاقليمين من اقاليم الوطن العربي تحت حكم السلطان بيبرس ، وتشاء الصدف والظروف السياسية ان يكتب الله لهذه الدولة الموحدة المصرية السورية عمرا أطول من عمر سابقتها ايام صلاح الدين • • وكأن النكبات كانت دوما تشد مصر وسورية بعضهما الى بعض ، فنكبة الصليبيين ايام صلاح الدين ، ونكبة المغول ايام بيبرس ، ونكبة فلسطين في عصرنا الحاضر كانت كلها عوامل في التقارب والتآلف بين هذين القطرين القطرين العربيين •

وعلى يد بيبرس أنقذت مصر وسورية من الخطر المغولي وتحطمت آخر المراكز الصليبية في سورية •
وهكذا خضعت اكثر اقاليم الوطن العربي في هذه الفترة من تاريخها الى حكم المماليك • ولعل أهم ما يدين به المجتمع العربي لهؤلاء المماليك هو دفاعهم المستميت المخلص عن التراث الحضاري الاسلامي الذي كان أهم ما يعتز به هذا المجتمع في هذه الفترة من حياته • وفي القرن الخامس عشر للميلاد بدأت قوة سياسية جديدة تظهر وسيتاح لهذه القوة ان تستلم زمام السلطة السياسية في اغلب اقاليم الوطن العربي • هذه القوة هي الاتراك العثمانيون الذين قاموا في رقعة قريبة من عالمنا العربي (آسيا الصغرى) وما لبثوا ان مدوا نفوذهم على جزء كبير من هذا العالم •

لقد تمت خلال الفترة الطويلة ثلاث تغييرات هامة كان لها أثر على حياة المجتمع العربي :

١ — تحول النظام الاقتصادي في اقاليم الوطن العربي من نظام يعتمد على النقد والتجارة يعتمد على الاقطاع الزراعي وتجارة الترانزيت التي لعبت دورا ثانويا الى جانب الاقطاع الزراعي •

٢ — انتهاء الاستقلال السياسي لسكان المدن العرب وغيرهم من المتكلمين بالعربية واستبدالهم بالاتراك• اما افراد القبائل العربية فبالرغم من المحاولات المختلفة لسلبهم استقلالهم السياسي واخضاعهم للسيطرة التركية او المملوكة أو غيرها فقد ظلوا محتفظين باستقلالهم ورفضوا سيطرة العناصر الاجنبية غير العربية عليهم •

٣ — انتقال مركز الثقل السياسي للمجتمع العربي من العراق الى مصر • فقد كان للفوضى التي سادت العراق بسبب الحوادث السياسية الكثيرة التي تتالت عليه ، ولبعده عن البحر الابيض المتوسط مركز العمليات التجارية الضخمة ومنطلق الكثير من الجيوش الغازية ، أثر كبير على جعل العراق غير ملائم للقيادات العربية في هذه الفترة من تاريخ المجتمع العربي • وكانت مصر الاقليم العربي الوحيد الملائم لهذه القيادة ، فقامت فيها حكومات كانت أقوى الحكومات التي تستطيع قيادة الشرق العربي •

رافق انتقال السيادة السياسة الى غير العرب في هذه الفترة ازدهارها آداب وثقافات عربية تعيش في بلاطات الحكام والسلاطين غير العرب • فقد ازدهر في أول الامر أدب وثقافة فارسيان اسلاميان ، ثم تبع ذلك ازدهار أدب وثقافة تركية تبعا لانتقال السلطة السياسية للاتراك • ومنذ عصر السلاجقة اصبح استعمال اللغة العربية مقتصرا على اقاليم الوطن العربي فقط اما بقية الاقاليم الاسلامية فقد غدت تستعمل لغتها المحلية وان يكن استمرت المؤلفات الدينية تكتب في أكثر الاحيان بالعربية بقطع النظر عن أوطان مؤلفيها • وقد رافق انتقال مركز الثقل السياسي العالم العربي من الشرق (أي العراق) الى الغرب (أي مصر) ازدياد أهمية مصر وسورية كمركزين للثقافة العربية •

المجتمع العربي أيام العثمانيين وبوادر النهضة القومية

قبل الفتح العثماني كانت السلطة السياسية في المجتمع العربي بيد طوائف غير عربية هي في أساسها غريبة عن هذا المجتمع ولا تربطهما بـه الا صلـة الدين • هذه الطوائف الشركسية والتركية والكردية والمملوكية حلت محل الارستقراطية العسكرية العربية في الدفاع عن الاسلام وأقامت حقها في الحكم على أساس من قوتها العسكرية وعصبيتها القومية • وفي عهد هذه الطوائف غير العربية نلاحظ للمرة الاولى ان الدفاع عن الاسلام لم يعد امتيازا عربيا ووقفا على العرب ، بل اصبح أمرا تتساوى فيه كل الطوائف المسلحة • وقد انبرت هذه الطوائف غير العربية لصد هجمات الصليبيين والمغول وحدة المجتمع واستقلاله من خطرين دداهمين هدداه في عقر داره •

وفي مطلع القرن السادس عشر انتقلت السلطة السياسية في أغلب اقاليم المجتمع العربي الى الدولة العثمانية فقد فتح السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ م مصر وكان قد وطد نفوذه قبلها في الشام • واثناء وجوده في مصر أتته رسل من شريف مكة وأعلنوا له خضوعهم وسلموه مفاتيح البلد المقدس ولقبوه بلقب خادم الحرمين الشريفين مما رفع مكانته في العالم الاسلامي • وفي عهد سليمان القانوني ـ خليفة السلطان سليم ـ امتدت السيطرة العثمانية في البلاد العربية الى الساحل الشمالي لافريقية في الغرب والى اليمين وعـدن في الجنوب • وما جاءت نهاية حكم السلطان سليمان في سنة ١٥٦٦ م حتى كان النفوذ العثماني في الوطن العربي تاما ومستحكما ويمتد دون انقطاع من الجزائر الى الخليج العربي ومن حلب الى المحيط الهنـدي •

وقد دامت السيطرة العثمانية على تلك الحدود كاملة حتى نهاية القرن اللثمن عشر رغم ما كان يعتور هذه الدولة من مشاكل ورغم ما كان يصيب هـذه السيطرة من ضعف مؤقت ومحلي في بعض الاحيان •

كان الحكم العثماني حكما اسلاميا من حيث الاطر السياسية التي تنتظم المجتمع • ولكنه كان حكما أقل ما يقال فيه انه كان فاسدا مهملا لكل نواحي الاصلاح الاجتماعية او الاقتصادية او الثقافية ، مما أدى الى تخلف المجتمع العربي وتوقفه عن التقدم ومسايرة الركب الحضاري العالمي •

ولا مجال هنا لسرد التفاصيل الكثيرة التي تبرز ما أصاب هذا المجتمع من ركود في مختلف الميادين ، ويكفي ان نقول انه بنتيجة الحكم العثماني نام المجتمع العربي اربعة قرون من الزمان كان العـالم خلالها يسير بخطى حثيثة نحو التقدم وينتقل من القرون الوسطى الى القرون الحديثة •

وجدير بالملاحظة ان الحكم العثماني في هذه البلاد واجه صعوبة كبيرة منذ أولى ايامه في مد سلطانه السياسي على القبائل العربية التي كانت تقطن في بعض اقاليم الوطن العربي وقد كانت هذه القبائل العربية الثائرة والمتمردة على النفوذ التركي شوكة دائمة في حلق الولاة والباشوات الاتراك الذين عهـد اليهم بحكم المقاطعات العربية ، اما السكان العرب الذين كانوا يقطنون المدن والمستقرون في الارض فقد مثلوا صعوبة اخرى كبيرة بالنسبة للعثمانيين وذلك بعدم استجابتهم للمحاولات المتكررة التي كانت تهدف لتتريكهم وسلخهم عن قوميتهم • فقد ظلت العناصر العربية في المجتمع غير آبهة بما يبذله الحكام الاتراك

من محاولات لتتريكهم وكلما تمادى الاتراك في ضغطهم كلما ازدادت المحاولات العربية المعاكسة • ويلاحظ بعض الباحثين الغربيين من امثال (جب وباون) بانه فيما عدا الاستقراطية العسكرية التركية ، فقد كان التأثير العثماني ضعيفا جدا في النواحي الادارية للمقاطعات العربية • ويبدو اكثر من هذا ان التأثير كان عكسيا، فقد اثر العرب في الاتراك العثمانيين في نواحي مختلفة وصبغوهم بمعطيات مدنيتهم • ويعتقد المستشرقان (جب وباون) ان هذا التأثير تم بنتيجة تزاوج افراد الحاميات التركية بفتيات عربيات ومن مرور الاجيال نسي هؤلاء الاتراك اصلهم واندمجوا لغة وتقاليد بالمجتمع العربي •

ويتضح التأثير العربي في العثمانيين في مجال الادارة ، فقد استعملت الادارة العثمانية وظائف موروثة من الادارة العربية القديمة واستعملت المصطلحات الادارة العثمانية وظائف موروثة من الادارة العربية القديمة واستعملت المصطلحات الادارية العربية وتبنتها • وفي حقل اللغة كان التأثير العربي أشد وضوحا اذ ان التفوق العربي أجبر العثمانيين على استعارة مصطلحات كثيرة منهم ، واتصال هذه المصطلحات بالمظاهر الحضارية للحياة دليل على التفوق الحضاري العربي على العثمانيين • وقد كانت سورية الشمالية (ولا سيما منطقة حلب) اكثر المناطق العربية تأثرا بالعثمانيين ، ولكن هنا ايضا نلاحظ ان التأثير العثماني كان واضحا فقط في الطبقات العليا المقربة من الطبقة الحاكمة • اما في دمشق فانا نلاحظ ان استعمال اللغة التركية كان مقتصرا فقط على اقلية ضئيلة من الناس الذين تلقوا علومهم في استنبول • وهكذا يتضح ان الغالبية العظمى من افراد المجتمع العربي بمنجاه عن التأثير العثماني وان احتكاك المجتمعين العربي وقوة تأثيره ونفوذه •

كانت السلطة العثمانية في الغالب متفككة وغيرمستقرة وكثيرا ما تتعرض لهزات سياسة بسبب تمرد الولاة والحكام المحليين والزعماء الوطنيين • ويحاول بعض الباحثين في تاريخ الحركات القومية العربية تصوير العصيانات السياسية التي قام بها بعض الحكام في المقاطعات العربية بشكل محاولات المقصود منها تخليص المجتمع العربي من حكم الاتراك العثمانيين واقامة دولة عربية واحدة تضم اجزاء الوطن العربي الواقعة تحت حكم العثمانيين • ويذكرون كدليل على هذا ثورات فخر الدين المعني وظاهر العمر ومحمد علي باشا وغير ذلك ، ممن قاموا بمحاولات لاستلام السلطة من العثمانيين • ومن نافلة القول ان نذكر ان أهداف هؤلاء « العصاة » كانت شخصية اكثر منها قومية وان محاولاتهم لم تترك أثرا ظاهرا في نشوء الحركة القومية للامة العربية •

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت الروح تستيقظ في الاقاليم العربية التي كانت تحت حكم العثمانيين • ولا شك ان ظهور فكرة القومية التي اكتسحت الغرب في هذا القرن كان من جملة العوامل التي ساعدت على انبعاث الوعي القومي عند العرب • ولقد اتخذت القومية العربية في انبعاثها نفس المظاهر التي اتخذتها في ايطاليا والمانيا وبلاد البلقان وغير ذلك ، فبدأت بشكل ثقافي يهدف لاحياء التاريخ العربي واللغة العربية والامجاد العربية ، وظلت تسير بهذا الاتجاه حتى فاجأها الضغط القومي التركي الهادف الى تتريك العناصر القومية المختلفة التي تشكل العالم العثماني • حينذاك برزت لدى العرب الفكرة الاستقلالية الكاملة وبدأ العمل الثوري الفعال الهادف الى التحرر السياسي •

الحضـارة العربيـة

في الحديث عن الحضارة العربية لا بد من التفريق بين عصرين ، كان الخط الفاصل بينهما ظهـور الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي طبع عالم العروبة بطابع جديد جعله يختلف كثيرا في حاضره المسلم عن ماضيه الوثني . ولم يكن الاسلام بالنسبة للعرب دينا فحسب بل كان ايضا طريقا في الحياة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والفن والفكر والمأكل والملبس ، أو بكلمة اخرى كان الاسلام روحا جديدة تحل في الجسد العربي فتحيله خلقا يختلف في الكثير من مقوماته عما كان عليه من قبل . ويجعلنا هذا مضطرين لان تتحدث عن حضارتين عربيتين : حضارة سبقت ظهور الاسلام وحضارة بعده .

الحضارة العربية قبل الاسلام : قامت في جنوب الجزيرة العربية وشمالها وعلى الاطراف حضارات قديمة عريقـة ، يعود تاريخها الى الالف الثانية قبل الميلاد . ولعل أقدم حضارات الجزيرة تلك التي قامت في اليمن والتي عرّفها الكتّاب الكلاسيكيون باسم بلاد العرب السعيدة . ففي تلك البلاد وبسبب من موقعها الجغرافي على طريق التجارة القديم بين الشرق والغرب ولما تتمتع به أرضها مـن خصب وانبات ساعد على اقامة مجتمع مستقر منذ أقدم الازمنة . وقد تعاقب على حكم اليمن دول عديدة كدولة معين وسبأ وحمير وقتبان واوسان وغيرها . وكانت هذه المنطقة لا تقوم بدور الناقل لتجرة الشرق الاقصى القديم الى اوروبا فحسب ، بل كانت تساهم بما تنتجه ارضها من مر وطيوب وتوابل ولبان ، فتحمله قوافلها الى اسواق العالم المتحضر آنذاك . وكانت سوقا تجتمع فيها البضائع المختلفة كمصنوعات الهند وحرير الصين وعبيد الحبشة وعاجها وريش نعامها ولؤلؤ الخليج العربي وغيرها ، وتصدر بعد ذلك الى الدول المتمدنة في الغرب . وقد برع اليمنيون في شؤون الملاحة وأقاموا الابنية الضخمة والسدود والاقنيـة لري الاراضي وتنشيط الزراعة ، كما أقاموا المعابدوالانصاب التذكارية، واستمر ازدهارهم طالما احتكروا التجارة في البحر الاحمر ولكن حدث في نهاية عصر البطالمه ان رجلا اسمه هيبالوس قام برحلة بحرية الى الهند بعد ان تعلم اسرار الرياح الموسمية واصول الملاحة في البحر الاحمر . وقد كان لهذا الاكتشاف أهمية كبيرة اذ انه كسر الاحتكار اليمني لخطوط الملاحة في المحيطـات والبحار وبالتالي قضى علـى السيطرة العربية على طرق التجارة . وقد ادى هذا الانحطاط الاقتصادي في جنوبي الجزيرة الى انحطاط سياسي والى تدخل قوى اجنبية كالاحباش والفرس وسيطرتهم علـى البلاد .

وكما قامت حضارة زاهرة في جنوب الجزيرة العربية ، قامت دول وحضارات اخرى في الاطراف وفي بلاد الهلال الخصيب . من هذه الحضارات حضارة الانباط «وتدمر والغساسنة والمنازرة» . فقدحل في منطقة وادي موسى في القرن السادس قبل الميلاد واستولوا على البتراء من الأدوميين . وقد كانت البتراء منذ القرن الرابع قبل الميلاد محطة هامة على طريق القوافل التجارية التي تسير بين سبأ والبحر الابيض المتوسط . وكـان اشهر ملوكهم الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ ق . م) الـذي استعان بصناع وبنائين يونانيين وسوريين جملوا له عاصمته وبنوا له بناء الخزنة المعروف اليوم باسم خزنةفرعون. وكانت البتراء على

نسق المدن الهللنستية بمسرحها ومعابدها وابنيتها المختلفة • وقد احتكرت البتراء تجارة المنطقة الممتدة من بصرى الى دمشق الى ايلة على البحر الاحمر وغزة على البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربي • وقد اتسع نفوذ الانباط التجاري حتى وصل الى بقاع العالم المتمدن المختلفة ، فقد وجدت كتابات نبطية في بتيولي ميناء رومة وفي العقير على الخليج العربي ورودوس ومليتوس وغيرها • حتى ان بعض الوثائق الصينية تذكر أشياء عن نشاط الانباط في حقل التجارة • وتتألف تجارة الانباط مما كانت تحمله من مر ولبان وطيب من جنوب الجزيرة العربية ، ومصنوعات دمشق الحريرية وزجاج وارجوان صور وصيدا ولؤلؤ الخليج العربي وكان الانباط ينتجون الذهب والفضة وزيت السمسم والقار من سواحل شرقي البحر الميت • وكانت لغة الانباط العربية ، وهي لهجة من لهجات عرب الشمال ، وكانوا يكتبون بالاحرف الآرامية لعدم وجود احرف عربية في عصرهم اما دياناتهم فكانت تشبه الديانات السامية الوثنية التي تهتم بقوى الطبيعة وعبادة الاماكن والمظاهر الطبيعية • وكان من اعظم آلهتهم ذو الشرى واللات ومناة والعزى وغيرها وتتشابه هذه الآلهة بآلهة المراكز الحضارية المجاورة كتدمر وبعلبك ومنبج • وقد اتخذت هذه الآلهة في العصر الهللنستي الروماني اسماء هيللينية ، ويعتبر هيرودوت اللات النبطية نفس افروديت اورانيا ودوي الشرى مقابل ديونيوس عند اليونان • وكانت الحياة الاجتماعية عند الانباط حياة رافهة متقدمة والناس مؤمنون بالنظام والديمقراطية وحب العدالة مما ادى الى انعدام وجود المحاكم وسيادة السلم بين أفراد المجتمع • وقد امتاز الانباط ببراعتهم في فن العمارة ، ومن اشهر مخلفاتهم العمرانية القبور والمعابد والقصور المحفورة في الصخر وهيكل الخزنة والدير وغير ذلك • وكانت ابنيتهم تزين بالنقوش والزخارف والمنحوتات ، كما برعوا في صناعة الخزف وتزيينه وتدل على ذلك المخلفات الخزفية الكثيرة التي تبقت من عصرهم • وقد بلغ من براعتهم في فن العمارة والبناء ان استطاع العلماء كشف ما يزيد على خمسمائة موقع اثري نبطي منتشرة في المنطقة الممتدة بين العقبة والبحر الميت •

وبعد انحطاط البتراء ، عاصمة الانباط ، وتدهور سيادتها السياسية ظهرت مملكة تدمر • وتعود نشأة تدمر وازدهارها الى عاملين اساسيين : أولهما وجود ينابيع وعيون مائية جعلت منها واحة تلجأ اليها القوافل العطشى بعد مسيرة طويلة في الصحراء ، وثانيهما وقوعها على طريق قوافل التجار التي تقع بادية الشام في تنقلها بين الشرق والغرب • وتاريخ تدمر قديم فقد ورد ذكرها في النصوص الآشورية التي تعود الى بداية الالف الثانية قبل الميلاد ، وينسب الرواة العرب بناءها الى الجن بأمر سليمان بسبب عظمتها وضخامتها • وكان لوقوع تدمر بالقرب من مركزين حضاريين ضخمين ، الفرس من جهة والرومان من جهة اخرى ، أثر كبير على تقدمها وازدهارها • كما أدى بالتالي الى وقوعها في دوامة السياسة الدولية آنذاك وخضوعها للاستعمار الروماني فيما بعد وهكذا فنشأة تدمر اذن ، كسابقتها البتراء ، مرتبطة بمرور القوافل التجارية في أرضها وبمساهمتها في العمليات التجارية بين عالمي الشرق والغرب القديمين• كانت تدمر تفرض الرسوم على البضائع التي تمر بأرضها لقاء حمايتها لقوافل التجارة ، وكانت من جهة أخرى تسهم بنفسها بهذه العمليات التجارية التي تتم مع الصين والهند وفارس وغيرها • وقد أدى هذا الوجود التجاري لتدمر الى تأثر مختلف جوانب الحياة العامة به • فالتجار طبقة محترمة في المجتمع ،

والتنظيم البلدي تنظيم للتجارة فيه دور كبير ، وقل الأمر نفسه عن التنظيم المالي للدولة ومجلس المدينة وغير ذلك . وتظهر النقوش التدمرية هذا الاحترام للتجار ، فتذكر هذه النقوش ان مجلس المدينة قد أقام التماثيل « لرئيس القافلة » و « لرئيس السوق » وغيرهم من الشخصيات التجارية الهامة .وكما كان التجار من علية القوم ، فقد كان كذلك رجال الصناعة والزراعة . وقد أدى الازدهار الاقتصادي بنواحيه الثلاث : الزراعة والصناعة والتجارة الى ازدهار مدينة تدمر نفسها وظهورها بمظهر المدن الراقية العظيمة. اذ تدل الآثار الباقية منها انها كانت تحوي على الشوارع المرصوفة التي تحف بها الاعمدة ، والساحات الواسعة والمسارح والمعابد والمباني العامة المبينة على الطراز الهايليني . وكما هو معروف فقد وقعت تدمر منذ مطلع القرون الميلادية تحت السيادة الرومانية ، وفي القرن الثالث للميلاد اصبحت تتمتع بصفة مستعمرة رومانية وأعفيت من الرسوم الجمركية . وكانت قبل ذلك في زمن ملكها اذينة (مات سنة ٢٦٦ م) وزوجته زنوبيا قد وصلت الى أوج مجدها . وكان بلاط زنوبيا مثل بلاط اكاسرة الفرس في ابهته وعظمته وآداب السلوك فيه . وكانت زنوبيا ترتدي الاجوان والجواهر وتركب العربات وتتكلم عدة لغات الى جانب لغتها الاصلية كالآرامية واليونانية واللاتينية . وكان الفيلسوف الحمصي الاصل لونجينوس مستشارها الخاص . وقد اتسعت رقعة مملكتها لتضم سورية وبعض الاناضول وشمال الجزيرة العربية. وفي سنة ٢٧٠ م استطاع احد قوادها ان يصل الى مصر وان يحتل الاسكندرية وان يتركها بعد ان وضع فيها حامية من جنده . وقد تلقبت زنوبيا بلقب اوغسطا ولقبت ابنها وهب اللات باغسطس وملك الملوك . وكانت حاميات من جندها تتمركز في الاناضول حتى انقرة . وبعد سقوط زنوبيا اسيرة في يد الرومان وزوال ملكها وخضوع تدمر للرومان بدأ نجم الحضارة التدمرية بالأفول ، وغدت تدمر قرية صغيرة ودخلت في طي النسيان . ان الحضارة التدمرية مزيج رائع من عناصر مختلفة بعضها سوري وبعضها يوناني وبعضها فارسي ، ويعتبر مؤرخو الفن في تدمر صلة الوصل بين فنون بلاد ما بين النهرين من جهة والفن الفينيقي والمسيحي من بعده من جهة اخرى . وسكان تدمر عرب امتزجوا بالآراميين واتخذوا اللغة والكتابة الآرامية . وقد اشتهرت تدمر بآثارها الفخمة التي ما تزال قائمة في قلب البادية كشاهد على حضارة عربية قديمة زاهرة . فهناك المدافن التي تشبه الابراج وتحوي على عدد كبير من التماثيل (كمدفن يرحاي الموجود في متحف دمشق) وهناك المسرح المدرج والمعبد المعروف باسم معبد الاله بعل وشارع الاعمدة الذي يبلغ طوله حوالي ١١٠٠ م وفيه ٣٧٥ عمودا ارتفاع كل منها ما يقارب الـ ١٨ م وفي اعلى كل عمود تمثال لشخصية من شخصيات المدينة . وقد عبد التدمريون آلهة شبيهة بالآلهة السورية والبابلية والايرانية . واكبر الآلهة هو بعل الذي يشابه مردوخ البابلي او الاله زوس اليوناني . وعدا معبد بعل ، كان هناك معابد أصغر كمعبد بعل شمين وغيره .

وحتى تكتمل الصورة السريعة التي نحاول رسمها للحضارات العربية قبل الاسلام لابد لنا من الحديث عن حضارة المناذرة والغساسنة وعرب الحجاز قبل ظهور الاسلام . وليس يهمنا في هذا المجال ان نستعرض التاريخ العسكري لهذه الدول ، ويكفي ان نقول ان المناذرة والغساسنة من قبائل عرب الجنوب التي تركت ديارها بسبب انحطاط الاوضاع الاقتصادية في اليمن ، واستقر المناذرة اللخميون في العراق غربي

الفرات ، كما استقر الغساسنة في حوران في جنوب بلاد الشام . وقد خضع الغساسنة للتبعية البيزنطية ، كما خضع المناذرة للتبعية الفارسية ، وقامت بين القبيلتين الشقيقتين حروب كثيرة ومعارك ضارية كجزء من الصراع الذي كان يدور في المنطقة بين الفرس والروم البيزنطيين . ولم تبلغ الحيرة ، عاصمة المناذرة اللخميين ، المستوى الحضاري الذي بلغته حواضر الدول التي قامت على الارض العربية في اليمن وسورية ووادي موسى . ولكن رغم هذا فقد أخذ بلاط الحيرة الشيء الكثير من معطيات الحضارة الفارسية المعاصرة وبقايا حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة . وكان عرب الحيرة يتكلمون اللغة العربية في حياتهم اليومية ، وكان بلاط الحيرة مشهورا بالترف ، واشتهرت الحيرة نفسها كمركز من مراكز اللهو والحانات عند عرب الجاهلية . وقد بنى الملوك اللخميون القصور ، وحديث الخورنق والسدير ليس بغريب عن أحد . وقد تخربت الحيرة بعد انشاء مدينة الكوفة زمن عمر بن الخطاب وهاجر أغلب سكانها الى المدينة الجديدة . وهكذا لم يبق من آثار الحيرة سوى اطلال وخرائب تقع بين الكوفة والخورنق . ولم تشتهر الحيرة بانها كانت مركزا علميا ، ولذلك كان سكانها المسيحيون الذين يريدون الدراسة يذهبون الى جند يسابور . ويبدو أن اهمية الحيرة كانت تنحصرفقط في كونها مركزا تجاريا هاما .

أما الغساسنة فقد كان لموقعهم اهمية تجارية وعسكرية معا . وكانت عاصمتهم التجارية زمن الملك الغساني الشهير الحارث الثاني الذي عينه الامبراطور جستنيان سيدا على القبائل العربية في سورية ومنحه لقب ميلارك ، مدينة بصرى . وقد وصلت ذروتها في هذا العهد واصبحت المملكة الغسانية تمتد من البتراء حتى الرصافة . أما العاصمة السياسية ، فكانت مخيما متنقلا في أولا الامر ومن ثم أصبحت الجابية في الجولان (أو على زعم آخر جلق التي يحتمل ان تكون الكسوة اليوم .) وقد استعمل الغساسنة اللغة العربية للتخاطب وكانت الى جانبها اللغة الآرامية للمناسبات الرسمية . وكان بلاط الغساسنة مزدهر زاره عدد الشعراء العرب ووصفوه في شعرهم وفي الروايات التي تنسب اليهم في كتب الادب كالاغاني والعقد الفريد وغيرهما . ويبدو ان الاوضاع الاقتصادية في مملكة الغساسنة كانت مزدهرة وذلك لانه ما يزال حتى اليوم يوجد مايقارب الثلاثمائة قرية ومدينة في جنوب حوران وشرقيه. ولا شك ان الحضارة الغسانية كانت متفوقة على منافستها اللخمية وانها كانت مفتوحة للتيارات المحلية والمستوردة من بيزنطة . ويدل على هذا الرقي الحضاري العدد الكبير من القصور واقواس النصر والحمامات والاقنية والمسارح والكنائس التي بنيت من الحجر البازلتي والتي كشف عنها في المواقع الغسانية . ومدينة بصرى ، احدى المدن الغسانية الهامة ، ما تزال خير شاهد على رقي الغساسنة وتقدمهم بما فيها من مسرح واعمدة واديرة وكنائس وابنية عامة مختلفة . هذا فضلا عن القصور الغسانية الكثيرة المنتشر في مناطق نفوذهم المختلفة كالقسطل في البلقاء وقصر المشتى قرب البحر الميت وصرح الغدير جنوب شرقي بصرى ودير الكهف شرقي صلخد . وقد كان للغساسنة فضل نقل المؤثرات الحضارية السورية والافكار الدينية الموحدة الى عرب الحجاز ، كما كان لها دور بارز في العمليات التجارية التي تتم في المنطقة .

وقبل ان ننهي حديثنا عن الحضارة العربية قبل الاسلام ، لا بد وان نقدم بكلمة لحضارة عرب الحجاز في الجاهلية وهي فترة قرن أو يزيد سبقت ظهور الاسلام • والملاحظة الاولى التي لا بد منها في الحديث عن حضارة الحجاز قبل الاسلام هي ان الزعم بان الحجازيين كانوا يعيشون في جهل مطبق قبل بعثة النبي الكريم وأن تسمية هذا العصر بالجاهلية راجعة الى انتشار الجهل أمر غير صحيح ، وان الجاهلية مشتقة من الجهل ضد الحلم لا ضد العلم • ورغم ان معظم سكان شمالي الجزيرة العربية كانوا من البدو الرحل الذين لا يستقر بهم المقام في مكان واحد ولا يقيمون في المدن ، فان الشمال كان لا يخلو من السكان الحضريين الذين بنوا المدن وعاشوا حياة مستقرة • وكانت هذه المدن مفتوحة للتيارات الحضارية المستوردة من الشرق والغرب لان الحضريين في الحجاز ولا سيما في مكة كانوا قوما من التجار يرتحلون في الشتاء والصيف الى اليمن والشام وينهلون من مناهل الحضارة في تلك البلاد • ولا يمكننا ان نلمس آثارا كثيرة لحضارة الحجاز قبل الاسلام و نستطيع ان نلخص منجزاتهم الحضارية في تقدمهم اللغوي في ميادين الشعر والنثر والحكم • اما ميدان العلوم فقد كان فيه لعرب الحجاز جولات تتناسب مع حاجات بيئتهم وما اقتبسوه من الامم الاخرى • وقد اعتمدوا على الملاحظة والتأويل والتجربة في بعض الاحيان • ففي مجال الطب مثلا نجدهم يلجأون الى الاختبار والتجريب ويستعيرون في نفس الوقت منجزات اليونان والكلدان والفرس في هذا الميدان • وكان العرافون والكهان هم الذين يقومون بتطبيب المرضى وكانت الطبابة تتضمن والادعية والسحر والرقي ، كما تتضمن الادوية النباتية والحيوانية والقطع والكي وما شابه • وفي علم النجوم كانوا على معرفة لا بأس بها بالكواكب والسيارات والثوابت واستمدوا معرفتهم من ملاحظتهم للأجرام المختلفة ومن الامم المتقدمة في هذا الميدان كالكلدان وغيرهم • ومن علومهم علم الانواء واحوال الجو وترقب المطر والغيوم وحركات الرياح وما شابه • كما برعوا في علم القيافة وتحديد النسب • اما في المجال الديني فقد كانوا وثنيين ، ووثنيتهم ابسط شكل من اشكال الوثنية السامية ، فلم يكن لديهم لاهوت أو هيئة كهنوت أو ميثولوجيا أو قصص عن الخليقة وما شابه • وكانت دياناتهم تقوم على عبادة الارواح والاماكن الطبيعية والحجارة والاشجار والكواكب والاصنام كاللات والعزى ومناة وود ويغوث ونسر وغيرها • وكان بعض عرب لشمال يعبدون الله ويعتبرون ان هذه الاصنام ما هي الا وسيلة تقربهم من الله زلفى • هذا فضلا عن فئة الاحناف الموحدة التي تتبع دين ابراهيم، وعن بعض النصارى واليهود • وكانوا جميعا يقدسون الكعبة ويجلونها ويحجون اليها في الموسم • ويمكننا ان نعتبر شكل الحكم في مكة نموذجا ممتازا للحكم في مجتمع حضري ، اما القبائل البدوية فكانت تحكم من قبل المشايخ ومجالس القبائل وحسب قوانين العرف والعادة • وقد تولت قريش منذ القرن الخامس بزعامة رئيسها قصي بن كلاب الحكم في مكة الذي كان له رئاسة دار الندوة والذي كان له اللواء والحجابة والسقاية والرفادة • وقد انتقلت هذه الوظائف هذه من بعده لاولاده واحفاده الذين ظلوا يتوارثونها حتى ظهور الاسلام • وتعتبر حكومة مكة هذه لتي أسسها قصي حكومة جمهورية •

ويختلف مجتمع يثرب ــ وهي المدينة الثانية الهامة في الحجاز بعد مكة ــ عن مجتمع مكة ، بان اليثربيين كانوا يتألفون من قبائل عربية جنوبية ــ كالأوس والخزرج ــ ، ومن قبائل يهودية كبني قريظة

والنضير وقينقاع • وكانوا يهتمون بالزراعة ، كما كان الحال في الطائف ، المدينة الثالثة الهامة من مدن الحجاز • ويجدر بنا ان نلاحظ ان المكيين كانوا اشهر تجار الحجاز ، وكانت قوافلهم ولطائمهم تساهم في العمليات التجارية في المنطقة مساهمة واسعة وقد أدى هذا الى تأثر الحجاز عامة بتيارات حضارية مختلفة منها يمنية ومنها حبشية ومنها بيزنطية • وقد أدت الصلات التجارية مع الحبشة الى قدوم جالية حبشية الى مكة والسكن فيها والى دخول بعض الكلمات الحبشية في اللغة العربية • ويصح هذا القول ايضا على فارس التي كان العرب على صلات قديمة معها عن طريق الحيرة ، وقد دخلت ايضا كلمات فارسية متعددة في اللغة العربية • وكان من نتيجة العمل في التجارة ان ازدهرت عند عرب الحجاز المعاملات المصرفية والحوالات ، وساهم يهود يثرب بهذه المعاملات مساهمة قليلة • وخلاصة القول ان الحجاز قبل الاسلام كان مركزا التقت فيه رياح حضارية مختلفة أتت من جهات شتى ، وتلاقحت مع الشخصية العربية المحلية لتخلق شخصية حضارية خاصة هي مزيج من المقوم العربي المحلي وما أضيف اليه من بعض الملامح التي جاءت من الحضارات المجاورة •

الحضارة العربية الاسلامية : حين صدع الرسول الكريم بأمر ربه وأخذ يدعو الناس لدين الاسلام ، لم يقدر احد ان هذا الدين الجديد سيكون نقطة انطلاق جديدة ستغير معالم الحياة لا في الجزيرة العربية وحدها ولكن في العالم اجمع • لم يكن في حسبان أحد ن القلة القليلة من المستضعفين الذين استجابوا لدعوة محمد سيكونون نواة دولة الاسلام التي ستدك عروش الاكاسرة والقياصرة وتخضع العالم من اقاصي المشرق الى أقاصي المغرب وتقيم البنيان الحضاري للانسانية على أسس جديدة وبروح وعقلية تختلف في الكثير عما كان في السابق •

فالاسلام لم يكن دعوة الى نبذ عبادة الاصنام والرجوع لى الاله الخالق فحسب ، بل كان تخطيطا جديدا للحياة البشرية في مختلف الميادين والمجالات قلب الكثير من القيم وأرسى الكثير من الاصول ، فهو صفحة فريدة في سفر لتطور الانساني • لقد عمل الاسلام على توسيع آفاق العرب الثقافية والعملية ومدهم بعقلية تتطلع الى الافضل والاحسن فضربوا بسهم وافر في كل ميدان وخلفوا للاجيال اللاحقة تراثا رائعا ما زال موضع تقدير واحترام الاصدقاء والاعداء • لقد خاطب الاسلام مجتمعا وثنيا أمياله نصيب ضئيل من التقدم فأحاله الى مجتمع موحد متعلم يساير الركب الحضاري ويحمل الامانة العلمية فيغنيها بتجربته وجهده ليسلمها اكثر رواء وازدهارا • وقد بدأت بوادر النهضة العملية منذ حياة الرسول الكريم الذي لم يألو جهدا في الحض على العلم والتعلم بالقول والفعل • واستمرت هذه النهضة خلال فترات التاريخ العربي الاسلامي بكاملها ، رغم انها مرت بفترات ازدهار وفترات ركود وتوقف • ولن نستطيع في هذه العجالة ان نفي موضوع مساهمة العرب في التقدم العلمي حقه كما اننا لن نستطيع الدخول في تفاصيله بل سنكتفي بذكر أهم المنجزات التي حققها العرب في ميادين الآداب والعلوم والثقافة والفن والحكم والادارة وما شابه •

فقد كان على الدولة الناشئة ان تهتم بتنظيم جهاز للحكم وان تجابه بعض المعضلات التي ترتبت على قيام دولة جديدة • وهكذا وضع نظام الخلافة ونظمت شؤون الدولة وقام جهاز اداري كامل يهتم بشؤون الادارة والمال والقضاء والجيش سواء في العاصمة او في المقاطعات المختلفة التابعة لها • وقد أدت عمليات

الفتح الى خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في المقاطعات التابعة لها . وقد ادت عمليات الفتح الى خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في المقاطعات المفتوحة فلختلطوا بسكان البلاد المفتوحة وتنج عن عمليتي الاصطدام والاختلاط عملية تمازج ظهرت في الجيل المولد الجديد الذي لم يعد يحمل الصفات العربية الخالصة ، بل امتزجت صفاته بما اكتسبه من بيته الذي دخلته المرأة الاجنبية ، ومن بيئته التي لم تكن صافية لعروبة . وقد ظهرث آثار هذا التمازج في جميع نواحي الحياة وشمل النظم السياسية والاجتماعية والعادات والاخلاق وفي مجالات العلوم والآداب . فقد أثرت العادات الفارسية والهللينية والرومانية على العادات العربية في الملبس ولطعام والسكن ، وامتزجت حكمة الفرس وفلسفة اليونان بالحكمة العربية القديمة . وقد سادت أول الامر خضارة الامم المغلوية ونظمها لانها كانت ارقى من حضارة العرب الفاتحين ، ولكن ما لبث العرب ان عدلوا مكتسباتهم الحضارية بما يتفق وذوقهم وتقاليدهم ويدنهم فنتج عن هذا الخليط حضارة جديدة لها طابعها المميز تلاحقت فيها معطيات الفكر العربي بمعطيات فكر الامم الطظيمة المعاصرة . ولم يكن هذا الامتزاج نعمة دوما ، بل في بعض الاحيان نقمة ، اذ انه تنج عن دخول الأعاجم في المجتمع واختلاطهم بأهله واستعرابهم بالاسلام ان ظهرت المذاهب والحركات الدينية القريبة عن واقع الاسلام ومعتقداته الحقيقيةمما أدى الى نشوء حركات كانت تهدف الى التخريب والتشويه بدافع الانتقام من هذا الدين الذي كانسبب رقي العرب وحافزهم للفتح واقامة الصرح والامجاد الوثنية القديمة .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا المجتمع المسلم الجديد الذي تنوعت فيه الجنسيات واختلفت الاقوام قد أصبح بفضل الاسلام والقرآن الكريم يتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية التي انهزمت أمامها اللغات المختلفة وتراجعت فاصبحت لغة القرآن هي لغة العلم والادب والسياسة ، اصبح مجتمعا واحدا يدين بدين واحد وتجمعه دولةواحدة وتسيطر عليهروح مشتركة فهو بهذا الشكل أمة واحدة تشترك في علمها وثقافتها وأدبها ودينها وحضارتها بوجه عام .

وتناول الاسلام فيما تناول طبقات الناس وأثرت تعاليمه في أمر تقسيمهم الى منازل ورتب . فقد ظل الناس من حيث الاساس ينقسمون الى احرار وموالي وعبيد كما كان الحال في الجاهلية ، ولكن الاساس في هذا التقسيم لم يعد صفاء الدم ونبل المحتد فحسب ، بل أصبح مبدأ « اخوة المسلمين » وتساويهم وكرمهم بمقدار ما يتمتعون به من تقوى الناظم الذي يجعل الناس يتدرجون في سلم الرقي الاجتماعي . على انه ظل للعرب مزيتهم باعتبار انهم قوام الاسلام وحملته الاول واصحاب الفضل في نشره وايصاله للامم الاخرى . وقد وضحت هذه المزية والمكانة المرتفعة للعرب بشكل خاص في العصر الاموي الذي كان بحق عصر السيادة العربية . وضعفت هذه المكانة نوعا ما بعد ذلك اعتبارا من العصر السياسي الثاني وذلك بسبب تسلط شعوب غير عربية على الحكم والدولة وانسحاب العرب عن المسرح السياسي .على انه ظل العرب المقام الاول لان الخلافة كانت فيهم ولم يجرؤ أحد على استلابها منهم . وكانت الى جانب الجماعة الاسلامية التي تتشكل من عرب ، عناصر غيرمسلمة تعيش جنبا الى جنب معهم وتتبع ديانات موحدة اخرى كالمسيحية واليهودية . وقد عرفت هذه العناصرباسم الذميين وكانت تضم الى جانب المسيحية

واليهودية • الصابئة والمجوس • وضمنت العهـود والتشريعات للذميين حقوقهم الكاملة في المجتمع من حيث العبادة وممارسة الاعمال المختلفة وأعفوا مـن الخدمة العسكرية مقابل دفع الجزية واستخدم عـدد كبير منهم اجهزة الـدولة المختلفة التي لا يتعارض وجودهم فيها عملها والوظائف التي تؤديها • وخضع أهل الذمة في أحوالهم المدنية لسلطة رؤسائهم الرحيين ومحاكمهم الدينية وللقوانين المتبعة عندهم • ومهم ان نلاحظ في هذه لفقرة بحثنا ان الاسلام اهتم بشكل خـاص بأمر العبيد والارقاء فرفع من شأنهم كثيرا وجعل عتق الرقاب وسيلة يتقرب بها المؤمن من خالقه •

وقد تبع عصر الفتوحات الاولى زمن الراشدين انشاء مدن جديدة قصد منها أول الامر ان تكون معسكرات للجند كالكوفة والبصرة ، ولكن هذه المدن الجديدة ما لبثت ان اصبحت اعتبارا من العصر الاموي مراكز فكرية هامة • ففي البصرة ومنذ زمن مبكر قامت دراسات علمية موسعة للغة العربية بسبب ظهور العجمة على ألسنة الناس في مجتمع يضم عربا وغير عرب يجمعهم الدين والمواطنة • وقد ادى جمع القرآن وتدوين المصاحف الى ظهور مشكلة الكتابة وعدم كفاية الطريقة التي كانت متبعة حتى ذلك الوقت بأغراض قراءة القرآن وفهم غريبة الى نشوء علـم التفسير وعلم الفقه وغيرهما من العلوم المتصلة بالقرآن الكريم • وكان اشهر علماء العربية في أخريات عصر بني أمية أبو الاسود الدؤلي في البصرة والخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه واضع اول كتاب في علم النحو • وكما ساهمت البصرة في ميدان اللغة والادب ساهمت الكوفة في هذا الميدان أيضا المنافسة بين المدينتين الى ظهور مدرستي البصرة والكوفـة اللغويتين • ويعتبر العصر الاموي ايضا العصر الذي ظهرت فيه العلوم الدينية نتيجة لاهتمام الناس بشؤون دينهم وكانت المدينة اهم مركز لهذه العلوم ففيها كان يعيش الامام مالك بن انس صاحب الموطأ وعبد الله بن عمر بن الخطاب • اما مكة فقد كان فيها عبد الله بن عباس وغيره من كبار الصحابة والتابعين • كما اشتهر في هذا الميدان ايضا الحسن البصري وابن شهـاب الزهري وغيرهما كثير • اما ميدان الحديث فقد كان العمل فيه ناشطا ، غير ان الاحاديث لم تدون في هذا العصر لقرب الناس بعصر الرسول ولوجود عدد كبير من صحابته الاحياء • وكان اشهر المحدثين في عصر بني أمية عبد الله بن مسعود والشعبي وغيرهما • وتجدر الملاحظة ان الابحاث الدينية في هذا العصر كانت تأخذ شكل مجادلات دينية بين اتباع المذاهب الجديدة المتنافية كالخوارج وشيعة علي بن ابي طالب وانصار بني أمية ، أي ان المذاهب الفقهية لم تكن موجودة بعد ، وعلينا ان ننتظر حتى العصر العباسي حتى تظهر وتأخذ شكلها النهائي • اما في مجال الفن في العصر الاموي فان البداة الذين خرجوا من الجزيرة الى الاقاليم المفتوحة كانت معرفتهم الفنية ضعيفة أو معدومة لذلك اعجبوا بفنون البلاد التي حلوا فيها وتأثروا بمذاهبها الفنية ولكنهم لم يلبثوا او اوجدوا فنا يوافق حاجاتهم ويستمد مقوماته من معتقداتهم الدينية ويتناسب مع معطيات فكرهم وتقاليدهم • وقد عرف هذا الفن باسم الفن الاسلامي ، وكانت اهم منجزاته في حقل العمارة ، وخاصة العمارة الدينية التي تتمثل في المساجد • فالمسجد يمثل السجل الذي يحتفظ بجميع التطورات التي طرأت على فن العمارة الاسلاميـة • ويعتبر المسجد الذي بناه الرسول الكريم في المدينة النموذج الذي احتذى في بناء كافة المساجد فيما بعد، غير أنـه اضيفت على مخططه اضافات جعلته يفي بحاجات المصلين والمتعبدين المختلفة ، كما أضيف عليه العنصر الزخرفي والتزييني حتى يبدو أكثر اناقة وفخامة • وكان من جملة ما أضيف الى المساجد المبينة في

العصر الاموي المنبر والمحراب ، كما أضاف معاوية المقصورة والمآذن • وفي عهد عبد الملك بن مروان شيدت قبة الصخرة المقدسة وزينت بالفسيفساء والرخام ، كما شيد المسجد الاقصى على انقاض كنيسة بيزنطية كان الفرس قد هدموها ابان احدى غاراتهم على مدينة القدس • وفي خلافة الوليد بن عبد الملك بني المسجد الاموي الكبير في دمشق وأقيمت مآذنه على انقاض ابراج كنيسة كانت موضع خلاف بين المسلمين والمسيحيين اثناء فتح دمشق • وقد زين المسجد بمختلف انواع التزيينات وأهمها الفسيفساء واستعين بعمارته ببنائين محليين وفنانين بيزنطيين وظهر فيه المحراب لاول مرة • ويعتبر هذا المسجد الذروة في المنجزات اعمرانية في العصر الاموي • اما القصور التي بناها الخلفاء الامويون في دمشق وأهمها قصر الخضراء الذي بناه معاوية فقد اندثرت ومعظم آثارهاولم يبق سوى أطلال بعض القصور التي بناها الامويون في الصحاري كقصر الاخيضر عين التمر وقصر الموقر في البلقاء وخربة المنجر وقصير عمرة الواقع في شرق الطرف الشمالي للبحر الميت (من زمن الوليد بن عبد الملك) وهنالك قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي من عهد هشام بن عبد الملك هذا فضلا عن قصور اخرى بنيت زمن سليمان بن عبد الملك في فلسطينوزمن يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد بن يزيد وغيرهم • وقد ادى كره الاسلام لتصوير المخلوقات الحية الى انتشار الزخارف النباتية والهندسية • والملاحظ ان العرب لم يهتموا بالتصوير عموما، على أنه هناك في بعض المخلفات المعمارية الاموية رسوما آدمية أو حيوانية • وكما ازدهر الفن المعماري زمن الامويين ، ازدهر كذلك فن الغناء والموسيقى واصبح الحجاز موئل مشاهير الموسيقيين والمغنين الذين يقدمون الى بلاط دمشق ويغذونه بمشاهير المغنين والجواري والقيان والعازفين • ويمكننا ان نعتبر العصر الاموي العصر الذي وضعت فيه أسس النهضة العلمية التي ستزدهر وتؤتي أكلها في العصر العباسي• ورغم أننا لا نعرف الكثير عن النهضة العلمية في زمن بني أمية الا اننا نستطيع القول ان العرب في هذا العصر كانوا في أول الطريق بينهم اهتم بالعلوم كخالد بن يزيد ابن معاوية الذي كان يعرف باسم « حكيم بني مروان » ، والذي كان او من اشتغل بالكيمياء وترجمت له كتب يونانية وقبطية في الكيمياء والفلك والطب • ووجد أطباء محترفون منذ بداية هذا العصر كابن أثال طبيب معاوية وتياذوق طبيب الحجاج وماسرجويه الفارسي الاصل والذي عاش زمن مروان بن الحكم • ويروي ابن ابي اصيبعة في كتابه « طبقات الاطباء » ان الخليفة عمر بن عبد العزيز نقل مدارس الطب من الاسكندرية الى انطاكية وحران •

وخلاصة القول ان فضل الامويين الحضاري يتلخص في كونهم استطاعوا ان يعطوا الحضارة المقتبسة من مصادر مختلفة شكلا عربيا وان يضعوا الاسس المتينة التي سيشاد عليها البنيان الحضاري العربي في العصر العباسي وفي الاندلس •

وتقوم الثورة على الامويين وترسي دعائم الدولة العباسية الجديدة فيبدأ عصر ذهبي بالنسبة للحضراة العربية • ونحن وان كنا لا نستطيع حصر المنجزات الحضارية في هذا العصر بتكمله الا انا سنحاول ان نظهر الاوجه المختلفة التي حقق فيها العرب انتصارات علمية وتقدما حضاريا ومساهمة خلاقه أغنت التراث الانساني في مختلف الميادين • كانت أول مساهمة للعباسيين في حقل البناء والعمران اشادة مدينة بغداد

زمن المخليفة المنصور عام ٦٧٢ • وقد استخدم في بنائها مائة الف عامل لمدة اربع سنوات فأتت آية من آيات الفن والابداع • كان يحيط بها ثلاثة أسوار وفي وسطها قصر الخليفة وقصور الامراء والسادة والمسجد • وقد استعمل في بنائها وزخرفتها كميات كبيرة من الرخام والفسيفساء والاخشاب الثمينة والذهب وغير ذلك من ادوات الزخرفة والتزيين • واستحدث في زمن هذا الخليفة منصب الوزارة وسلم الى خالد بن برمك •وواضح ان الادارة بشكل عام في العصر العباسي قد تأثرت بالنظم الادارية الفارسية وأخذت باساليبها واتبعت النظم التي كانت تستعمل زمن دولة الفرس • وكان عدد كبير من الفرس أعضاء في الجهاز الاداري للدولة فساعدوا في عملية صبغ الادارة بالصباغ الفارسي • وهكذا مثلا اصبح هناك وزارتان وزارة تفويض ووزارة تنفيذ • وانتقل منصب الوزارة الى سائر اقاليم العالم الاسلامي حتى التي كانت منهل لا تتبع النفوذ العباسي كمصر والاندلس وغيرهما • بالنسبة لوظيفة الحاجب التي وجدت منذ زمن الخليفة معاوية ، فانها اصبحت في هذا العصر وبسبب اتساع الدولة وتعقد مشاكلها وظيفة مهمة لصاحبها مقام رفيع ويؤخذ رأيه في المشاكل التي تعرض على الخليفة • ويصبح هذا التطور والاتساع على اعمال الدواوين التي اصطبغت ايضا بالصبغة الفارسية • وقد استحدثت في هذا العهد دواوين جديدة كديوان العزيز وهو مجلس الخليفة الذي يرأسه الوزير الاكبر ، وديوان الجيش وديوان الزمام وديوان الجهبذة (أي ديوان أهل الذمة) وديوان البريد • وقد استحدث هذا الديوان الاخير منذ زمن الامويين واتسعت اعماله ومهام صاحبه زمن العباسيين • وكان على صاحبه واعوانه ان يوافوا الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي تجري في امصار الدولة المختلفة • كما كان يشترط في الذي يرأس هذا الديوان ان يكون عارفا بالطرق والمسالك وان يحوي الخرائط والادلاء الذين قد تحتاجهم الدولة في عملياتها العسكرية • وفي العصر العباسي ولاول مرة استعمل البريد الجوي بواسطة الحمام الزاجل كما استعملت وسائل اخرى في نقل الاخبار كالاشارات والدخان وغير ذلك • وتطورت في هذا العصر وظيفة القاضي واتسع نطاق عمله واستحدثت محكمة المظالم وتعددت المهام الملقاة على عاتق قاضيها • اما الحسبة فكانت تعتبر من متممات القضاء وعمل صاحبها يشبه عمل شرطة البلدية في أيامنا هذه • وشمل التطور فيما شمل الجيش فأصبح يتألف من فرق نظامية دائمة وفرق متطوعة • وازداد عنصر المرتزقة في الجيش ازدرادا كبيرا واستؤجرت عناصر غريبة لتعمل فيه وذلك لشعور الخلفاء بعدم الاطمئنان ومحاولتهم ضرب العناصر المتنازعة بعضها ببعض • فكان بسبب دخول الاتراك والديلم وغيرهم وانقلبوا من جنود في خدمة الدولة الى متسلطين مستأثرين بالسلطة الحقيقية • ويتألف الجيش انظامي عند العباسيين من فرق مشاة وخيالة ورماة وحرس خاص بالخليفة وأضيف فيما بعد فرق النفّاطين والمنجنيقيين والمعماريين وغيرهم • كما أصبح الاسطول من الاسلحة الهامة وكثر عدد سفنه وتنوعت وانشئت دور الصناعة في سورية ومصر وافريقية والاندلس ، واصبح لهذه السفن اسماء مختلفة حسب نوعها والغرض الذي بنيت من اجله ، فكان هناك ، المركب والسفينة والشونة والحراقة والطريدة والبارجة والقراقير وغيرها • وكان من جملة الاشياء التي استحدثت لتنظيم الجيش والاسطول تقسيم افراده الى فرق وترتيب ضباطه في رتب لها أسماؤها وشاراتها •

ويمكننا ان نعتبر العصر العباسي العصر الذي تطورت فيه العادات والآداب الاجتماعية بشكل واضح

واكتسبت صفات جديدة نتيجة لاتساع عملية الامتزاج ولدخول العنصر الاجنبي في حياة الناس من مختلف الطبقات والمنازل • فقد كثر التزاوج بالاجنبيات واقتدى بالاجانب في مأكلهم وملبسهم ومسكنهم واعيادهم وعاداتهم الاجتماعية وغير ذلك • ودخل الترف الى الحياة بشكل واضح وازداد البذخ في مختلف الاوجه ؛ ففي مجال الملابس مثلا أخذ الناس يلبسون الملابس الحريرية والصوفية الموشاة والمطرزة والمحلاة بخيوط الذهب والفضة وكثر استعمال الديباج والخز والبز والابرسيم وغيرها • ولبس الناس القلانس الطويلة والعمائم واستعملوا الطيب بكثرة • كما اتخذوا الأسرّة المذهبة والمرصعة بالجوهر واستعملوا الاخشاب النادرة في مفروشاتهم كالآبنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والكراسي والفرش والبسط والنمارق والسجاجيد الموشاة وغير ذلك من آلات الرفاه والتنعم • ولم يقتصر الحال على هذا الميدان بل تعداه الى ميادين الطعام والشراب ومجالس اللهو ، فحفلت كتب الادب والاخبار باحاديث مجالسهم وترفها وآنيتهم الذهبية وآباريقهم المصنوعة من افخر انواع الزجاج والبورسلان والمينا وغيرها• كما وجدت عندهم الالعاب المختلفة كالشطرنج والنرد والرماية ولعبة الكرة والصولجان والمبارزة والجريد والصيد وتربية الطيور الجوارح وغيرها •

وفي الميدان الاقتصادي نشطت الزراعة وتحسنت أساليبها واستخدمت اساليب الري المختلفة لعمارة الضياع وأدخلت الزراعات الجديدة وتنوعت المحاصيل • ويصح هذا التقدم والازدهار ايضا على القطاع الصناعي الذي اغتنى نتيجة دخول امم عريقة في صناعاتها في الاسلام وصيرورة افرادها مواطنين في الدولة الاسلامية ، كما استخرجت المعادن واستخدمت في مختلف انواع الصناعات • وقد ادى ازدهار الزراعة والصناعة واهتمام الناس بالرفاه الى رقي التجارة واتساع آفاتها ونشاط العمليات المصرفية وتنظيمها تنظيما راقيا يسهل عمل التجار ويساعدهم على توسيع مجالات عملهم • ويفضل التجارة واتساع نطاقها ووصول التجار المسلمين الى مناطق نائية انتشر الاسلام في هذه المناطق وظل أهلها على اسلامهم حتى اليوم •

وفي الميدان الفكري والعلمي شهد العصر العباسي نهضة لا مثيل لها وتقدما ورقيا يفوقان كل وصف • ولعل اهم الاسباب التي ادت الى هذا الازدهار والتقدم هي عملية التمازج التي تمت في هذا العصر بين الثقافات المختلفة كاليونانية والفارسية والهندية والسريانية والثقافة العربية • ولم يكتف العرب بالاخذ عن غيرهم بل اضافوا لما أخذوا نتاج عبقريتهم الخاصة فأغنوا ما أخذوا وحفظوا له شكله وجوهره وأعطوه الى الامم الاخرى غنيا مترفا واسعا • ومن الخطأ الشائع نسبة بداية النهضة الثقافية والعلمية عند العرب الى فترة الترجمة التي تحدد عادة بعصر المأمون ، وذلك لان معطيات الفكر العربي كان بعضها عربيا اسلاميا صافيا لم يتأثر اطلاقا بما كان عند الامم الاخرى من علوم او بما دخل الى الوسط الفكري العربي من فكر وعلم مستوردين • وتصح هذه الملاحظة بوجه خاص على حقلين كبيرين من حقول الفكر والثقافة العربية ، وهما حقل اللغة والادب ، وحقل العلوم الدينية والفقهية ، بمختلف فروعها وميادينها• ففي هذين الحقلين كان العرب سادة قدرهم ومبدعي طريقهم وليس لاحد فضل عليهم • واذا كنا في العجالة غير قادرين على الدخول في تفاصيل المنجزات العربية في ميادين اللغة والادب والفقه والشريعة والحديث وغيرها فانا نستطيع القول بثقة واطمئنان ان ما قدمه الاجداد في هذه الميادين مفخرة لاتعدلها مفخرة • كذلك كانت مساهمتهم رائعة في حقول الفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها من حقول العلوم

الانسانية • واذا كان عصر الترجمة هو نقطة انطلاق أساسية في ميدان التقدم العلمي فان مساهمة العرب في هـذه الميادين كبيرة الى حد يفوق كل وصف • ففي ميدان الطب مثلا كان فضل العرب كبيرا • فقد كان بعض كبار التراجمة كحنين بن اسحاق ويوحنا بن ماسويه من كبار الاطباء • ومن النواحي الطبية التي اهتم بها العرب امراض العين التي بحث فيها ابن مساويه في كتاب « دغل العين » وحنين بن اسحاق في كتابه « عشر مقالات في العين » • وقد ترجم هذا الكتاب الاخير من قبل المستشرق مايرهوف الى اللغة الانكليزية سنة ١٩٢٨ • كما اهتم العـرب بالصيدلة وعلم الادوية والعقاقير وكانجابر بن حيانالكيماوي الشهير اول من وضع كتابا في الصيدلة • وقد انشئت مدارس عديدة لتعليم الطب وكان طلاب هـذه المدارس يتجاوزون الامتحانات النظرية والعملية حتى يحصلوا على الاجازة • وقد احصي عدد الاطبـاء المجازين في بغداد زمن الخليفة المقتدر فكانوا حوالي ٨٦٠ طبيبا • واقيمت المستشفيات والبيمارستانات في انحاء مختلفة من البلاد الاسلامية وكانت تقوم بخدمة المرضى من الفقراء مجانا • ولعل اشهر الاطباء المسلمين الذين ألفوا في الطب وتجاوزت شهرتهم حدود العالم الاسلامي هم : علـي الطبري الذي كتب « فردوس الحكمة » زمن الخليفة المتوكل ، وابو بكر الرازي (الذي تزين صورته وصورة ابن سينـا قاعة مدرسة الطب في جامعـة باريس) الذي ألف الكثير من الكتب والرسائل واهمها (كتاب الاسرار) الذي ترجم الى اللاتينية وكتاب « المنصوري » في الطب الذي وضعه للمنصور الساماني والذي كـان في عشرة أجزاء وترجم الى اللاتينية في القرن الخامس عشر ورسالة عن الجدرى والحصبة ترجمت الى اللاتينية ايضا في القرن السادس عشر • واشهر كتبه الطبية كتاب « الحاوي » الذي يعتبر موسوعة طبية ترجمت الى اللاتينية منـذ القرن الثالث عشر وطبعت منذ فجر عصر الطباعة في أواخر القرن الخامس عشر طبعـات متعددة امـا الشيـخ الرئيس ابن سينـا فقـد اشتهر كطبيب وفيلسوف ودرس فيمكتبة نـوح منصور الساماني ولـه مؤلفات في الهندسة والفلك والفـن والفلسفـة وعلـوم الدين الى جـانب الطب • واشهـر كتبـه في الطب « كتـاب الشفـاء » و « القـانون فـي الطـب » ويحتوي هذا الاخير على خلاصة المعلومات الطبية التي وصل اليها العقل البشري حتى عصره ، وقد ترجم الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر وطبع في رومة سنة ١٥٩٣ واصبح المرجع الاساسي لطلاب الطب في اوروبة حتى القرن السابع عشر •

أما في مجال الفلك فان نهضة العرب في هذا الميدان ترتبط بترجمة كتابي « السند هند » و «المجسطي» لبطليموس • وقد بنى الخليفة المأمون مرصدا فلكياقرب باب الشماسية في بغداد استخدم في رصـد النجوم والاجرام المختلفة وطبقت النتائج التي حصل عليها على ما يريد في كتاب « المجسطي » • كذلك بني زمن المأمون مرصد آخر على جبل قاسيون في دمشق وجهز بما يلزمه من آلات • ويعزى عمل أول اسطر لاب في البلاد العربية الى شخص يدعى الفزاري وقد صنعه حسب نموذج يوناني • وقام الفلكيون في عصر المأمون بقياس طول الدرجة لاجل تقدير محيط الكـرة الارضية وتوصلوا الى تنائج قريبة جدا من الواقع • واشترك في هذه العملية ابنـاء موسى بن شاكر والخوارزمي صاحب الزيج المشهور الذي ترجم الى اللاتينية • ومن مشاهير علماء الفلك في هذا العصر احمد الفرغاني الذي كلفه الخليفة المتوكل

بمراقبة بناء مقياس للنيل في الفسطاط • ولأحمد هذا مؤلف مشهور هو « المدخل الى علم هيئة الافلاك » وقد ترجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر • كما اشتهر البتاني بدراساته الفلكية وتوصل الى نتائج صحح فيها بعض مقاييس بطليموس واستنتاجات هامة جدا تتعلق بالكسوف والفصول وطول السنة وغير ذلك • ويعتبر ابو الريحان البيروني من اشهر الفلكيين المسلمين وله مؤلفات فلكية شهيرة أهمها « القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم « وقد ألفه لمسعود بن محمود الغزنوي سنة ١٠٣٠ م ، كما وضع كتابا في الفلك والرياضيات والنجوم أسماه « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » • ويعتبر كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » من أهم مؤلفاته واشهرها • وعمر الخيام الذي اشتهر في اذهان اغلب الناس كشاعر وماجن فهو فلكي شهير أيضا دعاه جلال الدين ملكشاه السلجوقي للعمل في المرصد الذي أسسه في مرو لاصلاح التقويم الفارسي ووضع بنتيجة دراساته التقويم المشهور باسم « التاريخ الجلالي » • واشتهر في علم النجوم بشكل خاص ابو معشر البلخي (٨٨٦) الذي عرف في الغرب باسم
وترجمت اربعة من كتبه الى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وكان أهم ما أخذ عنه الغربيون قوانين المد والجزر وعلاقتها بظهور القمر وغيابه •

ويلاحظ ان العرب تأثروا كثيرا بالمنجزات الرياضية عند الهنود وأخذوا عنهم الكثير في أول الامر ، ولكنهم ما لبثوا ان ثبتوا اقدامهم في هذا الميدان أيضا واصبحوا سادة فيه • ويعتبر محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠ ــ ٨٥٠) من اشهر علماء الرياضيات المسلمين وأقدمهم ومؤلفه «حساب الجبر والمقابلة» يصنف بين أقدم وأهم المصادر في الحساب والجبر • والمهم في الامر ان الاصل العربي لهذا الكتاب قد ضاع وبقيت الترجمة اللاتينية التي ظلت تستعمل في الجامعات الاوروبية حتى القرن السادس عشر كمصدر اساسي في هذا الموضوع ، وهكذا فان أوروبة مدينة للخوارزمي بعلم الجبر وبالارقام التي تسمى بالارقام العربية والتي تعرف با Algorism نسبة الى الخوارزمي •

وفي أواخر القرن الثامن الميلادي نشط علم الكيمياء وتقدم تقدما محسوسا على يد العالم المشهور جابر بن حبان الكوفي الذي كان يعتقد بامكانية تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة والذي ألف ما يزيد على اثنين وعشرين كتابا في هذا العلم واكتشف عدة مركبات كيماوية • ومن اشهر ما ينسب الى جابر ادخاله التحسينات على عمليات التبخير والتصعيد والتبلور والتذويب، ووصفه لعمليتي التكليس والتحويل، وتحضير لحامض الكبريت والنتريك ومزجهما بالملح لاعداد ماء الذهب • ومن الكيماويين المشاهير الرازي الذي تحدثنا عنه سابقا والطغرائي في القرن الثاني عشر وابو القاسم العراقي في القرن الثالث عشر وكانوا يبحثون عن اكسير الحياة وحجر الفلاسفة أو الكبريت الاحمر • وهكذا نلاحظ ان الحركة العلمية التي اشرنا الى بعض جوانب نشاطها فقط كانت من السعة والشمول والعمق ما جعلها موضع تقدير العالم خلال العصور الوسطى وعصر النهضة من بعده • واذا كنا قد قصرنا حديثنا على بعض النواحي العلمية فقط فان هذا لا يعني ان العطاء الحضاري العربي قد اقتصر عليها دون غيرها ، اذ ان الواقع يدل على ان مساهمة العرب كانت كبيرة جدا في بقية الميادين ولا سيما ميادين علم الحيوان والنبات • فالقزويني صاحب « عجائب المخلوقات » والدميري صاحب « حياة الحيوان » وعطارد بن محمد الحاسب صاحب « منافع

الاحجار » والتيغاشي صاحب « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » وغيرهم كثير ، كلهم شهود على تقدم العلماء العرب المسلمين في ميادين العلم المختلفة .

ويصح الامر نفسه على المنجزات العربية الاسلامية في حقل الفنون المختلفة من عمارة وزخرفة ورسوم تزيينية ونقوش وفنون فرعية وغير ذلك مما لا يتسع المقام لتفصيله وذكر أهم منجزاته .

ولم يقتصر التقدم الحضاري العربي على بلدان المشرق فحسب بل كان للمغرب العربي والاندلس دور بارز في هذا المضمار . وقد لعبت الاندلس دورا خطيرا آخر الى جانب المساهمة في اغناء التراث الحضاري الانساني ، هذا الدور هو دور الوسيط الامين الذي سلم معطيات الفكر والعقل العربي الى اوروبة فظلت الشعلة متقدة وهاجة ، بل ازدادت اتقادا وتوهجا . ولن نفصل في اخبار المساهمة الاندلسية في الميادين الحضارية المختلفة وسنقصر حديثنا على بعض النواحي العملية عارضين اشهر ملامحها وابرز رجالاتها . ففي ميدان الفلك تابع العرب الاندلسيون نشاط اخوانهم المشارقة وقطعوا شوطا بعيدا في دراساتهم الفلكية . وكانوا يعتقدون بالصلة بين النجوم وبين الاحداث التي تصيب البشر ، أو ما يمكن ان يسمى بالتنجيم وقد انتقلت معلوماتهم الفلكية الى اوروبا ، وكان اشهر الفلكيين الاندلسيين ابو القاسم مسلمة المجريطي (توفي عام ١٠٠٧ م) الذي صحح زيج الخوارزمي . وكان المجريطي يعرف باسم الحاسب لمهارته في الرياضيات . وهناك أيضا ابو اسحاق الزرقاني واضع جداول طليطلة الفلكية التي تحتوي على معلومات جغرافية مبنية على كتاب بطليموس والخوارزمي وغيرهما . وقد ترجمت هذه الجداول في القرن الثاني عشر الى اللغة اللاتينية . ويعتبر من كبار راصدي النجوم في عصره وقد صنع اسطرلابا متقن الصنع واستشهد بنتائج دراساته فيما بعد الفلكي الشهير كوبرنيك . ومن اشهر الفلكيين المتأخرين في الاندلس نور الدين البطروجي (١٢٠٤) وهو تلميذ ابن الطفيل وواضح كتاب « الهيئة » الذي ترجم فيما بعد الى اللاتينية والعبرية . ويتضمن هذا الكتاب وصفا للاجرام ويعتبر افضل كتاب يمثل وجهة النظر التي يقول بها الفلكيون الفرنسيون واتي تناقض وجهة نظر بطليموس . وتتضح اهمية المسلمين في الفلك والرياضيات اذا احصينا عدد الكلمات الفلكية والرياضية التي يستعملها الغرب اليوم والتي هي من أصل عربي كالسموت Azinuth والنظير Nadir والسمة Zenith والجيب Sinus والجذر الاصم Surd وغير ذلك . وقد أضاف علماء الاندلس الكثير في ميدان علم النبات . وصنفوا النباتات الى أقسام قسم ينبت بالبذور وقسم بالغرس وقسم ينبت من تلقاء نفسه . واشهر النباتيين الاندلسيين ابو جعفر الغافقي (١١٦٥) الذي صنف النباتات التي تنمو في اسبانيا وافريقيا واعطاها اسماءها بالعربية واللاتينية والبربرية ووصفها وصفا دقيقا ، وجمع كل ذلك في كتابه الشهير « الادوية المفردة » الذي اعتمد عليه ابن البيطار اعتمادا كبيرا . وفي نهاية القرن الثاني عشر ألف العالم الشهير ابو زكريا العوام كتابه المشهور باسم « الفلاحة » الذي وصف فيه ما يقارب ٥٨٥ نوعا من النبات ، وطرق زراعة نحو خمسين نوع من الاشجار المثمرة . وفيه معلومات هامة عن الاسمدة والتطعيم وامراض النباتات وغيرها . ويعتبر عبد الله ابن احمد بن البيطار اشهر علماء النبات والصيدلة لا في اسبانيا وحدها ولكن في العالم الاسلامي بأكمله . وقد ولد ابن البيطار في مدينة ملقة وتنقل في مختلف المناطق الاسبانية وشمالي

افريقية وزار مصر وسورية وتوفي في دمشق سنة ١٢٤٨ • ولابن البيطار كتب كثيرة اشهرها : المغني في الادوية المفردة ، والجامع في الادوية المفردة (مترجم الى الفرنسية والالمانية) وغيره • اما في ميدان الطب فانا نلاحظ ان عددا من الذين تعاطوا هذه المهنة كانوا اما فلاسفة كابن رشد وابن ميمون أو ادباء كلسان الدين ابن الخطيب وغيره • وقد اشتهر ابو القاسم الزهراوي طبيب الحكم الثاني من مشاهير الجراحين ومؤلفه « التصريف لمن عجز عن التأليف » من المراجع الجراحية الهامة جدا في عالم القرون الوسطى اذ انه كان المرجع الذي يدرسه طلبة الطب في ساليرنو بايطاليا ومونبليه في فرنسا ومدارس الطب الاخرى• كذلك اشتهر في الطب ابن زهر وكان يشغل ايضا منصب وزير في بلاط مؤسس سلالة المدحدين عبد المؤمن (القرن الثاني عشر) وله من المؤلفات « التسيير في المداواة والتدبير » وهو مترجم الى العبرية واللاتينية • وقد أنجبت اسرة ابن زهر ستة أجيال من الاطباء كلهم كان يعمل في خدمة السادة والامراء وتعدّت شهرتهم حدود الاندلس الى المشرق •

وكانت الفلسفة والآداب والتاريخ والجغرافية ميادين اخرى ظهرت فيها عبقرية عرب الاندلس وبرعوا فيها الى حد يفوق الوصف مما لا نجد مجالا للتفصيل فيه • ويصح هذا ايضا على النواحي الفنية بمختلف مجالاتها من عمارة ونقش ونحت وتصوير وتزيين وفنون فرعية ونحت وموسيقى وغير ذلك • وما تزال آثار العرب هناك خير شاهد على هذا التقدم العمراني والفني • وتعتبر الاندلس الجسر الذي انتقلت عن طريقه الحضارة العربية في المشرق والمغرب الى اوروبا ، وكانت الوسط الذي تلاقح فيه العقل العربي بالعقل الاوروبي لينتج أروع الثمار وأعظم الآثار •

القوميـة العربيــة

تعـريف :

القومية العربية بالمعنى السياسي هي فكـرة القومية التي ترمي الى توعية العرب وجمع شملهم وتعبئة امكانياتهم لاجلاء الاستعمار الاجنبي عن بلادهم وتأسيس الدولـة القومية العربية الواحدة . وان تبني هذه الفكرة القومية ونشرها بين الجماهير العربية وتحقيقها فعلا هو ما يطلق عليه اسم « الحركة القومية العربية » . وهذه الفكرة ، كما نرى ، تهدف أولا الى تأسيس الدولة القومية العربية التي تظلل العرب جميعا وتجعل منهم مواطنين لها . اما ان تكون هذه الدولة العربية المزمع تحقيقها بشكل وحدة سياسية أو بشكل اتحاد فهذا يرجع الى ارادة العرب انفسهم والى مدى تطورهم وتقبلهم لفكرة الوحدة أو الاتحاد .

١ ــ الاصول التاريخية للقومية العربية :

ان القومية العربية ، من حيث ان العرب قوم وشعب ، قديمة قدم التاريخ . فمنذ وجد شبه الجزيرة العربية ووجد عليه سكان ، عرف هؤلاء السكان عربا وعرف شبه الجزيرة العربية وهـو موطن العرب الاصلي ، مركزا لانطلاق موجات بشرية متوالية ، خلال الازمنية التاريخية ، كانت تتجه شرقا وغربا عبر بلاد الشرق القديم والقارة الافريقية وتمتزج بسكانها باستمرار ، حتى ان الحضارات التي سادت بلاد الشرق الادنى كانت تؤلف مجموعة حضارية واحدة .

كــان شبه جزيرة العرب منذ القديم مركزا لنشوء حضارات لا معة ولكننا ما زلنا نجهل اكثر هذه الحضارات ، لان اعمال التنقيب والحفريات الاثرية ما زالت في حكم العدم ، غير ان الثابت الذي لاسبيل الى نكرانه أو تجاهله هو ان الاسلام كان مظهرا من مظاهرها الواعية : فقد جمع شتات القبائل والاقوام، ودعا الى محو العصبية الجاهلية ، وازالة الفوارق الطبقية ، وألف بين قلوب العرب ، ووطد دعائم الوحدة العربيــة .

لقد كان الاسلام في بلاد العرب حركة عربية اصيلة . فقد نشأ وانتشر في بيئة عربية خلصة على يد عربي صميم وهو الرسول الكريم محمد بن عبد الله ، وباللغة العربية الفصحى لغـة قريش التي أجمـع العرب على انها الرابطة اللغوية التي تربطهم جميعـا ، وحمل العرب رسالة انسانية نبيلة سامية .

وفي وقت كانت الغارات البربرية تجتاح الغرب الاوروبي ، وتجعل منه مسرحا للقلق والفوضى وعدم الاستقرار والتخبط في ظلام التجزئة ، أي في وقت لم يكن لاوروبة شخصية معروفة ، وكانت فيـه امريكا في عالم المجهول ، كان شبه الجزيرة العربية يمور بالحياة ، وينعم بالوحدة القومية ويتفتح عـن امكانيات كبرى وقيم روحية ، نهل منها العرب مثلهم العلياء ، فاشربت نفوسهم ايمانا راسخا لم يقف عند شبه الجزيرة بل امتد منه الى الآفاق ، فباسم هذه المثل العليا انطلق العرب من موطنهم الاصلي ، وانتشروا في الآفاق البعيدة شرقا وغربا ، واختلطوا ، جريا على عادات آبائهم واجدادهم الاولين ، بشعوب العالم

القديم ونشروا بينها لغتهم ودينهم ومثلوا أطيب ما عندها من حضارات • ومن تفاعل هذه الحضارات مع بعض نمت الحضارة العربية الاسلامية التي شارك فيها العرب انفسهم وغيرهم ممن تعرب من أبناء الشعوب التي دخلت في ظل الدولة العربية • ولم ينعم بهذه الحضارة العرب وحدهم فحسب بل امتد تأثيرها الى البلاد الاخرى وبذلك حقق العرب رسالتهم الحضاريــة الانسانية •

ثم تبدلت الظروف والاحوال ، وتعرض العرب لازمات عديدة وعنيفة ادت الى تسرب الضعف وفقدان الكثير من السيادة السياسية ، وانتشار النزعات الانفصالية والثورات ونمو الحركات الشعوبية والزندقة التي ترمي جميعا الى ضرب الكيان العربي وتقويضه من اساسه لا سيما وان مفهم العروبة والاسلام كان واحدا في نظر الشعوب الاخرى آنذاك •

وأخيرا وبعــد الصراح المرير ، فت في عضد الدفاع ما لاقاه من قراع الخطوب ، فنبا السيف ، وكبا الجــواد ، وترجل الفارس العربي ، وراح يغط في سبات عميق •

وعندما جاء الاتراك العثمانيون في القرن السادس عشر كانت البلاد العربية في حالة خور واعياء تأمين ، فلم يلقوا مقاومة تذكر الا ما ندر ، فسهل عليهم فتحها وتقسيمها الى ولايات وربطها بالعاصمة القسطنطينية ، وظلت الرابطة العثمانية قوية في بلاد ، ضعيفة في اخرى ، معدومة في غيرها • ومما لاشك فيه ان العثمانيين ، عند فتحهم للبلاد العربية ، قــد استغلوا العاطفة الدينية التي تربطهم بالعرب ، فباسم الدين فتحت البلاد لهم الابواب ، وباسم الدين انتقلت الخلافة الى البيت العثماني •

حقا لقد تضافرت على العرب عوامل عديدة أخذت تعمل في هدم كيانهم خلال القرون المتعاقبــة ، واستطاعت هذه القوى المختلفة ان تنال من سيادتهم السياسية ، ولكن جوهرهم الاصيل كعرب لم يمس • وعلى نقيض ما كان يراد من اضعافهم ، كانوا أشد ايمانا بذاتهم العربية ، حتى اننا نرى في احلك أيامهم اكثر حماسا وتماسكا لاثبات هذه الذات • وفي فترات الازمات العصيبة التي مرت بهم ، كالغارات المغولية والحروب الصليبية ، كانت تعبأ الجهود ويمتــد الوعي القومي من المثقفين الى صفوف الشعب ليصبح قوة عظيمة يحسب حسابها ويصعب قهرها •

وهكذا نرى ان البلاد العربية ، بالرغم مما اعتراها من أرزاء ، بقيت محتفظة بمقومات شخصيتها العربية المتميزة عن غيرها : من لغة عربية فصيحة يحرسها القرآن ، ورابطة دينية في الغالب وتاريخ حافل بالامجاد ، وحيز جغرافي واضح المعالم يقف عند الحدود اللغوية ومصير واحد • وهذا ما أبقى القومية العربية بشكل قوة عتيدة • فيكفي اذن ان تتاح لهاظروف سعيدة طورا وبائسة طورا آخر ، وتنفخ فيها روحا جديدة لتهب من حلمها المروع ورقادها الكهفي ، وتتذكر نفسها وتشعر بكيانها ووحدتها الاولى ، وتعود فتبني الحياة من جديد مستمدة قوتها من جوهرها الاصلي ، الذي لم يتغير رغم تقلبات الظروف ، وآخذة بجميع العناصر والاسباب التي تزيد هذه القوة مضاء وهذا الجوهر أصالة وتوكيدا •

٢ ـ مقومات القومية العربية :

ان مقومات القومية العربية حسب درجة الاهمية ، وحسب التسلسل الزمني هي اللغة والتاريخ أي التقاليد التاريخية ، المكان الجغرافي ، والمصالح القومية .

آ ـ اللغة : ونريد بها اللغة العربية الفصحى التي يتفاهم بها العرب مهما نأت بلادهم ، وتباعدت أقطارهم . فهي اصدق تعبير لعبقرية الشعب العربي وتقاليده ، وتراثه الروحي ، وقيمه الخالدة ، واعظم عامل مشترك لجمع الاقطار العربية في وحدة قومية ، بالرغم من اختلاف اللهجات المحلية . وما من لغة على سطح الكرة الا وتتنوع لهجاتها بتنوع الوسط الجغرافي ولا تشذ اللغة العربية في هذه النقطة ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات الحية . ولو رجعنا الى اللغات العامية في البلاد العربية ، لرأينا انها ليست سوى أشكال وصيغ مختصرة ومختزلة لتعابير اللغة الام تحورت قليلا او كثيرا . وكل هذه الاشكال والصيغ ترد ، عند الاقتضاء ، الى اصلها الفصيح ولا تختلف عنه كما يختلف الآرغو عن اللغة الفرنسية والسلانغ عن اللغة الانكليزية .

واما المتفرنجون الذين يقولون بابدال اللغة العربية باللغة العامية ، لانها اصدق تعبيرا وأسهل تعلما من اللغة الفصحى ، فهم اناس يهرفون بما لا يعرفون ، ومقلدون وأجراء دعاية اجنبية ، فلقد رأى العرب من المحن والنكبات ما لو نزلت على الجبال لهاضها ، ومع هذا فقد عاشت اللغة العربية الفصحى وتغلبت على الاحداث وطغيان الاستعمار ، وظلت محتفظة بنقاوتها الاولى ، وفصاحتها المحببة ومرونتها العجيبة ، وكلماتها السائغة ، وجرسها العذب ، والفضل في ذلك يرجع الى القرآن الكريم حارسها وأمينها وهاديها اذا ضل بالعرب السبيل .

واذا كانت اللغة العامية أداة للتعبير في عصر الظلمات والانحطاط نظرا لتفشي الجهل والغباوة والامية ، وضعف الثقافة ، فليس في ذلك ما يدل على ضياع العربية الفصحى ، فمنذ انبثق فجر النهضة العربية الحديثة ، والاقبال على تعلمها آخذ بالنماء يوما عن يوم . وارتفاع مستوى التفكير العربي يتساوق مع فصاحة اللغة وبساطتها وجودة التعبير . أضف الى ذلك ان تقدم طرق المواصلات والصحافة والنشر وتعميم الثقافة وانتشار التعليم ومكافحة الامية رفعت مستوى التكلم والكتابة باللغة العربية . وما زالت هذه في توسع مطرد تقرب العرب ، وتوحد بين تفكيرهم وليس اليوم الذي تزول فيه الامية والعامية عنا ببعيد .

ب ـ التاريخ : ونقصد منه محتواه الواسع العريض الذي يضم في تضاعيفه كل ما انتجته البشرية العربية في عمرها المديد من تراث حضاري . فهو في هذا المعنى ذاكرة العرب الحية وسجلهم الخالد الحافل بالامجاد والعرب اليوم يرجعون الى تاريخهم ، لا ليعتزوا به فحسب ، بل ليتخذوا منه عبرة ودرسا ، ويسيروا على سنن ابطاله ، ويبتعدوا عن مهاوي الزلل . وبتعرفهم على تاريخهم يزداد شعورهم بانهم انجاب أمة واحدة تعاون ابناؤها في الماضي على اشادة صرح الحضارة العربية وعليهم اليوم ان يبنوا كما بنى اسلافهم من قبل ، ليكونوا أهلا للحياة ، وجديرين بأن يكونوا سليلي آبائهم الاولين . وهكذا يتصل حاضر العرب بغابرهم ، ويتألف منهما كتلة قوية تساعد في بناء المستقبل .

ولقد زعم بعض المؤلفين المحدثين ان وحدة العرب التاريخية لم تكن الا في الماضي البعيد • ولا شك ان مصدر هذا الزعم هو نظرهم الى التاريخ العربي من وجهة الملوك والسلالات الحاكمة فحسب ، ساهين عن الشعب العربي وجماهيره التي ظلت متصلة الحلقات حتى في أحلك ادوار الانحطاط ، وبالرغم من تبدل الظروف وتقلب الاحوال •

حـ ـ الحيز الجغرافي : ويمتد من حدود الخليج العربي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، ومن شواطيء المتوسط وأقدام طوروس شمالا الى المحيط الهنـدي ووادي النيل الاعلى وجنوب الصحراء الكبرى جنوبا • ففي هذا النطاق الجغرافي يتحدد الوطن العربي المشترك الذي يعيش فيه العرب منذ نشأتهم ومنذ ان نشر العرب في بقاعه رايتهم ولغتهم ودعوتهم وحضارتهم •

وهذا الاطار الجغرافي ، كما نراه ، متصل الاجزاء ، واضح المعالم ، ولقد عمل على تهيئة الطبيعـة والانسان العربي • فعوامله الارضية تتسلسل متكاملة بانتظام : سهولا منبسطة وهضابا وانجادا وجبالا ، تعقبها صحاري مترامية الاطراف • وفي كل اقليم من أقاليمه تتضوع ريّا المتوسط ، وتتردد الحان العربية السحرية •

والبلاد العربية كما تبدو على المصور الجغرافي اليوم في حدودها الطبيعية واللغوية ليست الا نتيجة لهذا التكييف العربي مع شرائط البيئة • وفيها رسخت اقدام العرب ، وعلى ارضها المقدسة حطوا رحالهم وضربوا اطنابهم وقبلوا بها وطنا وانتدبتهم لها حماة وبذلك ابرم العقد الازلي بين العرب والوطن العربي •

د ـ وحدة المصالح القومية : لا شك ان هذه المصالح تختلف حسب الظروف والاحوال • فالعرب اليوم يريدون ان يعيشوا احرارا اعزاء كرماء ، ويشعرون بوجود رابطة روحية معنوية تربطهم ، ولقد تألبت عليهم القوى الدولية والمطامع الصهيونية ولذا فان ضغط الحوادث والمصلحة العربية العليا تقضي بان تقوم بينهم وحدة في الثقافة والاقتصاد والسياسة والدفاع وكفاح الاستعمار • وهذه المصالح المشتركة تؤلف في جوهرها مقوما من مقومات القومية العامة •

عوامل اليقظـة القوميـة

عوامل اليقظة القومية

عوامل اليقظة العربية القومية : بدأت يقظة الشعور القومي العربي نامية متكاملة منذ منتصف القرن الثامن عشر ، فهي اذن تواكب يقظة الشعور القومي في أوروبة ، ولكنها تختلف عنها في أنها كانت ثقيلة الحركة مترددة ومتشعبة •

أما عوامل نمو هذا الشعور القومي فعديدة : بعضها بعيد ، وبعضها قريب ، وبعضها داخلي منبثق عن العرب أنفسهم وعن استمرار ثقافتهم العربية الاسلامية، وبعضها خارجي ناجم عن احتكاك العرب بالغرب وتأثرهم بالحضارة الغربية الحديثة بصورة مباشرة أو غير مباشرة • ويمكننا أن نلخص هذه العوامل بما يلي :

١ — استمرار الثقافة العربية الاسلامية على الدوام عن طريق تعليم اللغة العربية في الكتاتيب والزوايا والمدارس الاهلية الطائفية والكليات الدينية الاسلامية التي تهتم بدراسة الفقه الاسلامي واللغة العربية والتاريخ الاسلامي • وظلت هذه المؤسسات الثقافية الوطنية مع الزمن حافظة للتقاليد العربية والاسلامية يأخذها الخلف عن السلف ، ويتناقلها أبناء الاسر كابرا عن كابر وهي وان لم تكن كبيرة الاشعاع في الجماهير العربية الا انها كانت بمثابة خميرة عربية ثقافية حية تعمل سرا دون ان ينال منها طغيان اللغة التركية او نفوذ اللغات الاجنبية وثقافتها الآخذة بالانتشار في الاوساط العربية •

٢ — المؤسسات الثقافية الاجنبية التبشيرية منها والعلمانية التي أنشئت في البلاد العربية وجعلت من مهامها الاولى نقل الثقافة العربية الحديثة الى الاجيال العربية الصاعدة •

٣ — تأسيس الجامعات العربية في البلدان العربية ، واليها يرجع الفضل في نشر الثقافة العربية في الشبيبة العربية على مقياس واسع وفي تنمية الشعور القومي العربي •

٤ — احتكاك العرب بالغرب الاوربي عن طريق التجارة والبعثات العلمية والسياحية والصحافة وطرق المواصلات المختلفة التي قربت العرب من بعضهم وجعلتهم أكثر اهتماما بقضاياهم وقضايا غيرهم من أبناء الشعوب الاخرى ، وتأثرهم بالافكار التحريرية والحركات الاستقلالية في أوروبة •

٥ — حركة التنظيم واصلاح أجهزة الادارة والحكم في الامبراطورية العثمانية طوال القرن التاسع عشر ، واعلان الدستور العثماني الذي كان منه مطالبة العرب بمساواتهم مع الترك ، وبالحكم اللامركزي في البلاد الخاضعة للحكم العثماني ، وسياسة التتريك التي اتبعها الاتحاديون منذ تسلمهم زمام الحكم ، ونشأ عنها رد الفعل العربي على الظلم العثماني •

٦ — رد الفعل العربي الذي أحدثه التغلغل الاوربي على اختلاف أشكاله في البلاد العربية أولا ، ورد الفعل الذي أحدثته الهجرة الصهيونية ثانيا ثم قيام اسرائيل في قلب الوطن العربي بدعم من الدول الاستعمارية الكبرى وتهديدها اياه بالخطر في كل حين •

٧ — « حق الشعوب في تقرير مصيرها » وتأسيس منظمة الامم المتحدة وحركات الشعوب الآفرو آسية ، ورغبتها في التحرر من نير الاستعمار وتضافرها مع بعض في سبيل العيش الكريم ، ومناصرة الديمقراطيات الشعبية لها وعطف الرأي العالمي الحر عليها •

٨ — اتنهاز الفرص والافادة من تنافس الدول الكبرى لتحقيق الاهداف القومية •

لقد توالت العوامل منذ فجر النهضة العربية الحديثة ، وأخذت تعمل عملها وما زال بعضها يؤثر في الفكر العربي ، ويحرك الجماهير العربية ، ويدفع القومية العربية خطوات سريعة نحو الحقيقة والواقع أي نحو تحقيق الذات العربية ، ومن هنا يتبين أن يقظة القومية العربية ، كفكرة تأملية قوامها الوعي والشعور والادراك والايمان ، حادث جديد في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، وان هذه الفكرة مرت بتطورات مختلفة متميزة عن بعض، ولكل منها طابعه الخاص• وهذا ما يجعلنا نقسم هذه التطورات الى ثلاث مراحل :

١ — مرحلة اليقظة العربية الحديثة : — وهي تمتد منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى أعقاب الحرب العالمية ، الاولى ، أي أن اليقظة السياسية للمصير العربي لم تبدأ الا بعد أن أثمرت النهضة العربية من الوجهة الفكرية ، وبدأ صداها ينعكس على الحياة السياسية • وليس بضروري أن تبدأ اليقظة في كل البلاد العربية آسيوية كانت أو أفريقية ، في آن واحد فقد تبدأ متقدمة في قطر ، ومتأخرة في آخر ، ولكن المطاليب السياسية الواعية لم تبدأ الا بعد أن تشكلت في البلاد العربية طبقة مستنيرة ومتأثرة بالحضارة الغربية • وهذا لم يظهر بشكل واضح مختلف أقطار العرب الا في الربع الاول من القرن العشرين •

٢ — مرحلة الكفاح العربي في سبيل التحرر الاقليمي : — لقد بدأ هذا الكفاح بالسلاح منذ وطأ الاستعمار تراب الوطن العربي • ولكن الفكر الواعي المنظم كان ينقصه غالبا • وهذا لم يتوفر جليا الا منذ الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية •

٣ — مرحلة الاستقلال والوحدة — وهي تمتد من الحرب العالمية الثانية الى الوقت الحاضر • وفيها بدأ الشعب العربي ، في مختلف أقطاره المستقلة ، ينشىء الحياة الجديدة على أسس عقلانية ويخطط للمستقبل ويقوم بتحقيق المشاريع الكفيلة برفع المستوى المعاشي لدى عناصر السكان ، ويقاوم التخلف المزمن ليعوض ما فات ، ويعمل ما في وسعه لتقديم العون للبلاد العربية التي ما زالت تكافح الاستعمار للخلاص • ولقد بات من المقرر لدى عامة الناس أن لا رجعة للاستعمار بعد ان ولت أيامه ، ولذا فان المجهود الوطني يجب ان ينصرف الى العمل الايجابي في هذه المرحلة ، بعد أن كان موجها للعمل السلبي في مرحلة الكفاح التحرري •

ولكن الاستقلال ، الذي حققته أكثرية البلاد العربية ، عجل البحث في أمر الوحدة ولو لم تستقل بقية البلاد الاخرى • وما ذلك الا لان الوحدة أصبحت مطلبا جماهيريا ملحا ، لا سيما وأن الظروف التي أحاطت بالبلاد العربية قوت هذا الاتجاه وسارعت في الخوض فيه •

الفصل الاول

مرحلة اليقظة العربية الحديثة

ان أول ما يلاحظ في هذه المرحلة هو أن القومية العربية ، ان في آسيا العربية أو في افريقية العربية ، بدأت بالتفاته نحو الماضي البعيد • وهذه الالتفاتة الى الوراء هي في ذاتها تحرر من أشياء كثيرة ركبتها الاجيال والعصور •

لقد بدأ الوعي القومي الحديث بقيام نهضة فكرية عامة تجلت بالتوكيد على اللغة العربية باعتبارها الرابطة المشتركة بين العرب جميعا في شتى أقطارهم وأمصارهم ، وببعث الادب العربي والتراث العربي والتاريخ العربي ، وخاصة في الفترة التي انقضت بين ظهور الاسلام وسقوط بغداد لانها الفترة المشرقة في تاريخهم التي تذكرهم بأنفسهم ، وبأنهم قوم كانت لهم أمجاد ورسالة حضارية ، وتشعرهم بأنهم سليلو أمة واحدة ، بالرغم مما باعدت قوى العدوان والاستعمار فيما بينهم • واذا كان هذا التغني بالماضي القديم أمرا مشتركا بين أقطار العروبة فليس في ذلك ما يمنع التغني أيضا بالامجاد المحلية على مستوى القطر او المنطقة •

ولا شك في أن هذا الوعي الثقافي القومي ادى بالعرب تحت تأثير عوامل مختلفة الى ضرورة التفكير بزحزحة النظام القائم أيا كان نوعه • وتحرير العرب من نير الحكم الاجنبي • ولكن هذا التفكير السياسي أخذ في الواقع وجهات مختلفة • والسبب في ذلك يرجع الى عاملين •

الاول : عدم وجود خطة موحدة بين مفكري العرب آنذاك على القيام بعمل مشترك وفي اتجاه واحد • حقا لقد خامرت فكرة التحرر والاستقلال الرؤوس المستنيرة من أبناء لعرب • ولكن تنفيذها ظل جزئيا وفرديا ولم يكن جماعيا يعمل حسب خطة مرسومةوبرنامج عام •

الثاني : تعدد الاستعمار في البلاد العربية في أفريقية • فقد تخلصت هذه البلاد من الحكم العثماني قبل بلاد آسيا العربية ، بيد انها رزحت تحت نير الاستعمار الغربي • وقد تنوع هذا الاستعمار بين أسباني وفرنسي وانكليزي وايطالي ، وعزل الاقاليم العربية الافريقية عن بعض ، كما عزلها عن أقاليم الشرق العربي• ولذا كانت الحركات التحررية ، التي قامت فيها ، حركات تحرر اقليمية ومحلية أكثر منها قومية ؛ هذا بالاضافة الى أن هذه الحركات الوطنية في أفريقية العربية مطبوعة بالطابع الاسلامي أكثر مما هي بالطابع العربي ، لان الدين كان فيها مقوما أساسيا وعنصراقويا في التوجيه والمقاومة والدفاع •

وفي الحقيقة كانت الشروط العامة مواتية لظهور القومية العربية في آسيا العربية في وقت مبكر أكثر

منها في أفريقية العربية ، لان الاقاليم الآسيوية ظلت خاضعة لحكم واحد وهو الحكم العثماني ، وهذا الوضع أبقى لديها فكرة الوحدة ؛ ولان حركة الاصلاح التي تمت في الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت ترمي الى المساواة بين مختلف السكان • ولذا كان المفكرون العرب في المشرق العربي أكثر تقبلا لفكرة القومية الجامعة ، ونراهم في حركتهم ضد الدولة العثمانية يقومون قومة الرجل الواحد ، لانهم لم يجدوا أمامهم الا حكما أجنبيا واحدا وهو الحكم العثماني ؛ ولان القومية العربية ، التي تضم المواطنين العرب جميعا ، دون أي تفريق مذهبي او عنصري ، كانت رائدهم وقاسما مشتركا بينهم أما في أفريقية العربية فالامرمختلف جدا • لان الاستعمار فتت البلاد العربية وجزأها وحاول في بعضها ، ولا سيما في بلاد المغرب العربي ، أن يقضي على كل المقومات ويمسخ كل شيء • ولذا كان طبيعيا في هذه البلاد أن تحتاج الى المزيد من الوقت اكثر من غيرها لتضمد جراحها ، وتستجمع قواها ، وتعاود نشاطها بصورة أجدى وبطرق منظمة •

ومن الثابت أن فكرة القومية ، التي اجتاحت اوربة في القرن التاسع عشر ، هبت في آن واحد ، في أوائل القرن العشرين ، على الترك والقوميات الاخرى التابعة للامبراطورية العثمانية ، ثم نمت في هذه الامبراطورية بعد ثورة جمعية الاتحاد والترقي عام١٩٠٨ وعودة الحياة الدستورية التي عطلها السلطان عبد الحميد الثاني •

ولقد كانت الحرية الديمقراطية منشطة للاماني القومية عند الشعوب وعاملا أساسيا في الاعراب عن هذه الاماني • فمنها انطلق أحرار العرب في فرض شخصيتهم العربية على مسرح السياسة الداخلية في الامبراطورية العثمانية والادلاء بمطاليبهم على لسان نوابهم في مجلس المبعوثان وفي الصحافة والاندية والجمعيات •

بدأ التفكير القومي العربي في اتجاهين مختلفين : ديني وسياسي • وتلفت انتباهنا في الاتجاه الديني حركة جمال الدين الافغاني • فهي تدعو الى النهوض بالعالم الاسلامي ليساير ركب الحضارة الحديثة ويقاوم النفوذ الاجنبي ، فدعوتها اذن تتضمن بعثا روحيا لجميع المسلمين بما فيهم العرب •

وأكثر من دعوة الافغاني أفكار عبد الرحمن الكواكبي في كتابه « أم القرى » ففيه يميز العرب عن غيرهم من الاقوام التي تدين بالاسلام • ولذا فأفكاره في الناحية العربية أوضح من أفكار جمال الدين • واذا رأيناه لا يخرج عن الدين فقد كان يشيد بفضل العرب ويرى ان النهوض الديني يجب أن يتم على أيديهم لان العرب كما يقول : « هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية • » ونراه يصرح بحقوق العرب المهضومة • وينفي عنهم كل تعصب ديني أو جنسي ، ويدعو الى نبذ الخلافات الطائفية والحصول على الاستقلال الاداري لكل من الاقوام الداخلة في الامبراطورية العثمانية واقامة خليفة عربي في مكة •

وآراء الكواكبي ، على ما فيها من جرأة وثورة على النظم القائمة لا تعدو اقامة خلافة اسلامية عربية مقام خلافة اسلامية تركية •

أما الاتجاه السياسي فقد ظهر بنزعتين تسيران معا . احداهما واضحة مستمرة وهي المطالبة بالحرية الدستورية والاخرى خجلى وغائمة ومتقطعة ، وهـي النزعة القومية ، وظلت هذه حالها مترددة الى الحرب العالمية الاولى .

ظهرت النزعة الدستورية بشكل حركة منذ اعلان الدستور العثماني في ١٨٧٦ ففيه وجد المستنيرون من العرب وسيلة يتذرعون بها للمطالبة باحترام حقوقهم كمواطنين . وكانوا يلحون باللائمـة على الحكام وفساد الادارة وينبهون الى ضرورة الاصلاح والدعوة الى « إيقاظ الرقود » و « تنبيه النيام » و « التنديد بعهد الظلم والفوضى » و « الاعتزاز بالشرقية » ونفض غبار الجهل والامية ، وتقليد الامم الناهضة الحديثة واذكاء الشعور الوطني .

وقد نشطت الاقلام العربية بعد ثورة الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد الثاني ٢٤ تموز = يوليو ١٩٠٨ واعلان الدستور ثانية بعد تعطيله ، وهللت للحرية وأبدت ولاءها للدولة العثمانية وحملها على الدول الاوربية التي تتدخل في شئونها وتسعى لتفريق أبناء الوطن الواحد وتقطيع أوصال الامبراطورية .

واذا كانت على مثل هذا الوضوح حركة الحرية الدستورية فقد لبث النزعة القومية متقطعة ، ولكنها حيـة على كل حال وغامضة وزادها غموضا قلة القائلين بها واغفال أسمائهم وعـدم ذيوعها في الكتل والسواد وعدم تقدير الجمهور العربي لندائها فقد كان مأخوذا بولائه للامبراطورية العثمانية ، مقيما على جهله راسفا في قيود أميته ولم يصل الى درجة من النضج الفكري تجعله متميزا عن غيره مؤمنا بحقوقه . يضاف الى ذلك أن نظام الرقابة الذي فرضته السلطات العثمانية ، ان قبل الدستور او بعده . كان يحول دون انتشار الفكرة القومية الثورية ، التي ظلت تعمل في السر حينا ، وفي العلانية حينا آخر ، كلمـا استطاعت لذلك سبيلا .

ظهرت الفكرة القومية العربية في خليتها الاولى وصورتها البسيطة في رؤوس المفكرين على يد جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ التي شخصت المطاليب القومية آنذاك ببرنامج سياسي يتلخص بأربع نقاط وهي :

١ = استقلال سورية متحدة مع لبنان .

٢ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد .

٣ = الغاء الرقابة والقيود الاخرى التي تحول دون حريـة الرأي وانتشار العلم .

٤ ــ عدم استخدام الجنود العرب من أبناء البلاد الا ضمن حدود بلادهم .

أحدثت المناشير التي أعلنت فيها هذه النقاط ، رد فعل قوي في الاوساط العثمانية ، فراحت تبحث عن محرريها دون جدوى . أما في الاوساط العربية فقد قابلها الجمهور بسلبية صامتة ، ولم تجد الوسط الملائم لانها انتشرت في عدد محدود من المدن السورية ، ولم يدربها القسم الاعظم من السكان فضلا عن أن هؤلاء لم يكونوا على استعداد بعد لتقبل مثل هذه الافكار الثورية .

وأوسع من أهداف جمعية بيروت كانت آراء نجيب عازوري ، وهو سوري مسيحي ، عمل متصرفا في القدس لفترة من الزمن ، ولاسباب غامضة تخلى عن منصبه عام ١٩٠٤ وذهب الى باريس ومن ثـم الى

القاهرة حيث أقام حتى وفاته عام ١٩١٦ • أسس في العام ١٩٠٤ « رابطة الوطن العربي » وغايتها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الاتراك ، ووجهت هذه الرابطة نداءات حارة الى العرب تحضهم على القيام بالثورة • ثم وضح نجيب عازوري أفكاره في العام ١٩٠٥ في كتاب نشره باللغة الفرنسية تحت عنوان : « يقظة الامة العربية » وفيه يقول : هنالك أمة عربية ، واحدة تضم المسيحيين والمسلمين على حد سواء • وليست المشاكل الدينية ، التي تنشأ بين مختلف أبناء اطوائف سوى مشاكل سياسية تثيرها الدول الاجنبية في سبيل منافعها الخاصة • وليس المسيحيون اقل عروبة من المسلمين • أما حدود هذه الامة العربية فتضم البلاد العربية الآسيوية ، وتبقى مصر وشمال افريقيةخارجين عنها •

وعلى هذه الامة العربية أن تستقل عن الترك لما ألحققوا بها من أضرار جسام ، فلولاهم لكان العرب من ارقى أمم العالم • ولا أمل يرجى من أن تصلـح الامبراطورية نفسها لتضمن للعرب مكانة أفضل ، ولو أمكن الاصلاح لظل العرب لهـا موالين ، ولكن عبد الحميد الثاني لا يريد أن يغير سياسته ورجال تركيا الفتاة لا يصلون الى السلطة • ولذا كـان الاستقلال مخرجا • وما على العرب والكرد والارمن الا ان ينشقوا عن هذه الامبراطورية لانها مهددة بانهيار ، ان عاجلا او آجلا ، بسبب ضعفها الداخلي وتدخل الدول الاوربية بشؤونها •

ويتضمن كتاب عازوري تحليلات ضافية عن سياسة الـدول ومصالحها في بـلاد الشرق الادنى ، ويستخلص بأن أكبر الخطر عليها يأتي من روسيا والتوسع الجرماني في آسيا الصغرى ، وأن الامل في انكلترا وروسيا ، وفي هذه الاخيرة خاصة ، لما لهمـا من تقاليد حرة • ولكن أخشى ما يخشاه عازوري هو هذا الخطر الذي نكاد نسمع به لاول مرة وهـو المطامع الصهيونية في العودة الى فلسطين • ونراه يقـول :

« هنالك حادثان هاما من طبيعة واحدة ولكنهما متعارضان وهمـا : يقظة الامة العربية والجهد الخفي لانشاء ملك اسرائيل القديم من جديد وعلى مقياس أوسع • ان مصير هاتين الحركتين القتال باستمرار الى أن تغلب احداهما الاخرى • ومصير العالم كلـه منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع • » •

ويرى عازوري أن تكون الدولة العربية المستقلة سلطنة دستورية حـرة ، وعلى رأسها سلطان عربي مسلم ، وأن تقام في الحجاز خلافة عربية ، وان يحترم استقلال لبنان الذاتي ونجد واليمن • ويقترح أخير ان يكون السلطان أحد أفراد العائلة الحاكمة في مصر ، وأن يكون الخليفة شريف مكـة •

كمـا أصدر عازوري في باريس مجلة شهرية بالفرنسية اسمها « الاستقلال العربي » (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) هدفهـا تعريف الغرب بالقضية العربية والدعاية لهـا • غير أن حركته كانت بعيدة عن الجو الذي تحتاج اليه لتنتشر فيـه •

ولقد كان من الممكن أن يظل التفاهم سائدا بين العـرب والترك بعد عودة الحياة الدستورية عـام ١٩٠٨ • بيد ان اعلان الدستور لم يحقق الآمال المعقودة عليه لانه لم يطبق باخلاص ، وظهر سوء نيـة الاتحاديين عندما استبدوا بالامر واستأثروا بالسلطات النيابية وضغطوا على الحريات ، حتى غدا الدستور حرفا ميتا • وكان على السياسيين العرب ان ينظموا صفوفهم ووجد فيهم أنـاس معتدلون ، وآخرون

متطرفون ، ولكن الاتجاه العام ، وهو المعتدل كـان يسير نحو نظام اللامركزية في بلاد العرب مع الحفاظ على الرابطة العثمانية •

ومن هذه الاتجاهات المعتدلة الجديرة بالذكر « الجمعية القحطانية » التي تأسست في أواخر العام ١٩٠٩ في مصر وترمي الى تحقيق مشروع جديد وهو جعل الامبراطورية العثمانية ثنائية الحكم ، وذلك بتشكيل مملكة عربية واحدة لها برلمانها الخاص وادارتها الخاصة ، على ان تؤلف جزءا من امبراطورية عثمانية ـ عربية تشبه امبراطورية النمسا ـ هونغاريا • وبموجب هذا المشروع يضع السلطان العثماني على رأسه تاج المملكة العربية وتاج المملكة التركية عـلى غرار أباطرة آل هابسبورغ ، وبذا يتوصل الى حل يرضي الطرفين •

وقريب من هذا الاتجاه ، وان اختلف عنه شكلا ، برنامج « حزب اللامركزية » الذي تأسس في القاهرة عـام ١٩١٢ ، وبرنامج الجمعية الاصلاحيـة التي تأسست في بيروت في العام نفسه وكانت على صلة وثيقة بحزب اللامركيزة •

ومثل ذلك أيضا مقررات مؤتمر باريس الذي عقد في حزيران = يونيه ١٩١٣ وضم وفودا من أبناء الاقطـار العربية ومن أبناء المهجر •

وفي كل هذه الاهداف الموضوعة والقرارات المتخذة نلمس جانب الاعتدال لان القائلين بها يعترفون بالسيادة العثمانية قبل كل شيء • ولكنهم يطالبون بنظام اللامركزية في الحكـم ، ويلحون على حقوق العرب السياسية ، واشتراكهم في ادارة الحكومة المركزية اشتراكا فعليا ، والاعتراف باللغة العربية لغـة رسمية في البرلمان العثماني ، على قدم المساواة مـع اللغـة التركية والخدمـة العسكرية في داخـل بلادهم •

ولو قارنا بين أهداف جمعية ١٨٧٥ وهذه المطاليب لوجدنا تجاوبا مع صيحات العروبـة الاولى ، واستمرارا بمتابعة الفكرة وان بدت متقطعة • والشيء الجديد هو ان الجو العربي الآن أصبح اكثر ملاءمة من قبل لانتشارها •

أما الفكـرة الجريئة فقد ظهرت عندما تأسست في باريس عـام ١٩١١ جمعية العربية الفتاة وهدفها « تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي ومن أي سيطرة أجنبية • وهذه الاهداف ، من وجهة النظر القومية ، تعتبر أكثر تقدما من غيرهافي تحقيق الفكرة العربية ، لانها تريد التحرير العربي التام ، ولا تكتفي بالتحرر الاقليمي وبالحكم الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية • وكانت هذه الجمعية أكثر الجمعيات نشاطا وسرية • فقد كتمت أمرها حتى تحررت البلاد العربية من الحكم التركي • وبعد سنتين على تأسيسها في باريس انتقلت الى بيروت عام ١٩١٣ ثم الى دمشق ١٩١٤ وضمت رجال الطليعة والرعيل الاول من دعاة الحركة العربية الذين اضطلعوا بأعبائها وتوجيهها • »

ان الطابع العام لهذه الاتجاهات المختلفة لا يخرج عن أن القضية العربية قضية داخلية اذ يمكن أن تسوى بين العرب والدولة العثمانية لان باب التفاهم بين الطرفين ما زال مفتوحا، ولان المطالبة بالاصلاح

أو الحكم الذاتي لا تعني مطلقا الارتماء في أحضان الغرب • غير ان الدول الاوربية ومطامعها الاستعمارية وجدت في القضية العربية فرصة سانحة لتفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية عنها لتكون الى جانبها أثناء الحرب العالمية الاولى • وعلى ما يبدو ان العرب في الغالب كانوا يريدون الحفاظ على صلتهم بالامبراطورية العثمانية خشية الوقوع في شباك الاستعمار فتكون حالهم كالمستجير من الرمضاء بالنار • ولكن سياسة الاتحاديين التعسفية جعلتهم يفكرون بحياة قومية وكيان مستقل •

غير ان هذا التفكير الذي تملك رجال السياسة ، كان بعيدا عن الكتل والجماهير العربية التي بقيت متعلقة بالخلافة العثمانية • ولم تنضج في ذهنها الفكرة التحررية بصورة كافية ، عدا عن انها لم تتبلور بشكل مذهب أو عقيدة ترمي الى الانفصال عن الجامعة العثمانية ، فضلا عن ان الفكرة القومية لم تنضح معالمها حتى في ذهن القائلين بها • وقد دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى ، الى جانب دول الوسط ، والعرب ما زالوا موالين لها ولكن شرائط الحرب وأوضاعها واعلان الاحكام العرفية وسياسة الاتحاديين العنصرية وسعت شقة الخلاف وسببت القطيعة• وظل العرب يخشون كل تدخل أجنبي ويحرصون على استقلالهم • ويبدو ذلك واضحا عندما اتفقت جهود جمعيتي « العربية الفتاة » و « العهد » على خطة للعمل ، وأعد أعضاؤهما بيانا بالمطاليب التي يتوقف على تحقيقها تعاون الزعماء العرب مع بريطانيا العظمى ضد تركيا في الحرب • فقد كان شرطهم الاول اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية التي نطلق عليها اليوم آسيا العربية ، باستثناء عدن ، وبالغاء الامتيازات الاجنبية •

واشتعلت الحرب والعرب في موقف المتردد • وصادف آنذاك أن فتشت السلطات التركية دار القنصلية الفرنسية في بيروت فوقعت يدها على وثائق سرية هامة واستطاعت بواسطتها ان تطلع على المحادثات التي جرت مع بعض أعضاء العربية الفتاة ، وأحالت الاوراق الى ديوان الحرب العرفي ، في عاليه ، فحكم على المتهمين بالاعدام ، ونفذ الحكم بالموت شنقا في ٦ أيـار = مايو ١٩١٦ في دمشق وبيروت • وهـذه السياسة التركية ، حيال العرب ، أفادت القضية العربية • فقد اسبغت على الشهداء حلل البطولات ورواء الاساطير ، وباعدت بين العرب والترك ، ودفعت أخيرا العرب الى القيام بالثورة العربية الكبرى بعد أن خدعوا بوعود انكلترا المرنة ووثقوا ، عن غير علم ، بعطف الحلفاء على قضيتهم ، وما كان الحلفاء يريدون ان يخدموا الا انفسهم ومصالحهم •

ولما لم تعـد المطالبة بمجدية نفعا فر أحرار العرب غداة السادس من أيار = مايو ١٩١٦ من ملاحقة الاتحاديين ، ولجأوا الى الحسين شريف مكة ـ وقبل أن يحصل من الانكليز على نص صريح بتحقيق آمال العرب ـ أعلن الثورة على الدولة العثمانية في ١٠حزيران = يونية ١٩١٦ أي بعد شهر ونيف من يوم الشهداء •

واستطاعت القوات العربية الثائرة على العثمانيين أن تستولي في أقل من ثلاثة شهور على مدن الحجاز باستثناء المدينة المنورة ، التي بقيت محاصرة حتى آخـر الحرب • وبويع الحسين بن علي ملكا على العرب في كانون الاول = ديسمبر ١٩١٦ •

وتقدم جيش الثورة العربية بقيادة فيصل بن الحسين في ارض الحجاز فنسف سكة حديد الحجاز بين معان والعقبة ، ثم تقدم شمالا نحو شرقي الاردن ، بينما تمكن اللورد اللنبي قائد القوات البريطانية ، بعد واقعة القناة ، من ان يزحف بمساعدة المصريين وعرب فلسطين ويحتل القدس •

ثم والت القوات العربية زحفها الى دمشق واحتلتها في اول تشرين الاول = اكتوبر ١٩١٨ ، ورفعت الراية العربية فوق مباني الحكومة ، وقبل ان تدخلها القوات البريطانية • واندحر العثمانيون متراجعين الى بلاد الاناضول بقيادة مصطفى كمال • ولم يمض شهر حتى تحررت سورية كلها من النفوذ العثماني بعد احتلال دام زهاء أربعة قرون •

وثورة العرب على الترك عام ١٩١٦ ، بالرغم من كل ما قيل فيها ، تعتبر ثورة عربية صميمة ، لانها كانت تهدف الى استقلال البلاد العربية ، وترنو الى تأسيس دولة عربية موحدة • وكانت ثورة بشعارها العربي وألوانه الاربعة التي ترمز لعهود العرب ايام عز العرب السالف وبعناصرها العربية • فهي ثورة قومية ولو لم يشترك فيها الا نفر قليل من أبناء العرب • وستظل هذه الثورة قومية لانها تعتبر أكبر تشخيص للمطالب القومية الثائرة على الحكم العثماني آنذاك ، وأول ظاهرة للوعي العربي المناضل في سبيل التحرر القومي •

وفي ختام هذه الثورة تنتهي آخر صحيفة للنضال العربي ضد الحكم العثماني • ان الشيء الذي نريد ان نقوله في هذا الموضوع هو ان ظلم الاتحاديين للعرب لم يكن الا عاملا من جملة العوامل التي دفعت العرب الى المطالبة بالتحرر القومي • لان نمو القومية عند كليهما اصطداما بين الطرفين ، وكانت من جانب العثمانيين • لقد عصفت ريح القومية بالترك والعرب في آن واحد ، وكان العنصران التركي والعربي موزعين بين حاكم ومحكوم • لذا أحدث نمو القومية عند كليهما اصطداما بين الطرفين ، وكانت اليقظة العربية العامل الاول والمحرض للحركة القومية العربية ، وليس رد الفعل ، ضد التحاديين ، الا عنصرا دافعا ومعجلا •

الفصل الثاني

مرحلة التحرير العربي

لقد وضعت أمام العرب منذ يقظتهم الحديثة ، قضية التحرر من الحكم العثماني من جانب ، والتحرر من الاستعمار الاوربي من جانب آخر بيد ان حركة التحرر من استعمار الدول الكبرى بدأت قبل حركة التحرر من الحكم العثماني ، لان الصدام وقع منذ اللحظة الاولى بين البلاد العربية الافريقية وبين الدول الغربية التي أرادت احتلالها • اما في ظل الامبرطورية العثمانية فقد اعتاد العرب في الشرق العربي على التعايش الطويل مع الاتراك ، وعلى المشاركة في الحياة اليومية والقيام معا بالوظائف وأعمال الدولة، وكانوا يعتبرون انفسهم والترك رعايا الامبراطورية واخوانا في الدين • ولذا جاء التحرر من نير العثمانيين متأخرا •

وكما رأينا أخذ التحرر من حكم العثمانيين في اول الامر شكل مطالب سياسة بسيطة ومعتدلة ، أي أنه بدأ سليما ، وهذا يرجع الى سببين : الاول لان الحكم في الامبراطورية العثمانية أصبح ديموقراطيا ولو ظاهرا منذ اعلان الدستور ؛ والثاني لان العرب كانوا يرون أن الدولة دولتهم وأنهم مواطنون في هذه الدولة ، ولم يذهب بهم النضال الى امتشاق الحسام الا بعد ان ايقطع كل أمل بالتفاهم : أما التحرر من الاستعمار الغربي فقد بدأ مسلحا منذ اللحظة الاولى لان الاستعمار نفسه باشر التوسع في البلاد العربية باستعمال السلاح وثقته بتفوقه •

ومن جهة اخرى ، كان الكفاح ضد المطامع الاستعمارية الاوربية اقليميا في بدايته ، وذلك بسبب اختلاف الدول المستعمرة وبسبب العزلة التي ضربتها هذه الدول حول البلاد العربية التي غزتها لتحول دون اتصالها مع بعضها وتجمع قواها • على ان هذا الكفاح وان كان اقليميا ظاهرا ، أي ان كل اقليم عربي كان يكافح منفردا ومعتمدا على نفسه وقواه الخاصة ، فهذا لم يمنع التأييد المعنوي والمساعدة المادية والمشاركة الفكرية والقلبية بل والمساهمة الفعلية ، اذا سمحت الظروف ، من أبناء الاقاليم العربية الشقيقة الاخرى •

وهذا الكفاح الاقليمي يختلف أيضا من حيث النوعية او الكيفية فقد بدأ غريزيا متمثلا بالدفاع الوطني ضد الغاصب المحتل ، ولم يكن مشحونا بالوعي الفكري العظيم • انطلق بشكل رد فعل بسيط ، ولكنه تكامل ونما بتوافر قادة الفكر وأهل الرأي والزعماء الوطنيين وتقدم المعرفة وانتشار الثقافة • وكلما توفر هذا العنصر الفكري في البلاد العربية وشعر العرب بوحدة مقدراتهم ومصيرهم واخائهم ووشائج قرباهم كانت الفكرة العربية الجامعة الرابطة القومية بين مختلف الاقاليم العربية والناظم الوحيد لكفاح العرب القومي •

أما الكفاح ضد الحكم العثماني فقد كان جماعيا وواعيا في آن واحد • كان كفاحا جماعيا لان

الاقاليم العربية الآسيوية ظلت خاضعة لحكم واحد وهو الحكم العثمني حتى آخر الحرب العالمية الاولى ،
ولما انتشر الوعي الثقافي والتفكير القومي في هذه البلاد ، ووجدت نخبة فكرية ، أخذت هذه الاخيرة
تطالب الحكومة العثمانية والسلطات المعنية في الامبراطرية بمنح العرب حقوقهم • وكان رجال هذه النخبة
يدافعون ويطالبون بحقوق بلادهم معا • وعندما تحولت حركة المطالبة الى ثورة ، تحت ضغط الظروف ،
أسهم بهذه الثورة رجال من مختلف الاقاليم العربية • وكان اتصالهم مع بعضهم مستمرا وانتقالهم بين بلادهم
لا يجد قيودا أو حدودا •

وكان كفاحا واعيا لان الطبقة العربية المثقفة في البلاد كانت اول من حمل لواء الكفاح وقاد
الجماهير العربية • فقد وجد بين أفرادها رجال ثقفوا الحضارة الغربية في بلادها أو في الآستانة عاصمة
الامبراطورية العثمانية ، او في الجامعات والمدارس الاجنبية التي تأسست في البلاد العربية ، كالجامعة
الاميركية والجامعة اليسوعية في بيروت • لقد اطلع هؤلاء الرواد الاوائل على ثقافة الغرب وحضارته ورأوا
كيف ينعم المواطن في ظلهما حرا كريما ، وقارنوا بين حياة بني قومهم والحياة التي يحياها المواطن في
الغرب ، فألفوا بلادهم في ظلمة العيش ووهدة الخمول • وراعهم التأخر المخيم على مجتمعهم بينما المواكب
البشرية اليقظة المتحررة تحث الخطا نحو الرقي والتقدم • ودفعهم ضميرهم الحي الى القيام على الاوضاع
السائدة والتخلف المقيم ، فهبوا يوقظون القيام ويطالبون بحقوق الانام وانطلق الركب في سبيل التحرر
والاستقلال • وانتهى النضال العربي بالثورة العربية على الاتراك ، ونجحت هذه في اجلاء العثمانيين
عن أرض العرب • ولكنها لم تنجح في تحقيق آمال العرب في التحرر والاستقلال ، لان الدول
الاستعمارية الكلبرى ، وان بدأ ظاهرا أنها تعطف على مطالبهم، كانت تتآمر عليهم وتحاول تفتيت وحدتهم،
قبل ان يجتمع شملها ، وتقسيم بلادهم الى مناطق نفوذ •

ان بريطانيا ، التي خيل للعرب انها حليفتهم الطبيعية ، لم تكتف بعقد معاهدة سايكس ــ بيكو عام
١٩١٦ ، بل أنها عمدت الى كسب الصهيونية الى جانبها ، وارضاء الصهاينة على حساب العرب ، وصرحت
لزعماء الصهيونية بأنها تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين كما هو مبين في وعد
بلفور في ٢ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩١٧ • ولا يغرب عن البال أن هذا الوعد عرض قبل أعلانه على
الرئيس ولسون الاميركي فحظي بموافقته ، وأيدته الحكومة الفرنسية علنا في ١٤ شباط = فبراير ١٩١٨
وتلتها الحكومة البريطانية في ٩ أيار = مايو ١٩١٨ •

ولقد أثار وعد بلفور حفيظة العرب وسخطهم ونقمتهم على الحلفاء والصهاينة واستنكروه محتجين
بأشد أشكال الاحتجاج وقامت مظاهرات وحوادث دموية في مختلف البلاد العربية • وبالرغم من كل
هذا التآمر على بلاد العرب كانت بريطانيا تصرح مؤكدة احترامها للتعهدات المقطوعة للعرب ، وعزمها على
الاعتراف بالسيادة والاستقلال التام وتأييدها لنضالهم في سبيل الحرية • هذا فضلا عن أن الحكومتين
البريطانية والفرنسية أذاعتا في ٧ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩١٨ ، قبل اعلان الهدنة بثلاثة أيام ،
تصريحا مشتركا أكدتا فيه أن الهدف ، الذي سعتا الى تحقيقه ، عندما خاضتا في الشرق غمار الحرب

التي أثارتها مطامع الالمان ، هو تحرير شعوب المنطقة ، التي مضى عليها ردح طويل من الزمن وهي تذوق الامرين من حكم العثمانيين ، واقامة حكومات وطنية تستمد سلطتها من المواطنين وتعمل وفق رغباتهم الحرة. ولكن هذا التصريح المشترك لم يكن في الحقيقة الا ستارا تخفي وراءه الدولتان أطماعهما الاستعمارية في بلاد الشرق العربي وقد بدت هذه الاطماع واضحة في مؤتمر الصلح • فما ان وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها ، وبدأ تنظيم السلام ، حتى رأى العرب الهوة سحيقة بين ما كانوا يؤملون وبين ماكان يبيته الاستعمار والصهيونية لهم من مشاريع بدأت في اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور وانتهت في مقررات سان ريمو (نيسان = أبريل ١٩٢٠) • وشهد العرب في أعقاب الحرب توزيع الرقعة العربية في آسيا الى مناطق نفوذ وانتداب ، لان الدولتين الظافرتين انكلترا وفرنسا احتلتا البلاد العربية الآسيوية وقسمتاها ولم تتركا منها سوى بلدين مستقلين وهما المملكة المتوكلية اليمنية ، ومملكة آل سعود التي نمت ووضعت يدها على نجد والحجاز ثم أصبحت فيما بعد تؤلف أكبر مملكة في شبه جزيرة العرب وهي المملكة العربية السعودية • وهذا التوزيع أدى ولا شك الى تجزئة البلاد العربية وخضوع كل منها لسلطة دولة وصية او منتدبة من عصبة الامم •

وهذا التوزيع السياسي ، الذي فرضته الدول الاستعمارية على البلاد العربية الآسيوية ، ربط بين حلقات السلسلة الاستعمارية في أفريقية وآسيا ، وجعل العرب جميعا يشتركون في مصير واحد وهو الوقوع في قبضة الاستعمار على اختلاف أشكاله وألوانه • ولقد كان من مآثر الحكم العثماني ، على ما فيه من مساوىء ، ان العرب في ظله كانوا يشعرون بوجود رابطة تربط فيما بينهم وهي الرابطة العثمانية • أما في ظل العهد الجديد فقد وقعوا في حالة تجزئة وانقسام أكثر مما كانوا قبل الحرب • وساعد على هذا الانقسام بعض أبناء العرب ممن ظلوا يعيشون بعقلية البادية والقبيلة ، لان كثيرا من المنازعات العربية كانت قائمة على المنافسات بين ملوك العرب في شبه الجزيرة وعلى توسيع رقعة الملك دون ما نظر الى قضية العرب الكبرى ، التي كانت تتلاعب بها الدول الاستعمارية حسب هواها • فقد تجمعت هذه الدول على تفكيك الوحدة العربية التي أوشكت أن تتصل عراها ، وعلى تفتيت قواها بل وعلى تمزيق القطر العربي الواحد الى أجزاء ، وعزل الاقطار العربية بعضها عن بعض لتحول دون أي تقارب بينها ، كما ناوءت هذه الدول العرب مناوءة صريحة وشجعت النزعات الانفصالية والنعرات الاقليمية، والخلافات الطائفية والعنصرية ، وقوت الاقطاعية ، وربطت مصالحها بمصالحها ، واستعملت مختلف الطرق في اضعاف اللغة العربية ، هذه الرابطة القومية القوية بين أبناء العب ، وتشويه التاريخ العربي ، وجادت بمال العرب لاسترضاء الدول والقوميات الاخرى لتستعيدها عليهم ، كما فعلت فرنسا في سلخ لواء الاسكندرونة عن سورية وتقديمه لقمة سائغة لتركيا ، وانكلترا في فلسطين ، بعد أن تعاهدت مع الصهاينة ، ومكنتهم من الهجرة اليها لتجعل منها وطنا قوميا لهم • وعرقلت هذه الدول الاستعمارية تقدم البلاد العربية اجتماعيا واقتصاديا وروحيا بما بثته من دعايات سامة على أيدي عملائها وأعوانها •

ولكن العرب وقد استيقظت قوميتهم وآمنوا بحقهم في الحياة ، لم يقفوا مكتوفي الايدي تجاه هذه الاساليب الاستعمارية • واذا شهدنا في هذه المرحلة ما يثير الفؤاد في بعض البلدان العربية ، من حروب ومنافسات الحكام والملوك والامراء ، في سبيل السلطة والسيادة ، فقد رأينا في الوقت نفسه

نمـو العاطفة القومية ووحدة الشعور العربي حيال الغاصبين ، واظهار هذه العاطفة وهذا الشعور في كل مناسبة غضبة مضرية سالت لها الدماء في ثورات مصر وسورية وفلسطين والعراق ونضال ليبيا والمغرب العربي ، ولم يزد الاستعمار نفوس ابنائها الابرار الا دفاعا وبسالة وبذلا • وهكذا كان تاريخ العرب في هذه المرحلة مطبوعا بطابع النضال وممزوجا بالدم والحديد والنـار •

والجدير بالذكر أن هذه المرحلة كانت مفعمة بالعاطفة الوطنية والقومية الثائرة والناقمة على الاحتلال والمتبرمة من حكم المستعمرين ، وذلك لان الاستعمار الغربي بعد ان اجتاح افريقية العربية وجزأها قبل الحرب ، أتى الى البلاد الآسيوية ، بعد الحرب ، ليتم دوره فيها • بيد انه اتى متأخرا وفي وقت قويت فيه شوكة العرب بظفرهم على العثمانيين ونمت عاطفتهم القومية وارتفع مستوى نهضتهم • ولذا كان رد الفعل شديدا لان العامل الفكري الناجم عن نمو الثقافة في البلاد العربية كان له أثره الظاهر في النضال ضد الطغيان الاوربي والهجرة الصهيونية •

على أن الاستعمار ، وان نجح في تجزئة البلاد العربية ، وأقام فيما بينها الحدود ، وجعل منها كيانات متعددة ليحصر كفاحها ، ويشغل كل واحد منها بمشاكله الخاصة ، فقد ظل الوعي العربي العام يعمل عمله وراء هذا الكفاء المجزأ • فمـا من ثورة قامت على الاستعمار في أي قطر عربي ، الا ووجدت أصداءها في الاقطـار العربية الاخرى • واذا بدا ظاهرا أن ليس هنالك خطة عامة مدبرة لقلب نظام الاستعمـار بين قادة وزعماء التحرر العربي في الاقطار العربية فهذا لم يمنع من ان الشعور العربي كان نفسه في كل قطر عربي ، بالرغم من الحواجز والسدود •

وبالمقابل ، يجب أن نعترف بأن التجزئة السياسية ، التي فرضتها الـدول الاستعمارية على البـلاد العربية ، تركت آثارها العميقة والبعيدة في أكثر البلاد العربية وترتبت عليها مصالح ومنافع مختلفـة ومتعددة • فمن جهة ، حددت نشاط المقاومة العربية وبعثرت جهودهـا ، ومن جهـة اخرى ولدت فكـرة الاستقلال الاقليمي والنزعة الانفصالية • وما زالت آثار هذه التجزئة باقية الى اليوم ، وتعمل عملها في مقدرات الشعب العربي •

وتتيجة ذلك ، لم يكن باستطاعة البلاد العربية أن تناضل الاستعمار بشكل جماعي ، بل أخذ كل منها يكافح الدولة المحتلة منفردا ، بالرغم مما يلقاه من تشجيع وتأييد من البلاد الاخرى • وهكذا قامت في البلاد العربية ، منذ وطئت أرضها أقدام الاستعمار ، حركات وطنية عديدة تستهدف الخلاص من نير الحكم الاجنبي والتحرر الاقليمي • وهذا ما يدعونا الى دراسـة كفاح الشعب العربي في شطريـه الآسيوي والافريقـي •

أ ــ كفاح الشعب العربي في آسيا

كفاح سورية ولبنان : ــ بعد أن جلا الترك عن البلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الاولى • تألفت في سورية دولة عربية مستقلة وتوج فيصل بن الحسين ملكا عليها • وسلكت حكومة فيصل سياسة عربية صرفة في مختلف أجهزة الدولة ومرافقها • ولكن هذه الدولة الناشئة الصغيرة لم تعمر طويلا • فبعد أن تقرر وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي بموجب معاهدة سان ريمو ، زحفت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال غورو الى دمشق من لبنان ولكن الشعب العربي في سورية بادر للقائها بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة في « ميسلون » في ٢٤ تموز = يوليو ١٩٢٠ ، وحارب ببسالة مدافعا عن استقلاله ، بالرغم من قلة امكانياته ، ولم تدم المعركة طويلا أمام أسلحة فرنسا النارية الحديثة ، وسقط يوسف العظمة شهيدا • ودخلت الجيوش الفرنسية دمشق في اليول التالي • وغادر فيصل سورية في طريقه الى لندن ليتولى فيما بعد عرش العراق •

ومهما يكن من قول في هذا الاستشهاد الانتحاري عندما يوازن بين القوى المتحاربة ، الفرنسية والعربية الفتية ، فان أقل ما يقال فيه أنه دفاع عن الحرية والاستقلال والكرامة والشرف العسكري ، ولو لم تكن تتائجه مضمونة وأن عمل الفرنسيين كان عدوانا صريحا على حق الشعب العربي في سورية •

ولا ريب في أن العرب خدعوا بوعود الدول الحليفة المرنة واتخذوا من تصريحاتها عهودا ومواثيق • ولذا كان يأسهم عميقا عندما عرفوا خططها ونواياها • ولقد كشف يوم ميسلون عن وجه الدول الاستعمارية على حقيقته • ففيه أحس العرب بخيبة الامل بانقراض أول دولة عربية حديثة تأسست في الشام عقب الحرب العالمية الاولى • وكانت هذه الدولة قصيرة الاجل ، لان المدة بين تكوينها ووأدها كانت أقل من سنتين ، من ١ تشرين الاول = أكتوبر ١٩١٨ الى ٢٤ تموز = يوليو ١٩٢٠ • والمدة التي انقضت بين يوم اعلان استقلالها بصورة رسمية وبين زوالها بصورة فعلية كانت أقل من خمسة أشهر من ٨ آذار = مارس الى ٢٤ تموز = يوليو ١٩٢٠ •

بدأ عهد الاحتلال الفرنسي في سورية ، بعد واقعة ميسلون • وفيه أخذ الفرنسيون ينفذون خطتهم الاستعمارية التي كانت تستهدف في تقسيم البلاد السورية وتجزئتها الى أربع دويلات منفصلة : دولة لبنان الكبير ، دولة دمشق تما فيها جبل الدروز ودولة حلب ودولة العلويين •

ولكن السوريين واللبنانيين أخذوا يقاومون الحكم الفرنسي وينتقدونه ويطالبون باستقلالهم • وقامت في سورية فترة الانتداب ثورات متعددة في وجه الفرنسيين كثورة الشيخ صالح العلي ، في منطقة جبال العلويين ، التي بدأ بها منذ ١٥ كانون الاول = ديسمبر ١٩١٨ أي قبل احتلال دمشق من قبل الجنرال غورو ، عندما انتشرت الاخبار بالاخطار المحدقة بسورية ، بعد ان احتلت الجيوش الفرنسية الساحل السوري • ولقد سجل الشيخ صالح العلي في هذه الثورات صحائف غرا في الدفاع والبسالة ومقارعة الفرنسيين ، وكذلك ثورة المجاهد الكبير ابراهيم هنانو في منطقة حلب • وقد تعاونت الثورتان معا في مقاومة الفرنسيين •

ولكن الظاهرة الهامة للمقاومة السورية تجلت في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) التي اندلع لهيبها في جبل الدروز بقيادة سلطان الاطرش وبعض قادة الرأي في البلاد مثل الدكتور عبد الرحمن شهبندر والسيد حسن الحكيم وغيرهم • ثم امتدت الى دمشق وسجلت في تاريخ سورية مواقع كان لها الاثر الاكبر في الدلالة على تفاني السوريين وحسن بلائهم في هزيمة الجيش الفرنسي وتكبيده خسائر فادحة •

وظلت الحالة في نضال مستمر بين فرنسا والسوريين بزعامة أحرارهم من رجال الكتلة الوطنية وممن التف حولهم من الشباب المستنيرين في فترة ما بين الحربين • وكلما لمس الفرنسيون شدة المقاومة ، جنحوا للمهادنة والمفاوضة لاغراء السوريين وتخفيف التوتر ولعودة بعد ذلك الى أساليبهم الاستعمارية ولقد بذل الشعب العربي في سورية من المال والارواح ما يتجاوز حدود طاقته ، ولم يترك وسيلة من وسائل المقاومة والدفاع الا استعملها ولو كانت بدائية • وقد شاركت المرأة السورية بنصيب وافر هذه الحركة الوطنية •

ونشبت الحرب العالمية الثانية والسوريون لا تلين لهم قناة الى ان رأى الفرنسيون ان لا سبيل من انهاء الانتداب واستقلال سورية ولبنان • وأعلنت حكومة فرنسا على لسان ممثلها الجنرال كاترو قيام الجمهورية السورية المستقلة وجرت الانتخابات العامة في كلا البلدين ، وفاز بها قادة الحركة الوطنية ، واستلمت السلطة في سورية ولبنان حكومتان وطنيتان • ولكن فرنسا لم تقم بما يشعر أنها تريد تسليمهما السلطات الفعلية في البلاد •

وبدا من الفرنسيين أنهم يحاولون سياسة التسويف والمماطلة ليحصلوا من السوريين واللبنانيين على معاهدتين تربطان البلدين بقيود ثقيلة لا قبل لهما بها ، ومن شأنها أن تجعلا الاستقلال مقيدا ، بينما كان النضال منصرفا في سبيل الحرية والاستقلال التام • وعوضا عن أن تسحب فرنسا جيوشها ، أنزلت جيوشا جديدة في بيروت • فأدرك رجال الحكم أن الفرنسيين يريدون أن يطبقوا سياسة الامر الواقع • وقامت المظاهرات تعلن سخطها على هذه التدابير الارهابية ، وخذ الجنود الفرنسيون يتحرشون بالاهلين •

وفي ٢٩ أيار = مايو ١٩٤٥ أطلقت القوات الفرنسية نيران مدافعها على المدن السورية وقصفت المجلس النيابي في دمشق بوابل من القنابل • ووقعت حوادث مؤسفة سفكت فيها الدماء البريئة • وحاول الفرنسيون أن يضربوا الضربة القاضية ، لولا ان الحكومة البريطانية التي يهمها أمن منطقة الشرق الاوسط وسلامة المواصلات ، تدخلت في الامر ووضعت حدا للطغيان ، وأوعزت الى الجنرال دوغول أن يأمر قواده بعودة الجنود الى ثكناتهم •

ثم رفعت قضية سورية ولبنان الى الامم المتحدة لجلاء القوات الاجنبية وبعد لأى تقرر جلاء هذه القوات عن سورية ولبنان ، وتم ذلك فعلا في سنة ١٩٤٦ • وكان عيد الجلاء في سورية ١٧ نيسان = ابريل ، وفي لبنان في ٣١ كانون الاول = ديسمبر من هذا العام واستقل البلدان العربيان استقلالا تاما ناجزا وتحطم القيد الذي غل أيديهما طيلة خمسة وعشرين عاما في ظل الانتداب الفرنسي •

كفاح فلسطين : جزء عربي أصيل لا يتجزأ من أرض العروبة والشعب الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الامة العربية • وقضية فلسطين جزء لا يتجزأ من قضية القومية العربية الكبرى • انها قضية وطن مسلوب وقضية شعب مغلوب على أمره • وليست بالقضية التي يمكن أن ينساها العرب في يوم من الايام أنها حقهم الهضيم وأرضهم المغصوبة التي تألبت عليها مطامع الاستعمار والصهيونية العالمية فعكرت صفوها وحرمت شعبها العربي من حقوقه في وطنه وأرضه وتقرير مصيره •

لقد كانت فلسطين تؤلف جزءا من الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر • وفي العام ١٩١٧ احتلتها القوات البريطانية في زحفها لانتزاع بلاد الشام من يد الاتراك • وكان اليهود يطمعون فيها منذ زمن بعيد ويعتبرونها « أرض الميعاد » ، وقامت في سبيل ذلك الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر واتخذت شكل حركة سياسية تهدف الى تأسيس دولة يهودية في فلسطين وجرت محاولات في زمن السلطان عبد الحميد الثاني لاقناعه بالسماح للصهاينة بالهجرة اليها ، ليقيموا لهم مستعمرات فيها ، فرفض •

ولسنا بصدد التفصيل في القضية الفلسطينية • ولكن الذي يهمنا منها فيما يتعلق بموضوعنا ، هو ان نبين ان الشعب العربي في فلسطين قد ناضل الاستعمار والصهيونية على قدر استطاعته ، ولم يأل جهدا عن الدفاع بلاده ، وشاركه في هذا الدفاع اخوته العرب من سائر البلاد العربية وأيدوه ماديا ومعنويا ، وان فلسطين كانت نقطة استقطاب لهم جميعا ، لانهم كانوا يدركون الاخطار التي يمكن أن تنجم عنها وتهددهم في عقر ديارهم •

وعقب الحرب العالمية الثانية تطورت القضية الفلسطينية ، لأن اليهود حاولوا دعم كيانهم بانشاء دولة لهم في فلسطين ، ركزوا نشاطهم في الدوائر السياسية الاميركية ، حتى تم لهم ما أرادوا بانشاء « دولة اسرائيل » بعد قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٤٧ والقيام بأعمال الارهاب التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية في فلسطين • وكانت الولايات المتحدة الاميركية أسبق الدول الى الاعتراف بهذه الغاصبة المعتدية القائمة على العدوان ومساعدة الدول الاستعمارية •

بدأ رد الفعل العربي بالسخط والنقمة وتقديم الاحتجاجات والمذكرات الى الامم المتحدة ، وبعد اعلان التقسيم وجلاء بريطانيا في ١٥ أيار = مايو ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية أرض فلسطين مبتدئة بجيش « الانقاذ » ومنتهية بالجيوش النظامية • ولقد ظهر في واقعة فلسطين التفكك السياسي والعسكري في الجبهة العربية • لذى عينين بعد أن كان النصر للعرب قاب قوسين أو ادنى •

وفي الحرب العالمية الاولى سعى الصهاينة لتحقيق غايتهم ، معتمدين في ذلك على بريطانيا العظمى ، التي احتلت فلسطين ووضعتها تحت ادارة عسكرية دامت من ١٩١٧ الى ١٩٢٠ • وعندما تمت التسوية النهائية لتقسيم بلاد الشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني • وضمن صك الانتداب وعد بلفور (٢ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩١٧) الذي قطعته انكلترا لزعماء الصهيونية ، واصبحت بريطانيا ، بموجب صك الانتداب ، مسؤولة عن تنفيذ هذا الوعد أمام عصبة الامم •

بدأت بريطانيا عقب الحرب بتطبيق سياستها في فلسطين واستبدلت بالادارة العسكرية ادارة مدنية
ووضعت على رأسها مندوبا ساميا بريطانيا . وحاول الصهاينة في ظل بريطانيا وضع يدهم على البلاد
ليشجعوا انتقال ملكية الاراضي من أيدي العرب ،أصحابها الاصليين ، الى أيدي اليهود بمختلف الوسائل
والمغريات .

وأدرك عرب فلسطين ما يخبؤه لهم الاستعمار الانكليزي والصهيوني فأعلنوا غضبتهم على هذه التدابير
بمظاهرات دموية عنيفة . ومنذ ذلك الحين تركز كفاح العرب في سبيل الاهداف التالية :

١ — الغاء وعد بلفور .

٢ — رفض الانتداب البريطاني .

٣ — استقلال فلسطين وتشكيل حكم وطني .

وظلت الاضطرابات تتوالى في فلسطين ، وأعظمها كان ثورة ١٩٣٦ التي لم تهدأ الا عند نشوب
الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . وفي كل مرة يشتبك فيها العرب بالصهاينة ، كانت السلطات
البريطانية تأخذ بناصر اليهود ، وتشجع الهجرة الصهيونية . وكان على العرب أن يكافحوا على جبهتين .

وغلب الغرب على أمرهم في فلسطين ونكبوا نكبة عظيمة . وهزت حرب فلسطين الشعوب العربية
وأنذرتها بالخطر الذي يتهددها ، فأدركت جميعا بأنها لا تستطيع مواجهة الطغيان الصهيوني الا بوحدة
الصف وتقوية الجبهة الداخلية في كل بلد عربي ، واصلاح الجهاز الحكومي والعسكري والقيام
بالاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لتطوير البلاد ومقاومة التخلف المقيم . وهذا ما يفسر لنا الاستياء
العام الذي تملك الشعب العربي من الاوضاع السائدة ونقمته على الاستعمار وعملائه وقيام الحركات
الانقلابية .

وهكذا نرى أن كفاح فلسطين كان موجها ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني ، ولم يكتب له
النصر . ولم يقتصر الامر عند هذا الحد ، بل ان الشعب الفلسطيني اخرج من دياره ، وما زال لاجئا
في البلاد العربية ومشردا في غيرها يقاسي الآلام وينتظر الفرج والعودة .

أما القضية الفلسطينية فلم تعد متعلقة بعرب فلسطين وحدهم، بل انها أصبحت منوطة بالعرب جميعا
وفي اليوم الذي يعقدون فيه الخناصر للجولة الثانية والقضاء على العصابات الصهيونية المجمعة في
فلسطين المحتلة تعود فلسطين لاهلها ، وما على العرب الا ان يعدوا عدتهم لليوم الموعود ، وما ضاع حق
وراءه مطالب .

كفاح العراق : بدأ النفوذ العثماني في العراق منذ القرن السادس عشر . ولكن العراق ظل
يتأرجح بين العثمانيين والايرانيين الى أن استتب الامر أخيرا للعثمانيين حوالي العام ١٨٣١ . على ان
موقع العراق الجغرافي كان موضع اهتمام بريطانية خاصة نظرا لوقوعه على طريق مواصلاتها الى الهند
من جهة ، ولاحتوائه على البترول من جهة أخرى .

وقد انتهزت بريطانيا الفرصة في العرب العالمية الاولى وحاولت الاستيلاء على العراق مبتدئة باحتلال

البصرة في ١ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩١٤ ، ثم واصلت زحفها ودخلت بغداد في ١١ آذار = مارس ١٩١٧ بعد جلاء الاتراك العثمانيين وقد ساعد الانكليز على هذا النجاح تأييد الشعب العراقي لهم بعد أن أخذ بتصريحات الحلفاء في تحقيق آمال العرب في الحرية والاستقلال .

وفي أعقاب الحرب أخذت انكلترا تثبت قدمها في العراق بعد أن اتفقت مع فرنسا على اقتسام الغنائم العربية . وفي ٣ أيار = مايو ١٩٢٠ أعلنت بريطانيا انتدابها على العراق وحاولت الافادة من الاختلافات الدينية والطائفية والعنصرية لتحكم العراق كما تريد . ولكن الوطنيين العراقيين نسوا خلافاتهم وتعاونوا مع العشائر وقاموا بالثورة على الانكليز وأنزلوا بهم خسائر فادحة . ووجدت انكلترا من مصلحتها في سبيل أمن طريق الهند وتأمين ضخ البترول ، أن تتساهل مع العراق وتقيم دولة عربية . وفي ٢٣ آب = أغسطس ١٩٢١ توج فيصل بن الحسين ملك سورية السابق ملكا على العراق .

وتحت ضغط المقاومة العراقية حاولت انكلترا تنظيم علاقاتها مع العراق على أساس معاهدات تحالف عقدت على مراحل في عام ١٩٢٢ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣٠ . ونصف هذه الاخيرة على أن يتحالف الطرفان مدة خمس وعشرين سنة تبدأ من تاريخ دخول العراق في عصبة الامم أي سنة ١٩٣٢ . وتم ذلك ونال العراق الاستقلال . ولكن هذا الاستقلال كان مقيدا لايه ضمن حماية المواصلات البريطانية . وهذا يكفي لوضع العراق تحت رحمة بريطانيا في حالة حرب .

لذا رأى العراقيون أن هذا الاستقلال الذي منحوه كان ظاهريا ، وان بريطانيا ما زالت لها الكلمة العليا في العراق وفي توجيه سياسته . وما من شك في أن عدم استقرار العلاقات العراقية ـ البريطانية على شكل يرضي الاماني الوطنية كان عاملا أساسيا في اشاعة السخط على بريطانيا واضطراب الحياة السياسية في العراق .

ولقد أفادت ألمانيا من هذا الوضع في الحرب العالمية الثانية ، ونشرت دعاياتها في صفوف الجيش ، وقامت جماعة من الضباط بانقلاب عسكري في نيسان ـ =ابريل ١٩٤١ وتشكلت وزارة برئاسة السيد رشيد عالي الكيلاني وأعلنت خلع الوصي .

ورأت بريطانيا في هذه الحركة ما يهدد مصالحها ، وتأكدت مخاوفها عندما رفضت الحكومة العراقية أن تسمح للقوات البريطانية بالنزول في العراق استنادا على نصوص معاهدة ١٩٣٠ . وعلى أثر ذلك جرت مصادمات بين الجيش البريطاني والجيش العراقي انتهت بخذلان هذا الاخير وسقوط حكومة رشيد عالي الكيلاني وفراره الى ألمانيا . وتشكلت حكومة موالية لبريطانيا وعاد الوصي الى العرش .

وبعد انتهاء الحرب طالب الوطنيون بتعديل في المعاهدة يزيل قيود الاستقلال. وأبرمت في بورتسموث بانكلترا معاهدة جديدة مع انكلترا عرفت باسم معاهدة صالح جبر ـ بيفن (كانون الثاني يناير ١٩٤٨). ولكن الشعب ثار على هذه المعاهدة لانها لم تحقق آماله . وقامت مظاهرات صاخبة أرغمت الوصي ومجلس الوزراء على رفضها . وظلت معاهدة ١٩٣٠ قائمة حتى ألغيت عام ١٩٥٥ عندما أبرم ميثاق

الدفاع عن الشرق الاوسط أو حلف بغداد بين تركيا والعراق • ثم انضمت اليه بريطانيا والباكستان • وعقدت الحكومة العراقية مع انكلترا في نيسان = ابريل ١٩٥٥ معاهدة جديدة لمدة خمس سنوات ، واصبح العراق بموجبها مسؤولا عن الدفاع عن أراضيه • ولكنه ارتبط بجهاز الدفاع البريطاني عن الشرق الاوسط •

ولم يرض الشعب العراقي هذا الارتباط الجديد مع انكلترا ولا الارتباط بالاحلاف لعسكرية ، فقام يعلن سخطه عليها ، وعلى الحكومة العراقية ، التي يرأسها نوري السعيد ، فقوبل بالتدابير الزجرية وأساليب القمع • وارتبطت مصلحة انكلترا مع الوصي عبد الاله ونوري السعيد ، فقضت بعزل العراق عن البلاد العربية الهادفة الى التحرر من نير الاجنبي والاحلاف العسكرية • وظل الحال قلقا على هذا النحو الى أن قامت ثورة ١٤ تموز = يولو ١٩٥٨ فأطاحت بالملكية وولي العهد ونوري السعيد والملك فيصل الثاني ، وأعلنت الجمهورية العراقية • وخرج العراق من حلف بغداد ، ولكنه دخل في جديدة لما تتكشف تتائجها البعيدة •

هذه هي البلاد العربية الآسيوية التي ناضلت وما زالت تناضل الاستعمار في سبيل الوحدة العربية من جهة ثانية • على ان هنالك بلادا عربية ما زالت خاضعة للنفوذ الاجنبي وخاصة البريطاني في أطراف شبه جزيرة العرب • واذا لم تستطع مقاومة التغلغل الاستعماري ، فما ذلك الا لان أوضاعها المادية لا تساعدها على القيام بعمل كبير يجند الامكانيات البشرية للدفاع عن حما البلاد • ولكن هذا لا يمنع المقاومة كما هي الحال في عمان المناضلة ضد الانكليز وصنيعتهم سعيد بن تيمور ، سلطان مسقط •

ولا ريب في أن الكفاح العربي ، مهما كانت مظاهره ، يتناسب مع شدة الوعي القومي ، والنمو الثقافي ، وتشجيع الدول العربية المتحررة لغيرها من البلاد العربية التي لم تتحرر ، ودعوة القومية العربية ومدى نشاطها في تلك البلاد •

ب ــ كفاح الشعب العربي في أفريقية

لقد ألفت البلاد العربية في أفريقية جزءا من الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر الميلادي باستثناء المغرب الاقصى الذي ظل ينعم باستقلاله حتى أواخر عام ١٩١١ • ولكن الاستعمار الاوربي الحديث بعد أن لمس أوجه الضعف والانحطاط الامبراطورية العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، والفوضى التي تخبطت بها هذه الامبراطورية من جراء حركة الاصلاح والتجديد ورد الفعل الذي أحدثته والمقاومة التي لاقتها ، أخذ يلتفت الى البلاد العربية الافريقية ويوليها اهتمامه لا سيما وان تخلف هذه البلاد ووضعها الجغرافي والاقتصادي والستراتيجي والامكانيات التي تنم عنها كانت تغري الدول الكبرى وتثير اطماعها •

ان تفوق السلاح ساعد الدول الاستعمارية الكبرى على فتح هذه البلاد العربية بالرغم من كثرة سكانها ، وكانت تلك الدول تتسابق في احتلالها بلدابلدا وتتنافس في الاستيلاء عليها أو تتهادن وتتفق على حسابها • أو تتقاسم مناطق النفوذ فيها •

ولكن يجب الا يغيب عن البال الاستعمار اذا استطاع ان يحتل هذه البلاد بلا قوة السلاح ــ فليس في ذلك ما يدل على خضوعها له واستكانتها لمشيئته بل « على العكس » اتخذتمن وسائلها الدفاعية البدائية وعقيدتها الاسلامية ومقومات حياتها القومية والوطنية ، وأخيرا من أسلحة الغرب الحديثة وطرقه وأنظمته وعقليته ما جعلها تقاوم الفاتحين بكل شجاعة واقدام • ولقد أبدت من التفاني وبذل الذات وكريم التضحيات ما سجل لها في التاريخ غر الصحائف وآي البطولة حتى غدت هذه الاعمال في حد ذاتها خير مشجع للاجيال الصاعدة على مواصلة النضال والاندفاع في سبيل الخلاص والتحرر •

كفاح مصر والسودان • ــ كانت مصر أول البلاد العربية التي تلقت صدمة الاستعمار الحديث عندما غزتها الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت • وكانت هذه الصدمة منبها خارجيا بالاضافة الى المنبهات الداخلية الاخرى التي ساعدت على نهضة مصر •

وبعد أن أجلى الفرنسيون عن مصر آل الحكم فيها الى محمد علي ومن بعده الى أولاده ، وأخذت السلالة العلوية تحكم مصر باسم السلطان العثماني • غير ان حوادث قناة السويس وسياسة التبذير والاسراف التي اتبعها الخديوي اسماعيل اوقع مصر في الديون • فاغتنمت انكلترا هذه الفرصة واحتلت مصر عام ١٨٨٢ واعلنت ان هذا الاحتلال موقت ريثما تستوفى الديون ولكنها بقيت في مصر غير مبالية بنقمة الشعب المصري الذي غلب أخيرا على أمره أمام قوى الاستعمار الانكليزي •

ولم يكن حكم الانكليز في مصر بالحكم الذي يشرفهم فقد اتبعوا سياسة القمع والشدة والارهاب ، وعاملوا المصريين معاملة قاسية ظالمة ولنا في حادثة دنشواي الشهيرة خير دليل على ذلك • هذا فضلا عن سيطرتهم على مالية البلاد واماتة الروح العسكرية وخلق الاضطراب في الحياة الاقتصادية واهمال التعلم وابقاء الشعب في حالة تخلف •

ولا نريد الاطالة في النكبات التي لاقتها مصر على أيدي الاحتلال البريطاني وأعوانه • حسبنا أن نقول أنموار مصركانتطوال مدة الاحتلالمسخرةلخدمة الانكليز والمصالح الانكليزية، عدا عنان الانكليز سخروا جيش مصر في فتح السودان واخضاع الثورة المهدية التي قامت في البلاد للتخلص من الحكم الذي كان السودانيون يعرفونه بحكم الترك • وعندما تم للانكليز فتح السودان عمدوا الى انتزاعه من أيدي المصريين، وأرغموا حكومة الخديوي على الاعتراف لهم بحق تعيين الحاكم العام •

وسلكت انكلترا في مصر سياسة الامر الواقع دون أن تبالي بالشعب المصري والسوداني ، بل ودون أن تبالي بالامبراطورية العثمانية سيدة البلاد ، ولو اسميا • وظلت هذه حالها الى الحرب العالمية الاولى عندما دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء في ٣١ تشرين الاول = أكتوبر ١٩١٤ فأعلنت حمايتها على مصر في كانون الاول = ديسمبر ١٩١٤ آخر رابطة تربطها بالدولة العثمانية • ولم تعترف تركيا بالامر الواقع بل ظلت متمسكة بمركزها في مصر حتى عام ١٩٢٣ عندما أبرمت معاهدة لوزان وتخلت بموجبها عن سيادتها الاسمية على مصر •

أفادت انكلترا من وضعها في مصر فجعلت منها قاعدة لقواتها العسكرية الوافدة من استراليا والهند وأفريقية الجنوبية وعندما أعلن الرئيس الاميركي ولسون مبادئه الشهيرة التي من أهمها حق الشعوب في تقرير مصيرها استبشر المصريون خيرا وظنوا ان مؤتمر السلام في باريس سينهي الحماية البريطانية على مصر — ولكن العكس تحقق وأيد المؤتمر الحماية •

كان رد الفعل شديدا ضد هذه التدابير الاستعمارية ، وسرعان ما انقلبت المظاهرات الى ثورة عارمة اشترك فيها الشعب بمختلف طبقاته • وقابل الانكليز هذه الثورة بالقمع وألقوا القبض على زعماء الحركة الوطنية وعلى رأسهم سعد زغلول ونفوه الى جزيرة مالطة ومنها الى سيشيل • فرد المصريون على هذه السياسة القهرية بأعمال العنف ، كقطع السكك الحديدية واسلاك البرق والهاتف غير مبالين بجيوش الانكليز ونيرانهم • وأخيرا اضطر الانكليز الى التفاوض وأصدر التصريح المعروف بتصريح ٢٨ شباط = فبراير ١٩٢٢ الذي أعلن انتهاء الحماية على مصر والاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة • ولكن التصريح قيد استقلال مصر بتحفظات أربعة ظلت بغير حل وهي :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر •

٢ — الدفاع عن مصر ضد أي اعتداء او تدخل أجنبي •

٣ — حماية المصالح الاجنبية والاقليات في مصر •

٤ — مسألة الحكم في السودان •

وفي ١٢ آذار = مارس ١٩٢٣ أعلن السلطان أحمد فؤاد ، الذي تولى الحكم بعد موت أخيه السلطان حسين ١٩١٧ ، أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة واتخذ لنفسه لقب ملك واستمر عهده الى عام ١٩٣٦ وكان حافلا بالحوادث الاليمة • فقد كفى الانكليز مشقة مواجهة الشعب ، وتحول الصدام بين الشعب والانكليز الى الصدام بين الشعب والملك • وأخذ الانكليز ينفذون سياستهم عن طريقه •

ومهما يكن فقد رحب الشعب المصري بالغاء الحماية ولكنه استنكر تصريح ٢٨ شباط = فبراير لانه يحد من استقلال البلاد . واستمر النضال . وكانت الاحوال العالمية والظروف الدولية تنذر بوقوع حرب كبرى ثانية فعمد الانكليز الى سياسة التساهل والانفراج بعد سياسة الشدة والعنف. وبدأوا مفاوضتهم مع حكومة الوفد لعقد معاهدة تقرر موقف مصر تقريرا واضحا وتحل عقدة التحفظات الاربعة التي قيدت الاستقلال . وآلت المفاوضات الى عقد معاهدة ١٩٣٦ .

لذلك انهت هذه المعاهدة احتلال مصر عسكريا من قبل القوات البريطانية ولكنها سلمت بوجود هذه القوى في منطقة القناة . وهذه يعني أن من الممكن رجوعها الى مصر في أي حين وتهديد استقلالها . وفرضت المعاهدة على مصر التزامات باهظة كالانفاق على بناء الثكنات والمنشآت الصالحة لاقامة القوات البريطانية وتوفير المياه ووسائل الراحة لها . ولم تنص المعاهدة على تحرير السودان من السيطرة البريطانية ، بلى اعترفت بوضعه القائم ، وهو الوضع الذي نجم عن اتفاقية الحكم الثنائي في السودان سنة ١٨٩٩ التي تجعل السودان مستعمرة بريطانية .

وواصل المصريون جهودهم للتخلص من قيود معاهدة ١٩٣٦ . وفي سنة ١٩٣٩ اندلعت نار الحرب الثانية ، والحالة لم تتغير ، واستمرت بعد الحرب منافسات الاحزاب حول تولي الحكم . وتجلي فساد هذا الحكم في حرب فلسطين ضد اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وبينما كانت الجيوش المصرية تضحي بدمائها في ميادين القتال دفاعا عن عروبة فلسطين كان الملك واعوانه منصرفين الى منافعهم الخاصة . وانتهت فلسطين باذكاء النقمة في جماهير الشعب والمخلصين من الزعماء والمفكرين .

استمر المصريون في نضالهم ضد الانكليز والسلالة الحاكمة ومن لف لفها وعرضت الحكومة المصرية على مجلس الامن في الامم المتحدة ، وطالبت بجلاء القوات البريطانية عن ارض وادي النيل وانهاء النظام الاداري القائم في السودان غير ان مجلس الامن أوصى باستمرار المفاوضات المباشرة بين الحكومتين . وفتح باب المفاوضات في أوائل عام ١٩٥٠ واستمرت ثمانية عشر شهرا .

طالبت مصر بجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة وادعت بريطانيا ان بقاءها في هذه المنطقة أمر تملية سلامة العالم الغربي ، واتهمت مصر بأنها تتجاهل مقتضيات السلام العالمي في سبيل مطاليبها القومية. وتمسكت مصر بمطالبها مؤكدة أن احتلال الانكليز ، لجزء من الاراضي المصرية ، ضد ارادة أهلها ، وضد ارادة العرب عامة ، يتناقض وسيادة مصر ، عدا عن أنه يخالف ميثاق الامم المتحدة ولا يساعد على الامن والاستقرار في الشرق الاوسط .

وطالت المفاوضات وازداد قلق الرأي العام ، وعندئذ أقدمت الحكومة المصرية في ٨ تشرين الاول = أكتوبر ١٩٥١ على الغاء معاهدة ١٩٣٦ والغاء الحكم الثنائي في السودان . فقوبل هذا العمل في مصر بارتياح وحماسة .

وفي هذه الآونة التي بلغ فيها الشعور الوطني نقطة الذروة في مقاومة الانكليز ، قام الجيش

المصري في فجر ٢٣ تموز = يوليو ١٩٥٢ بثورته على الاستعمار وفساد الحكم ، وأرغم الملك فاروق على مغادرة البلاد في ٢٦ منه • وفي ١٨ تموز من السنة التي تلي أي ١٩٥٣ أعلن الجيش الغاء الملكية في مصر وقيام الجمهورية •

ومنذ ذلك الحين وضع قادة الثورة نصب أعينهم تخليص وادي النيل من السيطرة الاجنبية بالعمل على اجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة ، والوصول الى حل يسترد فيه السودان حريته واستقلاله •

وبعد مفاوضات تعثرت أكثر من مرة بين حكومة الثورة وبريطانيا توصل الطرفان في ٩ تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥٤ الى اتفاقية الجلاء التي نصت على جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة خلال فترة عشرين شهرا من تاريخ توقيع الاتفاقية ، أي حتى ١٨ حزيران = يونية ١٩٥٦ ، مع حق العودة للقوات البريطانية اليها في حال هجوم مسلح من دولة أخرى على مصر أو على أي بلد عربي مشترك في ميثاق الضمان الجماعي العربي (نيسان = ابريل ١٩٥٠) أو تركيا ، وذلك لمدة سبع سنين •

ولا ريب في أن الاتفاقية حققت أمنية مصر في جلاء القوات البريطانية عن أراضيها ، ولكن بريطانيا كانت تحاول سرا العودة الى احتلال مصر وانتهزت فرصة تأميم القناة ودبرت العدوان الثلاثي على مصر في أواخر تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥٦ ، فقابلت حكومة الثورة هذا العمل بالغاء الاتفاقية وقطعت آخر خيط يربط مصر ببريطانيا وقاومت العدوان ، وأيدتها في مقاومتها البلاد العربية وشعوب العالم والضمير العالمي الحر ، وانتصرت أخيرا على العدوان واستعادت حريتها واستقلالها • ورجعت مصر لابنائها عزيزة منيعة بعد ان قاست مرارة الاحتلال مدة اثنين وسبعين عاما •

أما ما يتعلق بالسودان حاول الانكليز تمزيق وحدته واثارة جنوبه على شماله ، كما قاموا بدعاية مفادها أن مصر تريد استعباد السودان واستعماره ، وأن بقاء الانكليز في السودان يكفل حمايته من الاستعمار المصري في المستقبل • ولكن مصر الثورة قابلت هذه الدعاية السوداء بحق السودان في تقرير مصيره تحت اشراف دولي • وما عليه الا أن يختار بين الاستقلال التام او الاتحاد مع مصر • وأسقط في يد الانكليز واضطروا في ١٢شباط = فبراير ١٩٥٣ ان يوقعوا مع حكومة الثورة اتفاقية خاصة بمستقبل السودان •

نصت الاتفاقية على وحدة السودان وحقه في تقرير مصيره على ان يسبق ذلك فترة انتقال لاتتجاوز ثلاث سنوات ينسحب فيها الجيش المصري والجيش البريطاني وموظفوا مصر وبريطانيا ، وعلى ان يتسلم السودانيون أثناءها جميع مسؤوليات الحكم • وهذا ما أريد من التعبير « سودنة » الوظائف •

وشكلت لجنة خماسية لمعاونة حاكم السودان في فترة الانتقال ، ولجنة أخرى سباعية لمراقبة عمليات الانتخابات لمجلس البرلمان وتشكيل حكومة سودانية وتنظيم قوة جيش وضابطة (بوليس) للدفاع عن السودان وحفظ أمنه •

وفي آخر العام ١٩٥٣ أجريت الانتخابات لمجلس البرلمان وفاز الحزب الوطني الاتحادي بأكثرية المقاعد في المجلسين • وفي تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٥٥ تم انسحاب الجيش المصري والانكليزي عن

السودان ، وقرر البرلمان السوداني في كانون الاول = ديسمبر من هذا العام اعلان الاستقلال • وفي ١ كانون الثاني = يناير ١٩٥٦ تقدمت حكومة السودان بطلب الانضمام الى الجامعة وفي ١٩ منه قبلت عضوا فيها •

كفاح ليبيا : ظلت ليبيا ، منذ أواسط القرن السادس عشر ، تؤلف جزءا من الامبراطورية العثمانية الى أن هاجمتها الجيوش الايطالية تريد احتلالها في العام ١٩١١ •

ولقد سبق لفرنسا ان استولت على الجزائر منذ عام ١٨٣٠ وفرضت حمايتها على تونس منذ ١٨٨١ ، وأخذت تتغلغل في حكم المغرب الاقصى منذ ١٩٠٤ واحتلت انكلترا مصر منذ ١٨٨٢ وسيطرت على السودان ١٨٩٩ • وجاءت ايطاليا متأخرة في تحقيق مطامعها الاستعمارية فلم تجد امامها في البلاد العربية الافريقية شاغرا الا ليبيا •

نزلت جيوش ايطاليا طرابلس الغرب فالتقت بأحرار العرب في هذه البلد • ولم يكونوا مجهزين بالاسلحة والعتاد الا قليلا • وكانت الامبراطورية العثمانية في حالة ضعف مقيم فلم تستطيع نجدتهم الا نادرا • وفي خريف عام ١٩١٢ عقد السلطان صلحا مع ايطاليا وترك الشعب العربي في ليبيا يقاوم الاحتلال •

بيد أن الشعب العربي في الاقطار العربية الاخرى هب لنصرة ليبيا ، وشاركتها في جهادها المقدس قوى من ابناء المغرب العربي واخرى من المشرق العربي وظهر التعاون الاخوي العربي على صعيد ليبيا جليا واضحا • واضطر الايطاليون الى قصر عملياتهم في المناطق الساحلية دون التوغل داخل البلاد ، وحاولوا الصلح مع العرب ، فأجاب أحمد شريف السنوسي : « نحن والصلح على طرفي نقيض ، ولا نقبل صلحا بوجه من الوجوه اذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد للعدو » وقد لعبت الزوايا السنوسية والحركة التي نجمت عنها دورا كبيرا في تحسين حالة البلاد ونشر الثقافة وتهذيب الاخلاق وتوجيه الشبيبة الليبية وتعبئتها ماديا ومعنويا بما كان له أطيب الاثر في استمرار النضال وقوة المقاومة •

ولما خرج الحلفاء منتصرين في الحرب العالمية الاولى قوى مركز الايطاليين في ليبيا بعد ان قبض الفاشيون على زمام الحكم في ايطاليا وصار موسوليني حاكما بأمره ، وأخذت الحكومة الايطالية تسلك خطة منظمة في الاستيلاء على ليبيا مع ما يرافق ذلك من أعمال الفظاعة وابادة السكان والتنكيل بهم ، وما الى ذلك من قرارات اعتباقية خرقاء[1] وظل الليبيون يقاومون بقيادة الزعيم عمر المختار ولم يهن لهم عزم الا بعد ان وقع أسيرا وأعدمه الايطاليون في ١٦ ايلول = سبتمبر ١٩٣١ • ودامت الحالة على هذا النحو حتى الحرب العالمية الثانية • وكانت ليبيا ميدانا من ميادين القتال في هذه الحرب الى ان جلا الطليان والالمان عنها عام ١٩٤٢ بعد ان دمرتهم قوى الحلفاء ، وانتهى الاحتلال الايطالي •

وبانتصار الحلفاء على دولتي المحور المانيا وايطاليا قسمت ليبيا الى مناطق نفوذ بين الانكليز والفرنسيين • ولكن هذا الوضع الشاذ لم يرض عنه الليبيون وما حاربو الايطاليين ليقعوا في أحضان غيرهم • ولقد شعرت الحكومة المصرية من واجبها الاهتمام بالقضية الليبية ، وشاركتها في ذلك جامعة

(١) راجع : حسن سليمان محمود . ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ١٩٦ .

الدول العربية • وفي آذار = مارس ١٩٤٧ تشكلت في القاهرة « هيئة تحرير ليبيا » بزعامة المجاهد بشير الليبي السعداوي لتوحيد كلمة الليبيين على الاستقلال والوحدة الليبية • وتتلخص أغراض هـذه الهيئة في « السعي لاستقلال ليبيا بحدودها الطبيعيـة أي من الحدود المصرية الى الحدود التونسيـة والجزائرية والى الصحراء الكبرى جنوبا ، والتعاون مع الجامعة العربية ، والتفاهم في كل ما يحقق هذا الاستقلال ويصونـه ويؤمن رفاهية الشعب الليبي وتقدمه » •

ورفعت القضية الليبية أخيرا الى هيئة الامم المتحدة • واتفقت كلمة الاحزاب على أهداف ثلاثـة : الوحدة ، والاستقلال ، والانضمام الم الجامعة العربيـة وزاد حزب الاحرار هدفا رابعا وهـو المناداة بالامير ادريس السنوسي ملكـا على جميع ليبيا • وبفضل التعاون الصادق بين هيئة تحرير ليبيا وكفاح المؤتمر الوطني العام ومساندة مصر وجامعة الدول العربية اتخذت الجمعية العومية يوم ٢١ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٤٨ قرارها التاريخي بأن : « تصبح ليبيا المكونة من ولاية طرابلس الغرب وبرقة وفزان دولـة مستقلة ذات سيادة ، على أن يصبح هذا الاستقلال نافذا في أقرب وقت بحيث لا يتأخر ذلك بحـال من الاحوال عن أول كانون الثاني = يناير ١٩٥٢ » •

وفي صباح الـ ٢٤ من شهر كانون الاول = ديسمبر ١٩٥١ أعلن الملك ادريس الاول رسميا بقصر المنـارة « ان ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة » كما أعلـن ان الدستور الذي اصدرته الجمعية الوطنية في ٧ تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥١ اصبح ساري المفعول من ذلك اليوم وانه سيحكم البلاد وفقا لاحكام الدستور • واجريت الانتخابات وافتتح البرلمان لاول مرة في ٢٥ آذار = مارس ١٩٥٢ • وهكذا تحققت وحدة ليبيا وتم لها استقلالها وتأسست « المملكة الليبية المتحدة » وانضمت الى جامعـة الدول العربية وسميت عضوا في الامم المتحدة وأخذت توحد جهودها مع باقي لدول العربية في خدمة القضايا العربية على الصعيد العربي في الجامعة وعلى الصعيد الدولي في الامم المتحدة •

كفـاح تونس : ــ منذ ان احتلت الجزائر كانت سياستها الاستعمارية ترمي الى احتـلال المغرب العربي بكامله • ففي أول أيار = مايو ١٨٨١ نزلت الجيوش الفرنسية بأرض تونس وبدأت تحتلها ، وفي ١٢ منه أرغمت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة الحماية في قصر باردو • وصرح الفرنسيون أن هذه المعاهدة هي معاهدة صداقة وحسن بوار ، وأنها لا تمس البلاد في كرامتها وسيادتها • ولكـن سرعان ما استبان الفرنسيون أن ما ادعاه الفرنسيون انما هو عبودية واستعمار ، فثارت البلاد ثورة مسلحة بزعامة على بن خليفة • وقضى الفرنسيون على هذه الثورة بسهولة • ولم تكتف فرنسا في هذه المرة بالقيود التي وضعتها في معاهدة قصر باردو ، بل الحقت بها معاهدة أخرى وقعها الباي الجديد على باي في ٨ حزيران = يونيو ١٨٨٣ وتعرف باسم معاهدة المرسى وأصبحت تونس بعد اعلان الحماية في وضع لا يختلف عن الاستعمار في شيء ، كما غدا الباي موظفا عند المقيم الفرنسي يأتمر بأمره وينفـذ رغائبه ، وظلت تونس خلال خمس وعشرين عاما تعاني تبدلات عميقة في حياتها الداخلية • فمن ذلك ان الفرنسيين سلبوا أسباب عيشهم وأعطاها لابناء قومهم أو لابنـاء دينهم ، وكـان الاجانب من مختلف أجناس البشر يجدون في تونس أعمالا الا المسلم العربي ، فقد كـان غريبا في بلده لا يجد عملا له •

ومن الطبيعي ان يثور أهل الرأي في البلاد لهذا الخسف الذي اريد بهم بعد أن رأوا حياة تونس مهددة بالاخطار من كل نوع ، وما حل باخوانهم الجزائريين من قبل .

بدأت مقاومة الحكم الفرنسي في تونس متواضعة وعلى نطاق ضيق . فقد قام بها نفر بين علماء جامع الزيتونة . وعلى رأسهم الشيخ محمد السنوسي اذ قدم عريضة وقعها أعيان البلاد يطالب فيها بالغاء الحكم المباشر فكان رد الفعل أن نفت السلطات الفرنسية زعماء هذه الحركة .

ونخص بالذكر من هؤلاء الرواد الوطنيين ، الشيخ المكي بن عزوز وعلى يده تخرج الجيل الاول من المناضلين التونسيين . ومنهم بعض المجددين مثل بشير صفر وعلي باش حمبة وعلي أبو شوشة . وغيرهم . وقد أسس علي باش حمبة حزب تونس الفتاة سنة ١٩٠٨ وهدفه المطالبة بالاستقلال .

وبعد الحرب العالمية الاولى قام جماعة من التونسيين ، وعلى رأسهم عبد العزيز الثعالبي ، تلميذ الشيخ المكي بن عزوز ، وأسسوا عام ١٩١٩ حزبا باسم « حزب الدستور » يهدف الى « ابلاغ الوطن رشده وتحريره من الاستعباد واقامة نظام دستوري في البلاد » .

وقابلت فرنسا حركة المطالب الوطنية بأساليب العنف والشدة ونهب أملاك المسلمين واوقافهم « وفرنسة » تونس وسجن الزعماء وتشريدهم .

ثم دخلت في الحزب عناصر جديدة من الشبان المتحمسين المشبعين بالثقافة الغربية . وكانت نظرتهم الى الامور تختلف عن نظرة متقدميهم من الشيوخ الاوائل ، ويظهر ذلك في لسانهم الناطق جريدة « العمل » التي اسهم في تحريرها الشاب الحبيب بورقيبة وعبر عن أفكاره في بناء تونس على أسس سياسية واجتماعية حديثة .

وفي العام ١٩٣٣ حلت الاقامة العامة حزب الدستور وحصل انقسام في الرأي . بين قدامى رجال الحزب ومحدثيه ، ذهب بهم الى القطيعة في عام ١٩٣٤ .وقرر الشباب فصل الشيوخ وأخذ الحزب اسم « حزب الدستور الجديد » وانتخب الدكتور الماطري رئيسا له والحبيب بورقيبة أمينا عاما .

وقد استطاع حزب الدستور بما اوتي رجاله من نشاط أن ينفذ الى مختلف طبقات الشعب ويكسب ثقته وتأييده ، ورأت السلطات الفرنسية الخطر الذي يهدد مصالح المستوطنين من نشاط الحزب ودعاياته في الاوساط الشعبية فعمدت الى اعتقال زعمائه .

ثم اطلق سراح المعتقلين في ١٩٣٦ وذهب قادة الحركة الوطنية الى باريس وقاموا بدعاية واسعة النطاق لقضيتهم ، واتصلوا بالاوساط الرسمية ، وكان لهم فيها أصدقاء وزملاء وعلاقات ، فلمسوا منها العطف لولا أن الظروف كانت غير مواتية بعد ان استولى موسوليني على الحبشة وظهرت مطامعه بتونس بعد أثر حركة ترمي الى التخلص من النير الفرنسي وتؤيدها دكتاتورية هتلر وموسوليني . وهذا ما أهاب بالفرنسيين الى قمع كل حركة وطنية واللجوء الى سياسة الارهاب والاعتقال .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية اوقف الحزب نشاطه ، ولبث يراقب الامور عن كثب . ولما دخلت

الجيوش الالمانية تونس حاول الزعماء الافادة من الظروف السانحة والاعتراف بالاستقلال دون التورط مع دول المحور . ولكن الحلفاء ما لبثوا ان انتصروا على هذه الدول واحتلت جيوشهم تونس في ٨ أيار = مايد ١٩٤٢ وعاد الفرنسيون سادة البلاد وقد صمموا في هذه المرة القضاء على النزعات وخلعوا الباي محمد المنصف بتهمة التعاون مع دول المحور . واعدموا الكثير من الوطنيين رميا بالرصاص .

ثم تجددت الاضطرابات عام ١٩٥٠ وبذلت بعدها مساع لعرض القضية التونسية امام هيئة الامم المتحدة فلم تفز بحل مرض ، وعاود الوطنيون نضالهم فأخرجت فرنسا . وجرت مفاوضات طويلة ومتقطعة بين الطرفين التونسي والفرنسي . انتهت أخيرا في ٢٠ آذار = مارس ١٩٥٦ الى الاعتراف باستقلال تونس مع بقاء قوة عسكرية فرنسية في قاعدة بنزرت بموجب اتفاقية (١٧ حزيران = يونيو ١٩٥٨) .

وبدأت تونس تبني حياتها على أسس جديدة : تخلصت من السلالة الحاكمة ، واعلنت الحكم الجمهوري عام ١٩٥٧ . وفي تشرين الاول = أكتوبر ١٩٥٨ انضمت الى الجامعة العربية .

وهكذا نرى ان الحركة الوطنية في تونس بدأت متواضعة منذ ١٩٠٦ ، ثم ما لبثت أن قطعت شوطا بعيدا في مضمار تحقيق الذات وتوصلت الى تشكيل كيان مستقل متماسك . وهذا يرجع الى الجهود الواعية التي بذلها قادة البلاد وزعماؤها ، والى رد الفعل الذي تملك الاهلين حيال نظام الحماية . ولا شك في أن الشعور الوطني في تونس لم يأت عفوا صفوا ، بل كان نتيجة حسن التوجيه الذي أوجد الزعماء الاكفاء لقيادة الجماهير . وقد استطاع هؤلاء القادة السياسيون أن ينشئوا في مختلف أنحاء البلاد اطرا سياسية قادرة على اشعاع الافكار السياسية والسلوك وتربية الشعب التونسي التربية السياسية الاساسية والاهتمام بالقضايا الاجتماعية التي أولاها حزب الدستور الجديد كامل عنايته ، ليجد الحلول الناجحة في توصيد النظام والاستقرار والتماسك . وهذا التفتح السياسي المستنير يؤهل تونس لان تلعب دورها في المغرب العربي وفي افريقية وفي العالم وبشكل يفوق الدور الذي تسمح به رقعة الارض التونسية ومواردها الضئيلة .

كفاح الجزائر : في صباح الخامس من تموز = يوليو ١٨٣٠ دخلت الجنود الفرنسية مدينة الجزائر بعد ان صبغت ثراها بدماء أبنائها الابرياء ، ونزعت الاعلام الجزائرية عن الحصون والقلاع ودور الحكومة ورفعت مكانها أعلام الاستعمار الفرنسي . ومنذ ذاك اليوم المشؤوم بدأت المأساة الجزائرية .

ان الاسباب التي برر الاستعمار الفرنسي بها احتلال الجزائر ، واهية لا تتعدى الاعذار التافهة ، وتتلخص في حادث طفيف معروف وهو « لطمة المروحة » كما ادعى الفرنسيون . فقد كان للداي حسين دين على فرنسا لقاء حبوب واموال استلفتها من الجزائر ولم توف ثمنها ، وعيل صبر الداي ، وفرنسا لا توفي الدين ، فسأل دوفال ، قنصل فرنسا في الجزائر . عن السبب في مماطلة الحكومة الفرنسية ، وقال بكل لطف وايناس : « لماذا لا يتفضل الملك شارل العاشر بالرد على كتابي » . فأجاب القنصل الفرنسي بكل كبرياء وغرور : « ان حكومتي لن تجيبكم ، هذا محال . وان جلالة الملك لن يتنازل فيرد

على داي الجزائر » . وملك الداي أعصابه ، ودفعته المروءة وكـرم الضيافة وآداب اللياقة الـى الصبر وطول الاناة . وكانت بيده مروحة من ريش النعام ، فأشار بها الى القنصل ان يخرج من حضرته ، ومست أطرافها وجه القنصل ، فخرج من القصر مهددا متوعـدا .

لقد كان بامكان فرنسا ان تطلب اصلاحا أو تقديم اعتذار لما حصل ، لولا ان شارل العاشر وحكومته، ومن التف حولها من القادة وأمراء المـاء المغامرين ،استغلوا هذا الحادث لفتح الجزائر ، وكانوا يعدون له عدتهم منذ زمن طويل . وبرر الملك مغامرته بأن احتلال الجزائر كان « أخذا بثأر الاهانة التي ألحقت بممثل فرنسا ، وان كرامة فرنسا فوق كل اعتبار ، وانه في عمله هذا لا ينظر الا لمصلحتها » .

وفي الحقيقة ان هذه الاعذار لم تنطل على أحد ، بل ان هنالك عوامل سياسية واقتصادية ودينية دفعت شارل العاشر وحكومته الى اتباع هذه السياسة العدوانية . فقد كانت فرنسا تفكر بالجزائر منذ أيـام الثورة الفرنسية فجاء شارل العاشر وحقق الاحلام ، وكان يريد من ذلك تأمين نفوذه في فرنسا بالضرب على أيدي المعارضة واشغال الرأي العام الفرنسي برواء الفتح وزهو المجد ، ولم يصـغ الى الاصوات المجلجلة « بأن فرنسا بحاجة ماسة الى اصلاح وبناء وليست بحاجة الى احتلال » .

غير ان انصار العدوان من الفرنسيين الذين يطمحون الى المجد والثراء عن طريق الغزو واستثمـار خيرات الشعوب ، كانوا يذهبون مذهبا آخر ، فقد صرح الجنرال جيرار ، وزير الحربية ، فور نزول القوات الفرنسية الى ساحل الجزائر بقوله : « ان هذا الاحتلال يستند على ضرورات هامة جدا ويرمي الى فتح منفذ واسع لتصريف بضائعنا » .

دفعت حملة الجزائر أطماع فرنسا في البحث عن المواد الاولية التي تشكو قلتها في أرضها وفتح أسواق لتصريف منتجاتها الصناعيـة . كما صرح الجنرال الآنف الذكر ايضا : « ان هذا الغزو قائم على حاجات حتمية في غاية الاهمية ، ومرتبط بحفظ النظام العام في فرنسا وفي أوربة » ، وبين أن هذه الحاجات هي : « فتح مجالات واسعة للفائض من مواطنينا ، وتصريف منتجات صناعتنا ومبادلتها معا بمنتجات أخرى غريبة عن أرضنا وجونا » .

ويذكر الدوق كليير موتتانياك ، وزير الحربية الفرنسية ، في تقرير له عن احتلال الجزائر بأن فتح هذا القطر « انما هو حملة من هذه الحملات الصليبية التي توجهها أوربة الى الشرق بين حين وآخر » . ويضيف : « انها المشيئة الالهية التي قضت بأن تدعو سليل القديس لويس ليأخذ بالثأر ، ولينتقم للدين والانسانية ، وليغسل العار الذي لحق بذاته » . ويستطرد في تقريره قائلا : « ولسنا بحاجة الى اقتناع جديد بأن لا سبيل الى استقرار الامن في الجزائر الا بإبادة أهلها جميعا » .

ومهما تكـن العوامل التي دفعت فرنسا للعدوان ، فقد احتلت الجزائر بقوة الحديد والنار ، وزعم الفرنسيون أن الله سخرهم لاحتلالها ، ووضعها في أيديهم الامينة ، وقد أخذوا على انفسهم عهدا بأن ينشروا فيها العدل والمساواة والحرية ، وينقلوا اليها النور والعلم والمعرفة والحضارة ، وغيرها من هذه الكلمات التي فقدت كل معنى لها على ألسنة المستعمرين وفي فعالهم .

واحتل الفرنسيون الجزائر ، ولكنهم لم يستولوا عليها • فمنذ وطأت اقدامهم ثراها الطيب وسكانها الابطال صابرون يقاومون الغزاة بكل ما استطاعوا من قوة • وظلت الجزائر عبئا ثقيلا على فرنسا وتكلفها كل يوم خسائر فادحة في الاموال والارواح ، وذلك لان كل ظفر بزعمهم على ابناء البلاد كان يتطلب منهم مواصلة الفتح والقتال ، وكل خذلان من جانبهم كان يقتضي من الجزائريين الثأر والانتقام •

واستخدمت فرنسا في استعمار الجزائر أقسى الفظاعات البشرية في دحر السكان من المناطق الخصبة الخيرة الى الصحاري القاحلة ، من قتل وتمثيل وتشويه وغرائم ومصادرات وحجز أملاك وانتهاك حرمات وغيرها من هذه الجرائم التي لا يدانيها سوى جرائم الصهاينة في فلسطين •

ولمعت في هذه المأساة البشرية أسماء جزائرية عرفت بالبطولة والتفاني وبذل الذات وهي أكثر من أن تحصى ، وتبدأ بأول جزائري سقط دفاعا عن حمى وطنه عندما دخلته قوى العدوان ، الى الامير عبد القادر الجزائري ، الى جميلة بوجيرد والى غيرهم ممـن لا يقف عددهم عند حصر • ولسنا بصدد تعداد الابطال في الجزائر فكل جزائري أو جزائرية بطل أو بطلة • واسودت وجوه اغشت صحف التاريخ من أضراب بورمون وبيليسية وسنت آرنو وشانغارنيه وهيريسون وموتتانياك ، ولامور يسير وكافنياك وبوجو وغيرهم من زعماء اللصوص وقطاع الطرق والخارجين عن القانون ، ممن ضاقت بهـم سبل العيش في بلادهم فذهبوا الى بلاد الناس يعملون فيها السلب والنهب والتخريب •

وبالرغم من أساليب التفنن في التفظيع التي سلكها الفرنسيون في الجزائر حيال السكان الآمنين ، فلم يفت في عضد الجزائريين ، ولم تهدأ للجزائر نأمة او حركة أو ثورة • ولم تعرف الجزائر استسلاما بالمعنى الصحيح ، بل فترات انطواء بسيطة يتلوها تحفـز واندفاع •

وقلبت فرنسا في حكم الجزائر ، منذ عهد ملكية تموز = يوليو حتى الجمهورية الخامسة ، أشكالا وألوانـا ، من عسكري ومدني ، وسياسة ارهاب واسترضاء ولين وتمثيل ودمج واصلاح ومساواة ، فلم تبدل هذه الطرق كلها شيئا في نفسية الجزائريين ، الذين صمموا على ألا يلقوا السلاح الا والجزائـر محررة من كل استعمار •

ومن الطبيعي بعد هذا الظلم البشري الفاضح أن يعتمـد الجزائريون علـى أنفسهم ويتمسكـوا بتقاليدهم وأعرافهم ومؤسساتهم ولغتهم ودينهم وقرآنهم ويتخذوا من كل ذلك قوة ومقاومة ودفاعا لان سلطات الاستعمار الفرنسي في الجزائر أرادت سحق كل شيء وتوصلت في هذه السياسة الى حد بعيد • ومما لا شك فيه أن تأخر ظهور الحركة الوطنية في الجزائر يرجع في الغالب الى هذه السياسة التي قامت على سحق البورجوازية الجزائرية من جهة ، وعلى القضاء على الثقافة العربية الاسلامية من جهة أخرى •

ظهرت الحركة الوطنية الجزائرية في أعقاب الحرب العالمية الاولى وأخذت تتجه اتجاها سياسيا أكثر منه عسكريا • وانا لنجد ابتداء من سنة ١٩٢٤ أن معارضة الحكم الفرنسي في الجزائر قد انتظمت وقويت، ونستطيع أن نميز فيها الاتجاهات الآتية :

١ — معارضة الشيوعيين .

٢ — معارضة جماعة مصالي الحاج

٣ — معارضة جماعة العلماء المسلمين .

٤ — معارضة النخبة الفكرية الجزائرية .

بيد ان المماطلات التي كانت تسلكها السلطات الفرنسية ، مع ما كان يرافقها من أعمال العنف بين حين وآخر ، أقنعت الاحزاب الجزائرية أخيرا ان طريق النضال السياسي طويل ولا يجدي نفعا أمام تعنت المستعمرين فحزمت أمرها وشكلت « جبهة التحرير الجزائرية » التي اعلنت الثورة في أول تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥٤ . وما شكا الجزائريون السلاح واستماتوا في القتال الا لانهم أدركوا أن الحياة التي يحيونها أشد من الموت . ولذا فضلوا الموت على الحياة ، وأرادوا أن يحطموا القيود والاغلال ويتحرروا بعد ان تبدلت شرائط الحياة العامة ، وتنفست الشعوب الصعداء وشعرت بمقدراتها وقوتها وحقها في تقرير مصيرها وأذنت ساعة الخطر منذرة بزوال الاستعمار .

ولم تكن ثورة الجزائر في سبيل الاستقلال حرب دين لدين وعرق لعرق، أو حضارة لحضارة ، او شرق لغرب ، او اسلام لمسيحية . « لقد كانت ثورة تحريرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ثورة تجند الامكانيات الجزائرية لتوصل الجزائريين الى شاطيء السلام الى الحياة الحرة الكريمة لترد لهم انسانيتهم وكرامتهم وتنقذهم من جور الاستعمار » .

ولقد بدلت ثورة التحرير الجزائرية ظروف الحياة بالنسبة للجزائريين والمستعمرين ومن ورائهم فرنسا التي تحميهم : فهي بالنسبة للجزائريين قضية حياة أو موت ، وبالنسبة للمستعمرين ضياع مستعمرات وفقدان امتيازات حقوق لا يحلمون بها في بلادهم ، وبالنسبة لفرنسا قضية جاه ونفوذ وسيطرة وعظمة واقتصاد . لقد هددت الثورة فرنسا في ديارها ، فما من اسرة فرنسية الا وابتليت بفقد عزيز عليها في حرب الجزائر ، حتى ان عقلاء الفرنسيين أخذوا يرددون أن استمرار حرب الجزائر معناه الانتحار لا محالة .

وتختلف الحال في الجزائر تماما . فقد ادرك الجزائريون أن نضالهم مشروع وأنه اصدق تعبير للوطنية الجزائرية المحررة . وما من انسان في الجزائر الا وعرف حقا ان المقاومة الجزائرية ضربت اللامبالاة والقعود والتحفظ والحياد الضربة القاضية وسلكت سبيل الخلاص . لقد تملك الجزائريين المناضلين شعور في أنهم ليسوا وحدهم في ميادين القتال ، بل ان وراءهم أبناء الشمال الافريقي برمته ، واخوانهم العرب والمسلمين في كل مكان ، والشعوب الحرة ، وفرنسا الديمقراطية ، وأحرار فرنسا وعقلاءها ومفكريها وأحرار العالم ، لان القضية الجزائرية اصبحت قضية الحرية البشرية ، وان تمادي المستعمرين في غيهم لن يؤدي في النهاية الا الى اثارة المغرب العربي من أقصاه الى أقصاه وتهديد آخر حصن الاستعمار في أفريقية الشمالية وتحريرها تحريرا كاملا .

وفي الحقيقة ان الدول العربية لم تقف مكتوفة الايدي امام فظائع المستعمرين في الجزائر . فقد

تقدمت حكومة المملكة العربية السعودية في ١٤ حزيران = يونيو ١٩٥٤ الى جامعة الدول العربية مبدية استعدادها لعرض قضية الجزائر على الامم المتحدة ٠

وفي ١٣ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٥٤ أذاعت جامعة الدول العربية بيانا ضافيا أعربت فيه عن موقفها من ثورة الجزائر جاء فيه : ان الامة العربية في أقطارها القريبة والمتباعدة كل لا يتجزأ ، وان حبس الحرية عن الشعوب يتنافى مع مبادىء الحق والعدل ؛ وقد أعلن الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ كما سبق للرئيس ولسون أن أعلن ذلك أثناء الحرب العالمية الاولى ، أن الاعتراف للشعوب المغلوبة على امرها بحق تقرير المصير من الاهداف التي يكافح العالم الحرفي سبيل ادراكها ٠٠٠ وان الجامعة العربية لتتخلى عن رسالتها وعن جانب كبير من مبررات وجودها اذا هي تقاعست عن نصرة الشعوب المناضلة لنيل حريتها واستقلالها : وفرنسا التي أعلنت حقوق الانسان في مطلع ثورتها لتتنكر لمبادئها ومثلها العليا اذا مضت تخمد صيحات المطالبين بحقهم بالحديد والنار وتستخدم وسائل العنف والتنكيل وتهدد ارواح المناضلين وتسفك دماءهم غير عابئة باستهجان انصار الحرية في كل مكان » ٠

وفي ٢١ نيسان = ابريل ١٩٥٥ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في اجتماع اللجنة السياسية للمؤتمر الآسيوي ــ الافريقي : « أن لشعب الجزائر حقا طبيعيا في الحرية وتقرير المصير » : وذكر ان شعوب شمال افريقية ، ومعها الرأي العام العالمي ، تجد انه من الصعب فهم كيفية حرمانهم من استعادة استقلالهم السياسي أو تأخيره في الوقت الذي وصلت فيه بلاد أخرى في افريقية الى استقلالها او نالت حق تقرير المصير خلال فترة محدودة من الزمن ٠

ثم أن جامعة الدول العربية وجهت في ٤ حزيران = يونيو ١٩٥٥ بيانا الى الرأي العالمي جاء فيه : أن الجامعة العربية تتبع بمزيد من القلق وبالغ الاهتمام الحالة السائدة الآن في الجزائر ، وتعتبر الوسائل التي تلجأ اليها السلطات الفرنسية لقمع كفاح الشعب الجزائري لنيل حقوقه منافية لكل عرف وشريعة ومهددة للأمن والسلم » ٠

ولكن استنكار العالم العربي ممثلا في جامعة الدول العربية وكذلك استنكار الرأي العام الدولي لموقف السلطات الفرنسية من الجزائريين والخسائر الكبرى التي تتكبدها فرنسا في الاموال والارواح لم يزد فرنسا الا تمسكا بالجزائر ٠ وفي ٢ حزيران = يونيو ١٩٥٦ ألقى غي موليه رئيس الحكومة الفرنسية بيانا في الجمعية الوطنية بشأن سياسة حكومته في الجزائر ٠ فذكر ان حكومته على استعداد لانشاء نظام جديد في هذه البلاد ، ولكنها لن تسمح مطلقا بفصم الروابط القائمة بين فرنسا والجزائر ٠ وقال رئيس الحكومة الفرنسية انه لا يمكن قيام دولة عربية في الجزائر ، وان أزمة الجزائر تخص فرنسا وحدها : وزعم أن فرنسا لا تحارب العرب والجزائريين ، وانما تقاتل عصابات مسلحة تمثل أقلية صغيرة ، وأن فرنسا حين تقاتل هذه العصابات لاتستهدف سوى اعادة السلام والصداقة ٠

وصدر بيان أذاعه رؤساء حكومة مصر والهند ويوغوسلافيا في ٢١ تموز = يوليو ١٩٥٦ عقب انتهاء محادثات بريوني نادوا فيه فرنسا لايجاد حل عادل سلمي لمشكلة الجزائر ٠

غير أن فرنسا لم تستجيب للنداء ومضت تعزز قوتها في الجزائر بغية القضاء على ثورتها الوطنية لا سيما وانها سحبت فرقا من قواتها في حلف شمال الاطلسي واحتفظت بها في الجزائر . الامر الذي جعل ضروريا عرض قضية الجزائر على منظمة الامم المتحدة . وقد وافقت هذه في ١٥ شباط = فبراير ١٩٥٧ على مشروع قرار ينص على ايجاد : « حل سلمي ديمقراطي عادل عن طريق الوسائل الملائمة التي تتفق ومبادىء ميثاق الامم المتحدة . »

وفي ٩ ايلول = سبتمبر ١٩٥٨ أعلن في القاهرة باسم الشعب الجزائري تأليف « حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية تكون مسؤولة أمام المجلس الوطني للثورة الجزائرية . »

وبالرغم من تأييد الرأي العام العالمي للجزائر فان فرنسا أبت تسوية عادلة بشأنها ، ومضت تجند كل امكانياتها للقضاء على الثورة بالقوة ولكن حكومة الجنرال دوغول الاخيرة رأت ان الحرب لا تجدي نفعا وجنحت الى التفاوض مع الحكومة المؤقتة واتخذت اعداداتها للاجتماع في ايفيان على شاطيء بحيرة ليمان . ولكن العناصر اليمينية الفرنسية ، المناصرة للفرنسيين والمستعمرين في الجزائر حالت دون انعقاد هذا الاجتماع بوسائل العنف والارهاب . كما قام قادة الجيش الفرنسي في الجزائر يمثلون الاستعمار بحركة انقلابية أرادوا فيها قلب حكومة الجنرال دوغول ، وهددوه بالقتل واحتلال باريس بالجنود المظليين واللجوء الى القوة . وخاف دوغول على فرنسا من الفتنة فاتخذ اعداداته لمقابلة هبوط المظليين بالقوة . وأخيرا ، بعد أن فشلت هذه المحاولة ، القى القبض على بعض رجال الانقلاب في الجزائر وسيقوا الى فرنسا للمحاكمة بتهمة الخيانة ، وواصل الجنرال دوغول عمليات التطهير في الجيش .

وبعد ان تعثرت المفاوضات التي بدأت في ايفيان في أيار = مايو واستؤنفت في قصر لوغرن في تموز = يوليو ١٩٦١ ، جرت محادثات سرية في كانون الاول = ديسمبر ١٩٦١ بين ممثلي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية . وفي الـ ٢٩ منه أعلن دوغول أن فرقتين فرنسيتين وعدة تشكيلات من سلاح الجو ستجلو عن الجزائر في الشهر التالي .

وفي ٥ شباط = فبراير ١٩٦٢ أذاع دوغول في خطابه الى الامة في الراديو بأن نتيجة تقرير المصير في الجزائر ستؤدي الى دولة مستقلة ذات سيادة ، وانه من الضروري اقامة تفاهم بين فرنسا والجزائر .

وفي ١١ شباط استؤنفت المفاوضات في ايفيان لإنهاء الحرب في الجزائر وفي ١٨ منه أدت المحادثات بين الجانبين الى اتفاقية وقدمت تفاصيلها الى المجلس الوطني للجمهورية الجزائرية المنعقدة في طرابلس الغرب للتصديق عليها . وفي ٢٨ منه تناقلت الصحافة نص اتفاقية وقف اطلاق النار . وفي ٦ آذار = مارس أنهت مفاوضات ايفيان تسوية الخلاف قبل اعلان وقف اطلاق النار . وفي ١٨ منه وقع وقف اطلاق النار . وفي ظهر اليوم التالي أصبح نافذا ، وبدأ عهد الاستقلال في الجزائر .

وهكذا توج العمل الدائب والكفاح المرير بالاستقلال ، وتمت الحركة الوطنية في الجزائر ابتداء من تقديم المطاليب الى الاحتجاج ومن الاحتجاج الى النضال الى الحرب . اما الاهداف فقد تبدلت من الاصلاح الى الثورة فالاستقلال ، ودخلت الجزائر في دور جديد .

أن تحرير الجزائر يعتبر عظيم الاهمية • وذلك لانه أخرج القضية الجزائرية من اطار التحرر الاقليمي ووضعها في نطاق الوطن العربي الكبير • وجعل منها قضية العرب القومية العربية • وهذا كاف لرفع العزلة عن الجزائر وجعلها تفكر تفكيرا قوميا عربيا • ونراها اليوم تسعى جاهدة للعودة الى عروبتها الاولى عن طريق التعريب والاستعانة بأبناء العرب في هذا العمل الكبير • والمشاركة الفعلية في القضايا العربية • وهذا الاتجاه ينم ولاشك عن عروبة أصيلة •

كفاح مراكش : مراكش هو القطر الوحيد الذي لم تحكمه الامبراطورية العثمانية دون سائر الاقطار العربية الاخرى • فلقد حافظ على استقلاله حتى فاتحة هذا القرن العشرين ، عندما بدأت تتغلغل فيه فرنسا واسبانيا من الجنوب ، ثم غزته جيوشها في العام ١٩١١ • واعلنت فرنسا الحماية على مراكش في ٣٠ آذار = مارس ١٩٢٠ • وقسمت مراكش الى قسمين المنطقة الشمالية الاسبانية ، والمنطقة الجنوبية الفرنسية ، مع الاعتراف بحياد منطقة طنجة الدولية •

أبقت فرنسا على شخصية المخزن كحكومة للبلاد وعلى السلطان أي الملك • ولكنها جردتهما من سلطاتهما وأقامت حكما فرنسيا برئاسة المقيم العام الفرنسي فأمسك هذا بيده الحكم الفعلي • وأنشأت اسبانيا في مراكش الشمالية حكومة مركزية ووضعت على رأسها خليفة للسلطان في تطوان وجعلت من هذه المدينة عاصمة •

قابل الشعب المراكشي هذا الاحتلال الاجنبي بالثورات المتعاقبة والمقاومة الشديدة وساعدته في ذلك طبيعة البلاد الجبلية ومسالكها الوعرة • وقد وصف الضابط غيوم ، الذي أصبح فيما بعد مقيما عاما ، كفاح مراكش بقوله : « لم تستسلم أي قبيلة دون مقاومة ، بل ان بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفد كل وسائل المقاومة • ولم تقدم أي قبيلة ولاءها الا بعد أن هزمناها بأسلحتنا واتسمت كل مرحلة من مراحل تقدمنا بالقتال • وكلما توقفنا أنشأ المراكشيون جبهة جديدة واحتفظوا بها بواسطة سلسلة من التحصينات أرغمت قواتنا سنوات طويلة على أن تقف موقف اليقظة والحذر معرضة للاخطار وفي موقف عسكري مشين » [١] •

وأهم الثورات في مراكش ثورة الريف من ١٩٢٤ — ١٩٢٧ بقيادة الامير محمد عبد الكريم الخطابي، زعيم قبيلة ورياغل ضد اسبانيا أولا وفرنسا ثانيا • وأوقعت هذه الثورة خسائر فادحة في الجيش الاسباني والفرنسي ، حتى خافت قوى الاحتلال ان تمتد عدوى الثورة الى المغرب بكامله • وفي الواقع وجه الامير عبد الكريم في ١٥ آب = أغسطس ١٩٢٥ ، نداء الى جميع وجهاء البلاد ورجالها لاذاعته في الجماهير الاسلامية • وبين فيه تألب القوى الفرنسية والاسبانية ، ودعا الجنود المسلمين الجزائريين في مراكش الى شق عصا الطاعة والفرار ، وناشد الجزائريين والتونسيين والشعوب العربية « أن تحطم أغلال العبودية وتطرد الطغاة وتحرر بلادها »[٢] •

---

(١) راجع الدكتور صلاح العقاد ، المغرب العربي ، ص ٢٧٣ ، القاهرة ١٩٦٢ •

(٢) راجع : André Nouschi, La naissance du nationalisme algérien, P. 59, Les Editions de Minuit , PARIS. 1962 .

ولكن قوى الجيشين المستعمرين تضافرت على عبد الكريم ورجاله حتى اضطروا للتسليم • ونفتهم فرنسا ، وظل الامير عبد الكريم منفيا في جزيرة ريؤنيون حتى عام ١٩٤٧ الى أن سمحت له السلطات الفرنسية بالاقامة في فرنسا ، وفي الطريق مر ببور سعيد والتجأ الى مصر •

وسلكت فرنسا في مراكش سياسة التفرقة العنصرية بين السكان من عرب وبربر ، وفرنسة البلاد ، واعفاء البربر من تطبيق الشريعة الاسلامية والتقاضي حسب الاعراف والتقاليد البربرية ، ومحاربة الاسلام واللغة العربية وتشجيع البربر على تعلم اللغة الفرنسية بدلا من العربية ، فقوبلت هذه التدابير بالمظاهرات والاحتجاج والشجب •

ولما لم يجد النضال المسلح نفعا أمام القوى الفرنسية والاسبانية لجأ قادة الحركة الوطنية في البلاد الى النضال السياسي • وتشكلت أحزاب معتدلة طالبت بالحريات والاصلاح وصيانة مصالح السكان في نطاق الحماية (١٩٢٥ ـ ١٩٤٣) أولا ، ثم المطالبة بالاستقلال (١٩٤٣ ـ ١٩٥٤) ثانيا • وأول حزب مغربي عرف باسم : كتلة العمل المغربي ، ثم حزب الاصلاح ، والحزب الوطني ، وحزب الاستقلال وغيرها •

ولم يكن القصر الملكي بعيدا عن الحركة الوطنية في البلاد فقد كان له أثر كبير في دعمها وفي اذكاء الشعور الوطني في الشعب المراكشي ، وفي ١٩٤٢ نزلت الجيوش الاميركية في مراكش ورحب السلطان محمد الخامس بالاميركيين والتقى في ٢٢ كانون الثاني = يناير ١٩٤٣ بالرئيس روزفلت وونستون تشرشل في مؤتمر آنفا في الدار البيضاء فلاقى منها التأييد والعطف • وأخذ الشعور الوطني ينمو في مراكش بسرعة • وفي كانون الثاني = يناير ١٩٤٤ عرفت القوى الوطنية العاملة مطالبها وأسست حزب الاستقلال وتوجهت ببيان الى محمد الخامس والمقيم الفرنسي وطالبت بالغاء الحماية والاعتراف بحق مراكش بالاستقلال •

وفي العام ١٩٤٧ نادى السلطان في خطاب شهير له في طنجة بوشائج القربى التي تربط مراكش بالعالم العربي وطالب بالاعتراف بأمانيها الوطنية المشروعة • وتأزمت العلاقات بينه وبين المقيم العام الفرنسي الذي اتهم حزب الاستقلال بإثارة الشعب في البلاد والقى القبض على زعمائه وحل صحفه وأنديته • وحرضت السلطات الفرنسية عددا من منافسي السلطان ، بزعامة تهامي الجلاوي ، على مطالبة الحكومة الفرنسية بعزله • واتخذت الحكومة الفرنسية من هذا الطلب عذرا ، فخلعت السلطان في ٢٠ أغسطس = آب ١٩٥٣ ونفته وعائلته الى كورسيكا ومنها الى مدغشكر ، ونصبت مكانه محمد بن عرفة سلطانا • فلم يعترف الشعب على اختلاف طبقاته وفئاته بابن عرفة واشتعلت الثورة بالبلاد مطالبة بعودة السلطان الشرعي • واستمر الاضطراب في المغرب الاقصى • وما وسع الجلاوي بعد ذلك الا ان أعلن ولاءه للسلطان الشرعي ، ولم يبق لفرنسا سند في مراكش •

وتحت ضغط الحوادث اضطرت الحكومة الفرنسية الى المفاوضة مع السلطان محمد الخامس • وفي تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٥٥ عاد الى عرشه وسط الهتافات الشعبية المدوية واعتراف فرنسا بمبدأ استقلال مراكش التي اصبحت تعرف باسم المملكة المغربية •

وفي ٢ آذار = مارس ١٩٥٦ صدر بيان فرنسي ــ مغربي بالغاء الحماية ، كما صدر في نيسان = ابريل بيان اسباني مغربي مماثل • وفي ٢٨ أيار = مايــو استعاد المغرب حريته الدبلوماسية • وفي ٢٦ تمــوز = يوليو اوصى مجلس الامن بضم مراكش الى عضوية الامم المتحوة ، وانهى وضع طنجــة الدولي • وفي أيلول = سبتمبر ١٩٥٨ أصبحت مراكش عضوا في الجامعة العربية • وأول مشاركة لها في مجلس الجامعة كانت في ١١ تشرين الاول = أكتوبر ١٩٥٨ •

* * *

مما تقدم يظهر لنا كفاح العرب في مختلف أقطارهم الشقيقة في سبيل التحرر والاستقلال • واذا بدا ان هذا المجهود كان منصرفا في معظمه الى التحرر الاقليمي فما ذلك الا بسبب الوضع الذي فرضه الاستعمار عليهم • بيد ان هذه الفرقة الاستعمارية لم تكــن الا ظاهرية واصطناعية لاننا رأينا ان ما من حركة قامت في أي بلد عربي ضد الغاصب المحتل الا ووجدت صداها في البلدان العربية ولاقت العطف الاخوي والتأييد المعنوي والعون المادي • ومن الملاحظ أيضا ان كل اقليم من الاقاليم العربية كــان يطلب عند تحرره الانضمام الى الجامعة العربية • وهذا يعني ان الاستقلال طريق الى الوحدة وعودة الى الطبيعة بتصحيح الاوضاع التي فرضها الاستعمار ، فضلا عن ان هذا الانضمام يعطي البلد المستقل القوة والمشاركة في العمل على نطاق أوسع •

لقد بدأ هذا الكفاح العربي في سبيل التحرر بحمل السلاح ضد الغــزاة الطامعين ، ولكن هــذه المحاولة لم تكف لصد المعتدين ، وكان من الضروري ادخال الفكر كعنصر نشيط في المقاومة وحسن التوجيه • وهذا قام على أيدي فئتين من الواعين : الاولى وتضم العلماء المسلمين ، حفظة التقاليد العربية الاسلامية • وقد اتخذت من تراثها ومن مقومات ماضيها ما جعلها تسير على سنن السلف الصالح في العمل على وحدة الصف ومقاومة الطغيان • والثــانية وتضم النخبة الفكرية في البلاد التي تربت في المدارس الاجنبية وتثقفت بالثقافة الغربية واطلعت على مقومات حضارتها ، وتأثرت بها ، وأخذت تناوىء الاحتلال بالطرق الغربية السلمية والحربية ، ولذا كان نفوذهــا عميقا • هــذا مع العلم أنها لم تفقد مقومات شخصيتها الاصيلة وخاصة عقيدتها الروحية التي ظلت مصونة مقدسة وكانت مقوما أساسيا في حض الجماهير على المقاومة • ولا شــك في أن هذه الطبقة الفكرية قد تبدلت وتطورت مع الزمن • وهذا يدل على مرونة منها وتكيف مع الظروف وانتهازية مفيدة • فما كان يعد مثلا أعلى بالنسبــة لهــا خلال فترة معينة من الزمن يصبح لاغيا بعد حين • لان ما حققته من نصر يجعلها تطمح الى ما هو أعظم وأكثــر •

وهكذا كان النضال الوطني ينتقل من نصر الى نصر • ولكن المطالبة السياسية لم تكن كافية أمــام تعنت المحتل وكبريائه ، فكان لا بد لها من أعمال العنف والارهاب والثورة لترد سلطات الاحتلال الى صعيد التفاهم والمفاوضة والرضوخ الى تحقيق المطالب الوطنية في التحرر والاستقلال •

وتتسائل أخيرا ما هي قيمة هذا التحرر الاقليمي بالنسبة الى القوميـة العربية ؟ كان هذا التحرر مكسبا من مكاسبها وانتصارا لها على أعدائها . فقد أخرج الاقطار العربية من عزلتها ، وجعلها تفكـر بعروبتها بل وتشعر بقوة التضامن الذي يربطها مـع أشقائها . وبعد ان كانت العروبة كامنة في النفوس لا تجـد مخرجا ظهرت في ساحة الجهاد تؤكـد الروابط الاخوية بين العرب ، وبقاء هذه الروابط بالرغم من مرور الزمن وتباعد المكان . ودل هذا التحرر على ان الاواصر العربية بين جناحي العروبة أقوى من ان يعتريها الصدأ أو تفنى . انها خالدة بخلود العرب ، باقية ببقائهم ، وقد آن الاوان لتشتد أكثر من ذي قبل . وما الكفاح في سبيل التحرر الاقليمي الا مرحلة للعمل البناء في أجواء الحريـة الرحبة حيث لا استعمار يجثم فوق الصدور فيفسد خلايا القلوب . ان معركة التحرر منطلق لمعركـة الوحدة ، والكفاح المتحرر في سبيل الوحدة .



مرحلة الاستقلال والوحدة

شهدت الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية الى اليوم تطورا محسوسا وسريعا في مقدرات البلاد العربية • فقد ساعدت الظروف المحلية والدولية وحركات الشعوب التحررية على تبديل الاوضاع التي فرضها الاستعمار • وتحررت أكثر البلاد في آسيا وافريقية ، وما زال بعضها يقارع الاستعمار بكل ما اوتيه من قوة منبعثة من ذاته وبما يلقاه من مساعدات معنوية ومادية من الاقطار العربية الشقيقة المستقلة ومن الاتجاه التحرري العام وحق تقرير المصير •

وكثر المثقفون ممن أتموا تحصيلهم العالي في بلادهم أو في الجامعات الاجنبية ، وارتفع بانتشار الثقافة مستوى الوعي القومي ، وضحت فكرة القومية العربية وضوحا كبيرا لدى جمهرة الشعب العربي في مختلف أقطاره • فقد تعددت الكراريس والمؤلفات والكتب والاحزاب والاندية والمحاضرات التي توضح مفهوم القومية العربية وتجعل منها مذهبا وعقيدة ، وتحررها من الشوائب الطائفية والعنصرية والتعصب وتجعلها انسانية تريد الخير لجميع المواطنين على حد سواء ، وغير عادية ولا مستعدية بل ترغب في التعايش السلمي مع أبناء القوميات الاخرى ممن يحبون السلام ولا تخامرهم أي فكرة عدوانية على البلاد العربية •

واتضح ايضا مفهوم « العربي » • فقد أصبح يفهم من هذه الكلمة « كل انسان يسكن البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ويعتز بالتاريخ العربي ويشعر بالشعور العربي العام وتتسم عقليته بخصائص العقلية مهما اختلف الدين الذي يدين به والعنصر الذي كان أباؤه وأجداده ينتمون اليه من قبل » •

وفي هذه المرحلة الاستقلالية تضافرت جهود الصهيونية العالمية مع الاستعمار وأنشبت أظفارها في فلسطين ونكب العرب نكبة لم يروا في تاريخهم لها مثيلا • وذلك لان هذا الاحتلال الصهيوني لفلسطين، رغما عن ادارة العرب ، لا يعتبر عدوانا على حق العرب في بلادهم فحسب ، بل ضربة لمبادىء القومية العربية في التحرر والاستقلال والوحدة •

وعلى عكس ما كان يراد من هذه النكبة ، فقد شحذت العزائم الفاترة وحركت الاستقلال الذي نالته أكثر البلاد العربية ، وزادت في تنبه العرب للخطر الصهيوني الجاثم في ارضهم والاستعداد له ، وفي رفع معنوياتهم • وبدأ الشعور العربي العام لدى الافراد والجماهير أكثر تطلعا وايمانا بضرورة العرب لدعم كيانهم ودرء الخطر عنهم •

والظاهرة الجديدة في هذه المرحلة هي اتصال البلاد العربية مع بعضها في افريقية وآسيا ، وازدياد هذا الاتصال يوما بعد يوم • فبعد ان كانت حركة التحرر من نير الاستعمار في الجناح العربي

الآسيوي منفصلة نسبيا عن حركة الجناح العربي الافريقي ، التقت الحركتان في حركة التحرر العربي العام • وكان هذا اللقاء نقطة تحول كبرى في حياة العرب • ذلك لان حركة التحرر العربي لم تعد مجرد قضايا منفردة وخاصة بقطر من الاقطار العربية على حدة ، بل أصبحت قضية واحدة ، قضية العرب جميعا • ولا ادل على ذلك من حادث العدوان الثلاثي على مصر الذي هز أقطار العروبة كلها • فقد كشفت حوادث العدوان الثلاثي عن تبدلات محسوسة في نفسية الجماهير العربية ، وذلك أن مرارة العدوان كانت امتحانا للوجدان العربي ، وتجديدا في العاطفة القومية العربية ، حتى ان الافكار التي كانت تعقد الآمال على توطيد علاقات طيبة بين العرب والدول الاستعمارية ، هجرت هذا الحلم بعد ان رأت من حوادث العدوان على مصر ما رأت • ولا غرابة اذا ولت الغرب الادبار بعد ان خيب رجاءها •

هذا بالاضافة الى أن حركة التحرر العربي لم تعد قاصرة على الطبقة المستنيرة الموجهة ، بل امتدت منها ، بعد انتشار الوعي الى الطبقات الاجتماعية الاخرى وأخذت شكلا جماهيريا • فقد دخلت المقاومة الشعبية كل بيت واستنفرت ساكنيه شيبا وشبابا ، رجالا ونساء • وشكت المرأة السلاح تستعد لليوم الموعود ، لتشارك الرجل في المقاومة والدفاع واسترداد الحق السليب بعد ان كانت ترافقه من قبل بالفكرة والابتهال والدعاء •

وأخذت المدارس تطبع في نفس الشبيبة العربية روح النظام العسكري وذلك بتشجيعها النشاط المدرسي في تجنيد التلاميذ والقيام بتمارين « الفتوة » •

وأصبح الجيش محاطا بهالة من الحب والاجلال والتقديس • ولم يعد مدرسة « النظام الاجتماعي » فحسب ، بل غدا عاملا في توطيد الوعي العربي ، وأخذ يحتل مكانا مرموقا في نفس العرب عامة ويشع عليهم قوة معنوية عظيمة •

ولقد دلت قرائن الاحداث ، التي رأيناها ، في مرحلة التحرير ، أن العرب يشعرون بوحدتهم وان هذه الاحداث التي مرت بهم جاءت مؤكدة لهذه الوحدة ، حتى أصبح معروفا لدى الجميع أن الوحدة أصيلة وراسخة في حياة العرب القومية ، ومبدأ مقرر لاجدال فيه •

على أن الوحدة العربية • وان كانت موجودة في الافكار والافئدة ، الا انها تحتاج الى تجسيد سياسي يظهرها بشكل اتحاد أو وحدة سياسية • وما من شك في ان العرب تأثروا بالحركات القومية في العالم ، ورأوا ان مآل هذه الحركات هو الوحدة القومية بشكل سياسي او بآخر • ولذا كانت أمانيهم في الاستقلال تمتزج بالحنين الى الماضي البعيد وتدفعهم الى تحقيق مبدأ من مبادىء القومية العربية وكل ما جرى حتى اليوم ليس الا محاولات جزئية ناجحة حينا ، ومخيبة حينا آخر ، او سلسلة تجارب ومشاريع او انصاف حلول لا تروي ظمأ النفوس المتعطشة للوحدة الحقيقية التي تضم تحت لوائها أبناء العروبة من المحيط الى الخليج • ولكن لا داعي لليأس فكل من سار على الدرب وصل •

بدأ التقارب العربي في فترة ما بين الحربين ، عندما عقدت في عام ١٩٣٤ معاهدة صداقة واخوة عربية بين المملكة العربية السعودية واليمن ، وكذلك معاهدة أخوة عربية بين المملكة العربية السعودية والعراق عام ١٩٣٦ ، ومعاهدة صداقة بين مصر والمملكة العربية السعودية عام ١٩٣٦ أيضا • هذا فضلا

عن المؤتمرات الثقافية والطبية التي كانت تعقد بين مندوبي الدول العربية وتقرب المثقفين العرب من بعضهم وتجعلهم يتبادلون الرأي بالقضايا العربية والشعور بضرورة التعاون العربي ٠

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ٠ وجدت الشعوب العربية في هذه الحرب فرصة للمطالبة بالتخلص من السيطرة الاجنبية ، والعمل على وحدة الصف العربي وخاصة بعدما أظهرت الهجرة الصهيونية الى فلسطين الاخطار التي تهدد العرب بنتيجة التعاون بين الصهاينة والدول الاستعمارية ٠

جامعة الدول العربية : ــ استلمت الحكومة المصرية آنذاك زمام المبادهة وأخذت على عاتقها أمر دعوة ممثلين عن الدول العربية للتشاور في وحدة العرب وبدأت مشاوراتها مع كل دولة عربية على حدة ٠ وبعد هذه المشاورات دعت الحكومة المصرية الى عقد لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام ٠ واجتمعت هذه اللجنة في الاسكندرية بين ايلول = سبتمبر وتشرين الاول = اكتوبر ١٩٤٤ واشترك فيها مندوبون عن مصر وسورية ولبنان والاردن والعراق والمملكة العربية السعودية ٠ وحضر الاجتماع مندوب عن اليمن ومندوب عرب فلسطين ٠

وضعت هذه اللجنة التحضيرية الاسس التي تقوم عليها « جامعة الدول العربية » وعرفت هذه الاسس باسم « بروتوكول الاسكندرية » الموقع في ٧ اكتوبر = تشرين الاول ١٩٤٤ ٠

ثم عهد الى لجنة فرعية سياسية وضع ميثاق الجامعة العربية فقامت بالعمل الذي انيط بها ورفعته الى اللجنة التحضيرية فأقرته بالاجماع في ١٩ آذار = مارس ١٩٤٥ ٠

وفي ٢٢ آذار = مارس ١٩٤٥ انعقد المؤتمر العربي العام ، بحضور ممثلي مصر وسورية ولبنان والاردن والعراق والمملكة العربية السعودية ، ووافق على ميثاق الجامعة العربية بالاجماع ٠ ثم وقعت اليمن الميثاق في صنعاء في ٥ أيار = مايو ١٩٤٥ ٠ وصدقت الدول الاعضاء على الميثاق ودخل في دور التنفيذ في ١٠ أيار ١٩٤٥ ٠ وهكذا ظهرت الجامعة العربية للوجود ٠

ولقد عقد ميثاق الجامعة ، كما جاء في ديباجته ، : « تثبيتا للعلاقات والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية وحرصها على دعم هذه الروابط وتوحيدها على أساس احترام استقلال الدول وسيادتها وتوجيهها لجمهورها الى ما فيه خير البلاد قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأي العام العربي في جميع الاقطار العربية » ٠

وتتلخص أهداف جامعة الدول العربية بصيانة استقلال الدول الاعضاء والمحافظة على السلام والامن العربي ، وتحقيق التعاون العربي في القضايا السياسية وفي القضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنظر في مصالح المجتمع العربي بصورة عامة ، والتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة في الجامعة العربية ٠

أما المبادىء التي قامت عليها جامعة الدول العربية فهي : المساواة بين الدول الاعضاء ، والمحافظة

على سيادة الدول الاعضاء ، وعدم التدخل في شؤون الدول الداخلية ، وفض المنازعات بالطرق السلمية ، والمساعدة المتبادلة ٠

وحاولت الجامعة العربية ، منذ نشأتها ، ان تصرف جهودها في خدمة الدول العربية ٠ وظهر هذا النشاط في مشكلة سورية ولبنان وجلاء القوات الاجنبية من فرنسية وانكليزية عنهما دون قيد او شرط حتى تم الجلاء في عام ١٩٤٦ ٠ وفي مشكلة ليبيا عندما تنازعتها التيارات المختلفة من ايطالية وانكليزية وأمريكية وفرنسية ٠ وظلت الجامعة تولي القضية الليبية اهتمامها الى ان تم انشاء المملكة الليبية المتحدة في ٢٥ تشرين الثاني = نوفمبر ١٩٥٠ ورحبت بها الجامعة عضوا ، وفي مشكلة فلسطين التي هزت الشعوب العربية جمعاء وأظهرت مدى ضعف الجامعة والدول العربية ٠

وحاولت الجامعة تقوية الروابط بين الدول العربية وخاصة في شؤون الدفاع والاقتصاد والثقافة ، واخفقت في حقول ونجحت في اخرى ٠ ونتساءل بعد أن اتينا على ذكر الجامعة العربية ونشاطها ما هو مدى نجاح الجامعة العربة في تحقيق الوحدة العربية ؟ ٠

منذ تأسست الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ الى الآن وهي تلاقي مختلف المصاعب والمشاكل المعقدة من كل نوع ٠ وهذه المشاكل ، يجب ان نعترف ، ليست بالسهلة الحل ، كمشكلة فلسطين وتحرير البلاد العربية من الاستعمار وتثبيت استقلالها ، ومشكلة التنمية الاقتصادية في المجتمع العربي ، وتوحيد الاقتصاد العربي ٠ وبالرغم مما بذله القائمون على الجامعة العربية فقد أبدت هذه المنظمة ضعفا وعجزا عن تحقيق أهدافها المرسومة ، هذا بالاضافة الى المنافسات التي كانت تظهر من حين لآخر بين الدول الاعضاء وتحاول ان تشل عمل الجامعة ٠

وفي الحقيقة أن الجامعة العربية ، كما يتبين من الاسس التي قامت عليها ، منظمة تقوم على التعاون الاختياري بين الدول العربية الاعضاء ، ولا تعتبر سلطة عليا فوق هذه الدول ، لان الجامعة تعترف بوجود هذه الدول وسيادتها ولا يمكن نجاح الجامعة الا اذا كانت هذه الدول صادقة النية والعزم في التعاون فيما بينها لخير المجموع ٠ والجامعة أولا وأخيرا بدولها ٠

وعلى ما يبدو ان التمسك بأنظمة الحكم المختلفة في البلاد العربية وفي المحافظة على المصالح المحلية المؤقتة من سياسية واقتصادية ، وعلى الاوضاع الموروثة عن الاستعمار ، وفي خضوع بعض الدول العربية للنفوذ الاجنبي والاصغاء لايحائه وضغطه ، ان هذه العوامل مجتمعة او منفردة تحول دون اندماج الدول العربية فيما بينها وتعرقل التعاون الاختياري أيضا ، وهذا أضعف الايمان ٠ وهكذا تبدو الجامعة العربية عاجزة عن الاستجابة بصورة فعالة لأماني الشعوب العربية ولرابطة القومية العربية الآخذة بالتكامل يوما عن يوم ٠

ومهما يكن فان جامعة الدول العربية حققت مرحلة أولية في اتجاه العرب نحو الوحدة كان لا بد من اجتيازها ٠ ولكن النفوس المتطلعة الى الوحدة العربية الشاملة ابعد من ان ترضى بالحل الوسط ٠ ولذا لا بد للشعب العربي من حركة دافعة أقوى من حركة الجامعة العربية ٠ وهذا ما يكشف عنه المستقبل ٠

مذكـرة الدكتور ناظم القدسي :ــ

ولقد عبر السيد الدكتور ناظم القدسي رئيس الحكومة السورية ، في مذكرة تقدم بهـا في ٢٤ كانون الثاني = يناير ١٩٥١ الى الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، والى أعضاء اللجنة السياسية المنعقدة حينذاك في القاهرة ، عن هذه الاماني التي تجيش في قلب كل عربي ، وكيف جمدت في صورة جامعة الدول العربية بقوله « ان الوعي يسبق السياسة في العالم العربي . وهذا لن يغفر التمادي في سياسة جرت عليـه نكبة فلسطين ، وقد تجر عليه نكبات أخرى في قطر بعد آخر . ومن الحكمة ان يستمع لارادة الشعوب وهي منقادة واثقة قبل ان تدخل في فوضى النزاعات مستفيدة من خبرتها في الحاضر ويأسها في المستقبل » .

كانت هذه المذكرة ناقوس الخطر ، كمـا يقول الاستاذ ساطع الحصري ، لانها وضعت النقاط على الحروف وبنيت خطر « اسرائيل » ، وما جره مـن نكبة كبرى علـى العرب ، وفصله بـين عرب الشرق والغرب . وانتهت المذكرة ببيان أشكال الاتحاد ، من اتحاد كونفدرالي اتحادفدرالي ووحدة تامة، والتأكد على اتخاذ التدابير الفعالة التي تؤدي الى الوحـدة العربية ، دون ان تملي نوعا معينا من هذه الانواع تاركة تقدير ذلك الى العرب انفسهم مع الاعتراف بأن رغبة سورية هي الاتحاد التام .

ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح في أجواء الجامعة العربية ، فضلا عـن ان بعض الصحف العربية هاجمته وعدته في تلك الآونة مشروعا خياليا وغير قابل للتنفيذ .

مشروع دولة الاتحاد العربي :ــ بيد ان ما رغبت عنه الحكومات نادت به الطبقات المفكرة الواعية من ابناء الشعب العربي على لسان « مؤتمر الخريجين الدائم لقضايا الوطن العربي « في دورته المنعقدة بالقدس في أيلول = سبتمبر عام ١٩٥٥ . فقد تضمنت قراراتـه : « أن الجـامعة العربيـة حققـت مرحلة أولية في الاتجاه نحو الوحدة كان لا بد من اجتيازها » . وان الوقت قد حان لان تنتقل الامـة العربية الى مرحلة جديدة أكثر جدية في ربط أجزاء الوطن العربي بخطة جديدة نحو الوحدة » . وان هذه الخطوة الجديدة باتجاه الوحدة تقوم على الاسس التالية :

١ ــ جيش عربي موحد وسياسة خارجية عربية موحـدة مستقلة تقوم على الحياد ورفض الاحلاف العسكريـة الاجنبية واقتصاد عربي موحد .

٢ ــ تعطى الحكومات العربية اختصاصاتها في الامور المذكورة اعلاه لادارة عربية موحدة تمثل فيها الدولـة العربية وتعطي الصلاحيات التامة المذكورة اعلاه لادارة عربية موحدة تمثل فيها الدول العربية، وتعطي الصلاحيات التامة في البت النهائي في هـذه الامور على ان تستبعد عند تكوين هذه الادارة الموحدة ، الاحلاف العسكرية الاجنبية التي تحول دون قيام الجيش العربي الموحد بواجب الدفاع عـن الوطن العربي وحـده .

كما قرر المؤتمر ان من الخطوات اللازمة باتجاه الوحدة تبني مبدأ ايجاد دستور اتحادي يضم الدولة

العربية ، وأتم المكتب الدائم للمؤتمر الدستور الاتحادي العربي عام ١٩٥٦ الذي يسمى الدولة العربية المزمع تأسيسها « دولة الاتحاد العربي » •

ولا مرية في أن قرارات مؤتمر الخريجين ومشروع الدستور الاتحادي تعتبر تطورا هاما في التفكير العربي السياسي نحو اتحاد العالم العربي بعد مضي عشر سنوات على تأسيس جامعة الدول العربية التي اعتبرها العرب « بداية وليست نهاية » •

ولكن هذا المشروع الاتحادي ظل كسابقة حروفا ميتة لم يكتب لها البقاء على ان التحقيق العملي للاتجاه نحو الوحـدة حدث ، ولو مصغرا في عـام١٩٥٨ بوحدة سورية ومصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة وهذا يرجع الى الاثر المباشر والبعيد الذي خلفتـه ثورة ٢٣ تموز = يوليو ١٩٥٢ •

ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ثورة عربيةقومية: ان اعظمحادث عرفه تاريخ الشرق الاوسط وتاريخ العرب الحديث خاصة ، كرد فعل على قيام اسرائيل في قلب الوطن العربي ، هو ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر ، وذلك لان النتائج الناجمة عن هذا الحادث العظيم لا تتعلق بمصر وحدها فحسب ، بل بالعالم العربي كله وبمستقبل العرب •

واذا كان مفهوم الثورة تقويض النظام القديم البالي بجميع هيئاته ومؤسساته وبناء المجتمع على أساس تطوري جديد وقيم جديدة • ومثل عليا جديدة تتجاوب خير تجاوب مع حاجات هذا المجتمع ورغباته ، فقد شخصت ثورة الثالث والعشرين تموز = يوليو ١٩٥٢ هـذا المفهوم وجعلتـه حقيقة واقعـة •

لقد قام النظام في مصر على الاحتلال البريطاني وفسـاد الملكية وتحكـم النظـام الاجتماعي والاقتصادي التي ادت جميعا الى تخلف الشعب في مصر • وكان من الممكن لهذا النظام أن يبقى على حاله على ما فيه من عيوب ، لو لم تتح ظروف استثنائية خاصة أطاحت به وقضت عليه الى غير رجعة • لقد جاءت حوادث فلسطين بعد قيام اسرائيل فكشفت عن اوجه الضعف فزادت في السخط والنقمة بعد انتشار الوعي ولم يعد الصبر الطويل وتحمل البلاء والكلام لتجدي نفعا لان الوضع يتطلب القيام بضربة قاصمـة •

وتألق الفجر فانبثق عن ثورة ٢٣ تموز = يوليو ١٩٥٢ التي قـام بها الضباط الاحرار بزعامة جمال عبـد الناصر وأرادت حقا ان تكون ثورة بكـل ما تتضمنه هذه الثورة من معنى• وهذا يتمثل بأهدافها الستـة التاليـة :

١ — القضـاء على الاستعمار •

٢ — القضـاء على الاقطـاع •

٣ — القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المـال على الحكـم •

٤ — اقامـة جيش وطني قـوي •

٥ — اقامة عدالة اجتماعية •

٦ — اقامة حياة ديمقراطية سليمة .

شاعت الثورة بادىء ذي بدء أن تحمي ظهرها من الخلف فعقدت مع بريطانية اتفاقية السودان في ١٢ شباط = فبراير ١٩٥٣ التي كان من نتيجتها استقلال السودان فيما بعد . وفي ١٨ حزيران = يونيو ١٩٥٣ ألغت الملكية وأنهت حكم السلالة العلوية وقيام الجمهورية . ثم وجهت جهودها نحو هدف الثورة الاول وهو القضاء على الاستعمار . قوت الجيش وانشأت معسكرات التدريب والحرس الوطني . ولاول مرة وجدت انكلترا نفسها في مصر عاجزة عن المواربة بعد ان قضت الثورة على العملاء والمأجورين والطامعين في الحكم . كما وجدت نفسها أمام صف واحد من الحاكمين والمحكومين يشد بعضه بعضا . فما وسعها الا ان انحنت أمام ارادة الشعب وسلمت بمطالب مصر وعقدت اتفاقية الجلاء في ١٩ تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥٤ . وفي ١١ حزيران = يونيو ١٩٥٦ جلا آخر جندي بريطاني عن أرض الكنانة وارتفع العلم المصري خفاقا على بور سعيد . وكانت هذه هي المرة الاولى ، منذ ثورة عرابي باشا ، التي تحررت فيها مصر من القوات البريطانية بعد الاحتلال .

وفي ٢٦ تموز = يوليو ١٩٥٦ أعلن / السيد الرئيس جمال عبد الناصر في الاسكندرية تأميم شركة قناة السويس العالمية للملاحة ، فدل بذلك على سياسة مصر الثورة المستقلة في المجالين الداخلي والخارجي . وقد وجد الاستعمار في هذه السياسة خطرا يهدد مشاريعه في المنطقة ففقد صوابه بعد أن كانت الآمال متجهة الى حل لقضية القناة ، ونفذ المؤامرة العدوانية على مصر ، التي حاكت خيوطها بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، في ٢٩ تشرين الاول = اكتوبر ١٩٥٦ والتي اسفرت أخيرا عن رد كيد المعتدين الى نحورهم وهزيمة الاستعمار وظفر مصر وتحررها تحريرا كاملا من كل قيد يربطها ببريطانيا .

ويبدو من دراسة ثورة ٢٣ تموز = يوليو أنها ثورة واضحة الاهداف . تعرف ما تريد ، اذ لم تكن ضربة رأس او نزوة تملكت بعض الافكار فقامت على النظام القائم دون وعي تهدم فيه ولا تدري ماذا تبني ، فاذا بها تزيد الفساد فسادا والخطأ أخطاء ، وتمهد بدورها لنظام مضطرب لا يلبث أن يذهب هباء عند أقل عاصفة . لقد كانت الثورة تريد تحرير الشعب من الاستعمار ومن حكم الفساد والاستغلال وقيود الرجعية والتخلف لتعيد له حقوقه وكرمته ، ثم لتدعه ينطلق في افق التقدم والرقي ليواكب الركب الجاد في السير ويحقق مثله العليا في خدمة الانسان والحضارة .

ولم تقم بهذه الثورة طبقة معينة في سبيل السيطرة والنفوذ ، بل قامت بها عدة طبقات تمثلت في الجيش وتحالفت فيه على سحق النظام الطبقي الذي تتحكم فيه طبقة أصحاب الاطيان والمال والمنافع الخاصة . ولذا قضت على الاقطاع بالاصلاح الزراعي وقضت على الاحتكارات الكبرى لاقامة العدالة الاجتماعية وتخفيف الفروق الطبقية .

ولم تكن هذه الثورة حمراء ، كما يبدو لاول وهلة ، بل كانت ثورة سلمية بيضاء اذ لم تشأ تحقيق أهدافها باراقة الدماء وقتل الابرياء . ولقد استطاع قادة الثورة وموجهوها ، بما أوتوا من فطنة ودراية وحسن تدبير ، ان يجنبوا عن مواطنيهم ويلات الثورات الدموية المشبعة بالحقد والمصحوبة

بأعمال العنف والشدة والفظاعة • لقد كان رجال الثورة رسل سلام يريدون الخير للمواطنين جميعا على حد سواء ، هدفهم الاسمى خدمة وطنهم لا خدمة طبقة بعينها يتبادلون واياها المنافع ويبغون حماية مصالحها ، ولو كانوا كذلك لقسموا البلاد الى شيع وأحزاب متنافرة متباغضة وآل الامر الى نزاع طبقات وصراع ومصالح ، وجر مغانم ، ومشاحنات لا نهاية لها • ولكن رجال الثورة كانوا ابعد نظرا وانبل هدفا • ومن كان رائده المصلحة الوطنية العليا كان أرفع من ان يزج نفسه وبني وطنه في منازعات داخلية لا يأتي من ورائها الا الويل والخراب والدمار • لقد كانت ثورة ٢٣ تموز = يوليو ثورة عاقلة وحكيمة رائدها المصلحة العامة •

وميزة أخيرة لهذه الثورة هي أنها جعلت مصر جزءاً لا يتجزء من الوطن العربي الكبير ، والشعب المصري جزءا من الامة العربية كما دل على ذلك دستور كانون الثاني = يناير ١٩٥٦ ، وألغت بعض التعابير المتعلقة بذلك كالشعب المصري والسوري والعراقي الى غير ذلك ••• وأخذت تردد وتقول : الشعب العربي في مصر والشعب العربي في سورية ، والشعب العربي في العراق الخ ••• لذا هفت نفوس الشعب العربي في كل مكان نحو هذه الثورة المباركة وتشيعت لها لانها وجدت فيها صدى لكل ما يجيش في صدرها منذ اواخر القرن الماضي من نزعة عربية عامة وتطلعات مشتركة الى جمع شتات الامة العربية في وحدة عربية شاملة • ومن هنا تبدو ثورة ٢٣ تموز = يوليو بأنها كانت ثورة عربية وانطلاقة قوية جديدة وجريئة للقومية العربية التي تحرك قلوب العرب في شتى أقطارهم وأمصارهم • فقد دفعت القومية العربية من مرحلة التردد والضعف والاستحياء الى مرحلة العزم والاقدام والقوة • ولا أدل على ذلك من أيام العدوان الثلاثي على مصر عندما وقف الشعب العربي كله يؤيد مصر الثورة في كفاحها ضد المعتدين لانه اعتبر هذا العدوان عدوانا على العرب جميعا • وقد شعرت مصر بهذه القوة العربية فاستماتت في الدفاع ، لانها تعلم بأن أشقاءها في البلاد العربية الاخرى لن يتركوها وحدها في الميدان ، وكتب لها النصر المبين •

وفي الحقيقة ان ثورة ٢٣ تموز = يوليو رفعت القومية العربية عاليا ودفعتها بموجة أعماق ، وجعلت منها قوة استقطاب كبرى للعرب في تحقيق وحدتهم الكبرى الشاملة •

وهكذا نرى أن الثورة أيقظت العروبة في مصر وجعلت مصر جزءا لا يتجزأ من الامة العربية ، وليس معنى ذلك ان هذه الفكرة لم تكن موجودة من قبل ، بل نقول انها كانت عتيدة تظهر في كل مناسبة عربية ، وكلما دعا داعي الوطن العربي للتضامن ، ولكن اصالة الثورة تكمن في انها أمدت فكرة العروبة بدم شاب قوي ، ودفعت بها في مختلف الاوساط ، ونبهت الغافلين ، وحاولت أن تغرس هذه الفكرة في نفسية الناشئة المصرية منذ نعومة أظفارها في البيت والمدرسة لتشب عليها وتشبع بها وتصبح مقوما من مقومات شخصيتها • قال سيادة الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب له : « استطعنا أن نرى القومية العربية رأيا سليما ، وعرفنا ان الدعوة الفرعونية التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا ضمن الدعوات الاخرى التي حاول أن يبثها ضمن الامة العربية ، انما هي محاولة زائفة يحاول الاستعمار بها أن يحطم الامة العربية ليقضي عليها جزءا جزءا ويقضي على العرب والقومية العربية ليحل محلها قوميات

أخرى ، استطعنا نحن ان نعرف مكاننا ، وان نعرف تاريخنا وشخصيتنا ، ونعرف أننا عرب ونعلن عروبتنا ، ونعلن في دستورنا اننا جزء من الامة العربية ونعود الى مكاننا الطبيعي الذي كنا فيه » •

وسلكت حكومة الثورة سياسة عربية تعتمد على المبادىء الآتية :

١ — الايمان العميق بحق العرب جميعا في الحياة الحرة الكريمة • ويترتب على ذلك التخلص من النفوذ الاجنبي بشتى اشكاله وصوره •

٢ — الايمان الثابت بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير الممتد من الخليج الى المحيط• وأن هذا القطر العربي يجب ان يعود لاهله العرب•

٣ — السير في سبيل التعاون مع سائر البلاد العربية لخير العرب جميعا وللمحافظة على وحدة الصف العربي والتضامن العربي وعدم السماح لاي دولة أجنبية أو صهيونية بالتدخل في السياسة العربية لاستغلال بعض الخلافات بين الدول العربية ، والشعور بمسؤوليتها تجاه البلاد العربية الاخرى في سبيل التحرر العربي الشامل ، وذلك لانها تعتبر أن نجاح الثورة لا يكون كاملا الا اذا تحررت البلاد العربية جميعها من كل سيطرة أجنبية •

هذا بالاضافة الى أن حكومة الثورة أخذت تسلك سياسة خارجية مستقلة بعيدة عن المؤمرات الاجنبية• وهكذا رفضت الدخول في الاحلاف العسكرية وكافحت حلف بغداد ، ووقفت بعيدة عن الحرب الباردة ولم تشأ ان تنحاز الى احدى الكتلتين المتصارعتين: كتلة « العالم الاشتراكي » التي يتزعمها الاتحاد السوفياتي ، وكتلة « العالم الحر » التي تترأسها الولايات المتحدة ، بل سلكت سياسة نابعة من ذاتها ومصلحتها ، سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز التي تبعدها عن الانخراط في أحد المعسكرين مع العمل على تقريب وجهات النظر في تحقيق السلام العالمي وتخفيف حدة التوتر الدولي • ولا شك في أن هذه السياسة كان لها الاثر الكبير في تنبه الدول العربية وسلوكها سياسة مستقلة بعيدة عن التأثيرات الخارجية • ولقد كانت سياسة حكومة الثورة تتجاوب خير تجاوب مع سياسة الحكومة السورية ، وهذا مادعا الى تلاقي وجهات النظر في سياسة البلدين • فقد كانت سورية ومصر في طليعة البلاد العربية المستقلة استقلالا تاما ناجزا • وهذا الاستقلال جعلهما يملكان زمام أمرهما بيديهما ويسلكان سياسة نابعة من نفسيهما وحاجاتهما • وكانت سورية منذ أواخر القرن الماضي وخاصة منذ فترة ما بين الحربين تفكر فيما وراء حدودهما الطبيعية وتتطلع بكل آمالها الى اليوم الذي تتحق امنيتها في الوحدة العربية من الخليج الى المحيط • وكان سلوكها السياسي ، بعد التحرر والاستقلال ، خير معبر عن تفكيرها وآمالها • وهذا السلوك هو نفسه في مصر الثورة • ولذا كان من الطبيعي بعد مرحلة التحرر والاستقلال أن تحققا بشخصيهما هداف من أهداف القومية العربية وهو السير في طريق الوحدة العربية الكبرى المنشودة وأن تلتقيا بعد افتراق وتذوبا في بوتقة الوحدة العربية وتضربا المثل العملي لكل بلد عربي مستقل أو يتحرر ويستقل في المستقبل • هذا بالاضافة الى ان ظروفا سياسية خاصة احاطت بسورية فدعت الى وحدة سورية ومصر •

قيام الجمهورية العربية المتحدة :

في أول شباط = فبراير ١٩٥٨ اجتمع الرئيسان جمال عبد الناصر وشكري القوتلي مع أعضاء حكومتيهما واتفقوا جميعا على الميثاق التاريخي لوحدة الاقليمين في قصر القبة بالقاهرة • وفي ٢١ من الشهر نفسه تم الاستفتاء على هذه الوحدة وعلى انتخاب الرئيس جمال عبد الناصر اول رئيس لهذه الوحدة التي اطلق عليها اسم « الجمهورية العربية المتحدة » •

ان قيام الجمهورية العربية المتحدة له معناه التاريخي لان وحدة الاقليمين تعني الخروج على الاوضاع التي فرضها الاستعمار والعودة الى اللقاء والاندماج والوحدة بين الشعب العربي في كلا القطرين، كما انه يعتبر من وجهة نظر أخرى خطوة اولى في طريق الوحدة العربية الشاملة ، واستجابة لرغبة الشعب العربي في كل مكان • فقد هلل لها وشايعها وفرح بها لدرجة تفوق حد الوصف ، وتقبلها بكل رضى وعفوية واندفاع حتى أن سيادة الرئيس جمال عبد الناصر أعلن في مجلس الامة المصري في الخامس من شهر شباط = فبراير ١٩٥٨ أن القرار يتطلب الحذر بالاضافة الى الابتهاج حين قال : « اننا نعيش فترة رائعة، ولكن علينا ان ندرك أن لهذه الفترة الرائعة أخطارها أيضا ، وربما كانت شهوات أنفسنا هي أكبر الاخطار التي يتعين علينا ومواجهتها. لقد مرت علينا قرون من الزمان وأحلامنا وأمانينا ورغباتنا وأهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التي صنعها الاستعمار ولقد تهاوت الحواجز والسدود عندما زال وجود الاستعمار من بلادنا • وهكذا بدأت الاحلام والاماني والرغبات والاهداف تنطلق من عقالها وتتدافع بسرعة بعد الكبت الطويل في مثل تدفق الفيضان • ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقي لسرعة الحوادث في جيلنا ، وهو امر طبيعي بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكنه أيضا تحذير كما هو تفسير ، انه تحذير بأن من اول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على أمانينا ، ثم نفتح عيونها ليمر التيار على شكل الفيضان المنظم ولا يخر فوق رؤوسنا كالطوفان العالي الشديد • »

ومهما يكن من أمر هذه الوحدة بين مصر وسورية بقيام الجمهورية العربية المتحدة فانها تمت بسرعة وعفوية ودون دراسة وتعمق وتذليل للصعوبات القائمة أو تفكير بالمشاكل التي تنشأ في المستقبل • وهذا ما دفع ذوي الاغراض الى اعتبارها عملية اغتصاب كعملية « الأنشلوش » في ضم النمسا لالمانيا قبل الحرب العالمية الثانية متناسين ومتجاهلين الشعور العربي العام ورغبته في الوحدة ، لان الاصل هو الوحدة بين العرب والعجب كل العجب أن يبقى العرب على فرقتهم كما يشاء أعداء العرب وأعداء الوحدة.

يضاف الى ذلك أن اخطاء وقعت هنا وهناك ، في سورية وفي مصر ، أساءت الى صميم الوحدة وضاعفت مجهود الاستعمار وأعوان الاستعمار فأدت أخيرا الى القطيعة والانفصال في ٢٨ أيلول ١٩٦١ ، وخيبة آمال العرب •

اتحاد الدول العربية المتحدة : —

وما تمت الوحدة بين مصر وسورية حتى جرت اتصالات بين حكومة الجمهورية العربية المتحدة وحكومة اليمن ، وتم على أثرها في ٨ آذار = مارس ١٩٥٨ في دمشق توقيع ميثاق انشاء « اتحاد الدول العربية المتحدة » بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية •

وقد نص ميثاق هذا الاتحاد على أن ينشأ اتحاو الدول العربية المتحدة « يتكون من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية والدول العربية التي تقبل الانضمام الى هذا الاتحاد ، وتحتفظ كل دولة من الدول الاعضاء بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص بها ، على ان تتبع الدول الاعضاء سياسة خارجية موحدة يضعها الاتحاد ، ويلغي التمثيل الدبلوماسي بينها ، ويتولى التمثيل السياسي والقنصلي للاتحاد في الخارج هيئة واحدة في الاحوال التي يقرر فيها الاتحاد ذلك، ويكون قوات موحدة، وينشأ بين البلاد المتحدة اتحاد جمركي وتنظم شؤون النقد والشؤون الاقتصادية للاتحاد وتنسق وسائل التعليم والثقافة . »

وكان من الممكن لهذا الاتحاد ان يكون قدوة للدول العربية المستقلة فتسارع بالانضمام له لو أتيح لأجهزته العمل في خدمة دوله والبلاد العربية الاخرى ولكنه ، مع الاسف ، تجمد منذ ولادته ، ولم يعمل عملا يستحق الذكر الى ان حل وقضى نحبه .

الوحدة الاتحادية في ١٧ نيسان = ابريل ١٩٦٣ :ـــ

ثم حدث أن قامت في العراق ثورة عرفت باسم ثورة الرابع عشر من رمضان (١٣٨٢) على حكم عبد الكريم قاسم فأطاحت به وأعدمته . وتلتها ثورة ٨ آذار = مارس ١٩٦٣ في سورية رافعة شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية ، والتقت في القاهرة الوفود الممثلة للجمهورية العربية المتحدة وسورية والعراق ، وبدأت بالمحادثات يوم السبت في ٦ نيسان = ابريل ١٩٦٣ لعقد اتفاق وحدة بين الاقطار العربية الثلاثة ، وانتهت يوم الاربعاء ١٧ منه بإعلان نص « بيان الوحدة الاتحادية » . ولكن اختلاف وجهات النظر بين حكام القاهرة ودمشق ، وخاصة بعد حوادث ١٨ تموز = يوليو ، ادى الى تفاقم التوتر بين الجانبين ، ودعا السيد الرئيس جمال عبد الناصر الى أن يعلن في ٢٣ تموز = يوليو ١٩٦٣ على رؤوس الاشهاد بأن « لا وحدة مع حكم البعث في سورية » وما زال أمر الوحدة بين الاقطار الثلاثة في نقطة الموت .

هذه جملة المحاولات الوحدوية او الاتحادية بين أقطار عربية ثلاثة مستقلة وهي محاولات لم يكتب لها البقاء او لم تر النور .

على أن هنالك محاولات أخرى وخططا وضعت بوحي أجنبي انكليزي بغية الوحدة والاتحاد وهي ثلاث .

(أ) مشروع سورية الكبرى .

(ب) مشروع الهلال الخصيب .

(ج) الاتحاد العربي .

أ ـــ أما مشروع سورية الكبرى فيرجع الى عام ١٩٤٣ عندما تقدم الامير عبد الله الهاشمي بمذكرة سياسية الى الحكومة البريطانية لحل المسألة السورية خاصة والقضية العربية عامة بتنفيذ أحد المشروعين الآتيين :

١ ــ مشروع الوحدة السورية (الدولة السورية الموحدة) والاتحاد العربي : ويتضمن الاعتراف باستقلال الدولة السورية الموحدة التي تضمم سورية الشمالية وشرقي الاردن وفلسطين ولبنان مع اعطاء ادارة خاصة لكل من لبنان القديم وفلسطين لحفظ حقوق الاقلية اليهودية والغاء وعد بلفور ، على أن يكون الامير عبد الله على رأس هذه الدولة . ومن ثم يعلن تأسيس اتحاد عربي يضم سورية والعراق ، ولا مانع من انضمام الدول العربية الاخرى اليه .

وفي حال عدم قيام هذه الدولة يصار الى تحقيق المشروع الثاني :

٢ ــ مشروع الدولة السورية الاتحادية والاتحاد العربي : وبموجبه تقوم في سورية الطبيعية دولة اتحادية مركزية تضم شرقي الاردن وسورية الشمالية ولبنان وفلسطين ، على ان تكون عاصمتها دمشق ويرأسها الامير عبد الله .

وظل عبد الله متمسكا بهذا المشروع حتى آخر حياته . وقد لاقى مشروع سورية الكبرى مقاومات البلاد العربية المجاورة ، ولا سيما سورية لانها تعتبر الاردن جزءا منها . فقد كان الاردن يؤلف قبل الحرب العالمية الاولى قائمقامية تابعة لولاية سورية ، وان المنطق يقضي بعودة الامور الى مجاريها الطبيعية والتحاق الجزء بالكل لا الكل بالجزء .

(ب) واما مشروع الهلال الخصيب فيرجع الى العام ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ عندما اصدر نوري السعيد رئيس وزراء العراق أنذاك « الكتاب الازرق » ووضع فيه الخطوط العريضة لمشروع وحدة بلدان الهلال الخصيب وفيه يرى ان تتحقق هذه الوحدة على مرحلتين :

الاولى ــ تكوين دولة واحدة من سورية ولبنان وشرقي الاردن .

الثانية ــ تكوين وحدة عربية من دولتي سورية الكبرى والعراق . وقاومت هذا المشروع كل من مصر والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان وكان مصيره الاخفاق ، الامر الذي أدى الى تقديم مشروع جديد مضاد له وهو مشروع « جامعة الدول العربية » الذي رأى النور عام ١٩٤٤ وخرج الى حيز الوجود في ٢٢ آذار = مارس ١٩٤٥ .

(ج) وأما الاتحاد العربي فقد قام بين ملكي الاردن والعراق على أثر الاعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة . وكرد فعل لوحدة سورية ومصر صدر بلاغ رسمي مشترك في ١٤ = شباط فبراير ١٩٥٨ عن المملكتين العراقية والاردنية الهاشمية جاء فيه أن الدولتين قررتا انشاء اتحاد بينهما يسمى « الاتحاد العربي » تحتفظ فيه كل من الدولتين بشخصيتها الدولية المستقلة وبسيادتها على أراضيها وبنظام الحكم القائم فيها .

ولكن هذا الاتحاد لم يكتب له البقاء أيضا لان الجيش العراقي قام في ١٤ تموز = يوليو ١٩٥٨ بالثورة على النظام الملكي القائم في العراق وأعلن في اليوم نفسه الغاء الملكية وقيام الجمهورية العراقية. وفي اليوم التالي ، أي في ١٥ منه ، أصدرت الحكومة العراقية بيانا أعلنت فيه انسحاب العراق من الاتحاد العربي جاء فيه : « ان حكومة الجمهورية العراقية تعلن انسحابها فورا من هذا الاتحاد وتعتبر جميع الاجراءات والتشريعات التي تمت بموجبه باطلة وملغية ، كما تعتبر نفسها في حل من جميع الالتزامات المالية والعسكرية وغيرها مما فرض على العراق نتيجة لقيام هذا الاتحاد » .

هذه هي المراحل التاريخية للقومية العربية في تايخها الحديث من حيث هي قوة جامعة للعرب في تحررهم واستقلالهم ووحدتهم • والمراقب لكل ما جرى في هذه التطورات يرى ان القومية العربية بالرغم مما حققته من انتصارات ومكاسب ، ما زالت تلاقي ، في تحقيق أهدافها القصوى ، مقاومات مختلفة تعيق تقدمها بخطوات سريعة • وهذت المقاومات على نوعين :

١ ــ المقاومات الداخلية : ــ ان الباعث لهذه المقاومات هو النعرة الاقليمية الضيقة التي هي أثر من آثار التدخل الاجنبي وتقطيع البلاد العربية الى اجزاء ، وانعزالها عن بعضها • وقد ظهرت هذه النعرة إثر التحرر الاقليمي ، وأفادت منها بعض الفئات والاسر الحاكمة وأرادت الاحتفاظ بجاهها وزعامتها ومصالحها ، ولم تشأ ان تصهر نفسها في بوتقة الوحدة ، بل أخذت تعمل جاهدة على تبرير التجزئة وتوطيد الاوضاع الراهنة •

٢ ــ المقاومات الخارجية : ــ وهذه تتجلى في مطامع الدول الاستعمارية وتضافر قواها مع الصهيونية العالمية وسياستها في الحد من قوى العرب وتفتيتها وبعثرتها قبل أن تتوحد ، لا سيما وانها رأت من حرصهم على كرامتهم القومية ومنافعهم الحيوية ، ومن غنى أرضهم بالموارد الطبيعية والبشرية والمواقع الستراتيجية ما جعلها تخشى هذا الانقلاب العميق الذي يحدثه النضال العربي في كل انحاء الوطن الكبير •

وبالرغم من هذه المقاومات فالقومية العربية آخذة بالنفوذ الى جماهير الشعب العربي • والعرب اليوم يشعرون بوحدتهم الجغرافية القائمة بين الخليج والمحيط ، ووحدتهم التاريخية ، ووحدتهم الروحية ، وبضرورة تكتلهم واتحادهم • ويرون أن قوميتهم يجب أن تخلو من رسوبات الماضي المؤذية ، وتأخذ من الافكار التقدمية الحديثة ما يجعلها تساير ركب الزمن • كما يريدون أن يخرجوا على واقعهم المرير ، ويتحرروا من كل رجعية او نعرة اقليمية او سلطة خارجية او استعمار أجنبي • وهم أكثر من أي وقت مضى يشعرون بروح التضامن وضرورة جمع الشمل وتحرير البلاد ، التي ما زالت ترسف في اغلال الاستعمار واسترداد الاقاليم السليبة • وهذا الشعور العام ، الذي يخامر قلب كل عربي ويجعله ، أخا لكل مواطن عربي في أي قطر عربي هو الذي سيجعل منهم مواطنين في الدولة العربية الشاملة المنشودة •

ولا شك في أن الشعب العربي بمجموع جماهيره يريد الوحدة الشاملة من كل قلبه وجوارحه • ولو خلي بينه بين ما يريد لما اختار غير الوحدة ، ولما رضي عنها بديلا • لقد مضى الوقت الذي كانت فيه الوحدة العربية أمنية يتغنى بها ، او شعارا ينادي به ، واصبح الشعب العربي كله في مرحلة الوعي الاكيد • ولا يسعنا الا أن نسجل هذه الظاهرة التي أصبحت قوة جماهيرية غالبة • واذا شهدناها

في بعض الاقطار العربية اقل ظهورا منها في غيرها ، فليس في ذلك ما يدل على أنها غير موجودة . بل بالعكس انها حية وتعمل عملها وتنتظر الوقت المناسب لتظهر كالشمس في وضح النهار .

ان هذه الموجة العميقة التي تجتاح الشعب العربي من أقصاه الى أقصاه ، من الخليج الى المحيط ، تحدث بين أفراده احتكاكا دائما وتفاعلا مستديما ينجم عنهما انسجام عام وتماسك عظيم يتخطيان الحدود الاعتبارية والتجزئة السياسية والتقاليد الموروثة من مخلفات الاستعمار ، ويغمران النفوس العربية بروح الوحدة المتكاملة الاجزاء كالاعضاء في الجسم الواحد .

ولا مرية في أن هذه الفكرة القومية ، التي تتملك قلوب العرب ، تتساوق مع نفسية العصر الحديث ، نفسية التجمع والتكتل والعمل الجماعي ، التي تنبثق عنها قوة لا تعدلها القوة المنبعثة عن الجهود الفردية الضئيلة . ولذا فان تحقيق الاهداف العربية الكبرى ، من ازالة الاستعمار عما تبقى في بعض بلاد العرب والوصول بالشعب العربي الى العيش الكريم ، لا يتم الا بتجميع القوى الفردية في قوة جماعية كبرى تتغلب على الصعوبات القائمة وتحرر الاجزاء السليبة وترد العدوان وتضمن أمن ما حققته القومية العربية من انتصارات ومكاسب خلال نضالها الطويل وما ستحققه في المستقبل .

ان الشعب العربي ، وقد بلغ مرحلة الامة المتضامنة المتماسكة ، التي تشعر بقوة الرابطة المعنوية بين أفرادها ، هو اليوم بحاجة الى ان يجسد هذه الوحدة المعنوية في اطار سياسي موحد ، ولا بد لهذا من قيام حركة جماعية يقوم بها ابناء العرب في كل قطر عربي ويدعون فيها الحكومات والاحزاب والمجالس التمثيلية الى العمل في سبيل الوحدة العربية المنشودة ، ويجندون فيها افكارهم وأقلامهم وأصواتهم في خدمتها . وفي اليوم الذي تنشط فيه هذه الحركة يمكن القول ان عهد الوحدة لقريب وان ساعتها آتية .

ويبدو في الوقت الحاضر ان هنالك اتجاهين يسيران متوازيين وغير متعارضين ، يميل أحدهما الى التطور ، ويندفع الآخر الى الثورة أو هو في ثورة لاحداث التبدل الجذري في مصير العرب وتحقيق الوحدة العربية . الاتجاه الاول معتدل يرى ان البلاد العربية وخاصة المستقلة بحاجة الى فترة انتقالية تستجمع فيها قواها لتمهد السير بين الاستقلال والوحدة ، وليشعر السادة ، الذين قادوا الحركات التحررية في البلاد العربية بنعمة الاستقلال حينا من الزمن ، وليفيدوا من هذا الاستقلال لتحرير البلاد العربية المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها . فاذا تم استقلال البلاد العربية كلها وضع أمر الوحدة بصورة جدية ودفع التطور في الاقطار المستقلة الى تقويض الاطر التقليدية والسير في طريق الوحدة لتحقيقها . ويقول أنصار هذا الاتجاه أن أعظم انتصار يحققه أحرار العرب في هذه الفترة هو الخلاص من الاستعمار ، وان الشعب العربي الذي ظل يرنو طويلا الى الوحدة يمكنه أن ينتظر قليلا لتحقيقها .

والاتجاه الثاني ثوري يقول ان الظروف العالمية لا تمهل لان ركب الحضارة يغذ في السير بقوة الصواريخ ، وان التباطؤ في أمر الوحدة معناه التأخر في عصر السرعة والطاقة الذرية ، وكلما طال

العهد على الاستقلال رسخت أركانه ووقف عقبة في سبيل الوحدة وترتبت عليه مصالح لا تمكن ازالتها بسهولة ويسر ، والخير كل الخير أن تنسف الحدود القائمة بين البلاد العربية المستقلة ويضحى بالمصالح الشخصية لتحقيق الخير العام الذي يتم بالوحدة العربية بأقرب وقت ممكن .

ترى أي الاتجاهين اصوب من الآخر ؟ ان القضية لا تتعلق بخطأ أو صواب ، انها قضية زمن وتطور ووعي ، وليست قضية عاطفة جامحة تلتهب تارة وتخمد أخرى . لقد كانت تجربة الوحدة بين سورية ومصر ، بالرغم مما علق عليها من آمال ، مليئة بالنتائج غير السارة التي لم يكن ليتوقعها أي مواطن عربي يرنو الى الوحدة ويجعلها مناط آماله وأحلامه . وما ذلك الا لان أخطاء ارتكبت عن قصد او عن غير قصد أفسدت أمر الوحدة وادت الى هذه النتائج غير المنتظرة . ولكن هل هذا الاخفاق في التجربة دليل على أن الوحدة غير ضرورية ، لا شيء من هذا البتة . بيد انه يجب ان تعد لكل غرض عدته ، وذلك بتهيئة كل ما يلزم من نشر ثقافة وعلم واتصال وتبادل بين البلاد العربية لتتقارب ويتعرف أبناؤها بعضهم ببعض بعد طول الفرقة التي فرضها الاستعمار عليهم وجعلتهم ينظرون لبعضهم نظرهم الى الاغراب ، بالرغم من وحدة لغتهم ، ومن هنا تأتي ضرورة التمهيد الجدي للوحدة وخلق الجو الودي للتفاهم العربي الذي يحل الوئام محل المشاحنة والتكافؤ محل التسلط ، والاخاء مكان العداء . والا نظر أهل كل قطر الى أهل القطر الآخر نظرة لا تقل عن نظرتهم للاستعمار والمستعمرين .

وترتبط بوجهة النظر هذه وجهة نظر أخرى وهي ان العرب ، الذين ظلوا مدة طويلة من الزمن يعانون وطأة الاستعمار ، ينظرون الى كل حاكم ، ولو كان منهم ، نظرة تكاد تشبه نظرتهم الى الحاكم الاجنبي. ولذا لابد للبلاد العربية المتحررة من حكومات رشيدة تسهر على مصلحة الشعب وتحقق في بلادها الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة ليشعر المواطنون بنعمة الاستقلال من جهة ، وبالفارق المحسوس بين الحكم الاجنبي والحكم الوطني من جهة اخرى . وهنا تبدو ضرورة سيادة الحكم الديمقراطي في البلاد العربية لتربية الشعب التربية السياسية التي تكفل حريته وكرامته ونمو شخصيته ليكون مواطنا صالحا يحب بلاده بكل ما أوتي من اخلاص وعلم ومواهب ، كما تبدو المسؤولية الكبرى الملقاة على رجال الحكم في البلاد العربية في هذا العهد الاستقلالي لان اول واجباتهم أن يضربوا المثل الصالح للمواطنين ، ويحرروا البلاد من مخلفات الاستعمار ، اذ لا يكفي الخلاص من جنود الاحتلال والاستعمار السياسي ، بل يجب التحرر من التخلف الاقتصادي و التبعية الاقتصادية والتحكم في النظام النقدي والحياة الثقافية واحداث التطور الاجتماعي الكفيل بخلق مجتمع عربي سليم تخيم عليه الرفاهية .

ومن الملاحظ في العلاقات الدولية ان العالم بأجمعه يتأثر بسياسة العملاقين الكبيرين : الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . فحيث يوجد الاول يوجد الثاني وبالعكس ، وتبدو النتائج المترتبة على التنافس بين المعسكرين ظاهرة كانت أو خفية . ولقد دلت البلاد العربية على وعي أكيد بأن لا مصلحة لها في زج نفسها في هذا المعترك بين العملاقين ، ورفضت الدخول في الاحلاف العسكرية بالرغم من المغريات ، ولم ترض أن تكون الى هذا الجانب او ذاك بالرغم من جميع الاتهامات وسلكت سياسة خارجية مستقلة .

ومهما يكن من أمر فان روح الاستقلال في البلاد العربية دفعت عجلة التطور للحاق بالركب

ومكافحة التخلف بشتى صوره وألوانه ، كما دفعت الى الوحـدة العربية قبل ان يتم استقلال البـلاد العربية كلها ، بل وجعلت امر الوحدة شغلا شاغـلا • بيد ان جو الاستقلال غير صاف وسماءه مظللـة بالغيوم لان الاخوة الاشقاء من أبناء العرب يتنافسون على صعيد الجامعة العربية ، ويحارب بعضهم بعضا في ميادين القتال ، وفي وسائل النشر والاذاعة والتلفزة • ولا تنكر ان للعوامل الشخصية والمصالح الخاصة تأثيرا كبيرا في شقة الخلاف ، ولكننا نعترف من جهة أخرى ، ان وراء هذا التنافس أفكارا موجهة أيضا قـد لا تظهر تتائجها جميعا في المستقبل القريب • وتتسائل أخيرا هل هذا التطور ، الذي حققته البـلاد العربية في مختلف الميادين ، قادر على تغيير العقلية التقليدية بعقلية جديدة تتلاءم وروح العصر الجماعية التي تحل الالفة والمحبة والوفاق محل التنائي والتباغض والشقاق ، لنقول ان العرب حقا على مستوى رسالة القومية العربية التي ندبوا انفسهم لادائها وتحقيق أهدافها السامية ! ؟ •

خصائص القومية العربية واهدافها في مفهومها الحديث .

لقد رأينا في معرض بحثنا عن القومية العربية ان هذه القومية منذ نشأتها كانت تهدف ، ككل قومية ، الى جمع شمل العرب وتعبئة جهودهم للتحرر من السيطرة الاجنبية التي رانت على قلوبهم خلال حقبة غير قصيرة من الزمن وتشكيل الدولة العربية على الارض العربية التي عينت اللغة العربية حدودها الجغرافية من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ؛ وأن الكفاح القومي ضد الاستعمار أدى الى تحرير القسم الاكبر من الارض العربية وتشكيل دول عربية مستقلة ، ومازال القسم الآخر يناضل ويجاهد بمساعدة القوى العربية المستقلة من معنوية ومادية ليصل الى الحياة الحرة الكريمة . ومما لاشك فيه ان الوضع الاستعماري الذي فرض على البلاد العربية إبان كبوتها وخمولها ادى الى تجزئة هذه البلاد تحت نير الاستعمار بل والى تجزئة النضال العربي الواحد في فترة التحرير القومي ، ولم تستطع البلاد العربية ان توحد جهودها حسب برنامج معين وخطة مرسومة وتناضل الاستعمار صفا واحداً وتحت قيادة عامة موجهة . ولكن الاستقلال الذي حققته البلاد العربية وضع أمام العرب قضية الوحدة التي لم ينسوها وكانت هدفاً أساسياً لقوميتهم. وجرت محاولات مختلفة للسير قدما في طريق الوحدة أصابت في نواحي واخطأت في أخرى ، وكانت بالنسبة للعرب تجربة مفيدة لتلافي اخطاء قد تقع في المستقبل .

وبالرغم من ان العرب يريدون الوحدة الا ان تحقيقها يلقى في طريقه مشاكل وعقبات تحتاج الى تمهيد وحل . ولعل العقبة الاساسية ترجع الى التجزئة الارضية التي فرضت مع الزمن وقوت عاطفة النضال الاقليمي والاستقلال الوطني ، اذ المشاهد في هذه الفترة الاستقلالية ان الوحدة القومية تلاقي عقبة التمسك بالكيان المستقل وتضحية الوحدة . ولكن ليس بالضروري ان تبقى هذه التجزئة مخلدة الى الابد ، بل ان ارادة العرب الواعين لمقدراتهم ستجعلهم يعملون جاهدين للوصول اليها وتحقيقها .

بيد ان الاستقلال الذي حققته البلاد العربية قد آل بالمسؤولين في هذه البلاد الى ان التحرر السياسي لا يكفي ، فليست القضية هي الخلاص من الاحتلال الاجنبي فحسب ، بل التحرر من الاسباب الداعية اليه أيضا . ونستطيع ان نجمل هذه الاسباب بكلمة واحدة وهي التخلف في شتى صوره وأشكاله . ولقد رأى المسؤولون في البلاد العربية المتطورة ان المجتمع العربي في مختلف اقطاره يسوده التفاوت الطبقي ، وان خير وسيلة لتخفيف هذا التفاوت هو تبني الاشتراكية لتحقيق العدالة الاجتماعية وعدم تحكم الاقطاع ورأس المال ليشعر المواطن بكرامته. ولذا كانت الاشتراكية ، عند رأي بعض الكتاب العرب ، هدفاً من أهداف القومية العربية تسعى اليه جاهدة ليكون المجتمع العربي مجتمعاً سليماً تخيم عليه الرفاهية بعد خلاصه من آفات الجهل والمرض والفقر ولتتاح لمواطنيه جميعا الفرص التي تمكنهم من الانطلاق والنمو والقدرة على الابداع ، للاسهام في النشاط الحضاري المعاصر، وليصلوا حاضرهم ومستقبلهم بماضيهم المجيد ، دون ان تتملكهم عقدة نقص أمام الامم الزاحفة الى التقدم الحضاري بخطا واسعة وسريعة . واذا قلنا ان الاشتراكية هدف من أهداف القومية العربية فليس في هذا القول ما يدل على ان اشتراكية الوطن العربي مستوردة أو دخيلة أو نسخة طبق الاصل عن اشتراكية البلاد التي انتشرت فيها الاشتراكية . ان اشتراكية العرب تنبع من صميم الذات العربية في البلاد العربية وطبقاً لحاجات العرب قبل كل شيء . وقد تتفق في

هذا الحقل الاشتراكية العربية مع اشتراكية البلادالاخرى في بعض نواحي التطبيق ، ولكن اشتراكيتنا تبقى عربية ونابعة من ذاتنا وحاجاتنا وطبقا لرغباتنا .

ونضيف الى ذلك ان قوميتنا العربية هي قومية تحررية تريد ان تحرر المواطن العربي من كل قيد يربطه بالاستعمار ويقيده حريته ويشل نشاطه ومن هنا لم تكتف القومية العربية بالتحرر السياسي ، بل تسعى الى تحرير الوطن العربي من التبعية الاقتصادية والنقدية والثقافية لتجعل منه وطنا له مقوماته الخاصة وصفاته المميزة ، وطنا متحررا كسائر الاوطان الحرة يعمل لخيره ولخير الانسانية جمعاء .

واذا القينا نظرة على تاريخنا الغابر وجدنا العرب في أقوالهم وافعالهم مسوقين بعاطفة انسانية نبيلة . وقوميتنا العربية في مفهومها الحديث مشربة بهذه الروح الانسانية التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا وعن مكارم اخلاقهم ، وبفضل هذه الروح نرى ان قوميتنا انسانية بعيدة عن التعصب ، بعيدة عن كل نزعة عنصرية . والقومي الحق هو القومي الذي يوفق بين نزعته القومية ونزعته الانسانية . ولذا فان قوميتنا العربية خلو من كل تمييز عنصري دأبها احترام حريات الاقليات غير العربية والتعاون معها وهي غير عادية عليها ولا مستعدية ، ولها من تراثها وتقاليدها مايجعلها منزهة عن كل عصبية جنسية أو دينية .

واخيرا ان قوميتنا ليست أممية . وذلك لان الدعوة الاممية تحارب كل قومية وتعتبرها بقية من بقايا الماضي عفى عليها الزمن والنسيان ، وان الانسان ابن هذا العصر ، يجب ان يكون « مواطنا عالميا » لا مواطن امة معينة . ولا ريب في ان هذه الدعوة مغرية من حيث الظاهر . فهي تدعو الناس جميعا الى الترفع عن النزعة القومية الضيقة ، والاهتمام بمحبة العالم وابنائه ليكونوا مواطنين عالميين في دولة عالمية مشتركة لا تعرف حدا او قيد لقومية خاصة . هذا بالاضافة الى ان الدعوة الى الاممية انما تريد خدمة أغراض القائلين بها أكثر مما تريد خدمة بني الانسان في أي بلد من البلدان . ولا نعتقد ان الانسانية قد بلغت في عصرنا الحاضر من السمو الخلقي والتجرد شأوا عظيما حتى اصبحت بمنأى عن كل هدف قومي . ولا نشك في ان القائمين بهذه الدعاية الاممية انما يريدون من ورائها خدمة أغراضهم الخاصة وخدمة بني قومهم قبل كل شيء ليسودوا العالم من وراء هذه الدعايات المغرية في ظاهرها ، والمغرضة في باطنها . ان قيمة الانسان أو قيمة المواطن انما تكون بانتمائه وبشرف هذا الانتماء الى وطنه وقومه أي الى كل ما يميز ذاته القومية عن ذات القوميات الاخرى . وهذا لا يعني مطلقا التعصب وضيق التفكير او الانحطاط ، بل على العكس ، ان من يحب وطنه ويعتز بالانتماء له يقدر عاطفة الآخرين والاعتزاز بالانتماء الى أوطانهم . ومن هذه العاطفة الانسانية النبيلة يصدر الاحترام المتبادل والمساواة بين الشعوب والامم والدول .

وصفوة القول ان قوميتنا العربية منزهة عن كل نزعة تسيء الى القوميات الاخرى ، اللهم الا اذا وقفت موقف المدافع ضد أي عدوان ، قومية تحب الحق وتدافع عنه وتسعى جاهدة في رفع مستوى شعبها العربي للوصول الى المكانة التي تجعل منه امة عزيزة كريمة بين أمم الارض العزيزة الكريمة . ومن هنا نرى أن قوميتنا العربية تتصف بالشمول العربي ، لانها لا تقتصر على جزء من الوطن العربي بمفرده ، بل انها تعم الوطن العربي بكامله من الخليج الى المحيط ، وتعم الشعب العربي في سائر اقطاره

وأمصاره ، وبجميع فئاته وطبقاته الاجتماعية من عمال وفلاحين وملاك ومزارعين وتجار وأرباب صناعات ومثقفين ، ومدنيين وعسكريين • انها تشملهم جميعا وتدفعهم جميعا دون استثناء نحو المجتمع العربي الافضل ، المتحرر من السيطرة الخارجية ومن الاستغلال الداخلي والقائم على الحرية والعدل والاخاء والمساواة ، والبعيد عن كل تعصب جنسي او طائفي ، او مذهبي او اقليمي • انها قومية العرب اينما رن جرس اللغة العربية العذب في الوطن العربي الكبير •

الدور الحضاري للقومية العربية . ـ البلاد العربية من الخليج الى المحيط هي من أقدم البلاد التاريخية واعرقها حضارة ، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الاصيلة ، وفيها تهيأت اسباب التقدم الحضاري بالنسبة الى بقية انحاء العالم • ولقد كانت هذه الحضارات التي نمت في عصور التاريخ بمثابة المجموعة الحضارية الام بالنسبة الى الحضارة الاغريقية ـ الرومانية التي تعتبر المصدر الوحيد للحضارة الحديثة •

والجدير بالذكر ان هذه الحضارات القديمة التي نمت في البلاد العربية كانت ذات اشعاع حضاري عم جميع المنطقة وجعل كل جزء من أجزائها يأخذ من غيره ويعطي ماعنده ، وعلى هذا النحو تم الاتصال الحضاري بين هذه الاجزاء • ولم تخرج الحضارة العربية الاسلامية عن حدود هذا الاخذ والعطاء فعندما جاء الاسلام وانتشر في اسيا وافريقية كان العرب يدعون الى الاسلام وينشرون اللغة العربية ، ويتمثلون الحضارات المختلفة في البلاد التي فتحوها فكانوا مؤثرين ومتأثرين وناشرين ومبدعين لحضارة عربية في لغتها • وروحها مستمدة من اصالة شعبها النشيط الذي استطاع ان ينشيء من تراثه الحضاري العريق حضارة اشتركت في تكوينها وتنميتها جميع الشعوب العربية المتعاقبة على ممر عصور التاريخ ،هذه الشعوب التي تقطرت وتكررت فأنتجت الشعب العربي المؤمن بالقيم الروحية العليا التي نقلها ونشرها بين الشعوب الاخرى وجعل هذه الاخيرة تدين بها وتساهم في تعميمها ونشرها •

ومن هنا نرى ان الحضارة العربية ـ الاسلامية لم تقتصر على العرب الناطقين بالضاد ولا على البلاد العربية الاصلية أي شبه الجزيرة العربية ، موطن العربي الاصلي ، بل هي نتاج هذه البلاد المترامية الاطراف التي انتشر فيها العرب واتخذوها موطنا لهم وتأثروا بمؤثراتها وخرجت من هذا المزيج والانصهار في بوتقة العروبة الحضارة العربية التي يعتز بها العرب في كل مكان •

والمتتبع للتاريخ العربي يرى ان العرب قد خدموا الحضارة الانسانية بما قدموه من منجزات في عالم الادب والعلم والفلسفة والفن ، كما يرى انهم لم يقصروا في أي ميدان من الميادين ، فضلا عن انهم كانوا رسل حضارة وواسطة اتصال حضاري بين الحضارات القديمة والحضارات الحديثة ، فقد سهروا على القيم الحضارية الخالدة التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم ، والتي اكتسبوها عن الامم الاخرى وانموها بابداعهم الاصيل ونقلوها الى العالم الاوربي الذي تغذى بلبانها وتأثر بها وتفجر عن نهضة عظمى ما زالت منطلقة الى اليوم •

والمطلع على الحضارة العربية يرى ان هذه الحضارة مشبعة بالقيم الروحية ومتصلة بالله والايمان به وهذا الاتصال يمثل مفهوم الانسان لنفسه وواجباته نحو نفسه ونحو غيره ، ولما حوله من الظواهر

الطبيعية ولخالق الوجود • فالانسان والوجود والله هي الأسس الثلاثة التي نشأت حولها ونمت مجموعة
القيم التي توجهت بها العروبة على مدى التاريخ • ولاشك في ان الطابع الروحي للحضارة العربية قديما
وحديثا هو الطابع المميز لها في مختلف مجالات الفكر والسلوك في سبيل خير الدنيا والآخرة • فهي
حضارة تريدان تعمر الدنيا والدين وتجمع بين الحسنيين ،و تقوم على أساس الوحدة الدينية القائمة على الايمان
بالله وحده التي عاش في ظلها ابناء العرب من مسلمين ومسيحيين وساهموا بخدمتها ونمائها متكاتفين
متضامنين وكانت لهم فخارا ومنارا • وهذه الوحدة الحضارية التي رأى العرب في ظلها الامن والرخاء
والازدهار هي التي يرنو اليوم اليها كل عربي ليعمل جاهدا مع أخيه العربي في ثرائها وبقائها
واستمرارها مدى الدهر ، وليصل العرب ما انقطع من حلقات الحاضر والماضي ، وما يكفل لهم القوة
والاسهام في العمل الحضاري الخالد على الدوام •

لقد احاطت بالعرب ظروف تاريخية قاسية تعرضوا فيها للغزو والسلب والنهب والاستعمار • وهذه
الظروف أخرت سيرهم وتطلعهم الى المثل العليا وجعلت تاريخهم خلال فترة من الزمن مقسما قل فيه
النور والاشراق ، بل وصيرتهم اتباعا للدول الاستعمارية • ولكن جذوة الحضارة العربية ، بما فيها من
روح حية وحمية مشتعلة ، وفكر متقد ، كانت تعمل عملها بالرغم من الشروط التي المت بهم • فما
اتيحت لهم الفرصة ثانية على ضوء النهضة الحديثة ، الا وأخذوا يجمعون قواهم ، وينظمون صفوفهم
للعودة الى البناء الحضاري • ولذا فان تأثير الروح الحضارية كان عميقا في نفوس العرب ، لم تبدده
الايام ولا تسلط الاستعمار ، لان الذات العربية كانت تتغذى بقيم حضارتها التليدة لتقوم وتبني
قيمها الطريفة مواكبة ركب الحضارة العالمية بما فيها من انتاج وبناء وتقدم وعمران وقيم خالدة تعز
الانسان وتحفظ له حريته وكرامته ليعطي افضل ما عنده من ابداع في مختلف الميادين •

التحديات التي تواجه القومية العربية وتجابه وحدة الوطن العربي في المجتمع العربي المعاصر

تواجه القومية العربية تحديات تقف في سبيلها لتحول دون تحقيق رسالتها التاريخية ، وهذه التحديات على نوعين : تحديات من الخارج وتحديات من الداخل .

أ = التحديات من الخارج

ان من اهم هذه التحديات الاستعمار متمثلا بالاحتلال الاجنبي ؛ والصهيونية بخلق مشكلة فلسطين ، والمصالح الاجنبية في الوطن العربي وأهمها مشكلة البترول العربي

الاستعمار — . — لقد تعرضت البلاد العربية خلال فترات متعددة من تاريخها الطويل الى الاحتلال الاجنبي . ولعل أهم هذا الاحتلال هو الغزو الصليبي للشرق العربي . وهو من وجهة النظر العربية حركة استعمارية لبست مسوح الدين واتخذت شعار الصليب للاعتداء على الشرق العربي — الاسلامي . ولا شك في ان هذا الغزو الصليبي يعتبر فاتحة لحملات استعمارية اوربية أخذت تتوالى بين حين وآخر على العالم العربي .. فلم تجند الجنود الصليبية لنشر الدين او خلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين الذين يجلون ويحترمون ويحمون هذا البيت ولكنها أتت الى بلادنا لتحتلها وتتخذها مستغلا لها وتستعمرها وتذل اعناق أهلها .

وقد افادت هذه الجموع الصليبية من ضعف الخلافة العباسية وسيطرة الاتراك السلاجقة عليها جهة ، ومن ضعف الخلافة الفاطمية في مصر والشام ،وكونت بعد الغزو امارات صليبية في الرها وانطاكية، وطرابلس وبيت المقدس ، وبقيت هذه الامارات تتحدى المسلمين الى ان جمعوا قواهم ونظموا صفوفهم واخذوا ينتزعون هذه الامارات واحدة بعد أخرى و انتصروا على الصليبيين واخرجوهم من بلادهم وقضوا على العدوان الاجنبي .

وما اوشك العرب على الانتهاء من الحروب الصليبية في الشرق العربي حتى بدأت جحافل المغول تزحف بزعامة هولاكو وتقضي على الدولة العباسية في بغداد ؛ وهذا ما هللت له اوربة الصليبية . ثم والت جيوش هلاكو زحفها لفتح الشام واستولت عليها وأخذت تستعد لغزو مصر . ولكن وحدة مصر والشام كانت سببا قويا في وحدة الجيوش الاسلامية والنصر المؤزر على المغول في عين جالوت عام ١٢٦٠ م ، واستطاعت القوى الاسلامية بعد ذلك ان تحبط الغزو الصليبي والمغولي والتحالف بين المغول والفرنجة ضد العرب والمسلمين .

ثم عاد المغول الى ديار الشام بقيادة تيمورلنك في العام ١٤٠١ يعملون فيها السلب والنهب والتخريب ثم قفل تيمورلنك راجعا لمحاربة الصين وهلك في الطريق عام ١٤٠٥ م فعادت البلاد العربية الى أهلها ، وقد بدا في افق الوطن العربي والعالم الاسلامي دولة فتية جديدة وهي الدولة العثمانية .

ولم يقتصر الغزو الصليبي على بلاد الشرق وحده بل امتد الى البلاد العربية في افريقية ، وقد بدأ من قبل بحرب المسلمين في اسبانيا التي عرفت باسم حرب الاسترداد ، التي يقصد منها استعادة اسبانيا من أيـدي المسلمين • واتجهت انظار الفرنسيين بعد حملـة لويس التاسع (القديس لويس) الفاشلة عـلى تونس عـام ١٢٧٠ م للاستيلاء على المغرب واخضاعه• وقد استطاع الاسبانيون ان يجلوا العرب من اسبانيا وان يفيدوا من الحروب المتواصلة بين أمـراء المغرب ويشيدوا على سواحله الحصون لتكون منطلقا لعدوانهم على البلاد •

وكان الاتراك العثمانيون في هذه الآونة يوالون سيطرتهم على شرقي اوربة وبسط نفوذهم عـلى بلاد الشرق العربي والشمال الافريقي من مصر حتى المغرب العربي باستثناء مراكش • ونشأ اتصال بين دويلات المغرب والدولة العثمانية لصد الغرب الصليبي من الاسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنـا في مالطـة •

ومنذ القرن السادس عشر اخذت اوربة تتوسع في البلاد الجديدة بعد اكتشاف امريكا وطريق الهند وبدأ الاستعمـار الاوربي الحديث يحتل البلاد المتخلفة ويسيطر عليها لتكون له مستغلا ومنفـذا وعونا بالمواد الاولية والسلع الغذائية والتجارية التي لا تنتجها اوربة • وقد قويت هذه النزعة الاستعمارية بقيام الثورة الصناعية الحديثة منذ اواخر القرن الثامن عشر فولدت بدورها اطماعا لامتلاك الخامات الضرورية للصناعـات الاوربية وتوطين المستعمرين واستثمار رؤوس الاموال وما ترتب على ذلك من تنافس بـين الدول المستعمرة وخاصة فرنسا وانكلترا و حماية للبلاد المستعمرة من طغيان الدول المستعمرة الاخـرى عليها • وهكذا كانت تحشد الجيوش وتعقـد معاهدات الحماية والتحالف والـدفاع المشترك والاحلاف العسكرية للدفاع عن مناطق النفوذ ضد أي عدوان او تنافس • ولا ريب في ان الدول الاستعمارية قـد انتهزت فرصة ضعف الامبراطورية العثمانية منذ القرن الثامن عشر وطمعت في تقطيع أوصال ممتلكاتهـا تدريجيا • وقد تم ذلك في غضون القرن التاسع عشر وفي الربع الاول من القرن العشرين باحتلال البلاد العربية بلدا بلدا كما رأينا منوعة هذا الاحتلال ما بين استعمار كما في الجزائر ، او حماية ، كمـا في تونس ، او انتداب كما في سورية ولبنان • ومهما اختلفت الاسماء والمسميات فالاهداف الاستعماريـة واحدة والاساليب مختلفة لان الاستعمار يبرر كل شيء ليستطيع البقاء ما امكنه في المناطق التي احتلهـا فمن هذه الاساليب نذكر ما يلي :

١ ــ السيطرة على البلاد سيطرة تامة وربط كـل شيء بممثليـه مندوبين مفوضين ، أو حكـام عسكريين ، او مقيمين دائمين ، او مفوضين ساميين •

٢ ــ كم الافـواه بمنع الصحف الوطنية من الانتقـاد والهجـوم علـى المستعمرين ، وتهديدهـا بالاغـلاق •

٣ ــ تشويه التاريخ العربي وتشبيط همم ابنـاء العرب امام تيار الغرب الجارف وحضارته البراقة •

٤ ــ مكافحة التعليم القومي وتقييده ومحاربـة تعليم اللغـة العربية وتعليم القرآن الكريم حارس هذه اللغـة ومرجعها الذي ترجع اليـه دوما وابدا •

٥ ــ تشجيع النزعات الانفصالية وتقوية النعرة الطائفية بمـا يخدم اغراض الاستعمـار •

٦ ــ استثمار خيرات البلاد ونهب كنوزها وآثارها لخزائنـه وبلاده •

٧ ــ جعل البلاد في حالـة تبعية مستديمة واقامة نفسه وصيا عليها وعلى أهلها ومعاملتهم معاملـة القاصرين •

٨ ــ تبرير الاحتلال بنشر الحضارة الاوربية وتأدية الرسالة القومية التي يحملها الانسان المستعمـر حيال ابناء الشعوب المتخلفـة •

٩ ــ حل المشاكل الاوربية على حساب ابناء البلاد المحتلة كما فعلت فرنسا في سلخ لواء الاسكندرونة عن سـورية ، وانكلترا وامريكا في تقديم فلسطين هديـة للصهاينـة •

الى غير ذلك من أساليب جائرة لا يقرها عدل أو قانـون •

ولكن نهضـة العرب الحديثة بما ولدته في نفوسهم من تطلع نحو الحيـاة الحرة الكريمة جعلتهم يجمعون قواهم ويكافحون الاستعمار لطرده من بلادهم والعودة الى ذاتهم القومية • وقـد استطاعت أكثر البلاد العربية بعد كفاح مرير ان تحرر من نير الاستعمار وتكون دولا مستقلـة وما زالت بعض البلاد العربية في اطراف شبه الجزيرة العربية كالجنوب العربي وعمـان والبحرين وغيرهـا من الامارات العربيـة خاضعة للنفوذ البريطاني ، تقارعه كل يوم بما لديهـا من قوة معتمدة على تأييد اخواتهـا العربيات المستقلة وسيأتي اليوم الذي تتحرر فيه هذه البلاد العربية من كل نفوذ استعماري واحتـلال أجنبـي •

وصفوة القول ان الاستعمار تحدى البلاد العربية ، ولكن العرب قبلوا التحدي وقاموا يكافحون لتحقيق ذاتهم القوميـة وشخصيتهم العربية •

الصهيونية ومشكلة فلسطين : الصهيونية حركـة حديثة يرجع عهدها الى منتصف القرن التاسع عشر• وقبل هذا الحين كانت عقيدة تعرب عن نفسها بعاطفة حنان وشوق الى « الوطن المفقود » ولا مرية في ان حركة القوميات التي اجتاحت شعوب أوربة كانت سببـا في تحويلها الى مذهب سياسي • يضاف الى ذلك ان اليهود يعتبرون انفسهم « شعب الله المختار » ويطالبون بحل مرضي لمشكلتهم • وقد شجعهم على المضي في هذا الاتجاه كره الناس لهم في اوربة واضطهادهم اياهم ، حتى ان اليهود يعتبرون انفسهم فئـة خاصة في البلاد التي تتسامح بوجودهم ولا يقبلون ان يندمجوا بحل ذاتهم في الجماعة القوميةالتي يقيمون بين ظهرانيها • وكان تجمعهم عظيما في اوربة الشرقيـة خاصة • وادى سوء التفاهم بينهم وبين الشعوب التي تعيش معهم الى اهمال السلطـات العامة أمرهم والى قيام حركات اضطهـاد وابادة ضدهم بصورة دورية بين حين وآخر • وكان اليهود الروس والرومانيون أول من تلقى ضربات هذه الحركات •

في العـام ١٨٨٢ اقترح الدكتور ليؤ بنسكـر Léo Pinsker اليهودي الروسي في كتابه « التحرر الذاتي » حـلا مزدوجا لمصائب شعبه فقال : « يجب ان يشعر اليهود بحقوقهم ولذا يجب القيام بعمل

تربوي وقومي كما يجب ن يعطى الى هؤلاء اليهود ارض خاصة ، أي وطن يجتمعون به ويلجأون اليه. »

وفي سنة ١٨٩٥ نشر الدكتور هرتزل Hertzel كتابه « الدولة اليهودية » . وكان لهذا الكتاب تأثير ملحوظ على نمو الصهيونية فيما بعد . فقد تنبأ بالوسائل الكفيلة بخلق وطن جديد لليهود وذلك بتشكيل هيئات مختلفة مالية تكلف بشراء الاراضي والقيام بنقل السكان اليهود اليها . ويعتبر هرتزل ، في هذا الاتجاه رائدا للصهيونية السياسية التي تهدف مباشرة الى الحصول على ميثاق دولي يعترف بحق المزاعم اليهودية وينظم الهجرة . وقد كتب هرتزل في هذا الشأن : « لا نريد ان نشعر بخدعة ولا نريدان تتسلل كمهربين ، بل نريد ان نشعر بأننا في وطننا الى الازل » .

ولاقت وجهة نظر هرتزل هذا نجاحا في مؤتمرات عدة عقدها زعماء الصهاينة . وأول هذه المؤتمرات عقد في مدينة بال Bâle في سويسرا عام ١٨٩٧ . وقد عرف هذا المؤتمر الصهيونية تعريفا أصبح فيما بعد مدرسيا وهو : « تنزع الصهيونية الى خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه الحق العام » .

وطبقا لهذه المبادىء قامت محادثات مع تركيا وانكلترا وتأسست هيئات مالية قوية . وطلب الدكتور هرتزل من تركيا ان يسمح بالهجرة الى فلسطين غير ان مساعيه باءت بالفشل . وأمام هذا الاخفاق قامت مفاوضات مع انكلترا للتنازل عن ارض من امبراطوريتها ، فقدمت انكلترا طورا وطورا قبرص التي لا تملكها، وشبه جزيرة سيناء التي لا تملكها ايضا ، وارض اوغاندا في افريقية الشرقية في منطقة اعالي النيل فرفضت كل هذه العروض .

وهكذا اخفقت الصهيونية السياسية . ولذا وجب تغيير الطريقة والبحث عن الوسائل العملية التي تكفل الوصول الى الهدف دون انتظار منح ميثاق شكلي . وتبنى الصهاينة سياسة فتح فلسطين ، وذلك بشراء الاراضي والهجرة الفردية المنظمة على مقياس واسع . وفكر الصهاينة ان بالمستطاع ، متى رسخت قدمهم بقوة في « الارض المقدسة » ان يسووا وضعهم ، وذلك بأن يطلبوا من الدول الاعتراف بالامر الواقع ، وان يحصلوا على هذا الاعتراف بعد ان يكونوا قد أمنوا في البدء أكثرية السكان وتملك الارض في فلسطين .

ونجحت هذه الخطة العملية من ١٩١٠ الى ١٩١٤ وكان لها نتائج هامة : فقد بلغ عدد اليهود المقيمين في فلسطين قبيل الحرب العامة الاولى ٥٥٫٠٠٠ نسمة تقريبا على سكان كان مجموعهم ٧٠٠٫٠٠٠ نسمة . وفي الحرب تبدلت الطريقة من جديد وفازت فكرة هرتزل وادت الى وعد بلفور .

ان السؤال الذي يرد على الخاطر هو التالي : لماذا اختار الصهاينة فلسطين ؟

ان الملاحظ في جميع مراحل الحركة الصهيونية هو اتفاق جميع المفكرين الصهاينة على توكيد « حقوق » شعبهم في فلسطين ، لان فلسطين ، حسب دعواهم يجب ان تكون لهم في الواقع وفي الحق . في الواقع لان اليهود لا يستطيعون الاقامة في مكان آخر ، لان البلاد الاخرى التي اقترحت عليهم اما مناوئة للصهيونية ، واما مثل اوغاندا ، متخلفة جدا وبعيدة . اما وضع فلسطين بالنسبة اليهم فيمكن ان يهيب بهم الى هجرة كبرى . لان « ارض صهيون » بالنسبة لليهود فكرة ثابتة أزلية . واذا وقع

ونقلوا الى مكان آخر ، فهذا يعني ارجاء المشكلة لا حلها ، لان فلسطين هي المنطقة الوحيدة على سطح الكرة الارضية التي يعتقد اليهود فيها أنها وطنهم حقاً . ففي فلسطين وفي فلسطين وحدها يستطيع الشعب اليهودي القيام بكل نشاطه ، وفي فلسطين وحدها تستطيع الحضارة العبرية ان تبلغ كامل نموها وازدهارها .

من السهل تقييم هذه الحجج المزعومة لانها ليست سوى توكيدات بعيدة عن كل حقيقة وبرهان . ولا مجال هنا للقول في حقوق العرب او اليهود في فلسطين ولكن الذي نريده هو بيان كيفية نمو الحركة الصهيونية في الواقع أثناء الحرب العالمية الاولى

وعد بلفور

لقد جرت عادة الدول الكبرى المحاربة، اثناء الحرب، ان تؤكد للشعوب المغلوبة على أمرها حقها في الحياة والحرية ، وانها تحارب في سبيل النصر وتحقيق مبدأ القوميات وتحرير الشعوب . وكان اليهود، أثناء الحرب العالمية الاولى كغيرهم من الشعوب يعملون لكسب قضيتهم القومية . وقد لعب الزعيمان الدكتور وايزمن وسكولوف في هذا الميدان دورا عظيما . وقد سبق لوايزمن ان اشتغل في بريطانيا العظمى وكان على اتصال بوزارة الخارجية البريطانية ، ولسكولوف ان كلف بمفاوضات مع الدول الحليفة الاخرى .

الاسباب المباشرة لوعد بلفور . — كان الدكتور وايزمن بولوني الاصل ، اشتغل أثناء الحرب استاذا للكيمياء في جامعة ما نشستر ، واستطاع ان يكشف بناء على طلب الحكومة البريطانية طريقة جديدة لصنع الخلون Aéetone الضروري في صناعة الحرب . وكانت بريطانيا العظمى بحاجة ماسة الى هذه المادة . وطلب وايزمن مقابل خدماته « ان تعمل بريطانيا شيئا لشعبه » . وهذا يعني بهذه المناسبة تسهيل توطين اليهود في فلسطين .

ومن جهة ثانية كان الحلفاء بحاجة لدعم اليهود الاقوياء في السياسة والمال وخاصة في الولايات المتحدة ، لانهم يستطيعون ان يساعدوا بأموالهم ويدفعوا بعض الدول المحايدة الى اتخاذ موقف ملائم للحلفاء . وكان اليهود يطالبون بفلسطين ، واستجابة لطلبهم وطلب وايزمن قامت الحكومة الانكليزية بمفاوضات مع وايزمن . وكان هذا العمل ، كما يقول لويد جورج بداية تعاون خرج منه وعد بلفور بعد دراسة طويلة . حتى انه قال : « وهكذا لم يساعدنا الدكتور وايزمن بفضل اكتشافه على كسب الحرب فحسب ، بل انه بدل بشكل دائم مصور العالم » .

ان النص الكامل لوعد بلفور هو الرسالة التي بعث بها اللورد بلفور أمين سر الدولة البريطانية في وزارة الخارجية الى اللورد روتشيلد . والمقطع الاساسي في هذه الرسالة هو ما يلي :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » .

والمتأمل في دراسة هذا النص يرى انه يتضمن تعهدات غامضة وقد ترك امر تحقيقها للظروف وللمستقبل بالرغم من التفسيرت الكثيرة التي قامت حوله . ومهما يكن من أمر هذا الوعد والنقاش الذي أثاره فان وجهة النظر البريطانية هي التي سادت لان صك الانتداب على فلسطين بعد الحرب العالمية

الاولى أيده وعد بلفور ووافقت عليه الدول الكبرى الحليفة والشريكة : فرنسا ، ايطاليا الولايات المتحدة • حتى ان البابا نفسه طمن سوكولوف بأنه « لا يرى أي عقبة ، من وجهة النظر الدينية ، لانشاء وطن يهودي في فلسطين ، لان الذي يهمه بالذات هو قضية الاماكن المقدسة ويحسن ان تسوى هذه القضية بتسوية خاصة » •

وفي ظل الانتداب البريطاني على فلسطين في فترة ما بين الحربين فتح باب الهجرة لليهود وتملك الاراضي • وقامت الحركات بين العرب واليهود في فلسطين • وفي الحرب العالمية الثانية افاد اليهود من اشتراكهم في الحرب مع الانكليز وتمكنوا من جمع الاسلحة والعتاد الحربي ودربوا شبابهم استعدادا للمعركة الفاصلة مع العرب كما استطاعوا بفضل قوتهم المالية ان يسيطروا على اجهزة السياسة في الولايات المتحدة الاميركية وان يحصلوا على تأييدها الكامل لقضيتهم في فلسطين • وكان مشروع التقسيم ، وانهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار ١٩٤٨ وتنفيذ مبدأ التقسيم بالقوة ورغما عن العرب والاعتراف بدولة اسرائيل • وكان جيش الانقاذ وتدخل البلاد العربية في حرب فلسطين والخيانة والاسلحة الفاسدة والهدنة التي ما زالت قائمة •

وهكذا نشأت دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي تهدده بالخطر في كل حين وتساعدها الدول المستعمرة الكبرى على حساب العرب وحقهم في بلادهم ، وترتب على قيام هذه الدولة على العدوان تشريد قرابة مليون عربي من اهليه لاجئين في البلاد العربية الاخرى ، و ٣٢٠٫٠٠٠ عربي داخل فلسطين المحتلة يحكمون بالقوانين الاستثنائية والاحكام العرفية ، ولا يعترف لهم بأي حق من حقوق الانسان ومقدساته • وهم من الوجهة القانونية يعتبرون مواطنين في دولة « اسرائيل » ولكنهم من الوجهة الواقعية في حال يرثى لها ولا يسمع لهم صوت ولا تجاب لهم شكوى • وفي الحقيقة ان الشعب في اسرائيل يتكون من ثلاث طبقات :

١ ــ طبقة الصهاينة الاشكناز وهم الذين اتوا من وسط اوربة وتولوا مقاليد الامور في اسرائيل •

٢ ــ طبقة اليهود الشرقيين وهم يتمتعون بحقوق اقل من حقوق اليهود الاشكناز ويعيشون في الغالب على التخوم الاسرائيلية العربية •

٣ ــ طبقة العرب الذين بقوا داخل اسرائيل ولم يغادروا فلسطين منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ •

والملاحظ لهذه الطبقات الاجتماعية يرى التمييز العنصري واضحا في هذه الدولة الغاصبة المحتلة • فالعرب فيها محرومون من الحقوق العامة أي حقوق الانسان التي تعتبر مقوما من مقومات شخصيته لما تضمنه للمواطن من حرية وحصانة لمسكنه وحقه في المرور والتنقل داخل أراضي الدولة والخروج منها • فالعرب في اسرائيل محرومون داخل المنطقة الواحدة من الانتقال من قراهم ، فقد وضع الصهاينة على مدخل المدن والقرى مراكز عسكرية وضابطة بوليسية للتفتيش • ولا يستطيع الفلاحون العرب الخروج منها الا بترخيص من الحاكم العسكري الذي قد لا يمنحه بحجة مقتضيات الامن •

هذا بالاضافة الى ان اسرائيل استولت على القسم الاعظم من اراضي العرب واستصدرت القوانين الاستثنائية التي تسلب الاقلية العربية الباقية اراضيها وممتلكاتها ومقوماتها الاقتصادية .

وهذه الاقلية العربية محرومة من مباشرة حقوقها السياسية . فهي غير ممثلة في الوزارة او اجهزة الحكم الرئيسية ومناصبها الكبرى . والعرب ممنوعون من انشاء أي حزب ينطق باسمهم ويدافع عن حقوقهم . وقانون العودة الصادر عام ١٩٥٠ وقانون الجنسية الصادر عام ١٩٥٢ يقضيان بحرمان العرب من حقوق المواطنين ووضع القيود على تجنسهم بينما تمنح الجنسية لاي يهودي تطأ قدمه اسرائيل دون قيد أو شرط .

وهذه التدابير الاعتباطية التي تتخذها اسرائيل تتناقض على خط مستقيم مع ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان والمبادىء التي قامت المنظمة العالمية من أجلها .

ويرتبط بقيام اسرائيل في فلسطين المحتلة تحويل مجرى نهر الاردن وهو مشروع صهيوني قديم لري الاراضي الواقعة في حوزة اسرائيل بما في ذلك صحراء النقب . ومهدت اسرائيل لتحقيق هذا المشروع بتجفيف بحيرة الحولة عام ١٩٥١ ضاربة عرض الحائط بأحكام اتفاقية الهدنة السورية الاسرائيلية (أيار ١٩٤٩) وتحويل مجرى نهر الاردن ينطوي على ازاحة الحدود الطبيعية القائمة بين اسرائيل من جهة والبلاد العربية المجاورة من جهة أخرى . وازاحة الحدود الطبيعية في حالة الحرب القائمة بين العرب واسرائيل تنطوي على خطر يهدد سلامة العرب وصيانة أمنهم . فضلا عن ان هذا التحويل يوفر لاسرائيل مكاسب اقتصادية ويساعد على الهجرة ويحيي منطقة النقب وزراعتها . وهذا ما يرمي اليه المشروع من أساسه . وفي احياء النقب احياء لميناء ايلات . كما يمكن هذا التحويل اسرائيل من زيادة الطاقة الكهربائية ودعم الاقتصاد الاسرائيلي واستقراره بالرغم من المقاطعة العربية ، وخروج اسرائيل من ضائقتها الاقتصادية الى التوسع الاقتصادي والعسكري فيما تبقى من فلسطين وفي البلاد العربية وخدمة الاهداف الصهيونية في التوسع من النيل الى الفرات . وهذا التحويل سيؤدي الى انخفاض منسوب مياه نهر الاردن انخفاضا كبيرا واضعاف الزراعة في الارض العربية . ومن المؤسف حقا ان نقول ان عملية الضخ من بحيرة طبريا الى القناة الاصطناعية للوصول بالمياه الى النقب قد تمت وسالت المياه .

وقد رد العرب على هذا التحدي بعقد مؤتمري القمة : الاول في القاهرة بين ١٣ — ١٦ كانون الثاني ١٩٦٤ وحضرته ١٣ دولة عربية ، والثاني في الاسكندرية عقد بتاريخ آب ١٩٦٤ ، واتخاذ مقررات مهمة وخطيرة ، وانشاء صندوق خاص وادارة في الجامعة العربية للاشراف على تنفيذ المشروع العربي لاستغلال روافد الاردن . وقد اعتمدت الجامعة العربية ستة ملايين وربع مليون جنيه لمواجهة النفقات الخاصة باعمال التحويل العربية للروافد . وقدر ان هذا التحويل يتطلب ثمانية عشر شهرا . وبوشرت اعمال الحفر ولما تنته بعد ليصار الى التحويل وتفيد من مياهه الاردن وسورية ولبنان في مشاريعها الانمائية .

غير أن عملية التحويل هذه قد تثير عمليات دفاعية عسكرية . ولذا لا يمكن مواجهة هذا الاحتمال

الا بوحدة في القيادة العسكرية ووحدة في التخطيط . كما عالج المؤتمرون موضوع شخصية فلسطين كشعب وارض وتنظيم سياسي ، وتنقية الجو العربي وايقاف الحملات المغرضة .

ويتعلق بقيام اسرائيل ايضا المقاطعة العربية لحماية مصالح الدول العربية المحاربة وسلامة أمنها . وقد اخذت هذه المقاطعة العربية شكلين :

١ ــ المقاطعة الشعبية : وكانت قبل قيام اسرائيل ويراد منها القضاء على الصناعة الصهيونية في فلسطين واغراضها الخفية البعيدة لاستغلال اسواق البلاد العربية والسيطرة عليها . ففي القرار الصادر في ٢ كانون الاول ١٩٤٥ عن مجلس جامعة الدول العربية يحظر دخول المنتجات اليهودية في البلاد العربية مع ترك الدول العربية حرة في اتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك . وفي القرار الصادر في دورة بلودان في حزيران ١٩٤٦ نظمت المقاطعة عن طريق لجان في فلسطين وكل دولة من دول الجامعة للاشتراك المحلي والاتصال بلجنة المقاطعة الدائمة بمقر الامانة العامة بالقاهرة .

وبدأت المقاطعة بيد انها لم تحقق اغراضها نتيجة عدم تنفيذ بعض الدول العربية لانشاء لجان المقاطعة المحلية او نتيجة عدم متابعة اللجنة الدائمة لمنع تصدير المواد الاولية العربية الى المصانع الصهيونية وتحريم استيراد منتجاتها ، بينما كان رأس المال الاسرائيلي يغزو الاسواق العربية مختفيا وراءجنسياتاجنبية او عن طريق المساهمة في شركات اجنبية .

٢ ــ المقاطعة الرسمية : لقد رأت الدول العربية ان المقاطعة الاقتصادية سلاح ماض يمكن استخدامه ضد الغزو الصهيوني . فاتخذ مجلس الجامعة العربية في أيار ١٩٥١ قرارا شاملا يقضي بانشاء مكاتب للمقاطعة في كل دولة عربية تعمل تحت اشراف مكتب رئيسي في دمشق لاحكام المقاطعة العربية لاسرائيل بوجهيها السلبي والايجابي بقصد القضاء على اقتصادياتها لا مجرد منع التعامل معها .

ولاشك في ان هذه المقاطعة كان لها دور سلبي وايجابي في مقاومة خطر اسرائيل وفرض الحصار عليها . ولكن مساعدات الدول الاستعمارية الكبرى التي ربطت مصالحها بمصالح اسرائيل من جهة وفتح خليج العقبة من جهة ثانية قد دفعت اسرائيل الى عقد صلات اقتصادية وثقافية وسياسية مع دول افريقية الناشئة وفك الحصار جزئيا من حولها ، وهذا ماخفف من تأثير المقاطعة العربية موقتا ، ولكنها مازالت ذات اهمية كبرى اذا احسن العرب تطبيقها وعرفوا كيف يستغلون عطف الدول على قضيتهم .

التعويضات الالمانية لاسرائيل : لقد اضطرت حكومة المانيا الاتحادية تحت ضغط الدول المحتلة لها ان تعقد في ١٠ ايلول ١٩٥٢ اتفاقية لدفع تعويضات لاسرائيل عن الاضرار التي الحقها الحكم النازي باليهود . وتقدر هذه التعويضات بـ ٣٤٥٠ مليون مارك ، يخص حكومة اسرائيل منها ٣ مليارات مارك . ويأخذ المؤتمر اليهودي العالمي ٤٥٠ مليون مارك تسدد على اقساط لمدة اثنى عشر عاما فاكثر او اقل حسب مقدرة الحكومة الالمانية وما تتلقاه من قروض او مساعدات تعينها على السداد . وقد خصصت هذه المبالغ لتدفع بشكل سلع او بضائع تتعاقد عليها اسرائيل عن طريق بعثتها التجارية في

كولونيا مع الموردين والشركات والمؤسسات الالمانية لتستخدم في توطين المهاجرين اليهود الالمان وغير الالمان في اسرائيل ، او في صناعة الحرب والاغراض العسكرية او الاهداف الاقتصادية العدوانية لبناء المستعمرات وتوسيعها .

أما حكومة النمسا فقد رفضت في البدء دفع أي تعويضات لاسرائيل ولكنها اضطرت تحت ضغط الحكومة الاميركية ووافقت على تخصيص ٣٠ مليون شلن تنفق لمدة خمس سنوات على أقساط ، في الاغراض المتعلقة بحرية العقيدة والعبادة لليهود النمسويين الذين هدمت مقابرهم ومعابدهم في العهد النازي او اقتناء الشعارات الضرورية لاداء الطقوس الدينية ، بعيدا عن عنصر المساعدة الخارجية لاسرائيل .

التعويضات الفردية : في ٢٩ حزيران ١٩٥٦ أقرت حكومة المانيا الاتحادية قانون التعويضات الفردية (المعدل في أول تموز ١٩٥٧) ، ويقضي بتعويض الافراد المتضررين من الحكم النازي او ورثتهم تعويضا شخصيا قدر اجمالا بمبلغ ٧٫٥ مليار مارك ، خصص منها ١٫٥ مليار مارك للافراد من اليهود . ولكن واقع الحال يدل على أن هذه التعويضات الفردية تؤول بطبيعة الحال الى اسرائيل لان الحكومة لم تأل جهدا في المطالبة بدفع جميع تعويضات الافراد اليهود اليها او لمؤسسة تخضع لاشرافهاالاستخدامها في الاغراض التي تريدها .

ولم تكتف اسرائيل بذلك بل انها توصلت في ٢٣ تشرين الاول ١٩٥٩ الى الاتفاق مع مؤسسة « غروب » الصناعية بشأن دفع تعويضات الى مسجوني معسكرات الاعتقال السابقة من اليهود الذين ارغموا على العمل بها أثناء الحرب العالمية الثانية . ومقدار هذه التعويضات ٥٠٠ مارك لكل سجين سابق وعلى ضوء هذا الاتفاق يمكن ان توالي اسرائيل وحلفاؤها من الجمعيات الماسونية والمنظمات السرية الضغط على بقية المؤسسات والشركات الالمانية لترغمها على عقد اتفاقات التعويضات الاستثنائية بعيدا عن أحكام القانون الالماني الذي يحكم مثل هذه العلاقة .

خطر التعويضات الالمانية على المصالح العربية : يلقي النفوذ الصهيوني في ألمانيا الغربية أنصارا ومؤيدين يدافعون عن عملية التعويضات وتوجيه التعويضات الفردية الى حكومة اسرائيل ، ويتحمسون لانشاء علاقات دبلوماسية بين ألمانيا الغربية واسرائيل اذا رغبت هذه الاخيرة ذلك ، كما يشجعون على استثمار رؤوس الاموال الالمانية في اسرائيل ،وترويج سندات القرض الاسرائيلي في المانيا وبيعها للافراد والبلديات منذ ان سمحت الحكومة الاسرائيلية للبنك الالماني بذلك . وهكذا يبدو ان السياسة الالمانية تعمل في تدعيم اسرائيل وتقويتها اقتصاديا وعسكريا . وقد أصبحت التعويضات الالمانية لاسرائيل سلاحا مشهرا في وجه المقاطعة العربية التي يراد الوقوف في سبيل تحقيق برامج اسرائيل العدوانية والتوسعية . ولا شك في ان السياسة الالمانية في دعم اسرائيل جزء لا يتجزأ من السياسة الغربية الرامية الى تقوية اسرائيل على حساب العرب لخلق التوازن بين قوتها الانتاجية والعسكرية وبين مجموع قوى الدول العربية عامة أي في جعل ثمانين مليونا من العرب مساوين لمليونين من الصهاينة . وقد ساهمت التعويضات الالمانية حتى اليوم في انشاء ما يزيد عن ١٣٤٦ مشروعا اقتصاديا اسرائيليا أهمها : مصانع

النسيج وصناعة المعادن وانشاء الموانيء بالاضافة الى المشروعات الاقتصادية الاخرى وعمليات النقل ثم تمويل انشاء اسطول تجاري مكون من ٤٨ سفينة حمولتها تصل مليون طن •

وبالرغم من احتجاج الدول العربية على هذا الوضع المتحيز لاسرائيل من قبل السلطات الالمانية ، فان حكومة المانيا الغربية ما زالت ماضية في سياسة دفع التعويضات وامدادها بالسلاح والعتاد •

وفي الحقيقة ان الدول العربية لم تأل جهدا في الدفاع عن فلسطين المحتلة بمختلف الطرق والوسائل لان القضية الفلسطينية لم تعد قضية عرب فلسطين وحدهم بل هي قضية القومية العربية، قضية العرب جميعا • وهم ليسوا أمام اسرائيل وحدها بل أمام الدول الاستعمارية الكبرى التي تساعدها وتحافظ على بقائها دولة غازية غاصبة محتلة • ومما لا شك فيه ان الخطر الصهيوني عظيم حاضرا ومستقبلا ، لان هذا الخطر يهدد الوجود العربي بكامله اذا لم تتخذ الحكومات العربية من الوسائل ما يكفل برد العدوان وارجاع الحق العربي السليب الى أهله ، واذا لم يع كل عربي ، على أي أرض عربية ان هذا التحدي الاسرائيلي ـ الاستعماري يهدده بالفناء والهلاك •

ب ـ التحديات من الداخل

الشعوبية : ان لفظ الشعوبية مشتق لغة من الشعب وجمعه شعوب . ومعناه الاصطلاحي انتصار فريق من الاعاجم ، وفي مقدمتهم الفرس للشعوب المغايرة للعرب . والشعوبيون هم انصار هذه النزعة . ومنهم المعتدلون ويأخذون بقاعدة المساواة بين الامم ولا فضل للعرب على غيرهم ، ومنهم المتطرفون وينزعون الى احتقار العرب ونقد عاداتهم واعتبارهم احط شأنا ممن سواهم .

وقد بدأت الشعوبية في أواخر العصر الاموي وقويت في العصر العباسي . وهذه الحركة ترمي من قبل بعض الشعوب لضرب السيادة العربية عن طريق الفكر والعقيدة فهي تتضمن صراعا ثقافيا ودينيا واسعا . ظهرت هذه الحركة في اطار الاسلام مفيدة منه وداعية الى مساواة الشعوب الاخرى بالعرب في الادارة والمجتمع ثم تكشفت عن أهدافها الحقيقية .

والقائلون بالشعوبية اناس ينتمون الى جنسيات مختلفة ونحل متنوعة وعقائد ومذاهب وعنصريات شتى متباينة واخلاط م ن الناس لا تجمعهم الا فكرة الكره للعرب والتنكر للاسلام . فالجنسية الشعوبية اذن جنسية أممية « وحركة الشعوبية هي تعبير عن حقد الشعوب الاخرى وخاصة الفرس ومحاولتها ضرب الكيان العربي وازالة سلطان العرب . وهي وثيقة الصلة بالزندقة لان هذه الحركة لم تكن الا محاولة لازالة القاعدة التي يستند اليها هذا السلطان وهو الاسلام خاصة وان مفهوم العروبة والاسلام كانا مترافدين في نظر الشعوب الاخرى . ولهذا اتجهت هجمات الشعوبية الى ماضي العرب والى كيانهم ودورهم الحضاري فاتهمتهم بالبداوة والانحطاط ، وطعنت في انسابهم وشككت بها ، وراحت تتهم الامة العربية في ذاتها فادعت انها ليس أمة واحدة . بل وهاجمت الاخلاق والسجايا والقيم العربية ، وسخروا من مقدسات العرب وحقوقها وشككوا بادعاء العرب بالتفوق ورموهم بالانحطاط والتأخر ، ورموا امجادهم بالتقليد والسرقة عن الغير حتى الانساب ، وهي اكثر ما تعلق به العرب وافتخروا ، لم تنج من حملة التشكيك والتشهير الاعجمية . ولقد كان الشعوبيون اعظم سند للثورات التي قامت ضد الدولة العربية مثل ثورة المختار ، وثورة عبد الرحمن بن الاشعث ويزيد بن المهلب ، وكان لهم أكبر الاثر في ثورات الخوارج » .

ان الشعب العربي يجتاز مرحلة خطيرة من مراحل نموه تكتنفه الصعوبات من كل جانب ويريد ان يبني حياته وينعم بها كما تنعم سائر الشعوب الحرة المستقلة . ولكنه يعاني كثيرا من الحركات التي يمكن ان تعتبر من رسوبات الشعوبية القديمة فضلا عما يغذيها من اتجاهات فكرية جديدة تهدف الى بث المفاهيم السامة في عقل الناشئة العربية لبلبلة الرأي والتنكر للعروبة وحق العرب في الحرية والوحدة والرقي .

لقد ظلت بلادنا العربية تحكم بالعناصر الاجنبية فترة لا تقل عن الف عام ونيف أشاعت خلالها الانحلال والفساد والفوضى وحاربت كل ما هو عربي ، وقاومت كل تطلع قومي الى التقدم والتطور • ولقد كان الحكم التركي والاستعماري في البلاد العربية آخر عهود الاحتلال الاجنبي • وعندما هبت نسمات الحرية والقومية على البلاد العربية قاوم الطورانيون من رجال الترك مطاليب العرب المشروعة وقابلوها بسياسة التتريك التي يراد منها القضاء على الروح العربية ومسخها ، وعلى كل حركة عربية تحريرية تهدف لتحرير الشعب العربي • حتى ان غلاة الشعوبيين الطورانيين كانوا يطالبون بصراحة تطهير اللسان التركي من الالفاظ العربية بل وتتريك الدين الاسلامي • ولم يقف ابناء العروبة مكتوفي الايدي أمام هذه الحركة الشعوبية الجديدة وهي « حركة التتريك » ، بل انهم قاموا يدافعون عن كيان امتهم العربية كما هو معلوم ، وادت بهم الحال أخيرا الى الانفصال عن الامبراطورية العثمانية • واليوم وقد تحرر القسم الاكبر من البلاد العربية من نير الاستعمار يحاول دعاة الشعوبية من العملاء المأجورين الوطنيين ان يحققوا مآربها في الوطن العربي • ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء الشعوبيين مهما حاولوا الدفاع عن انفسهم ، ومهما ادعوا بأن ما يفعلونه انما هو خدمة للعرب والعروبة ، فهذا لا يرفع عنهم مطلقا صفة الائتمار بأمر دولة او دول أجنبية •

وصفوة القول ان الشعوبية القديمة ، والشعوبية الحديثة تلتقيان على صعيد واحد وليست الثانية سوى امتداد للاولى تنهج نهجها في مهاجمة القومية العربية الصاعدة وتزييف التاريخ العربي وتشويهه ورمي العرب بالتأخر والانحطاط والعداء لكل ما هو عربي بغية تمزيق الكيان العربي بعد ان قوي وأخذ يحاول تبوأ مكانه بين الامم الناهضة •

ونعتقد أخيرا ان للشعب العربي من ماضيه وحاضره وتكامل وعيه ما يجعله يقف موقف الحذر من دعاة الشعوبية وعناصرها الهدامة والدفاع عن سلامته امام كل هجوم يشنّ عليه •

الاقليمية : ان الاستعمار الذي انشب أظفاره في البلاد العربية وعزلها بعضها عن بعض هو المسؤول الاول عن هذه النعرة بكل ما ترتب عليها من نتائج • وفي الحقيقة لقد نكبت البلاد العربية بالاستعمار وتجزئة الاستعمار وتنوع الاستعمار بين انكليزي وفرنسي ايطالي واسباني في ظروف تاريخية مختلفة • غير ان الوعي القومي الذي نما بنمو الثقافة بالبلاد العربية اخذ يقاوم الاستعمار • ولكن الظروف التي فرضها هذا الاستعمار على البلاد العربية جعل كل واحد منها يكافح الدولة المستعمرة المتسلطة عليه بقواه الخاصة • وادى النضال الاقليمي الى الاستقلال واجلاء الاحتلال الاجنبي • وهكذا تكونت في البلاد العربية المستقلة دول جديدة متعددة • ونشأ عن هذا الكيان العربي المستقل نزوع الى المحافظة عليه والولاء له • وهذا التمسك بالاطار الاقليمي واستقلاله والحفاظ عليه وعدم الاندماج في بوتقة الوحدة العربية هو ما يطلق عليه اليوم اسم « الاقليمية » ولا شك في ان هذا الاستقلال الذي حققته البلاد العربية المستقلة حديثا قد أوجد ظروفا جديدة ارتبطت بها مصالح أحزاب وزعماء وحكام وسياسيين ومنافع اقتصادية خاصة • وهذه الجهات المعنية تقاوم فكرة الوحدة خشية ضياع مصالحها القائمة • واذا أضفنا الى هذه العوامل الداخلية الجهود الدائمة التي يبذلها الاستعمار لتفريق ابناء

العرب وبقائهم على ما هم عليه من تجزئة سياسية امكننا ان ندرك مدى مخلفات الاستعمار ورسوباته في النفوس والافئدة والافكار ولعل العبرة في وحـدة سورية ومصر خير مثال على ذلك •

ولكن هل هذا يعني ان العرب يجب ان يبقوا متفرقين منعزلين ضمن حدودهم السياسية المصطنعة ، بل وفي هذه « الاقامة الجبرية » التي فرضها الاستعمار وظلت بعد ذهابه ؟ لا شك ان ازالة هذه النعرة الاقليمية يحتاج الى أناة وصبر وكفاح لان الرجعية العربية تحاول الحفاظ على مصالحها ضمن اطارهـا الاقليمي علما منها ان كل تبدل في الوضع القائم يقضي على مصالحها • ولكن تيار الوحـدة الجارف والواعي لمقدرات البلاد العربية يجب ان تهيأ له الاسباب الكفيلة لاداء وظيفته في هدم الحدود الفاصلة بين هذه البلاد • وهـذا الامر ولا شك منوط بالسادة العرب من ملوك وؤساء وامراء فعلى عاتقهم يقـع العبء الاكبر في تنظيم هذه الحركة الوحدوية وتذليل العقبات التي تقف في سبيلها عن طريق الاتصال الشخصي بالرجالات العرب والسير قدما في تحقيق هذه الوحدة على مراحل بعد ان ثبت ان الاستعجال أصيب بنكسة ورد فعل • وفي رأينا يجب ان يبدأ بالوحدة الثقافية والاقتصادية وكل ما من شأنـه ان يقرب بين أبنـاء العرب وبين افكارهم على صعيد الوحدة القومية • فاذا تم لهم ذلك كـانت الوحدة السياسية تتويجا لجهودهم وتتيجة حتمية لها غير قابلـة للنقض •

الطائفيـة : لقد انتشرت في البلاد العربية بحكم ظروفها التاريخية العريقة والمديدة أديـان ومذاهب شتى الف معتنقوها ومن تبعهم طوائف خاصة عرفت باسم الطوائف الدينية • وليست الطائفية الا لونـا من الوان «الاقليمية» التي اتينا على ذكرها • فهي ترمي الى وحدة الطائفة وعزلها وتنظيمها والدفـاع عن مصالحها• ولقد كان بالامكان ان تبقى الطائفية اذا كان منها السهر على مصالح الطائفة الدينية لان حريـة الاعتقاد حق لكل مواطن ، والدين لله والوطن للجميع • ولكـن حب الزعامة عند بعض رجـال الدين والدفاع عن مصالحهم الشخصية في سبيل بقـاء هذه الزعامة مع جميع العقد النفسية التي ترتبط بها والمنافع الدولية التي تعلقت عليها جعلت النزعة الطائفية خطرا على الكيان الوطني والقومي • ولا يخفى ان النزعة الطائفية زادت تعقيدا بتأثير البعثات التبشيرية في البلاد العربية وبنشاطها وبما قامت بـه في أكثر الاحيان من دعايات وأعمال في سبيل أهوائها الدينية المغرضة • فهي لم تفرق في البلاد العربية المسيحي عن المسلم فحسب بل فرقت بين المسيحي الارثوذكسي والمسيحي الكـاثوليكي • وقد ارتبطـت مصالح هذه البعثات التبشيرية بمصالح الدول الكبرى التي اغدقت عليها الهبات والمساعدات • هذا فضلا عن ان تلك الدول كانت تزعم نفسها حامية للطوائف الدينية في عهد الامبراطورية العثمانية وتطالب الحكومة التركية بمنحها الامتيازات التي عرفت باسم « الامتيازات الاجنبية » ومنهـا « الامتيازات الدينيـة » • واذا كان من هذه الامتيازات رفع ضيم مزعوم عن بعض الفئات فان خطرها مع الزمن اصبح عميقا وعريقا • ولا نكران في ان عهد الاستعمار في البلاد العربية كان منشطا لهذه النزعات الطائفية التي مازال اثرهـا باقيا الى اليوم وان كانت في بعض البلاد العربية اضعف منها في الاخرى • ولا نعتقد الا ان خـطر الطائفية في الوطن العربي الصغير شبيه بخطر التجزئة السياسية في الوطن العربي الكبير • كلاهما يرمي الى العزلة والمحافظة والرجعية ويتحدى وحدة القطر بل ووحـدة البلاد العربية • ولسنا نريد بهذا ان

تقول للناس في دنيا العرب تجردوا من عاطفتكم الدينية وقيمكم الروحية بل تقول ان المبالغة والتعصب وبث روح التفرقة بين ابناء العرب عن طريق الدين أمور غير محمودة ولا تخلو من خطر يهدد الوطن العربي في كيانه وانه من الخير للعرب ان يترفعوا عن كل نزعة طائفية عمياء ، وان ينظروا لبعضهم اخوانا • ونحن على يقين من ان الوعي الثقافي في البلاد العربية سيقرب وجهات النظر بين أبناء العروبة مهما اختلفت اديانهم ومذاهبهم ، ويقضي على كل تعصب طائفي يضر بالوطن العربي والوحدة العربية• ان المتعصب مهما كانت درجة ثقافته أعمى ولو كان بصيرا ، اناني ولو ادعى الغيرية ، مفسد ولو نادى بالاصلاح • والمواطن الصالح غير متعصب واناني ومفسد • انه انسان خير يريد الخير لنفسه ولبني قومه• وهو في عمله هذا يرد كل تحد يتأنى عن طريق الطائفية الضيقة وانحرافها الكريه •

الاسس النظرية والعملية لقيام الدولة العربية الواحدة

١ ــ الاسس النظريــة : ان قيــام الدولة العربية الواحدة يجب ان يقوم في رأينا على الاسس التالية :

١ ــ ان تتم الوحدة السياسية بين الاقطار العربية بطريق سلمي

٢ ــ ان تتم هــذه الوحدة العربية على مراحل .

٣ ــ ان تكون الوحدة السياسية بين الاقطار العربية هي الغاية النهائية والتتويج لكــل جهد يبذل في هــذا السبيل .

الطابع السلمي للوحدة العربيــة :

يجب ان تقوم الوحدة السياسية بين البلاد العربية على الاسس الثلاثة الآتيــة :

أولا : ان يكون الاختيــار الحر المستقل طريق أي شعب من الامة العربية الى الوحدة .

ثانيــا : ان يكون هذا الشعب قد استكمل مقومات وحدته الوطنية داخل حدوده القائمة قبل ان يدخل في ارتباط اوسع مدى من هذه الحدود .

ثالثــا : ان يكون هذا الشعب قد عقد اجماعه على طلب الوحدة وتثبت من يقينه رغبة فيها . وهذا يعني استبعاد القــوة كوسيلة للوحدة السياسية وذلك لعــدة أسباب :

أ) لاننا لا نقبل ان تفرض الوحدة فرضا وبالقــوة ولاننا لا نريد ان يقاتل العربي أخــاه العربي لاي سبب من الاسباب .

ب) لان القوة ترغم جماعة معينة على اعتناق فكــرة لا يرضون عنها ، على حين ان الوحدة مطلب عربي جماهيري . واذا تأخر تحقيقها فهذا لا يعني ان العرب في الاقطار العربية لا يريدونها ، بل ان ثمة عقبات موقتة لا بد من تذليلها والزمن كفيل بحلها .

ج) لان استخدام القوة يمكن ان يؤدي الى تدخل الدول الكبرى بصورة أو بأخرى وفي ذلك ما يؤدي الى الاضرار بالقضية العربية .

د ــ لاننا نريد وحــدة سياسية قوية تستطيع ان تجابه ما يحيط بها من مؤامرات . ولن يتحقق ذلك اذا كانت القــوة سبيل الوحدة .

واستبعاد القوة كوسيلة لتحقيق الوحدة السياسية انما يقتصر على العلاقة بين الدول العربية فيمــا بينها : فكل شعب من الشعوب العربية المكونة للجماعة العربية حــر في اختيار طريقه في الحيــاة وفق ظروفه الداخلية. والدول العربية المستقلة مرتبطة بمقتضى ميثاق جامعة الدول العربية ومعاهدة الدفاع المشترك. وكل من الميثاق والمعاهدة يعتبر حــدا أدنى للتعاون السياسي بين الدول العربية . فاذا شاءت أي دولة

من الدول العربية ان تتعاون مع شقيقاتها في زيادة قدر هذا التعاون فلها أن تفعل ذلك بارادتها الخالصة ودون أي ضغط حتى تكون الوحدة وسيلة قـوة لا وسيلـة ضعف

أما اذا تدخلت دولة أجنبية للحيلولة بين دولة عربية وبين تحقيق ارادتها في الانضمام الى دولة عربية اخرى في اي صورة من صور الوحدة السياسية فان لباقي الجماعة العربية ان تلجأ الى كافة الوسائل . بما فيها القوة ، لتمكين تلك الدولة العربية من تحقيق رغبتها .

كما ان لكل دولة ان تلجأ الى اي وسيلة تشاء في سبيل تحقيق وحدتها الداخلية . وقد يبرر بعض النظريين العرب قيام الشعوب العربية على حكامها ، اذا كانوا لايتجاوبون مع رغبات شعوبهم ، والتخلص منهم بكافة الوسائل سلمية كانت ام غير سلمية . ومن المعلوم ان تحقيق الوحدة العربية يلقي باعباءهذه الوحدة على الشعوب العربية فاذا كان الحكام العرب يناهضون الوحدة او يضعون العراقيل في سبيلها فان من حق شعوبهم اللجوء الى العنف .

بيد ان سلوك الطريق السلمي في تحقيق الوحدة السياسية يستلزم اولا تهيئة الظروف الداخلية لكل شعب من الشعوب العربية لكي يعبر كل منها عن ارادته بحرية .وهذا يتيسر بشرطين :

الاول : ان يتحقق لكل دولة عربية الاستقلال الكامل التام الناجز لتقول كلمتها بحرية . ومقاومـة الاستعمار تبدو في البدء حتمية للتخلص من سيطرته ، ولتطبيق الوسيلـة السلمية في تنفيذ الوحـدة السياسية . ولذا فالدول العربية المستقلة ملزمة بمساندة الاقاليم العربية غير المستقلة في سبيل استكمال مقومات استقلالها .

الثـاني : ان تتـاح لكل شعب عربي مستقل حريـة التعبير عن ارادته داخليا لان الاستقلال وحده لا يكفي ، بل يجب ان تلتقي ارادة الشعب وارادة الحكام ، مما يتطلب التـزام الطرق الديمقراطية في الحكم ، ونزول الحكام على رغبات المحكومين لا العكس . وهذه المهمـة دقيقـة وملقاة عـلى عاتق الشعوب العربية ، وقد تتطلب الالتجاء الى القوة .

هذا وان عقد قبول أي وحدة سياسية مع أي شعب عربي آخر يجب ان يكون على الاجمـاع أي رغبة الاكثرية الساحقة ، لان الاجماع بمعناه الحرفي يستحيل تحقيقه عمليا ، اذا اريد له ان يشمل كـل من يحملون جنسية الدولة . واقصى ما يمكن ان يقال في هذا الصدد هو انه لا يكفي ان تتوافر اغلبية ضئيلة تريدالوحدة السياسية ،بل يجب انتكونتلك الاغلبية من الضخامة والكثرة بحيث تعتبر الاقليـة المعارضة بجوارها في حكم العدم .

واجماع الشعب على طلب الوحدة السياسية يتضمن مأرين :

الاول : انـه يرغب في نبـذ فكرة الاستقلال السياسي في مواجهة الدولة العربية التي يريـد ان يتحـد معهـا .

الثـاني : ان يحدد مدى الاندماج بين الدولتين ونوع الوحدة السياسية التي يرغب فيها .

واذا كان الامر الاول متروكا لكل شعب على حدة فان الامر الثاني لا بد وان يكون موضع اتفاق بين الشعبين معا .

ولكن بأي الامرين يبدأ : الوحدة أم الاتحاد ؟ ان رغبة الدولتين في أي من الامرين هي التي يجب ان يعمل بها ما دام الاندماج برضى الدولتين .

الطابع المرحلي للوحدة العربية : لقد رأينا ان الوحدة العربية الشاملة تلقى في طريقها عقبات مختلفة لا بد من تذليلها قبل ان تتحقق الوحدة ، لان قيام الوحدة السياسية بوسيلة او باخرى مع بقاء تلك العقبات او بعضها ، معناه تعقيد الامور اكثر من محاولة حلها . ومن الملحوظ ان هذه العقبات لاتتوافر بدرجة واحدة في كافة البلاد العربية ولذا فان بعض هذه البلاد يكون اكثر استعدادا لمقتضيات الوحدة من غيره . والمنطق يقضي بان تتم الوحدة على مراحل بين الاقطار التي تهيء لها ظروفها سبيل قيام هذه الوحدة . وان كل وحدة او اتحاد بين قطرين عربيين او اكثر من شأنه ان يقرب يوم الوحدة السياسية الشاملة ، حتى ولو تحققت الوحدة او الاتحاد على يد العملاء لان مثل ذلك وان بدا فيه بعض الشر فان التطور كفيل بان يعيد الحق الى نصابه ويزيل الزيف لان الاتحاد خير من التفتت والتجزئة ، ولان هذا الاتحاد يعود على الوحدة والانتقال بها من خدمة الاستعمار الى خدمة المصلحة القومية .

وهنالك بعض الحقائق التي يجب ان تبقى ماثلة للعيان أمام ابناء العروبة من حكام ومحكومين وهي :

١ ــ الوحدة السياسية بين ابناء العرب خطوة الى الامام لا رجوعا الى الوراء ولقد قطع العرب شوطا في تحقيق الوحدة السياسية يتمثل في ميثاق الجامعة العربية ومعاهدة الدفاع المشترك . ولذا يجب ان تكون كل وحدة سياسية جزئية بين أقطار العروبة مكملة للخطوات التي سبقتها لا مضعفة لها .

٢ ــ ان كل وحدة سياسية جزئية يجب ان تكون سببا في تحقيق استقلال الاقطار العربية المتحدة في مواجهة الاستعمار ، لان الاساس الاول لتحقيق الوحدة السياسية هو التخلص من الاستعمار ، ولا ضمان لاستقلال البلاد العربية في مواجهة المستعمرين الا بمقاومة الاستعمار بكافة الوسائل .

٣ ــ يجب ان تتقيد كل وحدة سياسية جديدة في البلاد العربية بالمبادىء الواردة في ميثاق جامعة الدول العربية والتي تمثل الحد الادنى للتعاون العربي في المجال السياسي . وهذا القيد يتضمن امرين :

اولا : ان كل وحدة سياسية تنشأ في الوطن العربي يجب ان تعتبر مكملة لميثاق الجامعة العربية لان الحاجة الى هذا الميثاق ستظل قائمة حتى يرتبط العرب برباط سياسي اقوى واعم واشمل .

ثانيا : على الدول العربية الا تعترف او تحبذ اي وحدة سياسية بين قطرين عربيين فأكثر الا اذا قامت تلك الوحدة على الاساس السابق .

٤ ــ الوطن العربي كله وحدة جغرافية واحدة . وكل وحدة سياسية في نطاقه تعتبر خطوة نحو الوحدة السياسية الشاملة ، حتى ولو كانت هذه الوحدة بين اقطار غير متجاورة .

الوحدة السياسية الشاملة هدف اقصى : ان التقارب السياسي بين الدول العربية المكونة للمجتمع العربي يمكن ان يتجلى في ثلاث صور :

أ ـ الاتحاد الاستقلالي الذي يتجلى في ميثاق جامعة الدول العربية •

ب ـ الاتحاد الفدرالي (المركزي) •

جـ ـ الدولة البسيطة أي الوحدة السياسية الشاملة • وصورة الدولة البسيطة الموحدة هي اعلى درجات الوحدة السياسية •

ان الصورة الاولى وضع موقت املته ظروف معينة ولا يمكن ان يكون دائما ولذا فان ميثاق الجامعة سيظل قائما حتى يلتقي العرب في صورة اقوى من صور التوحيد السياسي • فأي من الصورتين يمكن ان يرجح لمجتمعنا العربي ؟ ان كلا من الصورتين الاتحاد الفدرالي والدولة البسيطة يمثل وضعا دائما • ولا شك في ان الغاية القصوى للعرب هي تحقيق الوحدة السياسية الشاملة ، أي تحقيق الدولة البسيطة ، ولكن ظروف مجتمعنا العربي تجعل صورة « الاتحاد المركزي » شبه ضرورة حتمية لا يشترط ان تظل دائمة لان تطور نظام الحكم في البلاد العربية سيؤدي للوحدة البسيطة في المستقبل • وان معظم البحوث التي تمت قد زكت « الاتحاد المركزي » للدولة العربية المزمع انشاؤها في المستقبل القريب •

ولكن النظام الفدرالي عليه بعض المآخذ :

أولا بالنسبة للسلطة القضائية : ينوع المحاكم بين مركزية واخرى تتبع الولايات وفي ذلك مصاعب واشكالات ومضايقات للافراد لا تنتهي • وتوحيد المحاكم ادنى الى تحقيق العدالة وسرعة ازالة الظلم •

ثانيا بالنسبة للسلطة التشريعية : يوجد نوعين من البرلمانات في الدولة : مركزي يشرع للدولة بأسرها وبرلمانات محلية في كل ولاية تتولى مهمة التشريع للولاية ويترتب على ذلك تعدد البرلمانات في الدولة الاتحادية ، وتعدد التشريعات • وفي ذلك كله تضارب اختصاصات وتعقيد اجراءات والخ••

وبعد فهل يحتاج وطننا العربي الى تعداد البرلمانات وتعدد التشريعات ؟ ان ظروفنا التاريخية والاجتماعية تقطع بعدم الحاجة الى ذلك لاسيما وان مصادر تشريعنا واحدة ومتقاربة •

ثالثا : بالنسبة الى السلطة التنفيذية : ان توزيع الاختصاصات بين الحكومة المركزية وبين الولايات يتسع له النظام السياسي القائم على بساطة الدولة لان اللامركزية الادارية تطبق في الدولة البسيطة كما تطبق في الدولة الاتحادية ، وهي من المرونة بحيث تستطيع ان تواجه كافة احتياجات الاقاليم المكونة للمجتمع العربي • ومن المسلم به ان الظروف المحلية لكل قطر عربي تستلزم ان يدير مرافقه المحلية بنفسه • وهكذا يقتصر دور الحكومة المركزية في العاصمة على التخطيط والاشراف العام ،

ويترك للمحافظات دور التنفيذ بحسب مواردها وظروفها • واللامركزية الادارية الواسعة هي التي تحتاج اليها اقاليم الدولة العربية الموحدة •

٢ ــ الخطـة العمليـة : ان الخطة العملية لا تنتقل الافكـار النظريـة الى حيز التنفيذ العملي ، مع استبعاد القوة وسيلة لتحقيق الوحدة السياسية ، تقتضي تضافر الجهود الحكومية والجهود الشعبية •

آ ــ الجهود الحكومية : وهذه الجهود عديدة وعلى الحكومات العربية ان تعمل على :

اولا ــ تقارب التشريعات بين الدول العربية • ان الظروف الداخلية في معظم البلاد العربية متشابهة كثيرا • والنتيجة المنطقية لهذا التشابه ، ان تتقارب التشريعات الرئيسية اذا لم تتوحد • ومما يسهل الامر تقارب الثقافات القانونية • وفائدة توحيد التشريع في البلاد العربية انها تسهل انتقال الاشخاص والاشياء وتقارب بين المواطنين العـرب وتحل كثيرا من المشاكل القائمة في الوقت الحاضر ، فضلا عن ابرازهـا لكياننا العربي في المحيط الدولي •

ثانيـا ــ تخفيف القيود الجمركية بين الدول العربية وازالتها نهائيا • ان الحواجز الجمركية المصطنعة التي اقامها الاستعمار بين أرجاء الوطن العربي قد ترتب عليها عرقلة الانتقال من قطر لآخر ، والتباعد بين أبناء الامة العربية ، عوضا عن ان يكون الوطن العربي وحدة متكاملة ومتكافلة في كافة الميادين • ويتم ذلك بابرام اتفاقات جمركية تسمح بازالة الكثير من القيود المفروضة • وقد نص على ذلك ميثاق الجامعة العربية • وقد قطعت الجامعة شوطا كبيرا في هذا الصدد ، ولم يبق الا ان تخرج الافكـار الى حيز التنفيذ • ومن الممكن ان يتم رفع الحواجز تدريجيا عـلى ان يكون الهدف النهـائي هـو التخلص من القيود الجمركية كلها •

ثالثـا ــ تقوية اواصر التعاون الاقتصادي بين الدول العربية • ان المجتمع العربي مجتمع متكامل من الناحية الاقتصادية • ولكن الاستعمار جزأه ووضع العراقيل في سبيل تعاونه الاقتصادي وما تزال آثـار الاستعمار ، بالرغم من الاستقلال ، ملموسة في هذا المجال • واذا كانت دول العالم اجمع تحبذ التعاون الاقتصادي فيما بينها فان الدول العربيـة أولى من غيرها باعتناق هذا المذهب • ومجال التعاون الاقتصادي بين الدول العربية رحب فسيح لاتكاد تدانيـه مجالات في دول أخرى • ولقـد أولى ميثاق الجامعة العربية هذا الموضوع عنايته وحث عليه • ومن المجالات التي يجب على العرب ان يتعاونوا فيها :

١) البتـرول : وذلك بتنسيق سياسة البترول بين دول الجامعة العربية •

ب) المواصلات بكافة انواعها • فالانتقال بين اقليم عربي وآخر ما يزال تعترضه بعض الصعوبات • فلا يوجد خط حديدي يربط بين أجزاء الوطن العربي ولذا : يجب أ) ان تربط الخطوط الحديديـة القائمة في الوطن العربي ببعضها ويمكن تحقيق ذلك على مراحل في الاقاليم المتجاورة •

ب) انشاء شركة طيران عربية تساهم فيها كـل الدوول العربية •

ج) وصل الطرق البرية ببعضها بشكل يبرز ترابط البلاد العربية •

د) انشاء شركـة ملاحة بحرية تساهم بها جميع الدول العربية بنسب يتفق عليها •

ج) التعاون في مجال العملة : العملات في البلاد العربية متعددة ولذا يجب العمل على توحيدها اما بالاتفاق على عملة واحدة في كافة الدول العربية • واذا ما تعذر ذلك لسبب او لآخر فيمكن اتباع اسس موحدة في العملة بحيث تكون مفهومة ومتقاربة في كافة ارجاء الوطن العربي • ويتصل بالعملة انشاء بنك مركزي عربي تساهم كل دولة عربية بنصيب في رأسماله ويمنح حق اصدار العملة العربية ويقوم بدور البنك المركزي بالنسبة الى البنوك المركزية في الدول العربية •

د) انشاء سوق عربية مشتركة • وهو مطلب عاجل لدفع خطر محدق بجميع الدول العربية المبعثرة مرجعه الى التكتلات الاوربية الاقتصادية في الصور التي نراها مثل « السوق الاوربية المشتركة » و « منطقة التجارة الحرة » •

رابعا : توحيد نظم التعليم والثقافة في الدول العربية • ومجال التعاون في هذا الصدد رحب فسيح • ونذكر على سبيل المثال :

١ ـ ان تلتزم الدول العربية نظاما موحدا في التعليم •

٢ ـ جعل اللغة العربية لغة العلم والتعليم في كافة المستويات •

٣ ـ وضع نظام لتبادل الاساتذة والمدرسين والطلاب •

٤ ـ التعاون في احياء التراث العربي القديم في العلوم والآداب وتطوير اللغة العربية لتستجيب لحاجات العصر •

٥ ـ تشجيع الفنون والآداب وتوجيهها لما تقتضيه مصلحة العروبة ويمكن في هذا الحقل تأليف شركات عربية من كافة الدول العربية للنهوض بصناعة السينما والمسرح والكتاب العربي • ولقد سبق لجامعة الدول العربية ان قامت بجهود محمودة في هذا السبيل وبقي على الحكومات العربية ان تقوم بالتنفيذ •

خامسا : التوسع في تطبيق قاعدة « المعاملة بالمثل » فيما يتعلق بمعاملة المواطنين العرب في الدول العربية المختلفة • فقد تعددت الجنسيات في الدول العربية • واول ما يجب عمله ان يميز بين من ينتمي الى دولة عربية عن الاجانب العاديين ، وان تتوسع الدول العربية في تمكين المواطنين العرب من التمتع بحقوق المواطنين المحليين تدريجيا وعلى أساس المعاملة بالمثل •

سادسا : اعمال النصوص المتعلقة بالتعاون السياسي • ولقد نص على هذا التعاون السياسي في ميثاق جامعة الدول العربية وفي معاهدة الدفاع المشترك • وهذا القدر البسيط من التعاون على ضآلته ، يمكن ان يحقق للعرب خيرا كثيرا لو نفذ بدقة وبحسن نية • وواجب الحكومات في هذا السبيل ان تعيد الحياة الى نصوص كادت ان تنسى بطول الاهمال •

ب ـ الجهود الشعبية : ان تحقيق الوحدة السياسية العربية يرجع أولا واخيرا الى شعوب الامة العربية • ولن يتحقق هذا بمجرد ابداء الرغبة او الهتاف بل يتطلب جهودا متواصلة وبذل تضحيات

غالية في الاموال والانفس تتناسب وضخامة الهدف . ومجال العمل الشعبي في هذا السبيل واسع وذلك في :

أولا : تكاتف الشعوب العربية في العمل من أجل الوحدة السياسية .

ثانيا : تكوين اجهزة شعبية في كل دولة عربية لمتابعة العمل من اجل تحقيق الوحدة السياسية الشاملة .

ثالثا : تضافر المفكرين العرب على تغذية الدعوة الى الوحدة السياسية .

رابعا : تسهيل تبادل الزيارات بين ارجاء الوطن العربي : بالغاء الجوازات وتأشيرات الدخول ، والاتفاق بين الجامعات على تبادل الزيارات بين الاساتذة والطلاب وانشاء نواد للشباب في كافة أرجاء الوطن العربي واستغلال الامكانيات السياحية ، وانشاء سفن سياحية ضخمة ، وتيسير السفر بالجو .

وبعد فان مجال التعاون والتقارب والتوحيد بين أقطار العروبة وابنائها رحب فسيح لا ينقصه الا العمل والتنفيذ والاخلاص لتحقيق الاهداف القومية العليا للمجتمع العربي الامثل . وما على العرب حكومات وشعوبا اذا كانوا يخلصون النية لتحقيق هذا المجتمع الا ان يعملوا جاهدين ومخلصين في هذا السبيل والله الموفق .

ان أهم مشكلة في عصرنا ، ولعل أكثرها حرجا وخطورة ، هي مشكلة الاقطار المتخلفة . ورغم ان أهمية مفهوم التخلف ، وهو ظاهرة حديثة نسبيا ، تبدو اليوم اساسية جدا ، فان هذا المفهوم لا يزال مع ذلك ذا تعريف ناقص ، فهو يشتمل قبل كل شيء على تخمين وعلى مقارنة ، بيد ان المعايير الاساسية تظل في أكثر الاحيان شديدة الغموض .

والواقع هو ان مفهوم التخلف لم ينل لدى غالبية الباحثين اكثر من تعاريف غامضة أو جزئية . وهكذا نقول ان القطر المتخلف لا يكون ذاك الذي لا يستفيد من مجموع موارده الطبيعية فحسب،لان هناك عددا من الاقطار الغنية ، كالولايات المتحدة مثلا ، التي تترك موارد كبيرة مهملة دون ان تعتبر قطرا متخلفا بسبب ذلك . كما ان الشروط التي تعيش فيها الاقطار المتخلفة حاليا ليست مماثلة للظروف التي كانت توجد قبيل « الثورة الصناعية » في الاصقاع التي تعتبر اليوم اقطارا راقية .

وعندما يعمد قطر ما الى وضع وتبني سياسة تطورية موضع التنفيذ فليس ذلك دائما عبارة عن دليل قاطع على وجود تخلف حقيقي فوق ارضه .

واخيرا لا يجوز ان نعتبر كل بؤس مرادفا للتخلف . فاذا كان الجوع والفقر من نصيب القسم الاعظم من سكان الاقطار المتخلفة [1] ، فان هاتين الظاهرتين ،رغم خطورتهما ، غير كافيتين لتعريف وتمييز التخلف . والواقع ان اعتبار هذه المعايير لوحدها يؤدي الى جعل التخلف بلا ريب حقيقة قديمة كقدم الانسانية . غير ان الاقطار المتخلفة ليست فقط عبارة عن اقطار عتيقة لم يتبدل فيها شيء منذ عدة قرون لان أكثر اعراض التخلف بروزا وخطورة بشكل عام هو التزايد الديموغرافي العظيم أو الثورة الديموغرافية التي هي من دون شك ظاهرة حديثة جدا ، اذن هناك أمر جديد طرأ على هذه الاقطار .

فالجوع والبؤس هما ــ مع الاسف ــ من اقدم ومن أكثر التوابع التي صاحبت الانسان لذا لا يمكن اعتبارهما كقاعدة وحيدة لتعريف مقبول بالنسبة لظاهرة معقدة وذات اصالة كالتخلف . اذن يتطلب الامر منا تعيين وتوضيح المحتوى الحقيقي لهذا المفهوم والتعرض لمجموع العناصر التي يتألف منها .

وعلى كل لقد تجادل العلماء كثيرا حول تعريف التخلف ورغم كل الاعتراضات التي قد يثيرها تعريف كهذا فان هناك عددا من القرائن يقبلها الجميع كاعراض للتخلف وهي : شدة التوالد ، نسبة عالية في الوفيات، سوء الصحة العامة ، نقص وسوء في التغذية ، استفحال الامية ، بطالة ظاهرة ومقنعة ، سوء وضع المرأة اجتماعيا ، غموض الوحدة الوطنية أو القومية .وعلى كل حال تضم الاقطار المتخلفة (١٩٠٠) مليون نسمة

---

(١) هناك عبارات مختلفة تشير الى الاقطار المتخلفة لدرجة قد تؤدي للالتباس بالامر . فيطلق عليها اسم الاقطار المتخلفة او المتطورة أو النامية ، أو العالم الثالث أو الامم الكادحة . أي انها عبارة عن أمم بكاملها تعمل لخدمة أمم اخرى أكثر رقيا وتقدما ، وهناك من يسميها الاقطار المتخلفة اقتصاديا وهذا غير صحيح لان التخلف شامل وكلي .

من اصل (٣) مليارات وهي مجموع سكان كوكبنا وقد اتخذت هذه الشعوب لنفسها شعارا يظهر في اروقة هيئة الامم المتحدة على الاقل تحت اسم الشعوب الآفروآسيوية مع شعوب امريكا اللاتينية •

صفات التخلف المميزة :

ان أكثر ملامح ظاهرة التخلف أهمية هي تعقيدها ، وتداخل اعراض التخلف الاجتماعية والاقتصادية ، وتأثيرها المتبادل المتشابك • وهذا التعقيد هو أحد الاسباب الرئيسية للمصاعب التي تعترض محاولات التطور التي لا تعالج سوى « الاوضاع الاجتماعية » التي تعتبر أكثر من غيرها خطورة •

ويستنتج من مختلف الاحصائيات والتخمينات ان الاقطار التي يمكن اعتبارها كمتخلفة تمثل تقريبا حوالي ثلاثة ارباع سكان العالم ، أي ان هذه الاقطار تشتمل على مناطق مختلفة جدا سواء من وجهة النظر الطبيعية أم من الناحية البشرية • وعلى كل فانه من المستطاع ، رغم هذا التنوع الكبير ، ان نلمس في أغلب الحالات ان هناك مجموعا متجانسا لاعراض كمية تختلف طبعا من حيث حدتها واستفحالها • ويظهر من دراستنا للوضع الاقتصادي والاجتماعي للكرة الارضية ، من مختلف مظاهره ، انه ليس هناك تقدم بطيء ومنتظم يقرب بين أكثر الامم فقرا وبين أكثرها غنى ويسارا بل هناك بالاحرى مجموعتان من الاقطار، منفصلتان بخندق عميق حقيقي أو بعبارة اخرى هناك هوة سحيقة تزداد عمقا وعرضا تفصل بين الاقطار الغنية وبين الاقطار الفقيرة كما قال « يوثانت » الامين العام لهيئة الامم المتحدة ، أو ان العالم لا ينقسم الى كتلة شرقية وكتلة غربية ، بل هناك كتلة الاقطار الغنية وتضم اقطار اوروبا الغربية وامريكا الانكلوسكسونية واستراليا ونيوزيلندا ودول اوروبا الشرقية وهناك كتلة الاقطار الفقيرة وتضم بقية سكان الارض• وهذا رأي جريء صرح به رئيس وزراء الهند السابق جواهر لال نهرو •

والحالات المتوسطة نادرة • فاذا كانت بعض الاقطار تحوى على بعض الصفات الخاصة بالاقطار الغنية الراقية فان أكثر مظاهرها ومشاكلها أهمية تنتسب الى مثيلاتها في الاقطار المتخلفة • وهذه الاقطار التي تسمى أحيانا « نصف متطورة » وهي : فنزويلا ، الارجنتين ، اتحاد جنوب افريقيا ، اليابان ، ايطاليا ، الكويت وقطر والبحرين • فهذه الاقطار تؤلف مجموعة حاوية على مميزات متشابهة نوعا ما ، ولكن لديها سلسلة من الحالات الخاصة • فلا يقدم كل منها سوى بعض الصفات الاصيلة التي تبدو كأنها منتخبة ومعزولة من مجموع متجانس للصفات الخاصة بالاقطار المتخلفة •

وتستحق أهمية وتعقيد كل « عرض » من اعراض التخلف فحصا عميقا يتجاوز نطاق دراستنا هذه • وهكذا سنتعرض لمظهر المشكلة التركيبي أكثر من التحليل الخاص لكل عنصر من عناصرها •

والصفات الرئيسية التي يتألف منها التخلف هي :

أولا : عدم الكفاية الغذائية : وهذا أكثر الاعراض خطورة وشمولا • فهو يتجاوز مع ذلك الحدود التاريخية والمكانية للتخلف • اذ كان الجوع خطيرا خاصة بين شعوب اقطار تعتبر اليوم راقية ولا يزال حتى اليوم يعتري اصنافا اجتماعية هامة فيها • ولكن على العكس نلاحظ ان كل الاقطار المتخلفة تتألم من الجوع تقريبا ، باستثناء الارجنتين (اذا اعتبرناها من الاقطار المتخلفة) حيث نجد في الاقطار المذكورة نقصا غذائيا وخطيرا في بعض المناطق •

فيتراوح حجم الغذاء اليومي في العالم ، محسوبا بالسعرات الحرورية ، وسطيا ، بين ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ سعرة وهو ما يعتبر اليوم كأخفض حد ادنى يسمح ببقاء الانسان على قيد الحياة [1] وبين ٣٦٠٠ سعرة وهو الحد الاقصى المتوسط الذي لا يجوز تجاوزه خشية ظهور عدد من الاضطرابات الناجمة عن التخمة. ويمكن القول ان نقص التغذية يظهر عندما تقل الكمية المأخوذة عن ٢٥٠٠ سعرة • واستنادا الى مختلف التخمينات ، التي تقدم معظمها منظمة التغذية الدولية، يظهر ان حوالي ٧٠٪ من سكان العالم يتناولون غذاء تقل قيمته عن ٢٥٠٠ سعرة وان ٢٤٪ من هؤلاء تقل قيمة ما يتناولونه من طعام يوميا عن ٢٠٠٠ سعرة • واذا كانت المجاعات الرهيبة التي تؤدي الى الموت مباشرة قد اصبح من الممكن تحديد خطرها الا اذا استفحلت في ظرف سياسي معين ، فان سوء التغذية المزمن ، أو الجوع « اللامرئي » حسب تعبير الدكتور جوزيه كاسترو مؤلف كتاب « جغرافية الجوع السياسية » ، وهو الجوع الذي قد يكون بالفعل أكثر تخريبا مع تطاول الامد ، هو الذي يجثم حاليا فوق أمم وشعوب يتزايد عددها أكثر فأكثر وينشر بينها البلادة والخبل ، اذ لا توجد فكرة بلا رأس ولا رأس مفكر دون جسم صحيح يقدم له الغذاء •

وبالاضافة الى هذه الحاجات الكمية ، فان الجسم البشري يحتاج الى بعض الانواع الغذائية ، وخاصة الى استهلاك عناصر « واقية » للصحة كبعض المنتجات الحيوانية التي تقدم البروتيدات والاملاح المعدنية والفيتامينات • وهكذا نلاحظ ان بعض الانظمة الغذائية التي تبدو وفيرة نسبيا قد تحتوي على نقص نوعي يبدو على شكل امراض خطيرة كنقص الفيتامين ، أو الحديد ، أو الكالسيوم ، الخ •••

واستنادا الى تحقيق منظمة التغذية الدولية يبدو ان ٥٨٪ من سكان العالم يستهلكون اقل من ١٥ غراما من البروتيدات ذات الاصل الحيواني يوميا وان ١٧٪ فقط من البشر يستهلكون أكثر من ٣٠ غراما من البروتيدات يوميا •

ففي الولايات المتحدة يستهلك الفرد يوميا وسطيا ٣٢٠٠ سعرة حرورية و ٩٦ غرام من البروتيدات و ١٤١ غرام من المواد الدسمة ، كما يستهلك الفرد الكندي ٣٣١٠ سعرات و ٩٦ غرام من البروتيدات و ١٣٢ غرام من المواد الدسمة ، أي ان كل مواطن في هذين القطرين يتناول أعلى متوسط غذائي بالعالم مما يدل على مستوى غذائي عال جدا • أي ان ٦٪ من سكان العالم في امريكا الشمالية يستهلكون نصف السلع الغذائية بالعالم • وفي اغلب الظروف يتحالف نقص كمية الاغذية مع فقرها فتتضاف النواقص الاصلية الى نتائج مختلفة • واستنادا الى المتوسط في الهند ، لان الاستناد الى أمثلة اقليمية يقدم حالات أكثر رداءة ، نجد ان هذا القطر يتبوأ مكان الصدارة البائسة بين أكثر اقطار العالم نقصا في التغذية اذ يصيب الفرد فيها يوميا ١٦٥٠ سعرة الى جانب ٦ غرامات من البروتيدات الحيوانية فقط •

ويمكن ان نتأمل احصائيات استهلاك اللحم بالعالم عام ١٩٥٨ كي نأخذ فكرة عن الوضع الغذائي وخاصة من البروتيدات ، فقد كان استهلاك الفرد الوسطي سنويا كما يلي :

الاوروغواي ١٢٦ كيلو غرام ، استراليا ١٠٨ ، نيوزيلندا ١٠٦ ، الارجنتين ٩٧ ، الولايات المتحدة ٧٧،

---

(١) كان النازيون يقدمون كمية من الغذاء لمعتقليهم خلال الحرب العالمية الثانية تتراوح قيمتها بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ سعرة باليوم .

كندا ٧٦ ، فرنسا ٧٥ ، انكلترا ٥٨ وكذلك الدانمارك،ايرلندا ٥٣ ، السويد ٥٢ ، سويسرا والنروج ٥٠ ، بلجيكا ٤٨ ، النمسا ٤٥ ، المانيا الغربية ٤٣ ، اتحادجنوب افريقيا ٤٢ ، هولندا ٣٨ ، البرازيل ٢٨ ، ايطاليا ١٨ ، يوغوسلافيا ١٦ ، تركيا ١٥ ، اليونان ١٤ ،البرتغال ١٣ ، مصر ١٢ ، الفيليبين ١١ ، الصين ١٠ ، سورية ٧ ، اليابان ٤ بالاضافة الى ٦٠ كغم من لحوم الاسماك ، الهند ٣ .

ومن الممكن ان نصنف الاقطار المتخلفة التي نملك عنها معلومات دقيقة نسبيا حسب الجدول الآتي مع العلم ان كوبا والاوروغواي والارجنتين تبلغ مقادير الغذاء اليومي للفرد فيها ٢٥٠٠ سعرة حرورية .

	أقل من ٢٠٠٠ سعرة	بين ٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠ سعرة
أقل من ١٠ غرامات من البروتيدات	الهند ، سيلان ، ايران العراق ، الكونغو	الصين ، اليابان ، دول افريقيا الغربية ، سورية
من ١٠ الى ٢٠ غرام من البروتيدات	الفيليبين ، البيرو ، تونس الجزائر ، المغرب	المكسيك ، روديسيا الجنوبية ، مصر ، الباكستان
من ٢٠ الى ٣٠ غرام من البروتيدات		ايطاليا ، تركيا ، اليونان ، الشيلي، فنزويلا ، كولومبيا ، البرازيل ، افريقيا الجنوبية

ولكن قلة التغذية ورداءتها بالعالم الثالث قد تتحالف احيانا مع عادات تؤدي الى انهاك القوى الجسمية والعقلية فضلا عن ان هذه العادات تكلف نفقات باهظة تؤخذ على حساب الاغذية الضرورية .

ففي بعض البلاد العربية مثل ليبيا يستهلك الفرد سنويا من الشاي كمية يعادل وزنها تقريبا ما يستهلكه من اللحم كما ينفق كثير من فلاحينا على التبغ مبلغا يعادل نصف ما ينفقونه على غذائهم .

ولكن كل ذلك يهون امام الكوارث الجسمية والعقلية والمادية التي تنجم عن تعاطي القات في الجنوب العربي وخاصة في اليمن ، ذلك النبات الخبيث الذي يتزايد انتشاره واستفحاله اذ لم يؤد الى مزاحمة زراعة القهوة في اليمن فحسب وحرمان البلاد من محصول تصديري هام بل يستورد القات من مناطق مجاورة .

كما يستفحل تعاطي الافيون في ايران مثلما ينتشر تعاطي الحشيش وتدخينه في مصر ، وتعتبر عادة تعاطي المخدرات في هذين القطرين كمرض خطير وان كان في طريق التناقص .

وبالطبع استطاعت الصين التي عانت من الافيون ما عانت ان تقضي عليه وتنقذ جماهير شعبها من هذا الداء العضال تدريجيا لانها اضطرت للدخول في حرب خاسرة مع بريطانيا في القرن الماضي لمقاومة تجارته ، بلا جدوى .

هذا كما تلجأ بعض الشعوب المصابة بسوء التغذية الى تناول اطعمة تخدع المعدة اطول مدة ممكنة كالفول أو الفاصوليا اليابسة أو تناول اطعمة كثيرة التوابل والمواد الحريفة كالبهارات والفلفل والفليفلة

الحمراء (الشطا) كما لدى سكان البرتغال واسبانياخاصة ولدى شعوب البحر الابيض المتوسط عامة •

ثانيا : ضعف الزراعة : تتصف الاقطار المتخلفة بأهمية سكانها العاملين في الزراعة فتكون هذه النسبة ٥٨٪ في اوروبا الجنوبية أي في اليونان واسبانيا والبرتغال و ٧٣٪ من اليدالعاملة في المغرب العربي و٧٦٪ في افريقيا السوداء ، و ٦٢٪ في امريكا الوسطى ،و ٥٥٪ في امريكا الجنوبيـة ، و ٧٠٪ في آسيـا الجنوبية الغربية أي في ايران وتركيا والعراق وسورية والاردن ، و ٧٤٪ في آسيا الجنوبية ، و ٧١٪ في آسيا الشرقية وحتى ٧٨٪ في آسيا الجنوبية الشرقية أي في الهند الصينية واندونيسيا والفيليبين • وتهبط هذه النسبة الى ٢٠٪ في اوروبا الغربية و ١٣٪ في امريكا الانكلوساكسونية •

وتحمل زراعة الاقطار المتخلفة مظاهر ضعف خطيرة : فالامكانية الزراعية غير مستغلة بما فيه الكفاية • فرغم ان زراعة الاقطار المتخلفة تفتقر للاراضي فهي أبعد ما تكون عن الاستفادة من كل المساحات التي تظهر قابلة للاستغلال • وهكذا نجد ان زراعة الشرق الاقصى متمركزة في الدلتات والوديان اللحقية وتهمل معظم الاراضي المرتفعة واستغلال الغابات • امـا في امريكا اللاتينية فان خمس الاراضي القابلة للزراعة مزروع فعلا • وهذا التحديد يفسر باسباب مختلفة كعدم كفاية الوسائل التكنيكية التي تسمح بالتغلب بسهولة على بعض العوائق الطبيعية ، وضرورة ترك الارض بحالة بور مـدة طويلة كي تستعيد التربـة خصوبتها لعدم استعمال الاسمدة الكيماوية الغاليـة الثمن او العضوية لان روث الحيوان يستخدم كوقود، كما تكون الترب هنا فقيرة على الغالب وسريعة الخراب كما في المناطق المدارية • كما يؤدي الافتقـار الى الرساميل الضرورية اللازمة للتجديد في الزراعـة ،الذي يسمح بالخروج من نطاق الانحصار الضيق في الاراضي التي تكون دائما هي أكثرها خصوبة ولكنها اسهلها زراعة بالاستعانة بالوسائل التقليدية القديمة ، أقول يؤدي هذا الافتقار الى الاقتصار على الاراضي الجيدة فقط •

وغالبا ما تكون الاراضي المهملة وغير المستغلة ، كما في امريكا اللاتينية وفي افريقيا الجنوبية ، مع ذلك ، داخلة في حوزة عائلات قوية تحول دون استيطان مزارعين صغار فيها • كما ان الطلاق الملحوظ بكثرة في الاقطار المتخلفة بين الفعاليات الزراعية وبين تربية الماشية يؤدي الى افتقار المزارع للاسمدة والى حيوانات حمل •

وتتصف غالبية الاقطار المتخلفة بمشاكل زراعية تعود لاصل قديم نسبيا كاستمرار الملكية من النموذج الاقطاعي او لاسباب احدث كتشكل ملكيات كبيرة بفعل قروض الربا أو بسبب طرد السكان القدامى من قراهم • وفي أغلب الاحيان تحتكر الملكية الكبرى الاراضي بلا فائدة لان رساميلها الخاصة تعجز عن استثمارها لهذا تضطر جمهرة الفلاحين الى الاكتفـاء بملكيات صغيرة جدا لا تساعد على استعمال أفضل لوسائل العمل ومن جهة اخرى فان قسما كبيرا من السكان الريفيين لا يملكـون ارضا ويضطرون الى تأجير انفسهم كمشاركين أو كعمال في المياومة •

ففي مصر التي تبلغ مساحة الارض المزروعة فيها ٣٦٠٠٠ كم٢ كان ٦١ من كبار الملاكين يملكون أطيانا تزيد مساحتها عن ٢٠٠٠ فدان أو ١١٦٤٤٨ هكتار في حين كان ١٩٨١٣٤٦ فلاحا يملكون ملكيات صغيرة تقل عن فدان واحد (أو ٤٢٠٠ م٢) ومساحتها كلها ٣٢٧٦١٩ هكتار • أي ان ٧١٪ من مجموع الملاكين

كانوا يتصرفون بحوالي ١٣٪ من الاراضي فقط . والذين كانوا يملكون ملكيات تزيد عن ١٠٠ فدان بلغ عددهم ٥٠٠٠ شخص أي كانوا يملكون لوحدهم ضعف الاراضي التي كان يملكها مليونان من صغار الفلاحين ، الى ان جاء الاصلاح الزراعي في اعقاب الثورة .

كما نلاحظ في امريكا اللاتينية ان ١ر٥٪ من الملاكين العقاريين يملكون ٥٠٪ من الاراضي الزراعية. ففي البرازيل مثلا نلاحظ ان ٣ر٤٪ من الملاكين يتصرفون بحوالي ٦٢٪ من الارض وان ٥١٪ من المزارعين لا يملكون سوى ٣ر٤٪ من الاراضي . وفي كولومبيا نجد أن اقل من ١٪ من الملاكين يملكون مقدار ٤٠٪ من الاراضي الخ ...

اما في افريقيا الجنوبية فان الباتتو الذين يؤلفون ٧٠٪ من مجموع السكان لا يملكون سوى ٣ر٧٪ من الاراضي في مقاطعة الترانسفال و ٠ر٥٪ فقط في منطقة الاورانج .

كما تتميز زراعة الاقطار المتخلفة بمردود ضعيف نسبيا : فنلاحظ ان زراعة القمح في اوروبا تعطي مردودا وسطيا قدره ١٥ر٨ كنتا لا بالهكتار ومقدار ١٢ كنتال في امريكا الشمالية مقابل مردود يبلغ ٩ كنتالات في آسيا وفي امريكا اللاتينية ، و ٧ كنتالات في افريقيا ونجد نفس المردود في سورية . وبينما تعطي زراعة الرز ٤٣ر٨ كنتال بالهكتار في اوروبا نجدها لا تقدم سوى ١٦ر٢ كنتال فقط في الشرق الاقصى و ١٣ر٣ كنتال في افريقيا .

كما نلاحظ ايضا ان الانتاجية الزراعية ضامرة جدا في مجموع الاقطار المتخلفة ، فاذا كان المزارع في شمال امريكا ينتج وسطيا ٥ طونات من الحبوب ويستطيع ان يؤمن غذاء ١٥ شخصا ، واذا كان المزارع في اوروبا الغربية ينتج أكثر من طونين من الحبوب ويؤمن غذاء ١٠ اشخاص ، فان مجموع الاقطار المتخلفة يتميز بامكانيات اقل بكثير لان النسبة لاتتجاوز ٤٠٠ كغم من الحبوب للمزارع على العموم عدا المناطق المحيطة بالبحر المتوسط وفي اليابان والبرازيل حيث تتجاوز النسبة ٥ر٠ طون لكل فلاح . لهذا يكون عدد الاشخاص الذين يستطيع الفلاح ان يؤمن معيشتهم ضعيفا جدا فيبلغ ٦ اشخاص في البيرو وايطاليا و ٥ اشخاص في البرازيل و ٤ اشخاص في الهند . ويفسر احيانا هذا المردود والانتاجية المنخفضين بالصعوبات الطبيعية ولكن في أكثر الاحيان لعدم كفاية ادوات الزراعة وطرائقها اذ نلاحظ ان المزارع الاميركي في لويزيانا ينتج من الرز كمية يعمل ٢٠٠ فلاحا في الفيتنام لينتجوها .

ولجميع هذه الاسباب تتميز الاقطار المتخلفة ، وهي اقطار تسمى اقطارا « زراعية » بالاساس ، بعجز خطير في الانتاج في حين ان الحاجات تكون فيها عظيمة بسبب التكاثر السريع في سكانها . وقد كانت قرينة الانتاج الغذائي لكل فرد من السكان (قرينة ١٠٠ هي متوسط ما قبل الحرب العالمية الثانية) تعادل في عام ١٩٥٦ مقدار ٩٤ في امريكا الجنوبية و ٩٢ في آسيا (عدا الصين) ، أي ان شروط التغذية سائرة نحو الانخفاض بالنسبة لما قبل الحرب . ولكن كثيرا ما يصطدم نمو الانتاج الزراعي هنا بالامكانيات المالية المتواضعة لدى المستهلكين اكثر من المصاعب الطبيعية . والمشكلة الجوهرية ليست ، كما يحلو للكثيرين ان يتصوروا ذلك ، هي عدم كفاية الانتاج بالنسبة للحاجات ، بل المشكلة هي الفقر المدقع الذي

يحول بين السكان وبين سد حاجاتهم • اذن ليست المشكلة مشكلة انتاج بل مشكلة امكانيات الشراء الضامرة جدا ، أي مشكلة ضعف القوة الشرائية ، أو بعبارة اخرى ليست المسألة مسألة خبز بقدر ما هي « مسألة كسب ما يساعد على شراء الخبز » •

ثالثا : ضعف متوسط الدخل الفردي ومستويات المعيشة : استنادا الى المعلومات التي نشرتها هيئة الامم المتحدة يظهر ان ١٦٪ من سكان العالم فقط يتصرفون بـ ٧٠٪ من الدخل العالمي • وعلى العكس نجد ان ٥٤٪ من بقية سكان العالم لا يتصرفون بأكثر من ٩٪ من الدخل العالمي •

وقد كان التوزع في عام ١٩٥٤ كما يلي استنادا الى تقرير هيئة الامم المتحدة :

نسبة السكان بالمئة		الدخل القومي العالمي بالمئة	الدخل الفردي بالدولارات
آسيا الجنوبية الشرقية	٥٠	١٠	٧٠ — ٧٥
افريقيا	٥ر٧	٢	٨٠ — ٨٥
الشرق الاوسط	٤	٥ر١	١٥٠
امريكا اللاتينية	٧	٥ر٤	٢٤٠
امريكا الشمالية	٧	٤٣	١٦٦٠
اوروبا	٢٥	٤٠	٥٧٠

الدخل القومي بالدولارات	النسبة المئوية من سكان العالم	الملايين البشرية
دون ٥٠	٣١	٦٥٠
من ٥٠ — ١٠٠	٢٣	٤٧٠
من ١٠٠ — ٢٠٠	١٢	٢٥٠
من ٢٠٠ — ٤٠٠	١٩	٣٩٥
اكثر من ٤٠٠	١٥	٣٠٠

أما في عام ١٩٦٠ فكان الدخل الفرق السنوي بالدولارات المتحدة ٢٧٩١ ، كندا ٢٠٠٠ ، سويسرا ١٥٠١ ، السويد ١٦٣١ ، فرنسا ١٢٦٧ ، المانيا الغربية ١٣١٨ ، الاتحاد السوفييتي ١٠٠٠ ، ايطاليا ٦٤٥ ، الارجنتين ٤٣٩ ، قبرص ٤٠٢ ، مالايو ٢٨٠ ، تركيا ١٩٥ ، لبنان ٣٩٩ ، اليابان ٤١٣ ، العراق ١٩٥ ، الجزائر ٣١٢ ، المملكة السعودية ١٦٧ ، المغرب ١٥٥ ، مصر ١٤١ ، تونس ١٥٥ ، سورية ١٥٤ ، ايران ٢٠٣ ، السودان ٩٥ ، ليبيا ١٦٢، الهند ٨١ ، الباكستان ٦٨ ، الصين ٥٦ ، افغانستان ٥٢ ، الحبشة ٤٤ ، بورما ٥٧ اليمن ٩٠ •

وويعتبر الدخل في القطار الراقية فوق ٤٠٠ دولار • وهذا الفارق بين الاقطار المتقدمة حيث يكون متوسط الدخل الفردي ٥٨٦ دولارا وبين الاقطار المتخلفة التي يبدو الدخل الفردي فيها راكدا أو يتزايد ببطء شديد لا ينفك عن الاستفحال • وهكذا نلاحظ بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٣ ان الدخل الفردي في الولايات المتحدة قفز من ١٤٦٣ دولار للفرد بالعام الى ١٨٧٠ دولار في حين ارتفع الدخل الفردي

بالهنـد في نفس الفترة من ٥٧ دولار الى ٦٠ دولار ويعد ان كانت النسبة بين الفرد الهندي وبين الفرد الاميركي هي ١ الى ١٥ اصبحت بعد ٤ سنوات ١ الى ٣٠ • ويتأرجح سكان الاقطار المتخلفة وعددهم يناهز المليارين بـين البؤس والحرمان حتـى الضيق والعوز بعد المرور بعدة مراحل انتقالية •

صحيح ان التقدير بالدولارات وعدم اعتبار القوة الشرائية كما يجب بالنسبة للنقد وللانتـاج الذي لا يـدخل في نطـاق التجـارة يسمحـان بالتفكـير بأن تقـديرات المداخيـل القوميـة في الاقطار المتخلفة تتعرض للشك نوعا ما • لكنه لا يحتمل كثيرا ان يكون مستوى المعيشة الحقيقي لغالبية سكان الاقطار المتخلفة بالواقع اعلى من تقديرات المداخيـل القومية • لانه يجب ان نعتبر ظاهرة عظمى وهي ان مجموع الاقطار المتخلفة تتميز بشدة التفاوت في توزع المداخيل بين فئات الشعب وهـو تفاوت تجهله الاقطار المتقدمة • لان هناك ظاهرة أكيدة تتخذ طابع قانون اقتصادي وهي انه كلما كان القطر فقيرا كلما كان الاختلاف فيه شاسعا بين الاغنياء والفقراء •

وهكذا يفقد الدخل الفردي المتوسط كل مدلول لان موارد انتاج البترول في شبه جزيرة العرب لا تخص سوى قسما ضئيلا من السكان في حين ان غالبية الباقين يتخبطون بالفقر ان لم نقل بالحرمان الكامل باستثناء الاقطار الواقعة على الخليج حيث تساعد ندرة السكـان على وجود الرخـاء او الغنى الاسطوري المفاجيء ذلك الغنى الذي لا يعلم مداه الا الله وارباب البنوك في بيروت وسويسرا خاصـة وبنوك أمريكا واوروبا الغربية عامة • لهذا لا يمكن اعتبار اقتصاد جميع الاقطار المتخلفة سوية وبشكل اجمالي • ومن اللازم ان نأخذ بعين الاعتبار شـدة التفاوت في توزيـع الثروات فنجـد في كولومبيا ان ٢ر٢٦٪ من السكان يتصرفون بحوالي ٤٠٪ من الدخل الوطني • لهذا يبدو من الضروري ان نستند الى معايير اخرى لنأخذ فكرة صحيحة عن مستوى المعيشة لغالبية السكان مثل نسبة وفيات الاطفال وعدد الاطباء لكل ١٠٠٠ من السكان ، نسبة الاميين ، شروط السكـن النظام الغـذائي ، مستويـات الاستهلاك المختلفة كاستهلاك النسيج ، وعـدد الجرائـد ، الخ •••

رابعـا : نسبة التصنيع :

وهذه الظاهرة تؤلف احد اكثر المشاهد وضوحا في الاقطار المتخلفة • واليابان وحدها تعد قطرا متخلفا من وجهة النظر الى الدخل الفردي البالغ ٢٤٠ دولارا عـام ١٩٥٥ و ٤١٣ دولارا عـام ١٩٦٠ ومن وجهـة النظر الى مستوى السكان الغذائي البالغ ٢١٠٠ سعرة حرورية والتي تتمتع بمستوى صناعي محترم وقديم اذ يعمل ٢٢٪ من سكانها في الصناعة •

وضعف التصنيع في مجموع الاقطار المتخلفة يظهر على العكس في نسبة الطبقة العاملة فيها بالصناعة بالنسبة لمجموع الطبقة العاملة • وهكذا يؤلف العاملون بالصناعة ١١٪ في افريقيا و ١٠٪ في آسيا و ١٧٪ في امريكا اللاتينية مقابل ٣٧٪ في امريكا الشمالية و ٤٢ ٪ في اوروبا الغربية • ويبدو تمركز الصناعة على المقياس العالمي اكثر شدة مما تدل عليه النسب المذكورة آنفا اذ نلاحظ ان خمس سكان العالم فقط يقدمون ٩٠ بالمئة من الانتاج الصناعي العالمي • والواقع هو ان الانتاجية الصناعية تكون نسبيـا ضعيفة في الاقطار المتخلفة • هذا وتحوى الاقطار المتخلفة على اكبر نسبة مئويـة في بعض الصناعات

الخفيفة بالنسبة لسائر الصناعات مثل صناعن القطن اذ تبلغ ٢٠ بالمئة من صناعة العالم منها ٥٥٪ في آسيا و ٣٣٪ في امريكا اللاتينية ، و ١٠٪ في اوروبا الجنوبية . ومنذ عهد قريب ظهرت بها صناعة الاسمنت اذ تنتج الاقطار المتخلفة ١٨٪ من الانتاج العالمي لهذه المادة . وتبدو صناعة الاسمنت الصناعة الثقيلة الوحيدة في العالم الثالث (المتخلف) . بيد ان مجموع الاقطار المتخلفة لم ينتج عام ١٩٥٦ سوى ٣٪ من مجموع انتاج الحديد والفولاذ . هذا ورغم ان نسبة الاستيراد الهامة تظل نسبة استهلاك الفرد من السكان من الحديد منخفضة جدا . فاذا كان الفرد بالعالم المتقدم يستهلك أكثر من ١٠٠ كغم سنويا ووسطيا من الفولاذ (٢٠٠ كغم في فرنسا ، ٢٥٠ كغم في المانيا ، ٣٢٢ كغم في انكلترا و ٦٢٥ كغم في الولايات المتحدة) فان الاقطار المتخلفة تبدو متأخرة جدا في هذا المضمار باستثناء بعض الاقطار « الوسيطة » مثل ايطاليا واليابان حيث يتراوح استخدام الفرد من هذه المادة بين ٧٥ و ٨٠ كغم . ثم تأخذ النسبة بالهبوط الى مستوى منخفض جدا فيكون ٤٤ كغم حديد في الشيلي ، ٣٤ في الارجنتين ، ٢٥ في تركيا ، ٢٢ في اليونان والبرازيل ، ١٨ في الجزائر والمكسيك ، ١٢ في الكونغو ، ٥ في الهند و مصر ، ٤ في ايران ، ٢ر٢ في الباكستان الخ ...

وتصنيع هذه الاقطار يتطلب ارقاما فلكية من العملة الصعبة لان بناء فرن عال ينتج سنويا مقدار مليون طن من الحديد يتطلب رأسمال قدره ٥٠ مليون جنيه استرليني أو ما يعادل ٥٥٠ مليون ليرة سورية . كما ان الصناعة الحديثة تتطلب رأسمالا قدره ٦٠٠٠ دولار أو ٢٤٠٠٠ ليرة سورية لتشغيل عامل واحد ، واذا اردنا تشغيل مليون عامل فقط احتجنا الى رأسمال قدره ٦ مليارات دولار أو ٢٥ مليار ليرة سورية او ٤٨ مرة الميزانية السورية السنوية تقريبا .

ويؤدي انخفاض الفعالية الصناعية الضامرة جدا والمضافة الى نتائج المداخل الفردية المنخفضة جدا الى :

خامسا ـ ضعف في استهلاك الطاقة الميكانيكية :

تعتبر نسبة استهلاك الطاقة معيارا طيبا للامكانات التكنيكية لقطر ما وخاصة بالنسبة لقدرته على تذليل العقبات الطبيعية . وبما ان الاقطار المتقدمة تتصرف بنسبة ٨٥٪ من الطاقة المستخدمة بالعالم ففيها جميعا يكون الاستهلاك الفردي اكثر من طون واحد من الفحم أو ما يعادله من البترول أو من القوة الكهربائية من حيث القدرة الحرارية سواء أكان منها الحاوي على مكامن قدرة أو المحروم منها . وهكذا تبلغ نسبة استهلاك الفرد السنوي ٢ طن في هولندا ، و ٣ر٢ طن في فرنسا ، و ٥ر٣ طن في ألمانيا واستراليا وبلجيكا و ٥ر٤ طن في انكلترا والنروج و ٨ طن في الولايات المتحدة .

أما الاقطار المتخلفة فتتميز على العكس بمقادير ضعيفة جدا من الطاقة المستهلكة وذلك حتى ولو كانت تملك مصادر طاقة هامة في أرضها مستثمرة حاليا . فتبلغ نسبة الاستهلاك الفردي ٩٧ر٠ طن في ايطاليا و ٧٨ر٠ طن في الارجنتين واليابان . ولا يستهلك الناس في مجموع امريكا اللاتينية وسطيا سوى ٦ر٠ طن رغم ارتفاع النسبة في فنزويلا وحدها حتى ٢ر١ طن . وفي افريقيا ٤ر٠ وفي آسيا ٣ر٠ طن

وخاصة في الهند ١ر٠ طن وفي السعودية ٤ر٠طن وهذه الطاقة ذاتها لا تكون طبعا تحت تصرف طبقات عريضة من السكان ، اذ نلاحظ في الاقطار المتخلفة ان استهلاك الطاقة يتمركز في المدن وفي المؤسسات المنجمية • امـا الاستهلاك المنزلي والفردي فيكون عموما من نصيب الطبقةالميسورة • اما في الارياف فان الطاقة الميكانيكية تكون غالبا مجهولة والقوة الوحيدة هي قوة الانسان الذي يستعين بصورة متفاوتة بالحيوان •

وسنتمكن من قياس أهمية هذا العجز في استهلاك الطاقة في الاقطار المتخلفة ومدى نتائجه بعد التعرف على المثال التالي : اذا كانت استطاعة الطاقة السنوية لرجل ما تعادل ٢٠٠ كيلواط ساعي فان مقدار الطاقة الميكانيكية المستعملة في الاقطار المتقدمة يمثل قوى ٢٠ مليار من الطاقات البشرية بينما ان الاقطار المتخلفة لا تمثل مع كل مواردها العضلية والميكانيكية سوى ٣ مليارات من الطاقات المماثلة • وهذا العجز في طاقة الاقطار المتخلفة يشكل مع الاسباب الاخرى الطابـع الاساسي لاقتصادها •

سادسا : وضع التبعية الاقتصادية :

لاسباب تاريخية معقدة نجد ان معظم الاقطار المتخلفة في وضع التبعية بالنسبة للاقطار المتقدمة رغم انها مستقلة سياسيا • ولهذا فان قيام ونمو قطـاع اقتصادي حديث ضمن نطاق كل من الاقطار المتخلفة لا ينتج بالاساس عن عامل تاريخي داخلي في أغلب الاحيان • فقد ادخل الاقتصاد الحديث من الخارج الى قلب مجتمع تقليدي بفعل ضغط اقتصادي أو أحيانا بفعل ضغط أكثر من اقتصادي •

وهذه التبعية بالنسبة لعدد كبير من الاقطار المتخلفة كانت ذات طبيعة سياسية وأدت الى أشكال من التبعية الاقتصادية والاجتماعية • وعلى كل حال فان ظاهرة التخلف لا تنطبق تماما على الظاهرة الاستعمارية دائما • فنجد الآن ان الاكثرية الساحقة من الاقطار المتخلفة قد اصبحت مستقلة سياسيا كما ان هنـاك عددا من الاقطار المتخلفة مثل تركيا واليابان واسبانيا والبرتغال واليمن وافغانستان والحبشة لم تكن أبدا تحت حكم سياسي اجنبي طويل الامد لكننا نلاحظ فيها في أغلب الاحيان بقاء التبعية الاقتصادية • ويبدو ذلك عمليا على شكل عدد من المشاريع الصناعية ، كالمناجم التعدينية والمشاريع الزراعية أو التجارية ، واقعة ضمن اراضي الاقطار المتخلفة ولكنها تخص اشخاصا أو شركات اجنبية تشرف على تنظيم الانتاج حسب مصالح القطر الاجنبي المتقدم الذي يملك الرساميل ويحول قسما هاما من الارباح الى بلاده• ويستثنى من هذه الصفات اليابان وايطاليا رغم ان جنوب ايطاليا يقع تحت تبعية الشمال •

وحتى عهد قريب كان العنصر الاساسي في النمو الاقتصادي في الاقطار المتخلفة عبارة عن نمو دخيل يعود بأصله وبتوجيهاته وبوسائله المالية والتكنيكية والبشرية (أي فيما يتعلق بالاطارات من مدراء وخبراء ومهندسين) الى الاقطار المتقدمة •

ولقد قامت الاقطار المتقدمة ، وخاصة الموجودة منها في اوروبا الغربية ، قامت فعلا بتنظيم الجغرافيا الاقتصادية في الكرة الارضية حسب حاجاتها • وتقدم الاقطار المتخلفة مظاهر تبعيتها في صفات تجارتها الخارجية التي تستند قبل كل شيء على التصدير ، بواسطة اساطيل تجارية اجنبية وسماسرة اجـانب ،

لبضائع تصدرها على شكل خامات ، معدنية أو زراعية أو غذائية تتجه نحو الاقطار المتقدمة . كما تقوم هذه التجارة على استيراد منتجات مصنوعة كمــواد استهلاكية وتجهيزية آتية من الاقطار المتقدمة .

وهذه التجارة التي تسمى « التجارة من النموذج الاستعماري » لا تختص بها الاقطار المتخلفة التي تؤلف مع ذلك أكبر كتلة بالعالم ، فهناك أقطار ذات مستوى معاشي عال مثل استراليا ونيوزيلندا وكنــدا تقوم تجارتها على هذا النوع من المبادلات . لكن هذه الاقطار تستمد من هذه التجارة فائدة أكبر بكثير من الفائدة التي تجنيها الاقطار المتخلفــة بسبب ان وضعها قوي بالنسبة لبقية الاقطار المتقدمة ولا سيما وان المنتجين هم من اصل بريطاني وبالتالي يعتمدون على البنوك الانكليزية . والحقيقة هي ان واردات وصادرات قطر متخلف ما تتصف بشدة الفرق الكائن سعريهما : فقد لوحظ في عام ١٩٥٥ ان السعر المتوسط للطن المصدر من الجزائر كان ٣٠ جنيهــا مقابل ٧٠ جنيها لكل طن مستورد . اما في المغرب بنفس العام فكان الفرق بين السعرين ٥٩ جنيها .

ورغم التفاوت المعهود في وزن الصادرات الشديد فان تجارة الاقطار المتخلفة تظل عموما خاسرة أي ان ما تصدره ثقيل الوزن رخيص الثمن على عكس ما تستورده . وهكذا لوحظ ان سويسرا تستورد الحديد الجزائري الخام بسعر تافه جدا ولكنها تحوله الى مصنوعات دقيقة كآلات الضبط والساعات فتبيعــه مصنوعا بسعر يفوق أحيانا وزنه ذهبا .

ولا تتوازن التجارة الا بفضل خسارة تستنزف ثروة القطر المتخلف ، أو بفضل قدوم رساميل أجنبية تعيد ارباحها فيما بعد لمواطنها الاصلية مما يؤد أحيانا الى تأجيل الحل الاول لوقت مقبل .

وتستفحل تبعية الاقطار المتخلفة بسبب كون حاصلاتها التجارية وصادراتها في أغلب الاحيان تنحصر في عدد محدود جدا من السلع : فنجد ان ٩٢٪ من صادرات العراق أو فنزويللا تتــألف من البترول . وتمثل القهوة ٨٠٪ من صادرات كولومبيا و ٧٠٪ من صادرات البرازيل . ويستند ٧٠٪ من تجارة مصر على القطن ، وعلى النحاس في الشيلي ، وعلى القصدير في بوليفيا بنفس النسبة . وينتج عن هذا التخصص المفرط ان تكون فعالية القطر كلها متعلقة بتقلبات اسعار هذه الحاصلات في السوق العالمي . وهكــذا تتعرض الاقطار المتخلفة لشدة قساوة فترات الكساد مما ينعكس على اقتصادها فيكون بــذاته متذبذبا ومتصفا بعدم الاستقرار سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي اذ لا يمكن فصل مشاكل كوبا عن مشكلة تصريف السكر واسعاره .

وهكذا تتعثر السياسة الاقتصادية والاجتماعية في الاقطار المتخلفة بمشاكل الشركات الاكبرى الاجنبية التي تملك وسائل ضغط عظيمة نظرا لان نشاطها يؤمن القسم الاعظم من ايرادات الدولة أو لانها تملك مناطق اخرى تنتج نفس الانتاج تقع في اقطار اخرى . وهذا مما يسمح لها بممارسة نوع من سياسة توهيم وترهيب ومساومة تجاه مختلف الاقطار المتخلفة المتنافسة كما حدث لايران عندما قامت بتأميم بترولها على يــد الدكتور مصدق فكان ان ازداد الانتاج في الكويت بنسبة كبيرة وانهار اقتصاد ايران مما اضطرها بالنهاية الى التراجع بعد احداث معقدة لعبت فيها النفوس الضعيفة الدور الرئيسي .

هذا وتحتل الرساميل الاجنبية مكانة اساسية في اقتصاد الاقطار المتخلفة فبهذه الرساميل تتعلق أهمية والى حد كبير نوعية حاصلات القطر المتخلف واندماجه في التجارة العالمية • وهكذا نجد ان قسما كبيرا من مشاهد حياة الاقطار المتخلفة ينجم اذن عن قـوى وعن قرارات خارجة عن ارادتها • وعليه نلاحظ ان التركيب الاقتصادي والاجتـماعي المميزين للتخلف يظهران على شكل تركيب مزدوج مؤلف من عناصر داخلية ومن مؤثرات خارجية تكون هي المهيمنة في أغلب الاحيان •

سابعا : قطاع تجاري متضخم :

تشغل الفعاليات التجارية في الاقطار المتخلفة مكانا مفرطا في اتساعه بين السكان العاملين فيعادل ١٤٪ بين السكان العاملين في افريقيا و ١٧٪ في آسيـا و ٢٧٪ في مجموع امريكا اللاتينية ومكانا أكبر في توزع الدخل القومي أو بعبارة اخرى نلاحظ في الاقطار المتخلفة عددا هائلا من الحوانيت للبيع والشراء وقلة في المعامل المنتجة • ويزداد استفحال مثل هـذا التوزع اذا عرفنا ان قسما هاما من سكان الاقطار المتخلفة لا يزال يعيش في اقتصاد مغلق يؤمن العيش فقط • وميزة الاقطـار المتخلفة هي كثرة التفـاوت الموجود بين النسبة المئوية للسكان العاملين في التجارة والفعاليات الملحقة بها وبين الحصة التي تحتكرها في توزع الدخل القومي • فبينما نجـد ان المكسيك لا تستخدم أكثر من ٢٢٪ من السكان العاملين في التجارة نجدهم يختصون بمقدار ٦٥٪ من الدخـل القومي •

ويكون عدم التوازن أكبر من ذلك في تركيا التي يعمل في التجارة فيها ٧٪ من سكانها العاملين ولكنهم يستأثرون بثلث الدخل القومي •

وهكذا يمكن وصف الاقطار المتخلفة بشدة ارتفاع الفائدة الصافية التي يجنيهـا الفرد العامل في التجارة بالنسبة للعامل الزراعي • فاذا اعتبرنا قرينة ١٠٠ الفائدة الصافية للعامل الزراعي في كل قطر فاننا نلاحظ ان الفائدة الصافية التي يحصل عليها العامل في التجارة أو في المصالح التابعة لها تكون قرينتهـا ٢٣٠ في ايطاليا و ٣٠٠ في الهند واليابان والبرازيل و ٦٥٠ في اتحاد جنوب افريقيا و ٧٧٠ في المكسيك و ٧٨٠ في تركيا • وعلى العكس نلاحظ ان وضـع العامل الزراعي في الاقطار المتقدمة لا يكون منخفضا بمثل هذه الشدة لان قرينة الفائدة الصافية التي يجنيها العامل التجاري لا تتجاوز ٦٥ في نيوزيلندا و ١٠٠ في بريطانيا العظمى و ١٣٠ في كندا و ١٨٠ في الولايات المتحدة •

وهكـذا تبـدو الاقطـار المتخلفة حاوية على قطـاع تجـاري متورم يمارس بالنسبة للفعاليـات الاخرى نوعا من امتصاص طفيلي حقيقي يكون خطيرا بسبب ضعف انتاجيتها • كما يلجأ للعمل التجاري كل الذين يفدون الى المدن من الريف ويملكون رساميل صغيرة جدا تكفيهم لفتح حوانيت صغيرة متنافسة أو أو يمارسون التجارة المتجولة وهي تشكل عبئا ثقيل الوطأة على أصحاب المحلات وكثيرا ما نشاهد مناظر انتقالية بين التجارة والتسول كباعة علب الكبريت أو باعة العلكة « شوينغ غوم » •

ثامنا : التراكيب الاجتماعية المتاخرة :

تكون التراكيب الاجتماعية المميزة للاقطار المتخلفة متباينة جدا عن أشكال التنظيم الاجتماعي الخاصة

بالاقطار المتقدمة رغم قدم وشدة التماس القائم بين اوروبا الغربية وبين أقطار المتخلفة . واذا استثنينا قسما يتفاوت في كبره من السكان نجد ان عددا كبيرا من الناس لا يزال يعيش حتى اليوم في نطاق اقتصاد مغلق معاشي قديم يقوم على الاساس القروي أو القبلي . وعلى كل يجنح هذا الاقتصاد الذي كان في الماضي مغلقا ومتوازنا ، طوعا أو كرها ، الى الانفتاح على التجارة وعلى التداول النقدي .

ولا تزال توجد علاقات اجتماعية يمكن وصفها بانها « شبه اقطاعية » في مناطق متخلفة واسعة حيث تتخلى العلاقات الاقتصادية البحتة بين اليد العاملة وبين ارباب العمل أحيانا عن مكانها الى علاقات تبعية شخصية (كالسيطرة والخضوع والعمل عند الغير كالعبيد بسبب الدين الخ ...) .

وتخضع هذه العلاقات الاجتماعية أحيانا لتأثير علاقات الربا التي تجنح الى تقوية الاشكال التقليدية لاستعباد رب العمل لمستخدميه .

وتتصف الاقطار المتخلفة بالاهمية التي تحتلها فيها بعض اشكال التشغيل وعلاقات الانتاج التي اختفت منذ زمن طويل في الاقطار المتقدمة كتأجير الارض بشكل فيه الكثير من الشطط وبشكل غير ثابت لا يترك للمستأجر الفلاح العامل فيها سوى حصة تافهة من الفوائد ، أو كتأجير الارض على يد عدة وسطاء أو كالسخرة او العمل القسري الذي تفرضه الحكومة بشكل أو بآخر ، وكالبلبلة التي كثيرا ما تلاحظ بين الجهات الادارية المسؤولة وبين السلطة الاقتصادية المحلية ، أو الاسترقاق بسبب دين انتقل وراثيا ، وتأثير الاستعباد والاسترقاق الذي لا يزال محسوسا رغم الغائه نظريا الخ ...

اما الطبقات الاجتماعية الحاكمة أو المقربة فتحتل مكانة قوية بشكل غير مألوف وشديد الافراط بالنسبة لما هو معروف في الاقطار المتقدمة . وهذه السلطات التي تسمح باحتكار القسم الاعظم من أرباح العاملين تكون أحيانا مدعومة من قبل ممثلي الاقطار المتقدمة الساسيين أو الاقتصاديين الذين يجعلون كل همهم دعم الاقليات الحاكمة التي تؤمن مصالح هذه الاقطار الاجنبية .

وهكذا تكون الميزات الشبه اقطاعية مدعومة بشكل عظيم بالفائدة المستمدة من التعاون مع أشكال تنظيم اقتصادي واجتماعي أكثر تطورا ، تلك هي حالة بعض الاسر الحاكمة في الشرق الاوسط التي اغتنت من العائدات البترولية والتي انتقلت فجأة وبلا تمهيد من عصر الجمل وبيت الشعر الى عصر السيارة اللدنة الانيقة والقصور المكيفة الهواء .

واستمرار هذه التراكيب الاجتماعية العتيقة التي تعرضت للتحول بشكل متفاوت في عمقه لا يخلو من نتائج نفسية واجتماعية . فالاقطار المتخلفة تتميز أحيانا بالدور الزمني الذي لا يزال كبيرا لدى رجال الكهنوت ، كما في اسبانيا ، وبأهمية السلوك السحري الديني في طبقات عريضة من السكان كما في غانا أو في اقطار افريقيا السوداء عامة ، وبالمكان الذي تحتله عوامل التمييز القائمة على أساس عرقي أو ديني أو طائفي في الحياة الاجتماعية مما يدل على عجز البوتقة الوطنية عن هضم وتمثل كل فئات الشعب وصهرهم في وحدة متجانسة كما حدث في الولايات المتحدة أو في سويسرا . وكلنا يدرك الدور الذي لعبه الدين في تمزيق وحدة الهند والمذابح الرهيبة التي تعرض لها المسلمون على أثر التقسيم عام ١٩٤٧ والدور الذي لا يزال يلعبه البوذيون والكاثوليك في احداث فيتنام الدامية .

كما نستطيع ايضا ذكر وضع المرأة المنحط احيانا • كما ان وجـود أقليـات قوية جدا من الناحيـة الاجتماعية يؤدي بدوره الى ندرة أشكال الديموقراطية الحقيقية حسب المفهوم الغربي كما في اقطار اوروبا الغربية مثلا ، والى استمرار حكومات عائلية وأحيانا شبه دينية وأخيرا كثرة الحكومات القصيرة العمر وعدم الاستقرار السياسي كما في امريكا اللاتينيـة حيث لا تستند الحكومات هناك الا على أسس اجتماعيـة ضيقة جدا أو مدعومة من قبل دول عظمى أجنبية •

تاسعا : ضعف نمو الطبقات الوسطى :

على خلاف الاقطار الراقية المتقدمة حيث تحتـل الطبقات الوسطى مكانة شديدة الاهمية سواء من ناحية العدد أم من ناحية وظائفها كما تلعب دورا رئيسيا في كبح جماح الطبقة الرأسمالية الغنية جدا أو مغالاة الطبقة العاملة الكبيرة بسبب وجود صناعة حديثة قوية ، نجد الاقطار المتخلفة متصفة بضعف عـددي ووظيفي في مختلف مستويات البورجوازية رغـم حجم قطاع الاقتصاد « الحديث » • وينجم ذلك الى حد كبير عن تطور تاريخي قديم شديد الاختلاف عن تطور اوروبا الغربية •

أضف الى ذلك ان القسم الاعظم من الفعالية الاقتصادية يكون منظما ومدفوعا من قبل رجال الصناعة والتجارة الاجانب الذين لا يقيمون في الاقطار المتخلفة مثل الكونغو أو يقيمون فيها بشكل موقت • وهكذا نجد ان عدد الرجال الطلائعيين الاقتصاديين في الاقطار المتخلفة من أمثال فورد وروكفيللر وارهارد نادرا وضامرا وهذا من مصلحة الاقطار المتقدمة •

ورغم قلة عدد البورجوازية في الاقطار المتخلفة فانها تتجه غالبا نحو فعاليات المضاربة العقارية كشراء أراضي العمران ، اذ نلاحظ ان تنقل ملكية الارض بسرعة من يد لاخرى جعل سعر المتر المربع في بعض احياء بيروت يصل الى ٦٠٠٠ ليرة لبنانية ، أو نحو ممارسة السمسرة أو فتح وكالات لماركات أجنبية ، بدل الاتجاه نحو أوجه نشاط تستدعي ابداعا اقتصاديا حقا • ويعتبر هذا الفقر الكمي والكيفي في الطبقات المتوسطة في الاقطار المتخلفة ، ورقتهـا في تركيب الهرم الاجتماعي ، حدثا خطيرا ، اذ ينتج عنه نقص في الاطارات التقنية والاجتماعية التي لا بد عنها في كل سياسة ترمي للانماء والتطوير •

عاشرا : ضعف الاندماج القومي :

هناك درجات مختلفة من عدم الجانس الداخلي تعتبر أيضا كصفات عامة في غالبية الاقطار المتخلفة • فالاقتصاد الحديث قد دخلها من الخارج واستنـادا الى مصالح الاقطار المتقدمة قبل كل شيء • وهـذا الاقتصاد الحديث ، المدفوع من الخارج ، والخاضع لنوع من دفع لا مركزي ، لا يكون أبدا منتشرا في سائر انحاء القطر • فنجده متمركزا على السواحـل في المدن الكبرى وعلى طول محاور المواصلات وفي مناطق انتاج بضائع التصدير • وهكذا نجد تمايزا واختلافا بين مناطق الاقتصاد الحديث وبين المنـاطق التي توصف بالتقليدية ، والمؤلفة بصورة رئيسية من خلايا لا تزال تعيش منطوية على نفسها تقاوم بكـل قواها الجامدة المؤثرات الخارجية التي تعمـل على تحطيم توازنها •

والى هذه التناقضات يضاف فقدان سوق وطني حقيقي • وهذا ما يلاحظ مثلا بفقدان شبكة مواصلات منتظمة ورخيصة كالخطوط الحديدية • « فطرق النفوذ » تجر الحاصلات التصديرية من المناطق النشيطة

التي تحتفظ بعلاقات مباشرة مع أسواق الاقطار المتقدمة دون ان تندمج في مجموع وطني متآخذ . وهكذا يكون السوق الوطني ممزقا بين القطاعات التي لا تعيش الا استنادا على السوق الدولي كاستيراد الكماليات ولا يستطيع هذا السوق ان يستند على بقية القطر الذي يتألف أحيانا من تجمع وحدات بدائية ذات قدرة شرائية متواضعة تعيش في شبه اكتفاء ذاتي . وهكذا تبدو غالبية الاقطار المتخلفة ، بخلاف العضويات المتمركزة ذات العناصر المنسجمة التي تشكل الاقطار المتقدمة ، وكأنها كتل من خلايا اجتماعية متباينة وعديمة الشكل تحيط بأنواع من اورام خارجية المنشأ .

وهناك عدد كبير من الاقطار المتخلفة التي هي دول فتية قد ورثت كيانات سياسية من العهد الاستعماري ، كيانات تضم عناصر عرقية أو دينية أو قومية متباينة جدا ، وهي كيانات فرضت أحيانا بشكل اعتباطي على كتل بشرية مختلفة جدا سلفا فيما بينها . وينتج عن ذلك وجود تكوين سكاني غير متجانس أحيانا من حيث اللغات والتركيب الاجتماعي والاصل العرقي المتباين مما يسهل على الدول الاستعمارية السابقة ان تلعب فيها دورا كبيرا من أجل تفتيت القوى الوطنية والحفاظ على مصالحها الاقتصادية أو السياسية السالفة وتأليب فئات الشعب بعضهم على بعض وبهذا تلعب بعض الاقليات دور سرطان ينهك قوى الدولة المركزية بدل الانصراف نحو البناء وتحسين مستوى السكان والامثلة على ذلك كثيرة جدا . وتندر الاقطار المتخلفة التي تقوم الدولة الحديثة فيها فوق أسس وحدة قومية قديمة مثل اليابان واسبانيا والصين وقد تلجأ بعضها الى التخلص من الاقليات كما فعلت كل من تركيا واليونان في اعقاب الحرب العالمية الاولى ومشكلة قبرص كبيرة الدلالة .

وكثيرا ما يكون اقتصاد الدول المتخلفة ناقص التكوين ويتألف من قطاعات اقتصادية قليلة الاندماج بعضها البعض كما تكون التيارات النقدية فيها عموما هزيلة جدا ولا تضم بالفعل سوى قسما من السكان .

ورغم الانقلابات التي تتعرض لها هذه الدول فان استمرار بقاء الكيانات التقليدية التي أصبحت عرضة لانحطاط عميق لا يعود لصلابة هذه الكيانات ولا الى نفور السكان من اشكال الحياة الحديثة ، والحقيقة هي ان الناس لا يعيشون ضمن اطار هذه التراكيب المنحطة بشكل عميق الا بسبب المصاعب التي يعانونها في سبيل الاندماج فعلا في اقتصاد ومجتمع حديثين . والسبب الرئيسي لهذه الظاهرة البعيدة الاثر هو وجود عدد ضخم من غير المنتجين .

١١ – ارتفاع نسبة غير العاملين :

ان وجود جماهير من رجال عاطلين عن العمل أو غير منتجين هو احدى المميزات الاساسية للاقطار المتخلفة . ورغم ديناميكية قطاع « الاقتصاد الحديث » والصفة الرائعة لبعض منجزاته فهو لا يحتاج بالفعل الا لعدد محدود جدا من اليد العاملة مثل انتاج البترول الضخم في العالم العربي والذي لا يقدم مع ذلك فرص العمل لاكثر من ١٢٠ ٠٠٠ عامل فقط أي انه يقدم المال ولكن لا يوفر العمل . وبما ان هذا القطاع يعتبر القطاع الرئيسي فوظيفته تقديم اللوازم الضرورية لدول ذات اقتصاد متقدم ويتصف بضعف مؤسساته الصناعية . وهذه المعامل لا تعوض في مجال توفير العمل انحطاط الفعاليات الحرفية القديمة أو الصناعية البسيطة التي تتعرض لمنافسة الاستيراد الكاسح لمنتجات الصناعة الاجنبية .

ومن الطبيعي ان يستدعي قيام اشكال اقتصادية حديثة بناء اساس هـام نسبيـا كالطرق والموانيء والسكك الحديدية ومختلف الابنية الخ ... والنجاح الذي تحقق في بعض المشاريع يجنح الى ان يتبلور على شكل ابنية تدل على نفقات باهظة ، وهذه المشاريع العمرانية التي تفسر أهمية صناعة البناء نسبيـا في الاقطار المتخلفة كبناء القصور الفخمة والعمارات الشاهقة تستدعي تشغيل يد عاملة وفيرة سرعان ما تجد نفسها بلا عمل بمجرد ان تنجز ورشات البناء عملها وبعد ان انفصلت هذه الجماهير العاملة عن وسطهـا الريفي واستحالت عودتها اليه . اما في الارياف فان تشكل ملكيات كبيرة وظهور وسائل الزراعة الآلية يقلل امكانية التشغيل واخيرا نلاحظ ان معظم الاقطار المتخلفة تتعرض لتزايد سريع نسبيا في عدد سكانها .

وتؤدي هذه العوامل جميعا الى تضخم نسبة غير العاملين بشكل مرئي أو مقنع وهي ظاهرة تختلف عن ظاهرة البطالة التي تظهر في الاقطار المتقدمة على أثر الازمات والتي تؤثر عند حدوثها على استفحال نسبة غير العاملين في الاقطار المتخلفة . وفي هـذه الاثناء يأتي العاطلون عن العمل الذين فقدوا عملهم المنظم لينضموا الى الكتلة الضخمة المؤلفة من الذين لا يجدون العمل حتى في الاوقات العادية . ونقص التشغيل المزمن هذا يظهر بجلاء في « العشش » التي يتكدس فيها سكان ريفيون قدموا الى المدينة جريا وراء سراب أو بسبب الحاجة أي هربا من البـؤس المؤكد الى رخاء غير مؤكد . اما في الارياف فان نقص التشغيل يظهر في عدد الفلاحين الكثيرين الذين لا يملكون ارضا وفي عدد العمال المياومين الزراعيـين الذين لا يجدون عملا خلال العام سوى في أثناء بعض الشهور أو الاسابيع فقد بلغ عدد ايام العمل عنـد الفلاح المصري ١٥٠ يوما بالسنة فقط .

كما يكون نقص التشغيل سببا في تبذير اليد العاملة الموجودة في المزارع الصغيرة حيث تكون الانتاجية الهامشية للعمال الزائدين عن اللزوم معدومة عمليا .

وهذه الكتل البشرية المحرومة من العمل بشكل مزمن لا تستطيع الانـدماج في التيارات النقـدية للاقتصاد الحديث . فتعيش اذن على حساب الذين يعملون ، ملتصقة تقريبا حول وحدات الانتاج الحرفية أو الزراعية أو مشغولة بفعاليات غير منتجة أو ضارة للمجتمع كالتشرد أو ترويج المخدرات أو النشل .

ان لنقص التشغيل هذا نتائج عديدة فهو يؤدي الى ضمور شديد في السوق الداخلي ويعوق تجارب التنمية الصناعية أو الزراعية التي لا تجد امامها أسواقا كافية لانخفاض القدرة الشرائية . كما يعوق الجهود الرامية الى تحسين الانتاجية لان الآلة « الماكينة » تكلف أحيانا أكثر من اليد العاملة الوفيرة .

ويؤدي ثقل وزن هذه الكتلة من غير العاملين الى جعل الاجور على غاية من الانخفاض كما يجعل كـل تشريع لقانون العمل لا مغزى له مما يحول دون البدء بتنظيم سوق اليد العاملة . ويؤدي فقدان التنظيم هذا الى ضمور جديد في امكانيات تشغيل الرجال البالغين لان تشغيل عدة اطفال ذوي اجور رمزية يبدو أكثر ربحا من تشغيل رجل بالغ . كما يصبح عمل المرأة غير مجد وعديم الفائدة لانها ستكون مزاحمة للرجل في حين تبلغ نسبة النساء العامـلات في الاقطار الاسكندينافية حوالي ٩٢ بالمئة . وعلى كل فان اللجوء الى اليد العاملة الصغيرة سواء في المدينة أو في الريف حيث على الفرد ان يعتمد على نفسه منذ نعومة اظفاره من أجل تأمين غذائه ولو جزئيا يجب ان ننسبه الى :

١٢ ـ انخفاض مستوى التعليم :

ان الامية والجهل هما أيضا من الصفات المميزة للتخلف ، واذا كانت نسبة الاميين لا تزيد عن ٣ الى ٤ بالمئة بين السكان الذين تزيد اعمارهم عن ١٥ سنة في الاقطار المتقدمة فهي تبلغ ٥ر١٪ في بريطانيا و ٥ر٢٪ في الولايات المتحدة و ٥ر٣٪ في فرنسا وحوالي ٥٪ في الاتحاد السوفييتي . ولكن هذه النسبة ترتفع بشدة في الاقطار المتخلفة حيث لا يكون التعليم اجباريا عادة أو تعجز الدولة عن توفيره لكل ابناء الشعب .

والاستثناء الوحيد هو حالة اليابان حيث تكون نسبة الاميين فيها ٥ بالمئة . وترتفع هذه النسبة الى ١٧٪ في الارجنتين والى ٢٣٪ في ايطاليا واسبانيا والى ٢٤٪ في البرتغال . اما في خارج اوروبا فتصبح هذه النسبة جسيمة عدا لبنان فنجدها تصل الى ٥٠٪ بالبرازيل وفنزويللا والى ٦٧٪ في بوليفيا والى ٧٠٪ في تركيا ومصر والملايو والى ٨٣٪ في الهند وفي افريقيا السويداء ولكنها تتراوح بين ٩٣ و ٩٧ بالمئة في افغانستان واليمن والعربية السعودية وذلك استنادا الى نشرات اليونسكو .

وقد صرح رينيه ماهو مدير اليونسكو في ١٤/١٢/١٩٦٣ بأن عدد الاميين الذين تزيد اعمارهم عن ١٥ سنة يبلغ ٥٠٠ مليون نسمة في الدول الاعضاء في اليونسكو فقط . وفضلا عن ذلك فان هناك ٨٥ قطرا في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية تضم ٢٠٦ ملايين من الاطفال في سن الدراسة ولكن عدد الذين يتعلمون منهم عمليا لا يتجاوز ١١٠ ملايين .

وهذا العجز في التعليم ينجم عن عدم كفاية عدد المدارس وتجهيزها وفي عدد المعلمين . وتصطدم بعض الاقطار المتخلفة بصعوبات فريدة عندما يتكلم السكان في قطر واحد لغات ولهجات مختلفة كالهند . واذا كانت اللغات المكتوبة تشكل بحد ذاتها مشاكل عويصة فان المصاعب تبدو أكثر خطورة عندما تستند الثقافة القومية على كتابة غير هجائية مما يزيد الى حد كبير الصعوبات والزمن اللازم للتعلم . وأهمها هو نقص الاطارات الاجتماعية والتقنية (الخبراء) التي ربما لا يشعر بها مباشرة عندما يكون الاقتصاد بحالة ركود ولكنها تظهر بكل خطورتها منذ ان ترغب الحكومة والامة القيام بمكافحة التخلف عمليا .

ويبدو هذا التعليم الناقص بالاضافة لما ذكر متفاوت التوزع ليس فقط حسب الطبقات الاجتماعية بل أيضا حسب الجنس . فاذا كان عدد الصفوف الابتدائية يتوزع بالعدل بين الاولاد والبنات في الاقطار المتقدمة فان هذا التوازن يبدو نادرا في الاقطار المتخلفة . ويعتبر ضعف الجهاز التعليمي النسوي معيارا جيدا للاهمية التي تحتلها التراكيب الاجتماعية المتأخرة في المجتمع فتتراوح نسبة البنات المتعلمات بالنسبة للاولاد المتعلمين في أقطار الشرق الادنى والاوسط بين ٢٥ بالمئة الى ٢٨ بالمئة ولكنها تكون ٢٧٪ بالهند وتنحدر الى ٧٪ في السعودية .

وهناك عدد من الباحثين الذين يعتبرون حقا ان وضع المرأة المغبون هذا يؤلف عقبة قوية في وجه التقدم الاجتماعي . ومما يزيد المشكلة تعقيدا هو تفوق التعليم النظري الثانوي والعالي على التعليم التقني أو العلمي أو الفني في معظم الاقطار المتخلفة وهذا ما عانته الهند عند استقلالها اذ كان فيها فيض من الفلاسفة والكتاب والشعراء ولكنها كانت ولا تزال مفتقرة الى الاطباء والمهندسين والخبراء الذين يستطيعون رفع مستوى الامة عمليا وماديا .

ومن جهة اخرى فمما لا شك فيه ان وضع المرأة المنحط اجتماعيا لا يكون دون نتائج ديموغرافية هامة لعل أهمها هو انعدام أي تحديد للمواليد ٠

واليكم جدولا بنسب الاميين في عدد من دول العالم حسب احصاءات الامم المتحدة لعام ١٩٦٤ :

جدول مقارن لعدد ونسبة الاميين في بعض دول العالم الذين تزيد أعمارهم عن ١٥ سنة لعام ١٩٦٤

الدولة	عدد الميين	نسبتهم المئوية	نسبة الاميين الذكور	نسبة الاناث
السودان	٥٨٤٧٨٢١	٩٥ر٦	٩٢ر٦	٩٨ر٤
المغرب	٦٤٧٤٤٠٠	٨٦ر٢	٧٨ر١	٩٤
العراق	٥١١٤٥٦٠	٨٢ر٧	٧٣ر١	٩٢ر٤
الهند	٤٣٩٢٣٤٧٧٧	٧٦	٦٥ر٦	٨٧ر١
مصر	١٤٨٥٤٧٠٨	٧٣ر٧	٥٩ر٥	٨٧ر٦
الاردن	٩٣١٧١٠	٦٧ر٦	٤٩ر٩	٨٤ر٦
سورية	٢٨٣٢٥٥٠	٦٤ر٦	٤٦ر٥	٨٣ر٢
تركيا	١٦٣٢٧٨١٤	٦١ر٩	٤٥ر٢	٧٨ر٨

وهذه النسبة المرتفعة من الاميين تجعل قسما ضخما من الشعب رجعيا وغير قابل للتقدم فضلا عن ان وجود هذه النسبة المخيفة يشوه الحياة الديموقراطية اذ يصعب على الامي ممارسة الانتخاب ومعرفة المرشح وبرنامجه وكتابة اسمه مما يجعله العوبة في يد المتلاعبين في وجدانه والمستغلين لسذاجته ٠

١٢ ـ نسبة مواليد عالية :

تشتمل الاقطار المتخلفة اجمالا على نسب اكثر ارتفاعا نسبيا مما هي في الاقطار المتقدمة ٠ واستنادا الى تقارير هيئة الامم المتحدة تبلغ نسبة الولادات في أمريكا الشمالية ٢٥ بالالف و ٢٤ في مجموع أوروبا ، وتقدر بحوالي ٤٠ بالالف في أمريكا اللاتينية وبين ٤٠ و ٤٥ بالالف في أفريقيا وآسيا ٠

ترى ما هي النتائج المترتبة على هذه النسب العالية من الولادات في الاقطار المتخلفة ؟

آ ـ بالرغم من ان هذه الاقطار تتعرض غالبا لنسب في الوفيات أكثر ارتفاعا من الاقطار المتقدمة فان التزايد الديموغرافي يكون فيها اشد قوة مما هو في مجموع الاقطار المتقدمة ٠ ولكن علينا ان نتجنب التعميم المفرط ٠ فهناك عدد كبير من الاقطار المتخلفة التي انجزت تحسينات صحية هامة والتي استطاعت ان تحتفظ بنسبة مواليد عالية وتتميز بنسب تزايد سنوي تقارب ٢ر٥٪ بالعام مثل آسيا الجنوبية وامريكا الجنوبية المدارية والمغرب والشرق الاوسط ٠ وبعضها يتجاوز تزايدها السنوي ٣٪ مثل أمريكا الوسطى وفنزويلا وتركيا ٠ لكن تزايد السكان بشكل أقل هو من خصائص الاقطار المتخلفة التي ظلت نسبة الوفيات فيها عالية جدا فيكون التزايد السنوي للسكان بحدود ١ر٨٪ بالعام في الهند لان نسبة الوفيات فيها لا تزال ٣٠ بالالف وفي افريقيا السوداء حيث تكون نسبة الولادات فيها ضعيفة نسبيا ٠

وهناك بعض الاقطار المتخلفة التي تتصف بتزايد ضعيف في نسبة سكانها : تلك هي حالة أوروبا الجنوبية حيث يتزايد الناس بنسبة ٩ر٠٪ سنويا في حين أن بعض الاقطار المتقدمة تحتوي على تزايد قوي نسبيا مثل استراليا حيث تبلغ نسبة التزايد السنوي فيها ٢٪ وفي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي حيث يبلغ التزايد السنوي ٨ر١٪ •

ب ــ يتميز تركيب سكان الاقطار المتخلفة من حيث الاعمار بارتفاع نسبة صغار السن وشدة ضعف نسبة المتقدمين بالسن • وهكذا نلاحظ اجمالا في آسيا وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ان نسبة الذين تقل اعمارهم عن ١٥ سنة تبلغ ٤٠٪ مقابل ٣٠٪ في اوروبا و ٢٥٪ في مأريكا الشمالية • اما الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٥٩ عاما فيشكلون في الاقطار المتخلفة ٥٥٪ مقابل ٦٠٪ في أوروبا و ٦٤٪ في أمريكا الشمالية • أما كبار السن فلا يشكلون أكثر من ٥٪ من مجموع السكان مقابل ١٠٪ في أوروبا و ١١٪ في أمريكا الشمالية • وهكذا تتميز الاقطار المتخلفة بنسبة منخفضة نسبيا من البالغين الامر الذي يساهم في اثارة صعوبات اقتصادية •

فبينما نجد في فرنسا مثلا مقابل كل ١٠٠ بالغ يوجد ٧٥ شخص بين ولد وعجوز نجد في الاقطار المتخلفة ان كل ١٠٠ بالغ عليهم ان يقوموا بأود معيشة ١٢٠ وحتى ١٣٥ شخص بين ولد وعجوز • وبينما يبلغ العمر المتوسط اكثر من ٦٠ عاما في الاقطار المتقدمة (٧٠ في اسكندينافيا) نجده ينحد الى ٣٢ في الهند •

١٤ ــ وجود حالة صحية سيئة رغم أنها في طريق التحسن :

لا تزال تسود غالبية الاقطار المتخلفة شروط صحية سيئة • ولكن امكن منذ بضع عشرات من السنين تحقيق تدابير طبية سمحت بتراجع الاوبئة الكبرى الى حد كبير كما حصلت نجاحات ضخمة في مكافحة بعض الامراض المستوطنة • ولكن لا يزال التراخوم مرضا شديد الانتشار مثلا في ليبيا ومصر وغانا والهند مما يؤدي الى ارتفاع نسبة المكفوفين حتى ان بعض بقاع غانا الشمالية تسمى بلاد العميان الذين يعملون في زرع الارض ونكشها بالفؤوس تحت ارشاد اطفالهم كما يبلغ عدد العميان بالهند اكثر من مليونين •

هذا ويمكن اتخاذ نسبة الاطباء لعدد السكان كقرينة عن الحالة الصحية في عدد من الاقطار • فقد لوحظ في النمسا وجود طبيب واحد لكل ٦٣٠ مواطن ، وطبيب لكل ٧٠٠ نسمة في سويسرا ، وطبيب لكل ٧٢٠ شخص في نيوزيلندا ، وطبيب لكل ٧٤٠ شخص في المانيا الغربية والكويت ، وطبيب لكل ٥٠٠٠ نسمة في سورية ، وطبيب لكل ٨٤٣٤ مواطن في العراق عام ١٩٤٥ ولكن كان ثلاثة أرباعهم ، أي الاطباء ، في العاصمة نفسها ، وطبيب واحد لكل ١٤٠٠٠ نسمة في قبرص ، وطبيب لكل ٣٥٠٠٠ نسمة في السودان ، وطبيب لكل ٥٧٠٠٠ نسمة في غانا ، وطبيب لكل ٧١٠٠٠ نسمة في اندونيسيا ، وطبيب لكل ٨١٠٠٠ نسمة في جمهورية مالي •

ويمكن القول ان نسبة الوفيات سجلت في الاقطار المتخلفة انخفاضا محسوسا جدا منذ ربع قرن ، فانخفضت بنسب تتراوح بين ٤٠ بالمئة وحتى ٥٠ بالمئة في مجموع امريكا اللاتينية مثلا • غير ان

النسب الوسطى للوفيات تقدر الآن بحوالي ١٧ بالالف في أمريكا اللاتينية وبين ٢٠ و ٣٠ بالالف في افريقيا وبين ٢٨ و ٣٢ بالالف في مجموع آسيا مقابل ١٣ بالالف في أوروبا و ١٠ بالالف في أمريكا الشمالية .

ولكن الاختلاف بين الاقطار المتقدمة والاقطار المتخلفة يبدو صارخا في مجال وفيات الاطفال التي تختلف نسبتها بمعدل واحد الى عشرة . وهكذا يموت ٣٠ طفل من كل ١٠٠٠ طفل مولود في الولايات المتحدة قبل بلوغهم العام الواحد مقابل عدد يتراوح بين ١٢٥ كما في مصر الى ٣٠٠ طفل بالالف في عدد من الاقطار المتخلفة .

ورغم بعض التحسينات الرائعة لا تزال الشروط الصحية متواضعة جدا في الاقطار المتخلفة . واذا كانت الاوبئة الكبرى مثل الكوليرا والطاعون والتيفوس اصبحت الآن امراضا مقهورة ومغلوبة فانه لا يمكن القول ان الناس هنا يتمتعون بصحة جيدة رغم انهم يموتون باعداد أقل من الماضي . وهكذا تظل غالبية الاقطار المتخلفة مرتع الامراض الجماهرية التي تعتري نسبة عالية من السكان لدرجة انها تساهم الى حد عظيم في عرقلة التقدم الاقتصادي والاجتماعي للقطر . ومن وجهة النظر الطبية تحجب هذه الامراض الامراض الاخرى لدرجة تدفعهما الى لمؤخرة . وامراض الجماهيرية الرئيسية هي البرداء (الملاريا) التي تصيب أكثر من ٣٠٠ ملين نسمة بالعالم أو عشر سكان الارض . والبالهارسيا تصيب ثلث سكان وادي النيل والعراق الادنى ونصف سكان البنغال أي باكستان الشرقية، كما ان الانكليوستوما تصيب ١٥٪ من سكان مصر مثلا . كما ينتشر السل والزهري والامراض المعدية المعروفة في الاقطار المتخلفة ويضاف اليها اثر الديدان الطفيلية الشديدة انتشار لاهمال النظافة او لقلة المياه أو الصابون ، هذه الديدان تقتنص ربع أو ثلث المواد الغذائية التي يتناولها الناس والتي لاتكفي اصحابها بحد ذاتها، ولهذا الوضع الصحي تنائج ثقيلة الوطأة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فتهبط انتاجية الافراد بنسبة تتراوح بين ٣٠ و ٦٠ بالمئة كما لا تخلو هذه الامراض من أثر على الحالة النفسية والعقلية والسلوكية لان العقل السليم بالجسم السليم .

وهكذا نجد ان هذه الامراض تتعلق ، كما يظهر من اختلافات الحالة الصحية بين فئات اجتماعية تتباين من حيث مستوى المعيشة تعيش ضمن اطار اقليمي واحد ، بالشروط الاقتصادية والاجتماعية أكثر من علاقتها بالشروط الطبيعية . واذ كان قد امكن الحصول على نجاحات كبيرة في مكافحة بعض أمراض الجماهير هذه لان الملاريا تتقهر بشكل متسارع فهناك أمراض اخرى اكثر عددا لا يجدي معها استعمال الادوية او مبيدات الحشرات مثل الد. د. ت لان أسبابها تعود بالواقع لرداءة شروط السكن وندرة مجاري الماء سواء للشرب ام لتصريف الماء المستعمل وضعف مستوى التعليم وندرة الاطباء كما رأينا وعدم كفاية المؤسسات الصحية كالمشافي والعيادات لانه لوحظ ان عدد اسرة المستشفيات بالهند عام ١٩٥٠ كان ١٥٠٠٠ سرير بينما كان بالولايات المتحدة في نفس السنة ١٥٠٠٠ دار سينما فخمة ، ولكن أهم مشكلة مسببة لامراض الاقطار المتخلفة هي سوء أو نقص التغذية .

١٥ الاحساس والشعور بالتخلف :

منذ بضع عشرات من السنين اصبح التخلف يشكل عنصرا مركبا جديدا لعله اكبر مشاكل الوقت

الحاضر خطورة وذلك بعد شعـور سكان الاقطار المتخلفة بحقائق وضعهم . فبعد ان كان هناك لا مبالاة نسبية واحتقار لكل ما يأتي به الاجنبي او الاوروبي بمعنى أصح وبعد ان كان هناك « مركب سمو » يجعل ابن المستعمرات الآسيوية ينظر لمستعمريه رغم حضارتهم على انهم مفتقرون لرقته ولآدابه ولعمق حضارته ، حدث انقلاب بسيكولوجي مفاجيء بفعل التقليد الذي تم على يد الطبقات المتعلمة في هـذه الاقطـار وعلى اثر اكتشاف الناس طابع بؤسهم الشاذ والشنيع بالنسبة لبقية العالم . فاذا ارادت كـل اسرة بالاقطار المتخلفة العيش على مستوى الاسرة الاميركية احتاجت فورا الى مبلغ يقارب ٢٠٠٠ جنيه استرليني او ما يعادل ٢٢٠٠٠ ليرة سورية ثمن السيارة والاجهزة الكهربائية البيتية الترفيهية من بـراد وغسالـة ومكيفة هواء ومسجلة وعصارة فواكه وتلفزيون وغسالة الصحون الخ ... عدا ثمن البيت المناسب ونفقات التأمين على الحياة ، أو بعبارة اخرى احتاج كل مليون اسرة من السكان (يساوي عدد سكان الجمهورية العربية السورية حاليا) الى مبلغ ٢٢ مليار من الليرات السورية ثمن الرفاهية وتقليد ابناء العم سام [1] .

وهذا الشعور المرير تتج بالطبع عن الحرب العالمية الثانية ووسائل النشر الحديثة والصحافة ومجلات الدعاية والسينما والتلفزيون والراديو وسهولة سفر الناس واختلاطهم واطلاعهم لدرجة ان هذه الكماليات اصبحت تعتبر بأعين العالم الثالث على انها ضرورية وهنـا المشكلـة .

واذا كانت مظاهر غنى الاقطار المتقدمة قد اصبحت اكثر وضوحا فان الفارق الذي يباعد بين الاقطار المذكورة وبين الاقطار المتخلفة قد أصبح هائـلا ولا ينفك عن التفاقم .

ويعود هذا الشعور ايضا الى أسباب اكثر عمقا وخاصة الى التطور الداخلي في الاقطار المتخلفة . وبتأثير الحياة الحديثة الناتجة عن الاحتكـاك مـع الغرب تجنح الكيانات الاجتماعية التقليدية واشكال التفكير المرتبطة بها نحو التفكك .

وحينئذ يعتبر البؤس من وجهة نظر تختلف عمـا كانت عليـه قديما . واصبح الناس يقارنون مـع مارأوه في بلاد اخرى ومع ما تعلموه . ومن جهة اخرى لم تعد مشاهد البؤس ذاتها كما كانت بالماضي واصبح الفقر يتخذ في المدن وفي الارياف ملامح غير معهودة تجعلـه أكثر وضوحا . هذه التبدلات والمقارنات التي يفرضها التجاور المتواتر بين الغنى وبين الفقر المدقع أدت الى حدوث ما يسمى باليقظـة الكبرى لدى الاقطار المتخلفة .

ولهذا الحدث أهمية عظمى لانه يكون مصحوبا بالرغبة او بالارادة في التغيير وفي التطور

ويعتبر هذا الطموح التى التطور المندمج في برنامـج سياسي يرمي الى النهوض بمستوى حيـاة الجماهير عاملا تاريخيا جديدا بكل معنى الكلمة . وعن هذه الظاهرة تنتج الظهور الحديث لمفهوم الاقطار المتخلفة القائم بالفعل على محاكمة ذات قيمة مضمرة وعلى المسلّمة القائلة بان تطور هذه الاقطار هـو غير كاف ومرغوب فيه .

وان تعداد وتحليل الصفات الرئيسية التي يتـألف منهما التخلف ، بشكل موجز ، يسمح لنا بادراك

---

(١) العم سام كلمة مركبة من الاحرف الاولى من كلمة USA . أي ان الاحرف الكبرى في عبارة Uncle Sam تعني Usa أي الولايات المتحدة

الطبيعية المعقدة وذات الاصالة لهذه الحقيقة الناتجة عن تمازج ، مرن نوعا ما رغم أنه فريد من نوعه ، لعناصر قديمة جدا كالجوع والمرض مع عناصر حديثة جدا كالثورة الديموغرافية والشعور بالتخلف .

ولا يجوز اعتبار كيانات التخلف كأنها كيانات متأخرة لانها ناجمة عن ظاهرة تنجت في عصر حديث نسبيا ولا تتميز بالتوازن الملازم للكيانات التقليدية بل بمجموع اختلالات توازنية جوهرية . وأشد الاختلالات التوازنية خطورة هو الطلاق الملحوظ بين اقتصاد راكد او في حالة تزايد ضعيف وبين تزايد سريع بالسكان أي ان النظرية المالتوسية تكاد لا تصح الا بالنسبة للاقطار المتخلفة فقط .

اذن نحن بمعرض ظاهرة حديثة وجديدة تماما . والواقع اذا كانت بعض الحقب التاريخية قد تعرضت لمثل هذا الاختلال في التوازن فلم يكن ذلك أكثر من حادث عابر سرعان ما تأتي موجة رهيبة من الوفيات كالحروب الخارجية والاهلية او المجاعات او الطاعون لاعادة التوازن مع الاوضاع الاقتصادية القائمة . اما اختلال التوازن الحالي فقد ظهر منذ نصف قرن تقريبا كما اتخذ التزايد الديموغرافي سرعة ونسقا لم تعرفهما الانسانية قبل ذلك ابدا .

والمشكلة تكمن في ان الاقطار الغنية هي الاقطار القوية حربيا مما لا يسمح للشعوب الفقيرة بالانقضاض على الدول الغنية كما كان يحدث خلال حقب التاريخ التي سبقت ظهور البارود اذ كانت تنهار الامبراطوريات الغنية تحت ضربات البرابرة الجياع كسقوط الامبراطورية العباسية تحت ضربات المغول أو كسقوط روما بفعل هجمات البرابرة الشماليين . وبما ان الهجرة عسيرة نحو الاقطار الغنية فلم يبق امام الاقطار المتخلفة سوى حل وحيد هو النهوض بسرعة والتخلص من التخلف اذا ارادت تفادي المجاعات أو الحروب الاهلية كما حدث في اسبانيا قبل الحرب العالمية الثانية أو كما يحدث في الفيتنام حاليا بتحريض من دول الحرب الباردة . ترى كيف نعلل ما يحدث في اليمن البائس « السعيد » ؟

ب ـ اختلاف نظم الحكم في الاقطار العربية :

ما هي الاقطار العربية التي تؤلف اليوم العالم العربي ؟ انها تتألف من الاقطار التالية مبتدئين من الغرب باتجاه الشرق : الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، المملكة المغربية ، الجمهورية الشعبية الديمقراطية الجمهورية التونسية ، المملكة الليبية ، الجمهورية العربية المتحدة (مصر) ، جمهورية السودان ، المملكة الاردنية الهاشمية ، الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية العراقية ، الجمهورية اللبنانية ، دولة الكويت ، المملكة العربية السعودية ، الجمهورية العربية اليمنية • وهذه دول مستقلة ومنتسبة الى الجامعة العربية ما عدا الاولى • ولكن هناك أقطارا عربية لم تحصل على استقلالها بعد مثل ، امارة البحرين ، امارة قطر ، سلطنة مسقط وعمان ، واتحاد الجنوب العربي المؤلف من محمية عدن الغربية ومحمية عدن الشرقية •

واذا تركنا جانبا الاقطار التي لا تزال ترزح تحت وطأة الحكم الاجنبي ، أي البريطاني ، وهي الاقطار الواقعة على الساحل الجنوبي والشرقي لشبه جزيرة العرب والصهيوني في فلسطين المحتلة والاسباني في منطقة ريو واورو ، بانتظار تحررها القريب بفضل نضال رجالها وعون الاقطار العربية المستقلة ، وجدنا ان الاقطار العربية الباقية المستقلة تختلف فيما بينها من حيث نظام الحكم فنجد في افريقيا مملكتين دستوريتين في المغرب وليبيا ، وخمس جمهوريات • اما في آسيا العربية فنجد مملكتين احداهما دستورية في الاردن والاخرى في جزيرة العرب وهي العربية السعودية الى جانب اربع جمهوريات ، أي يضم العالم العربي اربع ممالك وتسع جمهوريات وامارة واحدة هي دولة الكويت •

وسنحاول فيما يلي اعطاء لمحة خاطفة عن تطور كل من هذه الاقطار سياسيا ونظام الحكم فيه •

أولا : الجمهورية الاسلامية الموريتانية :

لقد كانت هذه المنطقة قبل القرن العاشر الميلادي مأهولة بعناصر سوداء تسكن المناطق الشمالية والغربية من البلاد كما كان يعيش معهم جماعات من قوم « البافور » الذين لا زال اصلهم مجهولا • اما في المنطقة الشرقية فكانت تتجول فيها جماعات « ساراخوله » كما كان يتبعثر في سائر انحاء موريتانيا البربر الذين قدموا من المغرب فضلا عن بعض الرعاة من الفولبة الذين يقطنون السنغال حاليا • وفي القرن الحادي عشر خرجت قبيلة لمتونة البربرية من منطقة جنوب وادي الدرعه بزعامة الاخوين يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر واستولت على المغرب الذي أسس فيه يحيى بن عمر اسرة المرابطين التي استولت على بلاد الشنقيط (موريتانيا) وطردوا الزنوج باتجاه الجنوب بعد سلسلة من المعارك فالتجأ هؤلاء الى وادي نهر السنغال والى مالي الحالية وفقدوا موريتانيا نهائيا •

وفي مطلع القرن السادس عشر انتشرت قبيلة عربية اسمها « المعاقيل » في انحاء موريتانيا بعد ان طردت من الجزيرة العربية ومن ثم من مصر ومن تونس ومن مراكش بسبب حبها للشغب ، واستطاعت هذه القبيلة بالتحالف مع البربر الهيمنة على المنطقة ولكن حصل نزاع بين العرب والبربر في فترة ١٦٤٥ ـ ١٦٧٤ لم يلبث ان انتهى لصالح العرب وهذه اللمحة التاريخية تعطينا فكرة عن توزع عناصر السكان في البلاد •

أما على الصعيد السياسي فقد بدأت العلاقات بين موريتانيا واوروبا منذ عام ١٦٣٨ عندما احتل الهولنديون معاقل البرتغاليين القائمة على الساحل وأدى نجاح تجارتهم مع الاهلين الى جذب الوكالات

الاوربية الاخرى • وكانت التجارة الرئيسية تتألف حينذاك من تصدير الصمـغ بصورة رئيسية ولكـن الاوروبيين كانوا يمارسون تجارة الرقيق لتموين مزارع أمريكا باليد العاملة •

وفي خلال القرن ١٧ و ١٨ حاولت الشركات الفرنسية والهولندية والانكليزية التنافس فيما بينها من أجل حصر تجارة الصمغ الموريتانية ، وهـذا التنافس والتكالب أدى لحوادث دامية ومعارك • وقد حاولت فرنسا السيطرة على هذه المنطقة الغنية بالصمغ فكانت تعتمـد على المكتشفين أو على الجواسيس الذين كانوا يتخذون زي المسلمين ويجيدون لغتهم وعاداتهم ويقلدون طقوسهم الدينية • وهكـذا عقدت عدة معاهدات مع زعمـاء المنطقـة كانت أولاها بتاريخ ١٨٣٥/٨/٣٠ وآخرها ١٨٨٥/١١/١ •

وفي القرن العشرين كشفت الدولة المستعمرة عن وجهها وقامت بحملتين اولاهما سلمية والثانيـة عسكرية • وقد انتهت الحملة بمقتل «كوبولاني» الذي كان على معرفة وثيقة بالعالم الاسلامي فكان يتجول في جنوب البلاد متظاهرا بالاسلام وكان يحاول كسب ثقة الفقهاء • وفي عام ١٩٠٥ بينما كان في « تاغنت » يفكر في الوصول الى « ادرار » قتـل في ١٢ ايار في بلدة تيد جيكجا • وهكذا ظلت منطقة الادرار عاصية على الاستعمار وفي عام ١٩٠٧ قام الكولونيل غورو (الذي اصبح أثناء الحرب العالمية الاولى برتبة جنرال وكان اول مفوض سامي في سورية ولبنان وهو المسؤول عن تدمير الحكم العربي وطرد الملك فيصل بن الحسين من دمشق) بعدة حمـلات أدت لمعارك عنيفة مع المجاهدين مثل موقعة آماتيل بتاريخ ٣٠ و ٣١ كانون الاول ١٩٠٨ وموقعة حمدون في ٨ كانون الثاني ١٩٠٩ التي انتهت بالاستيلاء على آثار في ٩ كانون الثاني ١٩٠٩ والتي أدت الى انهيار مقاومة الوطنيين في تورين •

وهكذا كانت موريتانيا محمية فرنسية عام ١٩٠٣ ثم تحولت عام ١٩٢٠ الى مستعمرة وفي ١٩٤٦ الى دولة من دول ما وراء البحار وفي ١٩٥٩ الى جمهورية رئيسها مختار ولد داده •

ومنذ ١٩٤٦ كانت موريتانيا ترسل نائبا عنها الى مجلس النواب الفرنسي وشيخا الى مجلس الجمهورية ومستشارا للاتحاد الفرنسي • كما كان فيها مجلس مؤلف من ٣٤ مستشار منتخب لمدة ٥ سنوات يرسل خمسة من اعضائه الى المجلس الكبير لافريقيا الغربية الفرنسية وكانت البلاد خاضعة لسلطة حاكم فرنسي عام • ثم تشكل فيها مجلس حكومة مؤلف من رئيس وزراء ومن نائب رئيس ومن سبعـة وزراء كانوا يجتمعون تحت خيمة في قرية نواكشوط التي اعتبرت كعاصمة المستقبل • واصبح للبلاد اربعون نائبا في مجلس النواب •

وابتداء من ١٩٥٨/١١/٢٨ وهو تاريـخ اعلان استقلال الجمهورية الاسلامية الموريتانية أخذت وحدة البلاد الحقيقية تظهر للعيان وهي وحدة معنوية لا تظهر فحسب على شكل حكومة وعلم اخضر يحمل هلالا ذهبيا وشعارا مؤلفا من ثلاث كلمات هي : « الشرف ، الاخوة ، العـدالة » بل عن شكل دولة مستقلـة يتصف اهلها بحب شديد للحرية والاستقلال •

كما اكتشفت فيها ثروات هائلة من الحديد والنحاس مؤخرا مما سيؤهلها للاستقـلال الاقتصادي والرخاء وهما أمران لا غنى عنهما من اجل دعم الاستقلال السياسي وجعله حقيقة واقعة ملموسة •

المملكـة المغربيـة :

حكومة المخزن : ظلت مراكش دولة ملكية مطلقة منذ أكثر من الف عام • وقد تطور فيها النظـام

الملكي في الحدود التي رسمها الاسلام الى العصر الحديث • ولا يقيد هذا الحكم المطلق الا ما أشار اليه الاسلام من وجوب التشاور والتفاهم ، ولذلك يعتبر سلطان مراكش رئيس الدولة الاعلى من الناحيتين الزمنية والروحية •

ومعنى كلمة السلطان في المغرب مطابق لكلمة « الملك » فقد كان يرد في صدر الترجمة العربية للمعاهدات التي تعقدها مراكش مع الدول الملكية ان سلطان مراكش تعاقد مع سلطان الانكليز أو سلطان الفرنسيين • ولذلك اصبح المراكشيون — بعد تطور اللغة العربية وتحديد الالفاظ السياسية فيها — يطلقون على جلالته الكلمة الحديثة « ملك » بدلا من الكلمة القديمة « سلطان » •

وليس هناك نظام محدد لولاية العهد ، وانما يستمد هذا النظام من السوابق التاريخية التي تقضي بأن يتولى اكبر انجال الملك المتوفي الملك بعد أبيه ، أو أحد انجاله دون اشتراط الكبر ، أو الاخ ، وفي القليل تنتقل الى فرع آخر من العائلة ولا يحصل ذلك في الغالب الا في اعقاب ثورة • وتستمد النظم التي تستند الى السوابق من عهود الاستقرار • واذا راعينا في ولاية العهد القاعدة المتبعة في عهود الاستقرار هذه وجدنا ان الملك كان ينتقل دائما الى أكثر ابناء الملك كفاءة ، وعليه ان يبرهن على ذلك في المناصب السياسية أو العسكرية العليا التي يتولاها ، فكان الملك الوالد يأخذ البيعة لابنه قبل وفاته ، وتجدد هذه البيعة بعد وفاة الملك ، ويغلب ان يكون اكبر الابناء أكثرهم استعدادا وكفاءة لان كبر السن تمكنه من ان تكون تجاربه أوسع •

وعلى ذلك كانت تتركز في يد ملك مراكش من الوجهة النظرية السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية فيما يتعلق بالاقاليم المراكشية كلها •

وكان يباشر الملك هذه السلطات بواسطة الحكومة المراكشية القومية التي كان يطلق عليها قديما كلمة المخزن وهي الكلمة التي كان يطلقها المغاربة على الحكومة فيقولون « مخزن المانيا » مثلا • وقد كانت حكومة المخزن المراكشية قبل الحماية الفرنسية تشتمل على الصدر الاعظم أو رئيس الوزراء ووزير لكل من الداخلية والمالية والخارجية والحربية والعدلية ، ولهذه الحكومة ممثلون في سائر المدن كان يطلق عليهم اسم الباشوات وفي الارياف يطلق عليهم اسم القواد كما تتبعها محاكم القضاء الشرعي ، وكانت توجد بعض المجالس لمساعدة هؤلاء الموظفين على القيام بالمهمة التي نيطت بهم •

وكانت المدينة تنقسم الى أحياء ، حومات ، على كل واحدة منها « مقدم » يتبعه رجال الشرطة ، وكل مقدم مسؤول امام باشا المدينة عن الامن وحماية الآداب العامة تساعده في القيام بذلك « العريفة » وهي بمثابة بوليس نسائي لمساعدة الشرطة على القيام بواجبهم فيما يتعلق بالنساء •

كما كان يوجد في كل مدينة محتسب مهمته تحديد اسعار الحاجيات اليومية ومراقبة الموازين واتلاف ما فسد من البضائع والقاء القبض على من يلجأ الى الغش من التجار •

وكان عمال كل صناعة ينتخبون من بينهم رئيسا يطلقون عليه لقب « الامين » وتراعي خبرته ونزاهته في الانتخاب لكي تستفيد منه الحرفة التي ينتمي اليها •

ولليهود حي خاص بهم يطلق عليه اسم الملاح له نظام شبيه بالحي المراكشي مع مراعاة الطابع اليهودي •

وينوب عن الملك في المدن الكبرى خليفة من العائلة المالكة يقوم بمهمة شرفية تتمثل في الغالب في النيابة عنه في المناسبات •

هذه هي الخطوط العامة لجهاز الحكومة المراكشية ، وقد شاع فيها الكثير من الفوضى بسبب الظروف التي كانت تحيط بهذه الدولة قبل سقوطها تحت الحماية الافرنسية والاسبانية بالشمال • ولقد تعهدت فرنسا حسب معاهدة الحماية بأن تصلح الجهاز الاداري والحكومي في البلاد ، فما هي التغييرات التي حصلت؟

قيدت معاهدة الحماية سلطات الملك بحيث اصبح من الضروري الحصول على مصادقة المندوب الفرنسي فيما يتعلق بالاصلاحات وكذلك في الاتصال بالدول الاجنبية لعقد قرض أو معاهدة ، وحددت السلطة التشريعية بالسماح للفرنسيين والاسبان باحتلال ماشاؤا من البلاد لاقرار حالة الامن • فكيف استغلت فرنسا واسبانيا هذه القيود من الناحية الادارية ؟

اما من ناحية حكومة المخزن فقد قضت السلطات الفرنسية بالطبع على وزارة الخارجية لان المقيم الفرنسي هو الذي اصبح يقوم بمهامها مع العلم ان المغرب كان يملك قبل الاحتلال الاجنبي جهازا دبلوماسيا كاملا اذ كان للمغرب سفراء في لندن وسان بطرسبورج وفي أهم عواصم العالم حينذاك • كما قضت على وزارتي المالية والحربية وبذلك اصبحت الحكومة المراكشية في عهد الحماية تقتصر على الرئيس ووزراء الداخلية والاوقاف والعدل • وابتداء من عام ١٩٤٧ جرى تعديل على حكومة المخزن بحيث أصبح للمغرب حكومة مؤلفة من وزير أول ووزير الشؤون العدلية ووزير للاوقاف ومدير التشريفات ونائب للوزير الاول في شؤون التعليم ، ومندوب للمالية ومندوب للفلاحة والتجارة ، ومندوب للاشغال العامة والمنتجات الصناعية والبريد والتلفون والتلغراف ،ومندوب للصحة العمومية ، ومندوب للشؤون الاجتماعية •

واجمالا كانت حكومة صورية لا حول لها ولا طول ، وهكذا عاش الشعب المراكشي فترة قاتمة من تاريخه محروما من أبسط الحريات الانسانية وقد امتدت هذه الحقبة التعيسة بين ١٩١٢ و ١٩٥٦ وهي الفترة الوحيدة بتاريخ هذا القطر المجيد التي حرم فيها من استقلاله لانه كان القطر العربي الاوحد الذي لم يخضع للعثمانيين •

وما ان استقلت البلاد حتى تخلصت من كل اشكال الحكم السابق التقليدي وسارت خطوات واسعة في طريق الديمقراطية من حرية في الصحافة وفي الاحزاب السياسية رغم تطاحن هذه الاحزاب أحيانا ، والتي لا يعادلها في قوتها سوى النقابات العمالية المنظمة التي تضم أكثر من نصف مليون عامل والتي تلعب دورا كبيرا في توعية الجماهير اذ تستطيع ان تحفظ التوازن بين الاحزاب السياسية المتنافرة والتي لا تقوم على مبادىء واضحة بقدر ما تقوم على زعامة افراد ومصالح ضيقة وأهمها حزب الاستقلال ، حزب الشورى ، وحزب الاتحاد الوطني •

وقد انتخبت البلاد مؤخرا مجلسها النيابي • وعلى كل يمكن اعتبار نظام الحكم في المغرب من الاسلوب الديموقراطي البورجوازي الحاوي على بعض الصفات القبلية ، واذا تمتعت البلاد باستقرار طويل الامد فمن المنتظر تحسن هذا النظام بفضل تزايد الوعي الناجم عن تقهقر الامية وتحسن المستوى العام للحياة،

لان الديموقراطية عريقة بهذا القطر بفضل مجالس الجماعة المعروفة في الارياف ولان السكان لم يعرفوا ذل الاستعمار لمدة طويلة فلا زالت نفوس الشعب سليمة لا تتحمل الظلم ولكنها تعشق الحرية .

ترى ألا يحق للكتاب الاجانب ان يصفوا المغاربة بانهم أسود ؟

نظام الحكم بالجزائر :

على أثر الفتح العربي لهذا القطر استطاع الفاتحون ــ ولاول مرة في تاريخ شمال افريقيا ــ ان يمتزجوا ويندمجوا بالسكان الاصليين ، نظرا لانهم لم يأتوا مستغلين مستعمرين ، فقد أتوا ــ فضلا عن الدين الذي أرضى ما يصبوا اليه الناس من مثل عليا وعدالة ورحمة ــ أتوا بلغة خالدة ، ونظام اقتصادي واجتماعي ارفع وأقوم بكثير جدا من كل النظم التي عرفها هذا الشعب الابي .

هذا ولم يكن في الجهاز الجديد السياسي والاداري الذي طبقه العرب في البلاد أي مكان للضغط والارغام ، لذلك انسجم تمام الانسجام مع تقاليد السكان الديمقوقراطية .

وبعد ظهور التضعضع في الخلافة العباسية ظهرت الدولة الرستمية ثم تلتها الدولة الفاطمية بالجزائر ، وفي أيام دولتي المرابطين والموحدين ، خطت الجزائر حدودها وبنت وحدتها الوطنية ، ولم يمض زمن يسير حتى أخذت مكانها بين دول البحر الابيض المتوسط كدولة لها كل مقومات السيادة اذ كان لها حكومة مركزية بمدينة الجزائر يديرها « داي » بمساعدة وزراء للمالية والثقافة والحربية والبحرية والعدلية والشؤون الداخلية . وكانت البلاد تنقسم الى اقاليم هي : ميلديه ، الجزائر ، قسنطينة ، وهران . وكل اقليم يترأسه « باي » سمي من طرف الحكومة المركزية وتحت سلطتها .

وابتداء من القرن ١٦ عقدت الجزائر عدة معاهدات واتفاقات مع بلدان اجنبية عديدة وعلى الخصوص امريكا واسبانيا والبرتغال وانكلترا والدنمارك وهولندا . اما فرنسا فقد وقع بينها وبين الجزائر مالا يقل عن ٢٦ اتفاقية ديبلوماسية حتى سنة ١٨٣٠ بالرغم من ان البلاد كانت تحت سلطة العثمانيين اسميا لانها كانت تعين « الداي » وكانت ترسل بعض الحاميات التركية الى الثغور الذين يطلق على احفادهم اليوم اسم كولوغلي في مدن الشمال الافريقي .

وعندما استولت فرنسا على البلاد عام ١٨٣٠ بعد حروب دامية ومقاومة ضارية من قبل الاهلين قضت على كل مقومات الحكم الوطني وطبقت عليها نفس الانظمة المتبعة في بلادها ما عدا كل ما يتعلق بالديموقراطية أو كل ما يرفع من مستوى سكان البلاد صحيا وثقافيا واجتماعيا وماديا .

ولا حاجة لترداد ما تعرض له هذا الشعب المجاهد من محن وظلم . اذ يكفي ان نذكر انه بالرغم من تزوير الانتخابات في البلاد كان عدد النواب الجزائريين العرب في البرلمان الفرنسي يقل عن عدد نواب المستعمرين الفرنسيين في الجزائر مع ان عدد المسلمين كان يفوق عدد الفرنسيين تسع مرات . كما لم يكن بيد السكان الوطنيين أية سلطة حكومية باستثناء منصب القائد في الريف والذي كان لا يتمتع بسلطة تفوق سلطة المختار في سورية أو العمدة في مصر .

وبعد ان انتزعت الجزائر استقلالها التام عام ١٩٦٢ ، استطاعت جبهة التحرير الوطني التي قادت الثورة خلال ثمانية اعوام ان تستلم زمام الحكم بعد مفاوضات ايفيان برئاسة يوسف بن خدة الذي تخلى عن مسؤولياته بعد مدة قصيرة للرئيس احمد بن بلله الذي اصبح رئيسا للجمهورية بعد استفتاء شعبي .

هذا ويمثل السلطة التشريعية مجلس نيابي منتخب من بين اعضاء جبهة التحرير السابقين غالبا أو من الذين سبق لهم شرف النضال في مقارعة الاستعمار ويساعد الرئيس وزراء معينون أي ان النظام المتبع هو نظام رئاسي يقوم على أساس الحزب الواحد .

نظام الحكم في تونس :

لقد بدأت مصاعب الحكم في تونس منذ ان وطأت اقدام جنود فرنسا في التراب المغربي عام ١٨٣٠ عندما ضربت مدينة الجزائر . وهنا رغب حكام تونس (البايات) في التصرف كمستبدين مستنيرين لتجنب كارثة مماثلة لما حدث للقطر الشقيق المجاور . وهنا أخذوا يستوحون من اوروبا اصلاحاتهم وخاصة من اصلاحات محمد علي في مصر أو من السلاطين العثمانيين من امثال محمود الثاني ، ولكن دون نجاح كبير ، فاتخذ الباي احمد الكونت رافو وزيرا له كما خضع لقنصل فرنسا ليون روش الذي كان يتظاهر بصداقة المسلمين حتى انه شغل في وقت من الاوقات منصب سكرتير عند الامير عبد القادر الجزائري . كما كان يتأثر بوزيره مصطفى الخزندار اليوناني الاصل والذي حل محله فيما بعد خير الدين الشركسي الذي كان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معنى .

وأدت الاصلاحات الى تنظيم الادارة فكان يساعد رئيس الوزراء وزير التعليم أو وزير دولة . وكان قواد الجهات تعينهم الحكومة ولكنهم كانوا غالبا يحكمون قبائلهم . وحصلت مدينة تونس على نظام بلدي عام ١٨٥٨ وتأسست المملكة الشرعية ، كما صدر قانون الجزاء عام ١٨٦١ وأسس خير الدين الكلية الصادقية الشهيرة عام ١٨٦٧ والمستشفى الصادقي بنفس العام .

ولكن رغبة الباي احمد في تقليد اوروبا بايجاد جيش اوروبي اللباس والسلاح وتأسيسه نيشان الافتخار واشتراكه في حرب القرم ، التي أدت الى افناء جيشه ، اضعفت البلاد كثيرا . وقد نشر على الناس نوعا من بيان يشابه حقوق الانسان الذي تتجه عن الثورة الفرنسية كما أعلن الدستور عام ١٨٦١ وأوجد المحاكم العادية ولكن ذلك أدى الى اضطرابات بالبلاد . وكثرة نفقات الدولة أدت الى رفع الضرائب فثارت البلاد مما استدعى اللجوء الى القروض الاجنبية التي ابتلعت حاشية الباي ، وهم من المحتالين، معظم المبالغ فلجأت الدول الاجنبية لتكوين اللجنة المالية الدولية التي ترأسها فرنسي للاشراف على ميزانية الدولة المفلسة وهكذا تمهد السبيل لضياع الاستقلال .

ففي عام ١٨٨١ تذرعت فرنسا بحجج واهية واحتلت البلاد وفرضت معاهدة باردو التي وقعها الباي محمد الصادق مرغما وكاد يموت حنقا وكمدا عند توقيعها . وهكذا أوجدت فرنسا منصب السكرتير العام ليشرف على رئيس الوزراء التونسي كما أوجدت منصب الوزير المقيم ليشرف على الباي ذاته . وهكذا أخذت فرنسا على عاتقها بموجب معاهدة المرسى عام ١٨٨٣ التنظيمات الادارية والحقوقية والمالية . فاقتصر القضاء التونسي على القضايا الشرعية فقط . وظهرت مصالح جديدة مثل مديرية المال في ١٨٨٢ والصحة العامة ١٨٨٣ ودائرة الآثار والفنون ١٨٨٦ ودائرة البريد ١٨٨٨ ومديرية الزراعة ١٨٩٠ .

ولكن سياسة فرنسا كانت كثيرة التردد بين القسوة وبين التسامح الجزئي حسب مزاج المقيم العام فكانت الصحف والمجلات العربية تكثر أو تقل أو تغلق حسب مشيئة المقيم ففي عام ١٨٩٦ كان عدد الصحف والمجلات ٦ وفي ١٩١٠ بلغ ٢٥ كي يهبط الى ٤ عام ١٩١٨ وصعد الى ٣٢ عام ١٩٢١ وانحدر الى ١٢ عام ١٩٣٠ ولكن ارتفع الى ٥١ عام ١٩٣٧ وقد أدى هذا التردد الى اضطرابات وثورات كانت تقمعها فرنسا بكل شدة وتكلف البلاد الكثير من الشهداء والاموال .

وظهرت الحركة الوطنية التونسية بوضوح عام ١٩٢٠ وكان هناك اتجاهان يتنازعان الافكار الوطنية: الاول يجعل الاصلاح السياسي للدولة التونسية متعلقا بنهضة دينية والثاني كان يبحث في الديموقراطية وفي التحري عن الوسائل الكفيلة بالحاق البلاد بركب الدول العصرية وكان من ابرز شخصيات الحركة الثعالبي والدكتور المطيري والحبيب بو رقيبة والباي المنصف والحبيب تامر وفرحات حشاد والرويسي وغيرهم .

وقد تنوج نضال تونس الطويل بانتصار ساحق فحصلت البلاد على استقلالها الداخلي عام ١٩٥٥ وعلى الاستقلال التام في العام التالي فاصبح الباي سيدي محمد الامين ملك تونس والحبيب بورقيبة رئيس الوزراء وزعيم البلاد .

وفي العام ١٩٥٧ صوت المجلس المنتخب على الغاء الملكية على اعتبارها «شجرة ميتة منذ زمن طويل» وانتخب الحبيب بورقيبة رئيسا للجمهورية وما زال حتى كتابة هذه الاسطر . وشكل الحكم رئاسي يستند على الحزب الدستوري وهو الحزب الذي قاد معركة الاستقلال بصورة رئيسية وتدعمه الفئات البورجوازية وقسم من الشبيبة المثقفة والنقابات العمالية المنظمة .

المملكة الليبية :

كانت ولاية طرابلس الغرب جزءا من الامبراطورية العثمانية حتى عام ١٩١١ حين هاجمتها ايطاليا واحتلتها تدريجيا بعد معارك متلاحقة استمرت حتى عام ١٩٣٤ . وفي تلك الفترة كان الحكم ايطاليا بحتا وحاولت ايطاليا طمس معالم عروبة هذا القطر بلاهوادة . وابتداء من عام ١٩٤٣ وعلى أثر انهيار المحور في افريقيا وضعت البلاد تحت وصاية بريطانيا ما عدا فزان التي وضعت تحت حكم فرنسا ، الى ان قررت الامم المتحدة منح هذه البلاد استقلالها في عام ١٩٥٢ ولكن كانت ولاية برقة تتمتع باستقلال ذاتي برئاسة الامير ادريس السنوسي واشراف بريطانيا .

وتشكلت اول حكومة طرابلسية موقتة في ١٩٥١/٣/٨ برئاسة محمود المنتصر وبعدئذ جرى التفاوض مع ادريس السنوسي امير برقة من اجل تشكيل حكومة مركزية وتألفت الوزارة الاتحادية (الفيديرالية) من وزيرين طرابلسيين ووزيرين برقاويين ووزير فزاني .ثم وضع دستور ليبيا الاتحادي قبيل اعلان استقلال ليبيا بحوالي الشهرين .

ونص الدستور الليبي الجديد على ان المملكة الليبية ملكية وراثية فدرالية ديموقراطية دينها الاسلام . ومنح المواطنين الحقوق الاساسية التقليدية الواردة في أكثر دساتير العالم . وجاء في الدستور ان الوزارة التي يعينها ويعزلها ملك غير مسؤول ، مسؤولة امام البرلمان ويتألف هذا البرلمان من مجلس شيوخ ونواب اما الشيوخ وعددهم ٢٤ بمعدل ثمانية لكل ولاية فيعين الملك نصفهم ويعين الباقون من قبل المجالس

التشريعية المحلية • وينتخب النواب على اساس نائب لكل ٢٠٠٠٠ ناخب على الا يقل عدد ممثلي الولاية الواحدة عن ٥ نواب • وهكذا نالت فزان ٥ نواب وبرقة ١٥ وطرابلس ٣٥ • وتم انتخاب اول مجلس وطني اتحادي في ١٩/٢/١٩٥٢ •

وفي ايلول ١٩٥٣ حصلت بريطانيا على قواعد في ليبيا أهمها قاعدة العدم الجوية بموجب معاهدة كما حصلت امبركا على قاعدة الملاحة قرب طرابلس إثر معاهدة مماثلة لقاء بضعة ملايين من الجنيهات لسد عجز الميزانية الفقيرة بعد ان تلكأت وماطلت دول الجامعة العربية حينذاك في نجدة ليبيا اقتصاديا •

وفي عام ١٩٦٣ قرر مجلس النواب قيام الوحدة الليبية والغاء النظام الفيدرالي وكانت تلك الخطوة مصدر افراح للشعب كبيرة •

هذا وقد جرت انتخابات نيابية في اواخر عام ١٩٦٤ فكان من نتيجتها ان نجح نصف النواب بالتزكية لانهم خرجوا نيابة عن قبائلهم بينما نجح الباقون بالانتخاب العادي وقد حل الملك المجلس في عام ١٩٦٥ •

هذه البلاد تتمتع بنظام برلماني لكن بلا احزاب لان التكتلات الحزبية ممنوعة في ليبيا منذ حصلت البلاد على استقلالها •

نظام الحكم في جمهورية السودان :

اعتبارا من عام ١٨٢٠ اصبح السودان تحت الحكم المصري فعلا مما ساعد على تمتين النفوذ العربي الاسلامي فيه ، ولكن هذا الحكم انتهى بمجرد ان سقطت مصر نفسها تحت الاحتلال البريطاني فاصبح الحكم ثنائيا واطلق على السودان اسم السودان المصري ـ الانكليزي •

وتقلب على حكم السودان الثنائي تسعة حكام بريطانيين بين عام ١٨٩٩ حتى ١٩٥٥ فعملوا خلال تلك الفترة على عزل السودان عن العالم ومنع الاتصال بين جنوب السودان وشماله كي يتركوا المجال حرا امام المبشرين الذين لعبوا دورا كبيرا في تفتيت وحدة الشعب السوداني الذي لا زال يعاني من المشاكل العويصة •

وكان الحاكم البريطاني يعتمد على ٣ سكرتيرين للادارة والقضاء والمال بالاضافة الى عدد من مدراء الدوائر • وشكل عام ١٩١٠ مجلسا دعي مجلس الحاكم العام برئاسة الحاكم وعضوية سكرتيريه الثلاثة ومدراء دوائر المعارف والاشغال والصحة والشؤون الاقتصادية • ومنح هذا المجلس حق اقرار الموازنة والمشاريع واجراء التنقلات بين الموظفين وممارسة صلاحيات الحاكم في غيابه •

وأخذ الانكليز يحتلون اكثر من نصف المناصب العليا وتركوا للمصريين وللسودانيين المناصب الوسطى ، وبعد ١٩٤٠ وصلت نسبة السودانيين الى ٨٥٪ من الوظائف •

وسار السودان في طريق الاستقلال عندما جرت الانتخابات العامة في أواخر عام ١٩٥٣ وكان نوابه يتألفون من الاحزاب الآتية : حزب الامة ، الحزب الوطني الاتحادي ، الحزب الاشتراكي الجمهوري ، حزب الجنوب الحر كما حصل السودان على الدستور •

وفي ١٩٥٥ تمت سودنة كل الوظائف فحل السودانيون محل الموظفين الانكليز والمصريين .

وفي ١٩/١/١٩٥٥ قرر المجلس اعلان استقلال السودان الذي اعلن في ١/١/١٩٥٦ تحت النظام الجمهوري .

وبعد منافسات حزبية على الحكم جرت انتخابات الجمعية التأسيسية الثانية في شباط ١٩٥٨ وتنافس حزب الامة الذي احرز انتصارا ساحقا مع الحزب الوطني الاتحادي ومع حزب الشعب ومع حزب الجنوب الحر ومع المستقلين . واحتدم النزاع بين المهدي والمرغني . وامام ميوعة الحكم هذه قام انقلاب عسكري بالبلاد في اواخر عام ١٩٥٨ واستمر الى اواخر عام ١٩٦٤ حيث جرت اضطرابات أدت الى عودة الحكم المدني وعادت الاحزاب السابقة للظهور مؤتلفة مع بعضها .

نظام الحكم في مصر :

لم تفشل الديموقراطية التقليدية في بلد كما فشلت في هذا القطر . فقد كان النظام البرلماني فيه عبارة عن واجهة براقة خداعة تخفي وراءها جهازا حكوميا كاريكاتوريا في ظرف كانت فيه مصر تتعرض لثورة ديموغرافية اذ كان عدد سكانها يتزايد بمعدل شخصين بالدقيقة الواحدة وكانت الاوضاع تتطلب حكما على مستوى الظروف والاحداث .

في هذا الظرف بالذات ، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، كان يحكم مصر ملك كادت الصحافة تؤلهه وتصوّره امام الشعب المصري وامام بقية الشعوب العربية وكأنه الملك الورع الصالح الذي يلجأ الجمل لرحابه مع انه كان محاطا بهالة من المنافقين الذين لا يترددون امام أي رذيلة .

فقد قال للسير آلن بروك الذي كان رئيس اركان حرب بريطانيا ما يلي : « ان حرب الغرب ضد الاتحاد السوفييتي ستكون حربي الخاصة وعليكم ان تنسوا رخاوتي خلال الحرب العالمية الثانية لانني لم أكن انتظر من المانيا وايطاليا سوى تخفيف نيركم . لكن ماذا آمل من موسكو ؟ ان أفراد الشعب عندي لا يملكون سوى جوعهم . ولا يعرفون من الشيوعية سوى اسمها كما انها لا تخيفهم . ولكني بعد مثال ميشيل ملك رومانيا كيف سأحتفظ بوهم عن مصير عرشي على أثر انتصار روسي » .

وهكذا اغتاظ الغرب منه عامة واميركا خاصة واعتقدوا ان مصر لا يمكن ان تكون سدا ثانيا خلف تركيا العنيدة في عدائها للروس ما دامت مصر ترتبط بمزاج هذا الرجل المتهتك .

اما النواب فكانوا على الغالب لا يهتمون كثيرا أو قليلا بمصير هذا الشعب المفروض انهم يمثلونه حتى انهم كانوا يخافون من رفع مستواه ولا يضمرون له خيرا كثيرا فقد صرح النائب محمد عشماوي تحت قبة البرلمان معارضا مشروع بناء ٤٠٠٠ مسكن شعبي بقوله : « عندما يرى الشعب هذه البيوت سيتأمل واذا أخذ يتأمل فانه سيبدأ بالتفكير واذا فكر فويل لنا » .

هذا كما كان يتهافت على مناصب الحكم عدة احزاب سياسية اهمها : حزب الوفد وحزب السعديين وحزب الاحرار والحزب الوطني والمستقلون .

كل هذه العوامل بالاضافة الى دور الاحتكارات المالية التي كان معظمها بيد اجانب ومخازي حملة

فلسطين مهدت السبيل لنشوء حركة الضباط الاحرارالتي نجحت بالقيام بانقلاب عسكري لم يكلفها شيئا من الدماء بتاريخ ١٩٥٢/٧/٢٣ ، وبعد ثلاثة ايام تنازل الملك وغادر البـلاد مع اسرته الى أن مات في آذار ١٩٦٥ .

ودخلت مصر مرحلـة جـديدة في تاريخها عندما شكل محمـد نجيب وزارتـه وهي اول وزارة عسكرية في مصر ، وأصدرت الحكومة دستورا موقتا في ١٩٥٣/١/٧ ثم حلت الاحزاب بعد اسبوع من هذا التاريخ وأعلنت مصر جمهورية في ١٩٥٣/٥/٢٤ برئاسة جمال عبد الناصر .

وسارت مصر باتجاه النظام الرئاسي والحزب الواحد وهو الاتجاه السائد في الدول الناميةوفي الاتحاد السوفييتي ذاته لان نظام تعدد الاحزاب لم ينجح كمايظهر الا في دول المعسكر الغربي في اوروبا واميركا الشمالية واليابان .

وقد جرت انتخابات نيابية لمجلس الامة ضمن اطار الاتحاد القومي وضم نوابا عن سورية وعن مصر خلال فترة الوحدة بين القطرين ولكن لم تلبث الحكومة ان حلت المجلس المذكور في اوائل عام ١٩٦٢ كي تعمد الى انتخابات جديدة ضمن اطار الاتحاد العربي الاشتراكي الذي قام على أساس الميثاق الوطني وذلك في عام ١٩٦٤ .

وعلى كل أعيد انتخاب رئيس الجمهورية ثلاث مرات : عام ١٩٥٦ و ١٩٥٨ و ١٩٦٥ .

والخلاصة ان تعدد الاحزاب هو نظام مقتبس عن الغرب لكنه ينقلب عند الامم ، المحرومة من التقاليد الديموقراطية بسبب حكم استعماري جثم فوق صدرها أمدا طويلا ، الى نظام قائم على الكيد والكره المتبادل واحتكار الوطنية والتراشق بالخيانة والتشكيك بشرف الناس كل ذلك بغية تسلق مناصب الحكم. وهذا ما يفسح المجال لحكم أكثر حزما .

نظام الحكم في آسيا العربية

تبدو الظروف السياسية في آسيا العربية مغايرة في تطورها لما كانت عليه في افريقيا العربية • فقد خضعت الاقطار الافريقية لاستعمار مبكر جعلها تستفيق من سباتها العميق وتدرك مخاطر الجمود وآلام الحكم الاجنبي أكثر من شقيقاتها التي كانت لا تزال تؤلف جزءا من امبراطورية مريضة هرمة هي السلطنة العثمانية •

فقد سقطت مصر تحت الحكم البريطاني عام ١٨٨٢ وهو نفس العام الذي سقطت فيه تونس تحت الحكم الفرنسي بينما كانت الجزائر تتلوى تحت ضربات الاستعمار اللئيمة منذ عام ١٨٣٠ ثم لم يلبث السودان ان سقط مع مصر تحت الاستعمار البريطاني • واخيرا احتلت ايطاليا ليبيا في عام ١٩١١ وانتزعتها من أيدي العثمانيين وتلتها فرنسا في العام التالي فاجهزت على استقلال مراكش •

كل ذلك كان يحدث وآسيا العربية تحت الحكم العثماني تعيش في فترة تخدر الى ان ظهرت بوادر الحركات الوطنية العربية على أثر حركات التتريك التي قام بها الاتحاديون قبيل الحرب العالمية الاولى فكان ان اندلعت الثورة العربية في الحجاز وساهم العرب في تحرير بلاد الشام من الحكم التركي ولكن خيبتهم كانت كبيرة لان معاهدة سايكس ـ بيكو كانت قدقسمت البلاد العربية الآسيوية الى مناطق خاضعة للحلفاء المنتصرين عدا عن منح اليهود وطنا قوميا في فلسطين اصبح بمثابة سكين يعزل شطري العالم العربي عن بعضهما •

آ ـ نظام الحكم في العربية السنعودية :

لقد خرج من اعماق نجد محارب يملك القوة والشجاعة التي الهبت حماس اتباعه كما كان يتمتع بذكاء عميق وطموح لا حدود له • ذلك الرجل هو عبدالعزيز بن سعود • فاستطاع على أثر معارك عديدة ان يكسر ابن الرشيد أمير حائل وبذلك اقترب من حدود الحجازحيث كانت الاسرة الهاشمية هي المسيطرة بزعامة الشريف حسين بن علي • ولكن الشريف كان أعجز من ان يقف في وجه ابن سعود كما لم يتحمس فيصل ولا عبد الله لنجدة والديهما بل ان الامير عبد الله استفادمن الوضع نوعا ما بأن وسع حدود امارته حتى البحر الاحمر فضم ميناء العقبة ومعان الى المنطقة التي ستأخذفيما بعد اسم المملكة الاردنية الهاشمية • ولم يقف في وجه أمير نجد سوى الامير علي بن الحسين الذي انسحب الى جدة وقاوم هجمات ابن سعود عاما كاملا وهو يأمل عونا ومددا بريطانيا ولكن الانكليز الذين اعجبوا بنجاح ابن سعود تخلوا عن الامير علي الذي استسلم بالنهاية • وفي كانون الثاني ١٩٢٦ أي بعدعام كامل من احتلال الحجاز نادى عبد العزيز بن سعود بنفسه ملكا على نجد والحجاز وملحقاتها •

وظل عبد العزيز بن سعود بحكم البلاد حكما مباشرا الى ان استولى على الحجاز • ولي يكن يعتمد على أي منصب وزاري بل كان يحيط نفسه بمستشارين سياسيين من امثال حافظ وهبه ويوسف ياسين والحاج عبد الله فيلبي الخ ••• ولكن على أثر ضم الادارات الحكومية الحجازية في الحكومة المركزية

أوجد وزارات جديدة وهكذا وجدت وزارة للخارجية عام ١٩٣٠ وللمالية عام ١٩٣٢ ووزارة للدفاع سنة ١٩٤٤ وللداخلية عام ١٩٥١ وللمواصلات عام ١٩٥٣ ۰ وقبيل وفاته قبل عبـد العزيز بنشر مرسوم يقضي بقيام مجلس وزراء برئاسة ولي عهده سعود الذي اصبح ملكا بعد وفاة والده في ١٩٥٣/١١/٩ ۰

وفي عهد سعود الذي استمر الى ان تم خلعه في اواخر عام ١٩٦٤ تم انشاء وزارة للتعليم والزراعة عام ١٩٥٣ وللتجارة عام ١٩٥٤ وحرص على اجتماع مجلس الوزراء الـذي تم لاول مرة في الرياض في ١٩٥٤/٣/٧ وكان برئاسة الملك سعود وكان الامير فيصل (الملك الحالي) نائبا للرئيس ۰ وكان يضم مجلس الوزراء ومستشاري الملك المعينين من قبلـه لحضور جلسات المجلس واختصاصي من طرف الملك ليحضر الجلسات دون ان يحق له التصويت ۰

وحسب القانون كان من اختصاص مجلس الوزراء السهر على تطبيق السياسة الداخلية والخارجية للبلاد والتصديق على الميزانية وتخويل وزير الخارجية التوقيع على المعاهدات والاتفاقات الدولية ومنح الامتيازات والعقود لشركات أو لافراد والتعاقد مع الاجانب والتعيين ۰

وفي ١٩٥٨/٥/٤ ظهرت مراسيم جديدة ترمي الى تنظيم المالية ومكافحة الفساد الاداري لان الخزينة السعودية فرغت في تلك السنة وتعرضت البلاد لازمة اقتصادية خانقة بسبب الفساد في الجهاز المالي والتبذير ۰

اما على الصعيد الحقوقي فان الشريعة الاسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنـة هي القانون الاساسي للبلاد ۰ وليس في العالم الاسلامي الآن من يطبق الشريعة حرفيا سوى اليمن وعمان وافغانستان والمملكة السعودية ونيجريا الشمالية ۰

ولكن الملك الحالي فيصل بن عبد العزيز أخذ يحاول تصفية وتنقية جهـاز الحكم من الفساد السابق وخاصة على الصعيد المالي والاداري وقيادة الدولة لتصبح دولة عصرية مظهرا اسلاميا روحا وقلبا ۰

نظام الحكم في اليمن :

لقد كان الحكم المطلق الذي كان يمارسه الامام يحيى في القرن العشرين مصدر الاشمئزاز والنقمة ليس بين أفراد الشعب اليمني فحسب بل بين الاقطاعيين الذين اهملهم ۰ فقد صرح احد هؤلاء وهو الامير سيف الاسلام عبد الله في الولايات المتحدة في شهر تموز ١٩٤٧ : « ان بؤس شعب اليمن بلغ درجة يشيب لها رأس الانسان وتجعل الانسان يفضل الموت على الحياة » ۰ ولكن هذا الامير المفرط الحساسية لم يلبث ان دبر مؤامرة بالتعاون مع أحد ابناء الامام واسمه ابراهيم ومع شخص جزائري ذو شخصية غامضة اسمه الفضيل الورتلاني ۰ وفي ١٩٤٨/٢/١٧ سقط الامام يحيى في كمين ومات طعنا بالخناجر كما قتل المتآمرون اثنين من ابنائه بالقصر ونجا سيف الاسلام احمد الذي استعان بقبائل حجه الموالية وسار الى صنعاء ۰ وحاولت الجامعة العربية التوسط ولكن فشلت واستولى الامام احمد على صنعاء واعدم ابن الوزير وفر الورتلاني الى عدن ومنها الى لبنان ۰

ولكن الامر لم يستتب للامام احمد اذ ثار عليه أحد اخوته واسمه عبد الله وأخذ البيعة بالامامة في آذار

١٩٥٥ ولكن الامام احمد نجا من الموت باعجوبة فقام ابنه سيف الاسلام البدر باللجوء الى حجه وسار نحو تعز على رأس ٨٠٠٠ مقاتل وأنقذ والده وتم اعدام الثائر عبد الله وأحد اخوة الامام واسمه عباس وعاد الامام الى صنعاء .

وفي عام ١٩٦٢ قامت ثورة اليمن على أثر وفاة الامام احمد وتنصيب البدر اماما وكان على رأسها عبد الله السلال رئيس جمهورية اليمن حاليا ، ولكن الامام نجا من الموت أيضا والتجأ للشمال الى القبائل المخلصة له في منطقة حجة واستفادت الثورة من الطريق الذي فتحه الصينيون بين الحديدة ، وهي ميناء شيده الروس ، وبين العاصمة صنعاء ، اذ استطاعت الجيوش المصرية نجدة الثوار ولكن لا زال قسم من شمال شرق اليمن بيد الامام .

اما نظام الحكم السابق في اليمن فقد اصبح في ذمة التاريخ كما يتخذ الحكم الجمهوري طابعا عصريا اذ هناك مجلس وزراء ومحاولات جدية لتحسين الصحة وجر مياه الشرب للمدن بالاستعانة بخبراء اميركان ، كما يستهدف الحكم الجمهوري نشر التعليم بين أبناء هذا الشعب البائس . وينشد الطرفان المتحاربان السلم بعد ان اصابهما الكلال بعد حرب داخلية أخوية عمل الاستعمار على تمديدها جهد الامكان لاستنزاف قوى العرب وأموالهم وضياع أرواح ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ قتيل عربي عدا الجرحى ونشر اليتم والخراب ...

نظام الحكم في العراق :

لقد تعاقب على العراق ، منذ انهيار الدولة العثمانية حتى الآن ، عدة أنظمة للحكم نلخصها فيما يلي :

١ — دور الاحتلال المباشر بين ١٩١٧ — ١٩١٨ وفيه كان الحكم بريطانيا صرفا تقريبا رغم أن الجنرال مود قال في ١٩١٧/٣/١٠ : « ان الانكليز لم يدخلوا قاهرين أو اعداء فاتحين بل جاءوا منقذين محررين » ، ومنذ بدأ هذا الاحتلال بدأت معه قصة الكفاح من أجل الحصول على الحرية وانتزاعها من أيدي هؤلاء المنقذين المحررين ...

٢ — دور الثورات على الاحتلال بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ وفيه قامت الثورات العديدة على الاحتلال كثورة النجف والسليمانية وتلعفر وانتهت بثورة العراق كله في حزيران ١٩٢٠ .

٣ — دور الحكومة الموقتة بين ١٩٢٠ الى ١٩٢١ وفيه اضطر الانكليز امام الثورة الى تأليف حكومة وطنية مؤقتة لتحقيق بعض مطالب العراقيين .

٤ — على أثر معركة ميسلون بين الجيش العربي السوري والقوات الفرنسية بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٢٠ التي استشهد فيها يوسف العظمة ترك الملك فيصل عرش سورية وتبددت احلام لورانس وأوهام الهاشميين بانشاء المملكة العربية الكبرى . وظل الملك فيصل بلا عرش وحائرا الى ان عرض عليه الانكليز عرش العراق فقبله . وهكذا تشكلت اول حكومة ملكية استعين بها على حمل مجلس النواب على قبول معاهدة الانتداب البريطاني سنة ١٩٣٢ مما أثار كفاحا مريرا للخلاص من هذا الوضع .

٥ — دور الاستقلال المقيد بين ١٩٣٢ و ١٩٥٦ وفيه دخل العراق عصبة الامم واعترفت الدول الاجنبية باستقلاله • ولكن بريطانيا قيدته بالمعاهدة لمدة ٢٥ سنة واحتفظت بمصالح خطيرة بالعراق • وزاد من خطر هذه المعاهدة ظروف الحرب العالمية الثانية ومطالبة الانكليز بأكثر مما يلتزم به العراق فكانت ثورة سنة ١٩٤١ وما تلاها من تدخل الانكليز بشكل سافر • وقد تميز هذا الدور بمحاولة الحكومات القائمة بدعم موقف البريطانيين بمعاهدات تفرض عن طريق البطش والاستبداد وخنق الحريات كحلف بغداد سنة ١٩٥٥ مما أوجد نقمة شعبيـــة أدت الى ثورة قام بهـا الجيش في ١٤/٧/١٩٥٨ واطاحت بالملكية اذ قتل في ذلك اليوم الملك فيصل الثاني وولي عهده خاله الامير عبد الاله كما قتل نوري السعيد •

٦ — دور الجمهورية التي اعلنت في يوم الثورة على الملكية وفي ٢٧ من الشهر المذكور أعلن الدستور الموقت للجمهورية العراقية ونصت المادة الثانية منه على : « ان العراق جزء من الامة العربيـــة » ولكن المادة الثالثة تنص : « على ان العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن ويقر الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية » ، وتكوّن مجلس للسيادة الذي تولى تصديق قرارات مجلس الوزراء المؤلف من ١٢ وزارة •

وفي شباط ١٩٦٣ قام الجيش بثورة ثانية على نظام حكم الفريق عبد الكريم قاسم الذي أثار عليه نقمة الجميع بسبب سياسته المتقلبة المترددة وتورطه مع الاكراد بالشمال وقامت قيـادة الجيش بتعيين رئيس للجمهورية • وقد حصلت حركة انقلابية في ١٨ تشرين الثاني من نفس العام • وهناك مشروع للوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الجمهورية العراقية • ومشكلة العراق الكبرى بالوقت الحاضر هي المشكلة الكردية التي تؤلف شوكة مؤلمة في خاصرة العراق منذ حوالي ٢٠ سنة حتى الآن •

نظام الحكم في الاردن :

لقد كان هدف تشرشل من تشكيل امارة شرق الاردن في عام ١٩٢٠ ، وهي قطعة من سورية الجنوبية ، هو ايجاد دولة تلعب دور عازل بين فلسطين التي كانت بريطانيا قد وعدت اليهود بجعلها وطنا قوميا لهم وبين الصحاري العربية حيث كان الوهابيون في اوج قوتهم •

والمنطقة التي نالها الامير عبد الله حينذاك ليكون حاكما عليها تحت الانتداب البريطاني هي منطقة فقيرة الموارد لا يمكن ان تعيش من دون عون خارجي •

ولم تتحول هذه الامارة الى مملكة مستقلة الا في عام ١٩٤٦ مع بقائها مرتبطة بمعاهدة مع بريطانيا •

وقد كان من جراء كارثة فلسطين ان تزعزع العالم العربي من قواعده وهكذا رأينا كيف قضي على الملكية في مصر كنتيجة من نتائج تلك الكارثة المذكورة •

فعلى أثر انسحاب الجيش العراقي من المنطقة الجبلية في فلسطين تاركا مكانه تحت حمايـة الجيش العربي الاردني قرر الملك عبد الله ضم المنطقة الى مملكته بتاريخ ٢٤/٣/١٩٥٠ وهكذا تشكلت المملكة الاردنية الهاشمية •

فبعد ان كانت شرق الاردن دولة بدوية الطابع واقطاعية خاضعة لتقاليد الصحراء ذات جيش تحت اشراف بريطاني اذ بها تصبح شيئا آخر اذ أضيف اليها ٤٠٠ الف لاجيء فضلا عن ٤٠٠ الف فلسطيني يسكنون الضفة الغربية • وهنا اختل توازن المملكة لأن الفلسطينيين على الغالب أكثر تطورا من سكان شرق الاردن • وتعقدت الامور باغتيال الملك عبد الله في المسجد الاقصى بالقدس في ١٩٥١/٧/٢٠ وكان الى جانبه حفيده الملك حسين حاليا • وكان قد اغتيل رياض الصلح في شوارع عمان قبل ذلك بثلاثة ايام • وبموت عبد الله ذهب معه النظام الملكي المطلق كي يحل محله نظام ملكي دستوري بتأثير الفلسطينيين •

وخلفه ابنه طلال المريض الذي قال عنه والده : « ان ولدي سيدخل التاريخ أو سيدخل مستشفى للامراض العقلية » وصدقت النبؤة الثانية مع الاسف ، وعهد للملكة زين ، زوجته ، بالوصاية على العرش ريثما يبلغ ابنها حسين السن القانوني في شهر ايار ١٩٥٣ •

وظل نظام الحكم ملكيا دستوريا وان كانت الظروف تقضي أحيانا بحل المجلس النيابي قبيل انتهاء مدته أكثر من مرة لان فقر هذه المملكة هو سبب مصائبها بالرغم من ان عليها يقع عبء كبير في حماية حدود طويلة تجاه خصم لا يرحم • كما لا يمكنها ان تعتمد على مساعدة الشقيقات العربيات التي هي ذاتها تنال أحيانا القروض والمساعدات غالبا من نفس المصدر ، ما عدا الدول العربية الغنية ببترولها التي لم يخطر ببالها حتى الآن دعم هذه الدولة الصغيرة ماليا وانقاذ كرامتها مع انها تستطيع اذا أرادت ان تسعف شقيقاتها ببعض ما منحها الله اياه من خيرات بدل بناء القصور الفخمة واقتناء السيارات اللدنة وتجميد ارصدتها في بنوك سويسرا ولبنان •

نظام الحكم في الكويت :

تبدو اولى ملامح الحكم الوطني في الكويت منذ ١٩٣٤ عندما مارس الكويتيون اول محاولة عملية للانتخاب وذلك لاختيار اعضاء لمجلس البلدية • وقد تمت عملية الانتخاب بدعوة اعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الحل والعقد فيها لاجتماع تم فيه اختيار الاعضاء سريا ودون ترشيح • ثم بديء في تنظيم التعليم فانتخب مجلس للمعارف (عام ١٩٣٦) على نفس الاسس ، وكان مجلس المعارف والبلدية يمثلان الاتجاه الجديد نحو مشاركة المواطنين في الحكم •

ونشأت معارضة سرية بالكويت كشفت عن نفسها فيما بعد وأوفدت الى سمو الحاكم الشيخ احمد الجابر كتابا تاريخيا عام ١٩٣٨ حمله اليه وفد كبار رجال الكويت جاء فيه : « ان الاساس الذي بايعتك عليه الامة لدى اول يوم من توليك الحكم هو جعل الحكم بينك وبينها على أساس الشورى التي فرضها الاسلام ومشى عليها الخلفاء الراشدون في عصورهم الذهبية » •

فتلقى الامير هذا الكتاب بروح طيبة ووافق على ما جاء فيه فبادرت هذه اللجنة التي اتخذت لنفسها فيما بعد اسم « الكتلة الوطنية » باجراء انتخابات محدودة فتكوّن المجلس من ١٤ عضوا بادر بدوره الى انتخاب رئيس له ، فاختار ولي العهد اذ ذاك وحاكم الكويت اليوم الشيخ عبد الله السالم الصباح • ووضع المجلس التشريعي قانونا أساسيا وافق عليه الامير بتاريخ ٢ تموز ١٩٣٨ •

ولكن بعد عدة شهور دب الخلاف والشقاق بين أصحاب الحركة ذاتهاما أدى الى حل المجلس وتكوين مجلس آخر بالتعيين سمي مجلس الشورى من ١٤ عضوا منهم ٤ من الامراء غير الرئيس والباقون من الاعيان . وعلى كل تنتج عن تكوين المجلس التشريعي مصادمات مع السلطة المحلية تنتج عنها عدد من المجازر والضحايا وعدد من المشردين والمعتقلين .

وبعد ان ظهر البترول قبيل الحرب العالمية الثانية انصرف الناس لمشاكلهم اليومية ولكن الوعي الوطني والقومي كان يتطور حتى شهر شباط ١٩٥٩ عندما بلغ الحماس أشده لدى الشباب فأغلقت الحكومة الاندية والجمعيات .

ولكن التطور الكبير نحو الديموقراطية حصل بعد اعلان استقلال الكويت في عام ١٩٦١ اذ جرى على أثره انتخاب مجلس نيابي مؤلف من ٤٠ نائبا وصارت الكويت تملك وزارة للخارجية ، ولكن تشارك الاسرة الحاكمة في الجهاز الوزاري الى حد كبير على غرار الوزارة في المملكة العربية السعودية تقريبا أي ان الحكم يتخذ طابعا ديموقراطيا شكلا وعائليا ضمنا الى حد ما .

نظام الحكم في لبنان :

لقد تمتع الجبل الغربي من لبنان بنصف استقلال منذ عام ١٨٦١ فكان تحت سلطة حاكم مسيحي يتعلق مباشرة بالباب العالي . وقد ألغي هذا المنصب خلال الحرب العالمية الاولى ، ولكن بعد انكسار الدولة العثمانية خضع لبنان للانتداب الفرنسي مع تمتعه بحريات محدودة جدا نسبيا اذ كان يترأس الحكومة الوطنية رئيس جمهورية من الطائفة المارونية .

وعلى أثر انكسار فرنسا بالحرب العالمية الثانية وعلى أثر التنافس الشديد بين حكومة فرنسا الحرة والحكومة البريطانية حصل لبنان على وعد بالاستقلال وفاز بالانتخابات النيابية مجلس غالبيته من الوطنيين الاحرار وعلى رأسهم بشارة الخوري الذي ترأس اول جمهورية مستقلة في لبنان وفي عهده تم جلاء الجيوش الاجنبية عن لبنان في عام ١٩٤٦ .

ويقوم نظام الحكم في لبنان على التوازن الطائفي وتوزيع المناصب حسب الطوائف ، فمثلا يكون رئيس الجمهورية من الموارنة ورئيس الوزارة من المسلمين السنيين ، ورئيس المجلس النيابي من المتاولة ووزير الخارجية من طائفة الروم ووزير الدفاع من الدروز الخ ... كما ان انتخابات المجلس النيابي تتم على هذا الاساس اذ هناك نسبة معينة من النواب حسب الطوائف المختلفة .

هذا وتفرض الاوضاع الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية على لبنان ان يسلك سلوكا سياسيا معينا فهو يتحاشى الانضمام الى أي من التكتلات العربية لان مصلحته تقضي ان يبقى محايدا كي يستفيد من وضعه السياحي بين الاقطار العربية ومن وضعه كمستودع لاموال أثرياء البترول بالعالم العربي وهذا هو سر ازدهاره الاقتصادي النسبي .

واذا استثنينا حوادث عام ١٩٥٩ نجد ان لبنان من أكثر الاقطار العربية استقرارا رغم تنوع طوائفه حتى ان لبنان يتخذ كمثال للحكم في بلد متعدد الطوائف مثل تعدد القوميات في سويسرا ...

ولكن هناك مأخذ كبير هو ان الطائفية تحجب أحيانا الكفاءات مما يحرم البلاد من بعض ذوي الاختصاصات العالية في شتى المجالات • هذا كما تتدخل الاعتبارات العائلية والمادية في الانتخابات • ولكن للديموقراطية عيوبها كما قال احد نواب حزب العمال في مجلس العموم البريطاني : ليس هذا النظام سوى خدعة ماكرة ، انه حكم الاقلية القاهرة على الاكثرية العائلة ، انه حكم الذين يحسنون الكلام على الذين يحسنون العمل • فوقف رئيس الوزراء تشرشل واجابه بكل بساطة وهدوء : قد يكون هذا النظام فاسدا • وقد يكون فيه كثير من الاخطاء والعيوب كما تقول ولكن العالم لسوء الحظ لم يجد حتى الآن نظاما آخر أكثر عدالة وأقل فسادا وأخف شرا من هذا النظام •

نظام الحكم في سورية :

ما كادت تنتزع سورية استقلالها التام الناجز عام ١٩٤٦ بجلاء آخر جندي عن ارضها حتى راحت تتعرض لمصاعب داخلية وخارجية كانت أمتحانا قاسيا جدا بالنسبة لقطر ناشىء فتي • فكانت اول مشكلة تعرضت لها هي حرب فلسطين لانها كانت حينذاك الى جانب لبنان الدولة العربية الوحيدة المستقلة تمام الاستقلال أي ان عليها كانت تقع أكبر مسؤولية في معركة فلسطين ، تلك المعركة التي انتهت بكارثة القيت التهمة فيها على الحكومات القائمة وكان من جراء ذلك ان سقطت اول جمهورية دستورية في عهد الاستقلال بتاريخ ١٩٤٩/٣/٣٠ على يد حسني الزعيم الذي عقد اتفاقا مع شركة التابلاين ومع شركة بترول العراق لمرور الانابيب في سورية • وفي ٢٥ حزيران أصبح رئيسا للجمهورية بموجب استفتاء شعبي •

ولكنه دخل في نزاع شديد مع حكومة الاردن أي مع الملك عبد الله ومع العراق أي مع نوري السعيد الذي كان يصرف بسخاء من موارد البترول لاسقاط حسني الزعيم وتحقيق الهلال الخصيب ونجح الشطر الاول من مشروعه في ليلة ١٤ آب ١٩٤٩ حيث قتل فيها الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي •

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٩ حصلت انتخابات نجح فيها ٥١ نائبا من حزب الشعب و ٤٠ نائبا عن المستقلين وعلى أثرها أصبح هاشم الاتاسي رئيسا للجمهورية • وفي ١٩٤٩/١٢/١٢ اجتمع المجلس النيابي وتقدم بعض النواب المحبذين للوحدة مع العراق بمشروع النص التالي كي يقسم عليه جميع نواب المجلس وهو : « تتعهد امام الله على احترام القوانين والحفاظ على استقلال الوطن وعلى سيادته وسلامة أراضيه وعلى ثرواته العامة والعمل على تحقيق وحدة الاقطار العربية » ، وقبل ان يجيب المجلس على هذا الاقتراح أجاب العقيد اديب الشيشكلي بانقلاب ثان في ١٩٤٩/١٢/١٩ حيث ألقي القبض فيه على رئيس الاركان سامي الحناوي والذي اطلق سراحه بعد قليل فالتجأ الى بيروت حيث اغتيل فيها في ٣٠ تشرين الاول ١٩٥٠ • وتميز العامان التاليان في سورية بنزاع مستمر ومعقد بين انصار واعداء الوحدة مع العراق وبمعارك عنيفة مع اليهود وبنزاع تجاري ومالي مع لبنان انتهى الى القطيعة الاقتصادية بين القطرين • وظل هاشم الاتاسي مع ذلك رئيسا للجمهورية الى ان القى الشيشكلي القبض على رئيس الوزراء في ١٩٥١/١١/٢٩ مما جعل رئيس الجمهورية يقدم استقالته في ١٩٥١/١٢/٢ •

ثم عمل الشيشكلي على حل المجلس النيابي وعيّن فوزي سلو رئيسا للوزراء وللجمهورية ووزيرا للدفاع •

وفي آب ١٩٥٢ أسس اديب الشيشكلي حركة التحرير العربي واصبح المسؤول الاول فيها • وفي ١٠ تموز ١٩٥٣ تم الاستفتاء على الدستور وعلى رئيس الجمهورية ففاز الشيشكلي بـ ٨٦١٩١٠ اصوات مقابل ٢٥١٥ ورقة بيضاء •

وفي صبيحة ١٩٥٤/٢/٢٥ حدث انقلاب ثالث ترك على أثره الشيشكلي البلاد نهائيا الى ان اغتيل بالبرازيل في خريف عام ١٩٦٤ •

وجرت انتخابات نيابية في آب ١٩٥٤ خسر فيها انصار الوحدة مع العراق وهنا اصبحت سورية ميدانا مكشوفا للحرب الباردة ليس بين الكتلتين العالميتين فحسب بل بين بعض دول المعسكر الغربي ذاته ، وبين بعض الدول العربية من انصار وخصوم حلف بغداد كما تعرضت لضغط لا مثيل له في التاريخ الدبلوماسي • وفي ١٩٥٥/٨/١٨ تم انتخاب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية •

وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٥٨ سافر الى القاهرة وفد برئاسة شكري القوتلي رئيس الجمهورية لمباحثات الوحدة بين القطرين • وبعد ٤ ايام أعلن الرئيسان في عاصمتيهما نظام الدولة الجديدة الذي تم الاستفتاء الشعبي عليه في ٢١ شباط ١٩٥٨ ونجح بنسبة ٩٩٫٩٨ في سورية وبنسبة ٩٩٫٩٩ في مصر • وفي ١٣ آذار من العام نفسه الغيت الاحزاب في سورية •

ولكن هذا الكيان الجديد لم يلق استجابة من بقية الاقطار العربية رغم انضمام اليمن اليه فكان مؤلفا من أقطار ثلاثة منفصلة على الصعيد الجغرافي ، وتعرض لمصاعب كثيرة على الصعيد الداخلي والخارجي الى ان انفرط عقده بحركة انقلاب ٢٨ ايلول ١٩٦١ • ثم جرت انتخابات نيابية في عام ١٩٦٢ خرج على أثرها مجلس نيابي ورئيس جمهورية وعاد النزاع بين الكتل البرلمانية الى أشده وبين الحكومة وبعض قادة الجيش الى ان حصل انقلاب ٢٨ آذار ١٩٦٢ الذي أدى الى حل البرلمان ولكن عاد رئيس الجمهورية الى منصبه ، الى ان حصلت ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ التي تمت على يد حزب البعث العربي الاشتراكي • وقد جرت على أثرها مباحثات للوحدة بين سورية ومصر والعراق التي انتهت الى ميثاق ١٩٦٣/٤/١٧ الذي لم يتحقق ، كما جرت محاولة للوحدة بين سورية والعراق لم تلبث ان فشلت على أثر حركة تشرين الثاني ١٩٦٣ بالعراق •

خاتمة :

على كل حال ان حداثة الاقطار العربية بالاستقلال وبقاءها مدة طويلة تحت حكم استعماري أجنبي اوروبي أو تحت حكم الامبراطورية العثمانية التي كانت هي ذاتها خاضعة لحكم استعماري اوروبي مقنع أي ان اقطار آسيا العربية كانت تحت استعمار اوروبي غير مباشر حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، أقول هذا الوضع حرم الشعوب العربية لفترة طويلة من تقاليد المواطنة أو الحرص على مصالح الوطن وثرواته العامة • فأصبح المواطن ينظر للحكومة على انها جسم غريب عنه يبتز ماله ويقود ابناءه لمجازر الحروب التي لا ناقة له فيها ولا جمل • واصبح سلبيا لا يساهم في رخاء وطنه الذي لا يملكه كما راح يجد متعة في الاهمال لان في ذلك نوع من مقاومة سلبية بائسة للغاصب المحتل •

وظلت روح الوطنية والمقاومة مع ذلك سليمة الى ان سنحت الظروف فتحرر العرب في معظم اقطارهم

بعد جهاد ونضال مرير وحصلوا على استقلالهم المفقود واستعادوا كرامتهم التي لا حياة لعربي بدونها • ولكن ظلت رواسب النشاط السلبي ضد الاجنبي باقية في النفوس واصبح من واجب الحكومات العربية الحرص على تنمية التربية الوطنية في المدرسة والشارع والحقل والغابة كي يشعر كل مواطن انه مسؤول عن سلامة وطنه وثرواته وكرامته امام بقية المواطنين من اخوانه وامام أعين الاجانب • أو بمعنى آخر وجب العمل على تصريف الطاقة السلبية التي كانت موجهة ضد الاجنبي المحتل تصريفا خصبا خيرا في اتجاه بناء يعود بالنفع العميم على الجميع •

وقد جرت العادة في معظم الاقطار العربية حتى الآن في القاء تهمة تأخرنا ، وعجزنا عن معالجة مشاكلنا الكثيرة في التخلف وعدم الاستقرار على عاتق الحكام والحكومات ، وهو حل سطحي لان الذين ينقلون ثرواتهم الهائلة ويوظفونها في الاقطار الاجنبية ليسوا من الحكام فقط بل هناك الاثرياء أيضا وبدلا من ان يعمل هؤلاء على اقامة مصانع ومشاريع تعود على سائر مواطنيهم بالخير العميم وهم بأشد الحاجة اليها نراهم يساهمون في ازدهار ورفاهية أبناء وبنات اوروبا واميركا وهذا كله عائد لضعف روح المواطنة كما اسلفنا سابقا وخاصة لدى الذين اغتنوا من ثروات البترول الاسطورية واصبحوا في حيرة مؤلمة في كيفية تبديدها وتبذيرها ناسين ان هناك اخوانا لهم يتخبطون في مستنقعات الفقر كيلا نقول في ظلمات البؤس •

د ــ تباين الظروف الاجتماعية والاقتصادية وتعارض المصالح :

هناك اوضاع تعود للجغرافية الطبيعية والاجتماعية تخلق كيانات بالعالم العربي تختلف فيما بينها من ناحية درجة التماسك على الصعيد الاجتماعي مما يجعل درجة الانصهار القومي على نطاق الوطن الواحد متفاوتة •

وهذه الانقسامات لا يمكن التخلص منها الا بازدياد الوعي القومي والثقافي • وستظل باقية ما دام هناك جهل وتخلف ، وستظل تربة خصبة لتلاعب المصالح الاجنبية المتزايدة في العالم العربي بسبب تزايد أهمية البقعة التي يشغلها الوطن العربي من الناحية الستراتيجية والاقتصادية وفي المواصلات العالمية ، وهي أهمية هائلة لا تقدرها الشعوب العربية حق قدرها مع الاسف •

فاذا استثنينا مصر التي ينحصر السكان وعددهم ٣٠ مليون في مساحة قدرها ٣٦٠٠٠ كم٢ أو ما يعادل مساحة محافظة حمص وحيث ذاب في هذه الرقعة المزدحمة كل مفهوم قبلي أو طائفي تقريبا منذ زمن طويل ، نجد في سائر انحاء الوطن العربي بقاء انقسامات تتفاوت في وضوحها ولكنها تفت في عضد بعض مناطقه لدرجة ملموسة • فالكيان القبلي لا زال يلعب دورا كبيرا اذ يجعل ابن القبيلة موزعا في ولائه • فهو حريص على مصالح قبيلته لدرجة الاستماتة في حين يكون ولاؤه نحو وطنه الصغير أو الكبير غامضا أحيانا أو ضعيفا • وهذه القبائل كثيرة في كل انحاء العالم العربي وحيثما توجد مناطق منعزلة كالجبال أو السهوب الصحراوية التي تتجول فيها القبائل البدوية أو نصف البدوية • وقد يستغرب أحدنا في سورية اذا عرف ان بعض حكومات الدول العربية تقوم على أساس من التوازن القبلي أو من تفوق مجموعة معينة

من القبائل • وسيظل فهمنا للاوضاع السياسية القائمةفي بعض الاقطارالعربية مثلموريتانيا وليبيا والسودان واليمن والعربية السعودية والاردن وحتى العراق ولبنان ، ناقصا وسطحيا جدا اذا لم نأخذ الوضع القبلي أو الطائفي بعين الاعتبار • ويجب ان نعرف ان المفهومالقبلي لعب دورا خطيرا جدا خلال التاريخ العربي ، ومن منا لا يعرف الدور الذي لعبه النزاع بين القيسيةواليمنية خلال التاريخ العربي في اضعاف عـدد من الدول الاسلامية كما في الاندلس حيث اضيف اليـهالنزاع العربي البربري •

هذا وقد عملت الدول الاستعمارية بعد الحرب العالمية الاولى على تعقيد الخارطة القومية بالشرق العربي اذ سمحت الدولتان المنتدبتان على سورية والعراقبادخال عناصر غير عربية لاجئة من تركيا كما سمحت بريطانيا لليهود بالهجرة لفلسطين على شكل لا مثيل له بالتاريخ كل ذلك لغايات ليست في صالح العرب أبدا • كما يسمح الاستعمار أيضا بادخال عناصر غيرعربية الى عدن وسلطنة مسقط والبحرين والكويت لخلق مشاكل عسيرة بالمستقبل لانه يمنح هذه الاقلياتكل رعاية وعناية على حساب ابناء البلاد الاصليين •

مشاكل ديموغرافية ونفسية : وهناك ظواهر مخيفة بالعالم العربي ذلك ان بعض الاقطار العربية أصبحت مزدحمة بسكانها وضاقت بهم ذرعا فأصبحوا يهاجرون نحو الخارج بصورة موقتة كما في أقطـار المغرب الثلاثة عامة وفي الجزائر خاصة • كما يبحث المسؤولون في مصر جديا في ايجاد حل ديموغرافي عن طريق الهجرة الخارجية وتشجيعها سواء الى بعض مناطق العالم العربي القليلة الازدحام نسبيا أو نحو الخارج بعد ان قارب عدد سكان مصر الثلاثين مليونا فوق ٦ ملايين فدان •

اما الهجرة من لبنان وسورية فهي قديمة نسبيا شأنها شأن هجرة ابناء الجنوب العربي نحو افريقيـا الشرقية واندونيسيا وماليزيا وابناء اليمن نحو أقطارافريقيا الشرقية والوسطى •

ولكن هناك اقطار عربية تحوى امكانيات كبيرة من أجل استقبال المهاجرين مثل العراق والاقطار العربية الغنية بالبترول والقليلة السكان مثل ليبيا واماراتالخليج العربي •

ولكن الغريب والمؤلم بنفس الوقت ان يشعر أبناء العرب بالضيق في بعض اقطارهم ويهاجرون في حين ان أرضهم المغتصبة في فلسطين تستقبل اعدادا متزايدة من اليهود •

ولكن الهجرة من بلد عربي نحو آخر لا يمكن ان تتم الا برفع الحواجز القائمة بين هذه الاقطار الشقيقة وذلك بالغاء جوازات السفر وايجاد جنسية عربية موحدة تسمح لاي فرد عربي ان ينتقل أو ينقل امواله بحرية من قطر لآخر •

ولكن العقبة التي تقف حاجزا امام ذلك هو مركب النقص الذي لا زال يشعر به بعض المسؤولين في بعض الاقطار العربية فهم يعتقدون ان الكفاءات محصورة بالاجانب فقط • فلا ينظر للعربي الضيف القادم لبلدهم الا نظرتهم لمكتسب مرتزق • لهذا نلاحظ ان بعض الحكومات العربية تميز مثلا بين الطبيب أو المهندس العربي الذي يعمل في بلدها أو متعـاقدامعها فتعطيه اجرا يقل عن مثيله الاوروبي ، أي هناك مركب « عقدة الخواجات » مع الاسف وهذه عقليـةموروثة منعهود الاستعباد الاستعماري يجب ان تزول وتقتلع من الاذهان وقد أشار اليها الشاعر شوقي فيقوله :

أمـة قدفتـ في ساعدهـا　　　بغضها الاهـل وحب الغربا

ويزيد المشكلة تعقيدا انتشار المدارس التبشيرية الاجنبية المختلفة والمتنافسة في العالم العربي ، لان هذه المعاهد تخص دولا مختلفة أجنبيــة ذات ماض استعماري تنفق من حيث التبشير وتختلف من ناحية الولاء السياسي • والمؤسف ان أبناء الطبقات البورجوازية والاقطاعية في العالم العربي هم الذين يتربون في هذه المدارس التبشيرية ومن هؤلاء يتخرج غالبا حكام المستقبل الذين يخرجون متوزعين في عواطفهم بين وطنهم وبين الدولة التي اعطتهم ثقافتها وتأثروا بها عاطفيا وبالتالي يختلفــون فيما بينهم ويساهموا بلا شعور في تفرقة اوطانهم وبقاءها متنابذة تدير ظهرها لبعضها البعض ، وذلك لضعف أو لانعدام مفاهيمهم القومية ومقــوماتها وأسسها وأكبر مثــل على ذلك جنوب السودان •

مشاكل مادية اقتصادية : هناك ظاهرة خطيرة في العالم العربي وهي ان هناك بعض الاقطار التي يتزايد غناها مع الزمن وهناك اقطار اخرى يتزايد فقرها مع الزمن • ويمثل الفئة الاولى الاقطار الغنية بالبترول الذي لا يزال حتى الآن أكبر مصدر من مصادر الثروة بالعالم العربي رغم ضآلة ما يناله العرب من عائدات بترولهم اذ لا يزيد ما ينالونه عن ربع ثمن بترولهم فيما لو كانوا يقومون بنقله وتسويقه وتصفيته •

اما الاقطار الاخرى فهي التي تتقدم من الناحية المطلقة اذ تتجه نحو التصنيع ولكنها تتأخر من الناحية النسبية لان تزايد سكانها يفوق سرعة تزايد مصادر ثروتها أي ان نظرية مالتوس تنطبق عليها في حــين لا تنطبق على الاقطار الغنية بالبترول أو الاقطار الراقية التي تزيد ثرواتها أكثر من تزايد سكانها مما يؤمن لاطفالها مستقبلا يزيد رفاهية أكثر فأكثر وحيث تبدو نظرية مالتوس فيها غير صحيحة •

وهذا البترول الذي يقدم المال للعالم العربي بلا تعب ولكن دون ان يساهم كثيرا في اقامة معــامل ومؤسسات انتاجية ، والذي يبعد الشقة من الناحيــة المادية بين الاقطار العربية الغنية وبين الاقطار العربية الفقيرة، يكون عامل تباعد وفرقة أكثر منه عامل تقرب، لان الدعايات الاجنبية المختلفة والتي تجد اذنا صاغية أحيانا عن طيب قلب وسذاجة ، تلح على ان الاقطار العربية الفقيرة تطمع في ثروات البترول في سعيهــا نحو الوحدة والتقارب • لهذا لا نجد نفس الحماس في اللقاء والوحدة لدى الحكومات العربية الغنيــة وأحيانا لدى بعض فئات قليلة من شعوبها •

هذا وتتصف الصناعة العربية والانتاج الزراعي العربي عموما بالتمــاثل أي انه متنافس أكثر منــه متكامل • فمعظم الاقطار العربية تنتج الاسمنت الذي يمثل الصناعة الثقيلة الوحيدة فيها ، في حين ان بقية الصناعات هي صناعات غذائية تحويلية كالمطاحن وصناعة المعجنات أو صناعات نسيجية خفيفة وهي صناعة اليد العاملة النسائية في اوروبا واميركا لانها لا تتطلب الكثير من الخبرة والتدريب •

ونظرا لعدم وجود اتفاقيات ثابتة ودائمة بين أقطار العالم العربي من أجل التعاون الاقتصادي وتجنب التنافس نلاحظ ان معظم الإقطار العربية تقلد بعضها في نفس الفروع الصناعية وهذا مما يغلق اسواقها في وجه بعضها البعض •

والانكى من ذلك ان الاتفاقيات الاقتصادية تخضع في أغلب الاحيان لعواطف شخصية أو لاسباب سياسية عابرة ، اذ بمجرد ان يظهر خلاف بين قطر عربي وآخر ، وما أكثر هذه الاختلافات ، حتى تقطع

العلاقات الاقتصادية ويقف التصدير والاستيراد كتدابير انتقامية وهذا مما لا يساعد على ازدهار الاقطار العربية اقتصاديا ويجعلها سوقا رائجة للمنتجات الاجنبية وهذا بالضبط ما يتمناه اعداء العرب والامل في تحقيق السوق العربية المشتركة •

وعدم التعاون على الصعيد الاقتصادي بين الدول العربية يزيد في تبعية الاقتصاد العربي وربطه الى عجلة اقتصاد الدول الكبرى ، ويجعل الدول العربية الفقيرة تزيد اعتمادها على معونة الدول العظمى أي الدول المشتبكة مع بعضها في حرب باردة مما ينقل هذه الحرب الباردة الى حرب ساخنة أحيانا ونزاعات دامية بين الاقطار العربية نظرا لان المعونة الاجنبية وان كانت خالية من الشروط ظاهريا ورسميا فانها لا تخلو من ايحاءات ومن « نصائح » ليست أخوية أبدا • ولم يتحول المسؤولون في الدول العظمى الى ملائكة كي يقدموا مساعدات خالصة وغير مشروطة تماما وخالصة لوجه الله والاخوة الانسانية •

وحبذا لو تعمد الدول العربية الغنية الى توظيف اموالها عند شقيقاتها ، القليلة الموارد ، والتي تملك تقاليد صناعية وتجارية عريقة ، فيعود الخير على الجميع فينتقل التعاون العربي من المجال الكلامي والدعائي الى الصعيد الواقعي عوضا عن تجميد هذه الاموال التي تبلغ ارقاما فلكية في بنوك سويسرا خاصة واوروبا واميركا عامة والتي يصرف شطر كبير منها على اقتناء القصور الفخمة أو على تصرفات تثير سخرية واشمئزاز الاجانب وتصبح مادة لنكات صحافتهم •

وعلى كل يبدو ان أيد اجنبية تعمل على الهاء العرب عن واقعهم وتبديد طاقاتهم ، وعلى استفحال الاحقاد بينهم ، لأن في ذلك الضمان الوحيد لبقاء الاستغلال الاجنبي وسلبه خيراتنا •

مشاريع التنمية الاجتماعية والاقتصادية :

رأينا سابقا ان البلاد العربية تتعرض الآن لنزيف بشري أي ان هناك هجرة خارجية تصيب شطرا من السكان فتفقدهم بلادهم مع انها في أشد الحاجة لمثل هذه العناصر •

ترى لماذا يهاجر السكان العرب من بلادهم في حين ان فلسطين المحتلة وهي فلذة من العالم العربي تستقبل اعدادا متزايدة من المهاجرين اليهود ؟ مع العلم ان الاقطار العربية تحوي على ثروات هائلة •

يبدو ان هناك نقصا صارخا في التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، نقص جعل العرب يشعرون بالضيق في أوطانهم الغنية جدا كقول الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وهذه الهجرة تمس ثلاث فئات اجتماعية من السكان العرب الاولى : تتألف من العمال غير المختصين الذين لا يملكون سوى سواعدهم فيعملون في المناجم أو في الصناعات الخطرة أو المرهقة التي يرفض العامل الاوروبي ممارستها كالعمال المغاربة في فرنسا والمانيا الغربية وسويسرا أو العمال الاردنيين الذين يعملون في المناجم مجددا • والثانية : تتألف من التجار الذين كانوا يقصدون سواحل افريقيا الشرقية حتى حوادث زنجبار الاخيرة الموجهة ضد العرب ، أو نحو جنوب شرق آسيا ، أو نحو افريقيا الوسطى والغربية وهذه الهجرة تمس اليمنيين واللبنانيين والسوريين ،والاخيرين نجحوا في ان يستحوذوا على زمام التجارة

في بعض اقطار امريكا الجنوبية كالبرازيل مثلا • ومنهم من يعود لقضاء أواخر سني حياته بالوطن ولكن الشطر الاعظم يبقى هناك ويذوب هو واولاده في المجتمع الجديد الذي نشأوا فيه • ولكن الناحية المؤلمة في الهجرة هي هجرة العنصر الثالث وأعني بذلك الخبراء العرب من مهندسين وعلماء واطباء لامعين • والواقع هو ان بعض المتعلمين العرب الذين حصلوا بفضل جدهم وعنادهم بالدراسة في جامعات الغرب على شهادات عالية جدا ، لا يجدون تطبيقا لمعلوماتهم ، التي اكتسبوها خلال دراستهم ، في أوطانهم الاصلية نظرا لتخلفها في المستويات التكنولوجية أو لعدم تقدير حكوماتهم بسبب عدم تقديرها لكفاءاتهم فيضطرون ، والحسرة تلسع نفوسهم ، الى العودة الى ديار الغرب حيث يجدون ترحيبا واجورا عالية مغرية • وهكذا نسمع بين حين وآخر عن طبيب عربي لامع أو مخترع عربي عظيم ونفتخر به ولكن نذهل عن ان هذا التباهي اجوف وفي غير محله لان جهوده لن تستثمر أبدا في خدمة بلده الاصلي الذي عجز عن احتضانه وتبنيه وتشجيعه •

والواقع لقد أخذ الناس يتبرمون من سماع وترديد عبارة الثالوث المؤلف من الفقر والجهل والمرض ، الذي يخيم على عالمنا العربي لان في ذلك تعقيدا لمفاهيم بسيطة • اذ نستطيع ان نرد مصائبنا الى الفقر وحده لانه بمجرد زوال هذا الداء ستزول نتائجه وهي الامراض والجهل في حين لا يمكن القضاء على المرض والجهل مع وجود الفقر •

والحقيقة ان بيئتنا فقيرة في أعين أكثرنا ولكنها طافحة بالثروات في أعين الذين يعرفون امكاناتها اللامحدودة من مستعمرين وغاصبين ، وهذا الشعور بالفقر ينعكس بظلاله الكئيبة على كل مظاهر حياتنا فنتخيل بيئتنا بيئة غير ملائمة لتفتح العبقريات العربية •

ولكن لا يجوز ان ننظر الى هذا القلق على انه شر بل هو بالاحرى دليل خير وخصب لان هذا الشعور هو عبارة عن ثورة على واقعنا المؤلم ، ذلك الواقع الذي فرض على هذا الجيل من العرب مسؤوليات جساما مما يحتم عليهم ان يكونوا على مستوى تلك المهمة •

وتنحصر هذه المهمة حاليا في تحقيق عدد من المشاريع الانمائية الاجتماعية والاقتصادية • هذا وقد خصصت بعض الدول شطرا كبيرا من مواردها لهيئة تتولى تنفيذ هذه المشاريع مثل مجالس الاعمار في العراق والاردن وليبيا ، فقد خصص كل من العراق وليبيا ٧٥٪ من عائدات البترول لمجلس الاعمار في حين يعتمد الاردن الى حد كبير لتمويل مجلس اعماره على المساعدات الخارجية •

هذا وتبدو مشاريع التنمية الاجتماعية متشابكة ومعقدة جدا في العالم العربي لانها مترابطة متآخذة يحار المصلحون في أي المشاريع يبدأون • هل يجب البدء بمكافحة الامية المستفحلة التي تجعل حوالي ثلاثة ارباع سكان الوطن العربي في حالة بائسة نظرا لجهلهم وعدم امكانية دمجهم في نظام اقتصادي عقلاني سواء على الصعيد الزراعي أم على المستوى الصناعي •

ولكن كيف يمكن تأمين عدد من المدارس الكافية فضلا عن المعلمين اللازمين والمخابر اذا كانت الامكانيات المادية لدى الحكومة قليلة متواضعة وليست كل الدول العربية مثل الكويت في غناها كي تنفق بسخاء على التعليم •

ترى هل يمكن البدء بالتصنيع ؟ ولكن من أين الرساميل اللازمة طالما ان معظم الحكومات فقيرة بسبب فقر شعوبها ذاتها • وبسبب عدم وجود طبقة وسطى بورجوازية أو رأسمالية كبيرة نسبيا تستطيع ان تؤمن شطرا من رؤوس الاموال اللازمة للتوظيف في مثل هذه المشاريع الانمائية ؟

وفي بحران هذا التردد وعدم امكانية تحقق التنمية اللازمة يتحقق نمو أكيد على الصعيد الديموغرافي، التي يزيد عدد الافواه الجديدة المحتاجة للغذاء والكساء والتي ستقدم أفواجا من الشبان الذين لن يجدوا أمامهم المدارس والمعاهد الكافية ولا العمل اللازم طالما ان التوسع الصناعي يسير بخطى وئيدة جدا •

ولعل الحل الوحيد الاكيد الذي يستطيع ان يؤمن المال اللازم لنهضة جدية تشمل الاقطار العربية قاطبة هو تحقيق وحدة شاملة ولو على الصعيد الاقتصادي على الاقل بحيث تكون موارد البترول العربي للعرب اذ لا يمكن الاعتماد على المساعدات والقروض من الدول الاجنبية لان المساعدات والقروض « غير المشروطة » لا بد ان تكون مصحوبة ببعض التنازلات •

والتاريخ العربي الحديث حافل بمثل هذه القروض التي اطاحت باستقلال مصر بسبب ديون الخديوي اسماعيل والقروض التونسية والمراكشية قبل الحماية ، والقروض التي استلفتها الامبراطورية العثمانية والتي أدت الى تدميرها وجر العالم العربي الآسيوي معها نحو هاوية الذل والهوان بعد الحرب العالمية الاولى عدا ضياع فلسطين •

وليس من الضروري ان تتحقق وحدة سياسية متعضية فورا وآنيا نظرا لما يتطلب ذلك من دراسة طويلة الامد خوفا من النكسات ، بل المهم والضروري هو ان تضع الدول العربية الغنية ثرواتها الاسطورية الهائلة تحت تصرف شقيقاتها الفقيرة كي تتخلص هذه من الاوضاع البائسة التي تردت فيها وبذلك تؤمن الدول الغنية لنفسها درعا واقيا يحميها لان ثرواتها الطائلة هي التي ستثير عليها مطامع الطامعين الاجانب اذا استمرت في عزلتها •

ولكن السؤال الذي يوضع هو : هل ستوافق الدول الاستعمارية على تحقيق مثل هذه الوحدة ، ولو كانت على الصعيد الاقتصادي والثقافي فقط كمرحلة اولى ؟ وهل ستقف مكتوفة الايدي فلا تتلاعب بعواطف شعوب غير متكاملة الوعي بسبب استفحال الجهل العميق الناجم عن طغيان الامية التي تصيب حوالي أكثر من ٨٠ بالمئة من البالغين والبالغات في وطننا العربي الذي اصبح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ميدانا من ميادين الحرب الباردة التي تظهر على شكل غليان سياسي واجتماعي لا يكون مصحوبا في أغلب الاحيان بتحسن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية العامة •

وعلى كل سيظل استقرارنا السياسي أي تمتعنا بديموقراطية سليمة قائمة على الشورى ومتلائمة مع الروح العربية ، واستقرارنا الاجتماعي ، رهينا بتطورنا الاقتصادي الذي سيقضي على مظاهر البؤس والحرمان المادي اذ كاد الفقر ان يكون كفرا •

من مشاريع التنمية الاجتماعية التي تبدو الاقطار العربية بأشد الحاجة اليها هي تأمين العلاج لسواد الجماهير بكلفة يتحملها الجميع أي ضرورة التأمين الصحي وقد تحقق ذلك لدى بعض الدول العربية مثل الكويت وليبيا فقط • والتأمين عند الشيخوخة وضد البطالة • وفقدان هذا الضمان يجعل المواطن أحيانا حريصا على الكسب من أي طريق كان خوفا على غده الذي لن يكون مضمونا •

وتتوقف هنا برهة لضرورة شرح أهمية ذلك ، ذلك ان العربي شديد الحرص على شرفه وكرامته وشرف أفراد اسرته للغاية ، وفقدان هذا الضمان يقلب التنافس الشريف بين المواطنين ، كما هو الحال في المجتمعات الراقية ، الى مزاحمة وتحاسد وتناحر ووضع العصي بالعجلات فيكثر الحسد ويستشرى • وفي ذلك عرقلة كاملة لتقدم المجتمع ورقيه اذ ستلعب المحسوبية والوساطة دورها التخريبي الى جانب التملق والسلوك السردابي والنفاق ، بدل ظهور الكفاءات والنزاهة التي تستطيع ان تنهض بمستوى البلاد اخلاقيا وماديا •

هذا وسنتعرض لبعض مشاريع التنمية الاقتصادية التي نفذت أو التي هي قيد التنفيذ والتي ستنفذ في وطننا العربي الحبيب لاننا نعلق على هذه المشاريع الانمائية أكبر الآمال راجين من ورائها تحقيق السعادة لابنائنا واحفادنا •

وسنشير قبل البدء بذكر هذه المشاريع في كل من الاقطار العربية الى ضرورة نقل التعاون العربي الى صعيد العمل ، اذ كيف نأمل بحدوث تقارب عربي يؤدي للتفاهم والتعارف بين الشعوب العربية طالما ان المواصلات البحرية والجوية أحيانا بين البلاد العربية تتم غالبا بواسطة البواخر والطائرات الاجنبية حتى معظم البواخر التي تنقل الحجاج الى بيت الله الحرام • اذ لا توجد باخرة عربية واحدة تصل بين موانىء المحيط الاطلسي وبين صدر البحر المتوسط الشرقي كبيروت أو اللاذقية • ونأمل جميعا ان يتحقق مشروع خلق اسطول عربي تجاري يربط بين موانىء المحيط الاطلسي وبين موانىء الخليج العربي •

ولا بأس ان نعلم ، مع الاسف ، انه من اجل السفر الى طرابلس الغرب بحرا يجب ان يذهب المسافر من آسيا العربية الى ايطاليا ومنها الى ليبيا كما ان السفر الى الجزائر أو المغرب جوا يتطلب الهبوط في باريس مسبقا • ترى أليس هذا الوضع من الاوضاع المؤلمة ؟

وهنا لا تقع المسؤوليات على عاتق الجامعة العربية التي هي جامعة حكومات تتأثر بالظروف السياسية وهذا ما يجعلها عاجزة حتى الآن عن تنفيذ مشاريع هامة أو عن حل كثير من المشاكل المستعصية أو الخلافات التي تنشب بين الدول العربية •

مشاريع التنمية الاقتصادية في سورية :

منذ حصلت البلاد على استقلالها الناجز اهتمت الحكومة الوطنية بتأمين رفاهية شعبها عن طريق رفع مستواه ففكرت بتنفيذ مشاريع معتمدة على مواردها الخاصة ، لان كل الحكومات التي تعاقبت على سورية كانت ترفض بإباء وشمم أي عون أجنبي خشية وحرصا على سلامة استقلالها ، ورغم كل المشاكل الداخلية والخارجية التي عانتها البلاد استطاعت مع ذلك انجاز عدة مشاريع رائعة تفتخر بها مثل :

١ — مرفأ اللاذقية : الذي تم على أثر صدور القانون رقم ٣٨ بتاريخ ١٢/٢/١٩٥٠ المتضمن احداث شركة باسم « شركة مرفأ اللاذقية » وبدأت الاعمال في نيسان ١٩٥٣ وانتهت في ٢٨/١٢/١٩٥٦ حيث تم بناء مكسر رئيسي بطول ١٤٣٢ م يحمي حوضا مساحته ٤٥ هكتارا وبناء رصيفين ، وردم البحر في جزء من المرفأ وتعميق بعض نواحي الاحواض وتعزيل المداخل •

كما تم بناء صوامع لتخزين الحبوب طاقتها ٣٥٠٠٠ طن •

٢ — مرفأ طرطوس : وقد بوشر العمل به في نيسان ١٩٦٠ ولا يزال العمل جاريا فيه حتى الآن • وسيتسع هذا الميناء لرسو ٢٢ باخرة •

٣ — مشروع مد الخط الحديدي الذي سيربط بين اللاذقية وحلب حتى القامشلي وسيكون عبارة عن رئة بالنسبة لمنطقتي الجزيرة والفرات اذ سيتمكن من تصدير محاصيلهما بسهولة وباسعار رخيصة كي تستطيع منافسة مثيلاتها بالاسواق العالمية •

٤ — مشروع الغاب : وقد بدأ العمل فيه في مطلع عام ١٩٥٤ • وهذا المشروع الضخم استهدف انقاذ ٣٥٠٠٠ هكتار من طغيان العاصي ومستنقعاته • وتنتج عن تنفيذ المشروع تصحيح مجرى العاصي بالغاب وذلك بتعميقه وتعريضه ، وفتح قناة لتصريف المياه طولها ٣٢ كم ، وقناة ثانية بطول ١٤ كم•

٥ — سد الرستن : وقد تم بناؤه في عام ١٩٦١ وقد بدىء العمل به عام ١٩٥٨ • ويبلغ ارتفاعه ٧٠ م وطوله ٣٨٠ م ويحجز خلفه ٢٥٠ مليون م^3 من المياه (أقل من السد العالي بمقدار ٥٢٠ مرة) كما سيقوم عنده معمل لانتاج الطاقة الكهربائية ينتج ٧٥٠٠ كيلوواط ساعي •

٦ — سد العشارنة وشبكة الري : ويشتمل فضلا عن السد التحويلي ٤ أقنية للري طول مجموعها ٢٠٦ كم وتروي مساحة ٤٣٥٠٠ هكتار •

٧ — سد محردة : الذي يخزن ٦٧ مليون م^3 وطوله ٢٣٠ م وارتفاعه ٤٣ م •

٨ — سد الفرات : وهو المشروع المنتظر ان يتم البدء فيه بين شهر وآخر بعد ان اشرفت الدراسات التمهيدية على النهاية وسيؤدي هذا السد العظيم الذي سيتحقق في موقع الطبقة بين مسكنة والرقة الى تحسين اقتصادي شامل • وهذا السد وان كان اصغر من السد العالي في مصر بكثير الا ان فائدته من الناحية الزراعية لا تقل مطلقا عن السد العالي لتوفر التربة الجيدة • والمرجو ان يؤدي بناء هذا السد الى حل كثير من المسائل المتعلقة بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية في سورية اذ سيفتح مجالات واسعة للعمل •

٩ — مشاريع الري على الخابور : وهو نهر عظيم غزير المياه يجري في مناطق سهلية يكفي اقامة سدود تحويلية على مجراه كي يمكن استغلال كل مياهه في الاراضي السورية •

والخلاصة ان امكانيات الجمهورية العربية السورية رائعة حقا مما يدفعنا للتفاؤل بمستقبل مشرق لهذا القطر لا سيما بعد البدء باستغلال حقول الزيت والغاز في الجزيرة •

لبنان :

لم تقم في لبنان مشاريع هامة انمائية على الصعيد الحكومي باستثناء مشروع الليطاني والرامي الى ري البقاع الجنوبي مع توليد الطاقة الكهربائية •

ولكن تفسير مستوى الدخل الفردي المرتفع نسبيا بين سائر الاقطار العربية الشقيقة يعود الى اوضاع لبنان الخاصة بكونه يسمح بحرية تنقل الثروات ، وهذا ما جعله ملجأ للثروات الهائلة القادمة خاصة من الاقطار العربية الغنية بالبترول مثل الكويت وقطر وليبيا والبحرين أي أن لبنان أصبح بين الاقطار العربية

يلعب دور سويسرا في اوروبا وسائر انحاء العالم ،كما يعود ذلك لوظيفته السياحية اذ يقصده المصطافون من سائر انحاء العالم العربي حيث يجدون عذوبة المناخ والمتعة البريئة كما يقصده هواة القمار والتسلية اذ يحوي كازينو يعتبر من أكبر أمثاله بالعالم ، كما تجري في لبنان ضروب من نشاط اقتصادي مشبوه كتجارة المخدرات على نطاق دولي الخ ...

الاردن :

سبق ان ذكرنا ان الاردن يضم مجلس اعمار مثل العراق وليبيا ، ورغم ان موارد هذا القطر هزيلة جدا لا سيما بعد ان تدفق عليه أكثر من نصف مليون لاجيء فلسطيني استطاع ان ينفذ بعض المشاريع الهامة مثل مشروع قناة الغور الشرقية التي تروي بعض مناطق من الضفة الشرقية لنهر الاردن وتستمد مياهها من نهر اليرموك قبيل مرفده مع نهر الاردن ويتم تنفيذ هذا المشروع على مراحل . كما ينتظر بين شهر وآخر ان يبدأ انتاج استغلال موارد البحر الميت من فوسفات واملاح متنوعة فضلا عن تنمية صناعة استخراج الفوسفات من مناجم الحسا والرصيفة وصناعة الاسمنت الحديثة . هذا ويعول الاردن كثيرا على تنفيذ مشروعين هامين لا يزال تنفيذهما رهنا بالتعاون العربي وهما مشروع اليرموك الذي سيتحقق بالتعاون مع سورية ، ومشروع اعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي الذي يتعلق بالتضامن السعودي الاردني السوري ، وتشير الانباء الى ان التنمية الاقتصادية سائرة بشكل مقبول حتى ان الحكومة الاردنية اعلنت انها ستستغني عن المساعدات الاجنبية في خلال فترة تقل عن ١٠ سنوات .

العراق :

يبدو العراق القطر العربي الاول الذي يتسع لاعداد كبيرة من السكان اذ يقدر ان قدرة استعابه السكانية تتجاوز ٢٠ مليونا من السكان فيما اذا أمكن تنفيذ كل المشاريع المقررة فيه ، لذلك يستطيع هذا القطر ان يساهم في تخفيف الضغط الديموغرافي عن بعض الاقطار ولكن هناك حقيقة يذهل عنها الكثيرون وهي ان نقل المهاجرين من قطر لآخر واسكانهم وتشغيلهم يتطلب نفقة تعادل حوالي ٥٠٠٠ ليرة سورية للشخص الواحد وهذه معضلة كبرى تقف في وجه الهجرة بين الاقطار العربية فيما اذا زالت كل الحواجز وامكن تذليل كل الصعوبات المختلفة .

اما المشاريع الاقتصادية الانمائية الرئيسية هنا فهي المشاريع الرامية الى استغلال مياه الانهار العظيمة التي تخترق اراضي العراق وهي مشاريع قد تم تنفيذ بعضها وبعضها قيد العمل والبعض قيد الدراسة وكل هذه المشاريع تنفذ باشراف مجلس الاعمار .

واليكم المشاريع الاروائية والكهربائية على نهر الدجلة من الشمال للجنوب :

١ — سد دبرج .

٢ — سد اسكي موصل .

٣ — سد بخمه على نهر الزاب الكبير وارتفاعه ١٦٥ م وسعته ٣ر٨ مليار م^{3} ، وسينتج طاقة كهربائية قدرها ٦٠٠٠٠٠ كيلوواط ساعي .

٤ — سد دوكان على نهر الزاب الصغير قرب مدينة السليمانية .

٥ — سد دربند خان على نهر ديالي وستكون سعته ٣ر٧ مليار م٣ .

٦ — سد سامراء الذي تم تنفيذه لتحويل فيضان الدجلة نحو منخفض الثرثار .

٧ — سد الكـوت .

أما مشاريع نهر الفرات فهي :

٨ — مشروع سد راوه .

٩ — سد خان البغدادي .

١٠— سد الرمادي اذ تعهدت القيام به شركة هرسانت الفرنسية بمبلغ ٤ر١ مليون دينار .

١١— سد الهنديـة .

هذا ويعتبر مشروع الحبانية من أهم مشاريع الري الكبرى في العراق فهو يتضمن اعمالا كثيرة منها درء خطر الفيضان وارواء الاراضي في موسم شح مياه الفرات (الصهيود في العراق والتحـاريق في مصر) .

اما مشروع وادي الثرثار الذي انتهى عام ١٩٥٧ فقد انجزته شركة بلفور بيتي الفرنسية وشركة زبلن الالمانية . وكان من حملة أهداف المشروع توليـد الطاقة الكهربائية وقدرها ١٤٥٠٠٠ كيلوواط ساعي .

هذا كما لدى العراق مشاريع عديدة صناعية واخرى تتعلق بالمواصلات البرية والبحرية والنهرية .

الكويت :

يتجه الكويت اليوم نحو تنفيذ عدة مشاريع منها مشروع ضخم لتأمـين مياه الشرب والري الجزئي وذلك من شط العرب بعد الاتفاق الذي تم بين الكويت وبين حكومة الجمهورية العراقية بعـد الثورة العراقية الثانية أي ثورة رمضان أو شباط ١٩٦٣ .

كما تفكر الكويت بايجاد صناعة قائمة على البترول وهي صناعات البتروكيميـاء كصناعة اللـدائن وسواهـا .

ولكن الكويت هو القطر الوحيد الذي يساهم بشكل محدود جدا عن طريق تقديم القروض في التنمية الصناعية في الاقطار العربية الشقيقة أو لتنفيذ بعض المشاريع الاقتصادية مثل القروض التي قدمها للجزائر من أجل تنفيذ خط الانابيب البترولية حتى البحر والى تونس أيضا والى الاردن والى لبنان والى السودان من أجل مد خطوط حديدية والى الجمهورية العربية المتحدة .

المملكة السعودية :

لقد تم مشروع اقتصادي ضخم في السعودية وهو مد الخط الحديدي بين ميناء الدمام وبين الرياض العاصمة بالتعاون مع شركات البترول الاميركية .

هذا كما نفذت الحكومة السعودية تعبيد طرق جيدة بين جدة ومكة المكرمة وبين جدة والمدينة المنورة

وبذلك سهلت تنقل الحجاج كثيرا • كما عملت على توسيع ميناء جدة الذي أصبح أهم ميناء بالبحر الاحمر •

اما المشاريع الزراعية الهامة فهي التي تمت في منطقة نجد الشرقية والاحساء وهي انشاء مزارع حديثة جدا بالتعاون مع خبراء اميركان وقد نجحت معظم هذه المشاريع نجاحا مدهشا •

اليمن :

تم بناء ميناء الحديدة قبيل الثورة اليمنية على يد مؤسسات سوفياتية ، كما انجز بناء أول طريق معبد حديث باليمن بين الحديدة وبين صنعاء قبل اندلاع الثورة اليمنية بشهر واحد بمعونة صينية • وقد استخدمته القوات المصرية التي دخلت اليمن لدعم الثورة ضد الامام البدر بن احمد •

كما تم عدة مشاريع لبناء المشافي الحديثة وجر المياه الصالحة للشرب اذ لم يكن باليمن مياه جارية سوى بالعاصمة صنعاء قبل الثورة وقد تم تمديد المياه النقية في مدينة تعز بالاستعانة بخبراء اجانب ، ولكن اليمن بحاجة الى مشاريع لا تحصى لانها لا زالت تعتبر في طليعة الدول المتخلفة •

الجمهورية العربية المتحدة :

ان المشاريع الانمائية التي تنفذ في مصر تعتبر مشاريع ضخمة جدا ، ولكن المشاكل التي يعاني منها هذا القطر هي أيضا ضخمة جدا • فالازدحام السكاني بلغ هناك درجة لا مثيل لها بالعالم • واذا كانت مصر بالماضي بلد الغنى والثراء كما وصفها عمرو بن العاص رضي الله عنه بقوله : ارضها ذهب ، فقد أصبحت اليوم بلد الفقر بسبب انتفاخ عدد سكانها وعدم تماشي التطور الاقتصادي مع التطور الديموغرافي ، حتى أصبحت الدعوة لضبط النسل وتحديده على ألسنة المسؤولين والكتّاب والصحف والمجلات ، واتخذت كشعار وشرط للتقدم • ويبدو التصنيع كسلاح ذو حدين هنا ذلك لانه يؤدي للبطالة بين صفوف ارباب الحرف التقليدية كما أن الآلة تعتبر هنا أيضا كمنافس خطير لليد العاملة الوفيرة جدا والرخيصة جدا • كما ان الانتاج الصناعي على مقياس ضخم يتطلب سوقا استهلاكية ضخمة غير متوفرة بالداخل ويجب البحث عنها في الخارج أي الاتجاه نحو التصدير والتعرض لمنافسة الدول الصناعية العريقة الاخرى •

وعلى كل حال تتجه مصر الآن نحو اتمام مشروع بدىء بتنفيذه وتعلق عليه أكبر الآمال وهو السد العالي •

١ ــ السد العالي : ويمثل محاولة جريئة لتأمين مياه الري لكل الاراضي القابلة للزراعة • وسيؤدي لزيادة رقعة الارض المزروعة وتحويل مناطق الري الموقت أو ري الحياض الى ري دائم • كما سيؤدي لتنمية اقتصاد البلاد وحمايتها من خطر الفيضان فضلا عن طاقة كهربائية قدرها ١٠ مليارات كيلوواط بالسنة•

وسيخزن هذا السد ١٣٠ مليار م٣ أو ٤ امثال ما يخزنه سد بولدر الاميركي وهو أكبر سد قائم حاليا بالعالم ، وستؤدي هذه المياه لاحياء مليون فدان مع ان رقعة الارض المزروعة حاليا ٦ ملايين فدان ، وبما انه سيحول مناطق الري الموقت الى ري دائم فمعنى ذلك سيزيد رقعة الارض المزروعة فعلا بحوالي

٣٠٪ • وسيكون ارتفاعه ١١١ م من قاع النيل حتى سطحه ، كما ان عرضه عند القاعدة ١٠٠٠ م ، وعرض الطريق فوقه ٣٢ م وطوله ٣٥٠٠ م ، أي يعتبر أكبر مشروع تم انجازه في مصر بعد الاهرامات التي بناها الفراعنة •

وستبلغ تكاليفه الاجمالية ٤٠٤ ملايين جنيه منها ٧٨ مليون جنيه على شكل قرض روسي • وبمجرد انتهاء العمل فيه سيزيد الدخل القومي سنويا ٢٣٤ مليون جنيه والدخل الحكومي ٢٢ مليون •

٢ ــ مشروع الوادي الجديد : وهو عبارة عن منطقة منخفضة موازية للنيل يبدو انها غنية بالمياه الباطنية وخاصة في واحات الخارجة والداخلة وبذلك سيكون اسمه فيما بعد تنفيذ هذه المشاريع الوادي الجديد أو الوادي الريان •

٣ ــ مشروع منخفض القطارة : وهو منخفض غرب الدلتا قريب من البحر وينخفض مستواه دون البحر بمقدار ٤٥ م وتقوم دراسات من أجل جر مياه البحر اليه وتكوين شلال ينتج قوة كهربائية رخيصة تنقل الى منطقة مصر السفلى وتساهم في تأمين القوة المحركة للصناعة •

٤ ــ مشاريع التصنيع : وهي مشاريع تقوم على الصناعة التحويلية وتوسيع القائمة منها • اما مشروع الصناعة الثقيلة الوحيدة فهو معمل الصلب أي الحديد والفولاذ الذي سيعمل على فلزات الحديد قرب اسوان وسيستفيد من الطاقة الكهربائية الناتجة •

٥ ــ مشاريع الاسطول البحري : بالفعل تعتبر مصر القطر الوحيد الذي يملك اسطولا تجاريا مؤلفا من عدة قطع تقوم بربط الاسكندرية ببيروت أو مع أثينا وجنوا ومرسليا ، ولكن عدد البواخر وحمولتها لا يتناسبان مع أهمية مصر كقطر من أقطار البحر الابيض المتوسط • وعلى كل هناك نقطة ضعف مؤلمة هي ان العرب لا زالوا يديرون ظهورهم للبحر تاركين للاساطيل الاجنبية مهمة نقل بترولهم واستيراد وتصدير بضائعهم لان وجود شاحنتين أو ثلاثة للنفط في كل من السعودية والكويت لا يؤلف شيئا مذكورا بالنسبة للاساطيل الاجنبية التي تنقل بترولنا الى موانىء الدنيا ونرجو ان تتدارك الحكومات العربية ذلك ويتلافى هذا النقص الخطير •

السودان :

لا يزال السودان ينظر الى الزراعة كمصدر رئيسي لموارده لذلك لا يكون من المستغرب اذا اهتم قبل كل شيء بقضية السدود على النيل وروافده وعقد اتفاقات مع مصر ومع الحبشة من أجل اقتسام مياه النهر بغية التوسع في الزراعة المروية • والى جانب التوسع في مشروع الجزيرة القائم على أساس زراعة القطن من النوع الطويل التيلة (مماثل للقطن المصري) أصبح من الضروري بالنسبة للسودان تأمين تصريف هذا الانتاج وذلك ببناء خطوط حديدية تصل مناطق الانتاج القطني ومناطق انتاج الصمغ العربي والماشية في اواسط السودان وغربه بمواني البحر الاحمر ولاسيما بورسودان • ومن أجل ذلك طلب السودان عون الكويت من أجل تنمية شبكة خطوطه الحديدية •

كما يفكر السودان باستصلاح مجرى النيل في منطقة « السدود » النباتية حيث ينمو نبات «ام صوف»

الذي يعيق الملاحة النهرية في الوادي ولا سيما في فترة التحاريق على النيل الابيض • وهذا المشروع له هدف قومي واقتصادي اذ سيربط جنوب السودان بشماله ، ذلك الجنوب الذي عزلته البعثات التبشيرية والاستعمار عن الشمال وجعلته شوكة في خاصرة السودان ، ومن الناحية الاقتصادية لا يمكن استغلال امكانيات الجنوب الاقتصادية وتطويره دون تسهيل اتصاله بالشمال الذي يؤلف دماغ السودان وقلبه •

هذا ويتجه السودان نحو التصنيع عن طريق اقامة معامل لغزل القطن ونسجه وبذلك تكون كلفة النقل أقل لان البضاعة المنقولة أكثر ثمنا • وعلى كل تظل مشكلة المواصلات بالنسبة للسودان هي المشكلة الاولى •

ليبيا :

لقد كانت هذه البقعة من العالم العربي متميزة باخفض مستوى معاشي بعد ان تخلصت من اسوأ أنواع الاستعمار ، اذ حارب الايطاليون كل تعليم في هذا البلد وكادوا يقضون على كل مقوماته العربية والاسلامية •

وقد تم اكتشاف البترول عام ١٩٥٨ في عدة مواقع بكميات غزيرة جدا وقريبة من البحر ومن الاسواق الاوروبية بحيث أصبح البترول الليبي يتمتع بشروط مثالية بالنسبة للتسويق في اوروبا القريبة منه • وقد أدى الرخاء المفاجيء الناتج عن ظهور البترول الى اهمال الزراعة نوعا ما والاعتماد أكثر فأكثر على الحاصلات الزراعية الاجنبية المستوردة كالدقيق والبقول المجففة والمعلبات في حين كان هذا القطر يصدر الحاصلات الزراعية سابقا • وحسب المبدأ المعروف « ان البترول يوجد المال في الاقطار المتخلفة ولكن لا يخلق مجالات عمل » لذلك نشطت تجارة الاستهلاك أي الاستيراد من الدول الاجنبية من وسائل ترفيه وسيارات دون ان يقابلها نمو في التصدير اللهم الا البترول الخام • واذا كانت التنمية الاجتماعية تسير سيرا حسنا في هذا القطر كمحاربة الجهل والمرض رغم ندرة الاطباء الوطنيين اذ لم تكن تضم ليبيا عام ١٩٦٤ أكثر من ١٥ طبيب ليبي والباقي معظمهم أجانب وعدد بسيط من الاقطار العربية الشقيقة التي تفتقر ذاتها للاطباء ، فان التنمية الاقتصادية الانتاجية لم تتعرف الى أي تحسين يستحق الذكر • فمصائد الاسماك لا زالت هزيلة وغالبا ما يتم الصيد على أيدي الاجانب مثل اليونان والطليان والمالطيين ، كما ان المشاريع الصناعية لا زالت مجهولة اللهم الا التوسع في الصناعات الحرفية التقليدية كنسج البسط والسجاد •

تونس :

استنادا الى المخطط العشري (١٠ سنوات) يتجه القطر التونسي نحو التصنيع (١٩٦٢ — ١٩٧١) وذلك باقامة عدة مؤسسات صناعية معتمدة على عون الدول الاجنبية ومن هذه الصناعات تأسيس معامل سيللولوز تعتمد على نبات الحلفا الذي يكثر بالبلاد والذي لا زال يصدر بشكل خام ، ومعامل لانتاج السكر من الشمندر الذي ستعمد البلاد للتوسع في زراعته في سهل المجردة ، وبناء صناعة حديدية ثقيلة بجوار ميناء بنزرت في موقع منزل بورقيبة •

هذا ويمكن التوسع في صناعة تحويل الفوسفات الى سوبرفوسفات • وتنشيط الصيد البحري وصناعة تعليب الاسماك كالسردين والطونة ، ولكن المشكلة هي ان تصدير معلبات الاسماك تتعرض لمنافسة

خطيرة من قبل المعلبات البرتغالية في داخل الاسواق العربية ذاتها وهذه نقطة تدعو للتأمل • اذ ان الاقطار العربية بوضعها الحالي تدير ظهرها لبعضها البعض من الناحية الاقتصادية مع الاسف •

الجزائر :

بعد حرب بطولية وثورة شعبية دامت سبع سنوات حصلت هذه البلاد على استقلال دفعت ثمنه غاليا • وعلى أثر ذلك غادر البلاد حوالي مليون اوروبي كانوا يمسكون بزمـام النشاط الاقتصادي كله تقريبا فتعرضت البلاد لمشكلة اقتصادية عويصة ولكنها استطاعت ان تحل بعض مسائلها وهذا وضع طبيعي وموقت لان حرية الجزائر هي أثمن من كل شيء • وأهم المشاكل التي تقف أمام هذا القطر الغني هي : انحطـاط تربية الماشية بفعل حرب الاستقلال الطويلة ، جمود الوضع الزراعي الغذائي ، أزمة في الصناعات الحرفية، ضعف الاقتصاد الحديث ، انتفاخ اصطناعي بالمـدن بفعل السكان الذين هجـروا أريافهم ، واستفحلت البطالة بحيث ان ٤٣٪ من القادرين على العمل لا يجدون عملا أو لا يجدون عملا دائما ومنتظما •

هذا كما أخذ تصدير الخمور الى فرنسا يلاقي صعوبة متزايدة من قبل التجار الفرنسيين • ولكن هناك عدة صناعات قائمة مثل الاسمنت ، وتركيب اجزاء سيارات « رينو » وكميونات « برلييه » في مدينة الجزائر ذاتها ، وصناعات تنتج المعجنات ولاسيما المعكرونة والكسكسي • كما قامت مصفاة بترول في الجزائر ومعمـل للغاز السائـل في أزرو لتصديره الى اوروبا ، كما يجري مد خط للانابيب لنقل البترول والغـاز حتى الساحل بمساعدة ماليـة كويتية •

وهكذا يتراءى لنا ان أمل الجزائر الاكبر يكمن الآن في تصنيع البترول الخام الناتج عندها وتحويل المعادن الخام التي تنتجها الى مصنوعات بعد ان توفر لديها الوقود اللازم •

المغرب :

منذ ان حصل هذا البلد على استقلاله المجيد تعرض لازمات اقتصادية عسيرة لكن سرعان ما عـادت رؤوس الاموال الاجنبية اليه وراحت تدعم نشاطـه الصناعي وان كانت تمتص الكثـير من الارباح على حسابه • وقد اتجهت الجهود نحو فرعين هامين هما :

١ ــ تحسين الانتاج التعديني (المنجمي) كالفوسفات من أجل التوسع في التصدير •

٢ ــ تطوير الزراعة ، فعمدت الدولة الى تشجيع التحريج وزراعة القطن والشوندر السكري كما لجأت الى ادخال الآلات الزراعية على اوسع نطاق ممكن من أجل زيادة المردود والانتاج •

٣ ــ اقامة الصناعات من أجل تأمين العمل للجماهير وتجنب الاستيراد الغالي • وقد أمكن تحقيق بعض المشاريع الهامة مثل : اقامة مصفاة للبترول في ميناء المحمدية كما يجري انجاز بعض المشاريع الهامة مثل معامل آسفي لانتاج السوبرفوسفات والذي سينجز في عام ١٩٦٥ • وهناك مشاريع مدروسة مثل معامل لانتاج الحديد المصنوع في الناضور في شمال المغرب (الريف) ، ومعمل لتركيب السيارات ، ومعامل لانتاج عجلات السيارات برساميل اميركية •

كما لجأت الحكومة المغربية الى انتزاع ملكية كبار المعمرين الاقطاعيين الاجانب وتوزيع هذه الاراضي على الفلاحين من غير المالكين فاستردت بذلك ٢٢٠٠٠٠ هكتار • ولا يزال بيد المعمرين الاجانب ٣٨٠٠ مزرعة مساحتها ٦٨٠٠٠٠ هكتار انتجت عام ١٩٦٢ ، ٩٠٪ من الخمور ، ٦٠٪ من الحمضيات ، ٤٠٪ من الخضار الباكورية و ١٥٪ من الحبوب •

الجمهورية الاسلامية الموريتانية :

تملك هذه الدولة ساحلا غنيا جدا بالاسماك ولكن يستغله صيادون فرنسيون واسبان من جزر كناري • وقامت عدة معامل في ميناء بور اتيان لتجفيف السمك وتعليبه برؤوس اموال أجنبية •

ولكن ثروة هذه البلاد الرئيسية تكمن في باطن ارضها • فقد ابتدأ استغلال النحاس من مناجم اكجوجت وهو معدن مخلوط مع الذهب من قبل شركات أجنبية أهمها شركة بينارويا الفرنسية • كما بدأ استغلال الحديد منذ عام ١٩٦٣ من موقع فورغورو ويبلغ الاحتياطي هنا عدة مئات الملايين من الاطنان ونسبة الحديد فيها عالية جدا تعادل ٦٠٪ (حديدراجو في سورية ٣٥٪) ويبلغ الانتاج ٤ ملايين طن (١٩٦٤) بالسنة تصدر بواسطة خط حديدي طوله ٦٨٠ كم حتى بوراتيان ، وتتألف رؤوس اموال استغلال الحديد من اصل فرنسي (بنك روتشيلداليهودي) واموال المانية وايطالية وانكليزية •

الخلاصة : نلاحظ من خلال دراستنا الخاطفة ان الاقطار العربية لا زالت في أول الطريق نحو التنمية الاقتصادية والاجتماعية وأمامها طريق طويلة جداوشاقة تتطلب العناد والايمان بالنجاح والحصول على نفسيات جديدة ، لان الانسان يقرأ على مدخل البرلمان الهندي العبارة التالية : « لا تتبدل اوضاع الشعوب مالم تتبدل نفوسها » • ولدينا باللغة العربية عبارة أكثر بلاغة بكثير نستمدها من القرآن الكريم : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، أي اننا نقف امام اوضاع جديدة وحقائق جديدة لا يمكن رؤيتها الا بعقول جديدة وعيون جديدة ، حقق الله لشعبنا العربي المجيد آماله وأنقذه من تخلفه انه سميع مجيب [1] •

---

(١) تصحيح خطأ مطبعي : تقرأ العبارة الواردة في صفحة ١٥٥ سطر ٢١ كما يلي :

اما في عام ١٩٦٠ فكان الدخل الفردي السنوي بالدولارات في الولايات المتحدة ... والسطر ٢٦ : ويعتبر الدخل في الاقطار الراقية فوق ٤٥٠ دولار ...

الوطن العربي

خصائص الوطن العربي الطبيعية والبشرية
ومقومات الوحدة فيه

١ ـ خصائص الوطن العربي لطبيعية :

ان كل أمة تعيش على سطح هذه الارض تستمد جميع مقوماتها من الرقعة التي استقرت فوقها على مر أجيال وعصور • فأنماط حياتها ومستوى معاش أفرادها وبالتالي مدنيتها وتطورها ، هو تفاعل بين الانسان وشروطه الطبيعية ، أي تفاعل بينه وبين بيئته •

والامة العربية التي ترجع جذورها الى أقدم اصول الانسانية ، وتعتبر من أقدم الامم وأعرقها في المدنية ، نشأت وترعرعت في وسط جغرافي خاص ،لأثره أكبر الاهمية في تكونها وتاريخها وتطور مدنيتها •

وقد تأثرت الامة العربية كثيرا بموقع بلادها على سطح الارض ، وبشروطها الطبيعية ، من تضاريس ومناخ فاستمدت من كل ذلك مختلف مظاهر حياتها الاقتصادية ، والبشرية ، والاجتماعية ، والمعنوية ، وبالتالي مدنيتها ، والطريق الذي قادها الى تأريخها •

ولذلك وجب علينا ان نلقي نظرة عجلى على هذا الاطار الطبيعي لنلم باهم عناصر بيئة العرب ونستجلي تفسيرا لمختلف مظاهر حياة الامة العربية ومجتمعها •

موقع البلاد العربية في العالم :

لموقع البلاد العربية على سطح الكرة الارضية اكبر الاهمية في تفهم تضاريسها ومناخها أولا وعلاقاتها مع باقي الامم المجاورة ثانيا • فمن جبال طوروس شمالا حتى بحر العرب والمحيط الهندي في الجنوب في آسيا ، ومن برزخ السويس حتى المحيط الاطلسي في افريقية تمتد رقعة البلاد التي نشأ منها العرب وانتشروا فيها •

فالجزيرة العربية هي المنبت الاصيل الذي انبثقت منه الامة العربية ومنها انتشرت الى بلادها في افريقية ، فمن كان في الجزيرة العربية فهم عرب المشرق ومن كان في افريقيا فهم عرب المغرب •

وتقع هذه البلاد العربية في أهم نقطة من الكرة الارضية ، اذ انها في وسط القارات القديمة التي نشأت فيها كل مدنيات الارض ، فهي صلة الوصل بين قاراتها الثلاث : آسيا وافريقيا واوروبا • كما انها تحيط بالبحر الابيض المتوسط من جنوبه وشرقه ، ذلك البحر الذي قامت على أطرافه اعرق المدنيات وأعظم الامبراطوريات ، وكان للعرب من كل ذلك النصيب الاوفر والمقام الاول •

وبحكم موقع بلادهم هذا ، كان العرب على مدى قرون كثيرة ، صلة الوصل بين مختلف مدنيات العالم القديم ، مدنيات الشرق الاقصى والهند ، ومدنيات البحر المتوسط واوروبا ، كما يظهر ذلك جليا في تاريخ بلادنا منذ ما قبل الاسلام حتى يومنا الحاضر •

ونبدأ بعرض هذا الاطار الطبيعي وذلك بالقاء نظرة منفردة على كل من شقي العالم العربي في آسيا وافريقية تسهيلا وتبسيطا للبحث •

العالم العربي في آسيا

الجزيرة العربية :

تقع الجزيرة أو بالاصح شبه الجزيرة العربية في جنوب غربي آسيا وتمتد على رقعة فسيحة من الارض تحيط بها البحار من معظم اطرافها ، فتشرف من الغرب على البحر المتوسط وتشغل كل ساحله الشرقي وكذلك على البحر الاحمر ، بينما يحيط بها من الجنوب بحر عمان والمحيط الهندي ومن الشرق الخليج العربي . ويطوقها من الشمال والشمال الشرقي جدار جبلي منيع يتشكل من سلاسل جبال طوروس وجبال زاغروس فيخط الحدود التي فصلت منذ غابر الازمنة بين عالم العرب وعالم العجم ، بينما تتصل الجزيرة العربية بالعالم العربي الافريقي بعتبة واسعة منبسطة هي برزخ السويس وبواسطة البحر الاحمر الضيق (البحر العربي) الذي لم يكن في يوم ما عقبة في سبيل هذا الاتصال الحثيث .

فشبه الجزيرة العربية قارة صغيرة تمتد على طول ٣٠٠٠ كم من الشمال الى الجنوب ويبلغ عرضها بين البحر المتوسط والخليج العربي ١٤٠٠ كم فتبلغ بذلك مساحتها ٣٫٥ مليون كيلو متر مربع . وتمتد هذه القارة الصغيرة على ٢٥° درجة عرض بين خطي عرض ١٢° و ٣٧° شمال خط الاستواء .

تضاريس الجزيرة العربية :

الجزيرة العربية رقعة منبسطة من الارض ذات تضاريس هادئة لا تشكل حواجز فيما بين أجزائها كما هو الحال في بلاد تركيا والعجم ذات الجبال الحديثة المتنافرة . ومع ذلك فالجزيرة العربية تحيط بها سلاسل جبال مرتفعة من الغرب والزاوية الجنوبية الشرقية ، هي جبال سورية الطبيعية والحجاز والعسير واليمن وعمان . غير ان هذه الجبال هضابية المظهر تنحدر بميل قوي الى الغرب نحو البحر ، تاركة بينها وبين البحر سهولا ضيقة ، بينما تنحدر ببطىء نحو الشرق متصلة بهضاب الحماد في سورية ونجد في الجزيرة . وتوالي الارض بعد ذلك انحدارها نحو الشرق والشمال الشرقي حتى تصبح سهولا منبسطة واطئة على شاطىء الخليج العربي وفي سهول الرافدين . وتنحدر من الهضبة الداخلية نحو الخليج العربي وبلاد الرافدين وديان كبيرة عريضة جافة يعود تشكلها الى عهد جيولوجي مطير غير بعيد ، ولها دور كبير اليوم في حياة السكان كوادي حضر موت ووادي نجران ووادي الدواسر ووادي الرمة ووادي حوران الخ ...

وتتألف صخور الجزيرة العربية من قاعدة بلورية ذاتية صخور قاسية غرانيتية وما شابهها كالغرانوليت والشيست الخ ... وتظهر هذه الصخور في الجبال الهامشية باليمن وعسير والحجاز حتى خليج العقبة ، بينما غطى هذه القاعدة البلورية القديمة المسواة طبقات رسوبية معظم صخورها من الكلس والحوار والطين تسترها في بعض المناطق بقع كبيرة من الصخور البركانية كما هو الحال في حوران والجزيرة العربية . وهذه الصخور الرسوبية تغطي هضبة نجد وبادية الشام وجبال بلاد الشام بينما تتألف سهول الرافدين من اتربة لحقية وليمونية حملتها مياه دجلة والفرات ووديان الجزيرة وغطت بها كل ما تحتها .

المنـاخ والمياه :

غير ان ما يميز مختلف مناطق الجزيرة العربية هو عنصرا المناخ والمياه ولهما الدور الاول في تمييز البيئات وانماط الحياة .

تقع الجزيرة العربية في المنطقة الحارة الجافة من الكرة الارضية • فمدار السرطان يمر في وسطها وبذلك تشكل جزءا من مناطق الصحاري المدارية والمعتدلة في آسيا وافريقيا ، غير ان امتداد الجزيرة العربية الكبيرة من الشمال الى الجنوب يحدث تباينا مناخيا بين مختلف مناطقها •

فالجزيرة العربية جزء من المنطقة الحارة ولا تنخفض درجة حرارة صيفها الوسطية عن ٢٥° وترتفع هذه الوسطيات الى ٣٠ و ٣٥° كلما ابتعدنا عن البحر أو تقدمنا نحو الجنوب • بينما حرارات الشتاء تنخفض انخفاضا محسوسا بالنسبة لحرارات الصيف وخصوصا في المناطق الجبلية • واذا كان الصقيع غير معروف في المناطق الجنوبية فهو كثير التردد في هضاب المناطق الشمالية •

الا ان أهم ما يفرض طابعه على بلاد العرب هي الامطار ، ففصل الجفاف لا ينقص عن ٦ اشهر في أكثر المناطق حظا على الساحل السوري ، في الوقت الذي يطول هذا الفصل في معظم المناطق الداخلية حتى عشرة أشهر • ويدوم الجفاف كل أيام السنة في بعض المناطق كالربع الخالي • وتعم الامطار الشتوية كافة الجزيرة العربية تقريبا ما عدا اليمن والجبل الاخضر في عمان التي تمسها الامطار الموسمية الصيفية الغزيرة ، بالاضافة الى بعض الامطار الشتوية القليلة •

وهذه الامطار التي تبلغ على الساحل السوري ١٠٠٠ مم وتزيد وتتناقص بسرعة نحو الداخل والجنوب حتى تصل الى ١٠٠ مم أو أقل من ذلك • فدمشق التي لا تبعد أكثر من ١٠٠ كم عن الساحل لا تتلقى أكثر من ٢٠٠ مم في السنة ، وتتلقى بغداد أقل من ذلك وكذلك الحجاز • ولا يرتفع المعدل الا في اليمن والجبل الاخضر في عمان • واذا علمنا ان الحد الادنى لاية زراعة بعلية يجب ان لا يقل عن ٣٠٠ مليمتر من الامطار ، قدرنا ضيق المنطقة التي يمكن فوقها تعاطي الزراعة دون ري ، وعلمنا أهمية المياه الجارية والينابيع الدائمة التي تساعد على الري •

المياه :

فالنتيجة الطبيعية لهذه الامطار النادرة هو شح الينابيع والمياه الجارية • فالامطار الهاطلة على المناطق الهامشية في فصل الامطار القصير وبعض الامطار في الداخل تحدث سيولا موقتة لا تعتم ان تجف بتوقف الامطار ، وهذا ما نراه في كل البلاد العربية باستثناء دجلة والفرات اللذين تغذيهما امطار الجبال الشمالية وثلوجها ، وبعض انهار سورية كالعاصي وبردى والليطاني وغيرها بسبب الينابيع الدائمة التي يغذيها المخزون من المياه في جوف الصخور الكلسية للجبال الساحلية • اما في باقي الجزيرة وبالاخص في نجد ، فان الامطار الهاطلة تتسرب ضمن الصخور الكلسية التي تغطي القاعدة البلورية الكتيمة وتظهر في قيعان الوديان العريضة على شكل ترشحات يمكن الوصول اليها بواسطة الآبار • ويكون لهذه المياه كل الاثر في حياة الانسان من حيث نمط حياته واستقراره •

فهذا الجفاف والشح في المياه والانهار هو اذن الطابع الاصيل للبلاد العربية التي تتجرد في كامل مساحتها تقريبا من الغطاء النباتي الطبيعي الدائم بينما تظهر الاعشاب السنوية والنباتات الشوكية التي تتلاءم مع الجفاف ، ويعتاد الانسان في كل القارة العربية على رؤية المناظر السهبية الجرداء ، والصحراوية القاحلة •

فهذه الشروط الطبيعية القاسية هي التي فرضت على العربي بيئة خاصة ونمط حياة يتلائم مع هذه البيئة •

يشغل العالم العربي في افريقيا شمال القارة بأكملها ويمتد من برزخ السويس حتى المحيط الاطلنطي على مسافة تعادل أكثر من ٥٠٠٠ كم • فيشرف من شماله على البحر المتوسط بكل طوله من جبل طارق حتى بلاد الشام • والصحراء الكبرى التي هي امتداد للبلاد العربية الافريقية نحو الجنوب توصله باعماق القارة الافريقية •

فهذا القسم الشمالي العربي من القارة الافريقية يطلق عليه الجغرافيون اسم افريقيا البيضاء بسبب سكانها العرب الذين ينتمون الى العرق الابيض بينما يطلق على القسم الباقي من القارة فيما وراء الصحراء الكبرى بالقارة السوداء بسبب سكانها السود •

وقد اتصل العالم العربي الآسيوي منذ أقدم الازمنة وقبل الميلاد بالعالم الافريقي وانتقلت قبائله الى افريقيا بواسطة البر والبحر • منذ ذلك التاريخ وفي اواخر الامبراطورية الرومانية كانت القوافل العربية تجوب الصحراء حتى تخوم المناطق الاستوائية المغطاة بالاحراش •

فهم الذين ادخلوا الجمل ، سفينة الصحراء ، الى افريقيا ووصلوا شمالها بجنوبها واستوطنوا صحراءها ثم جميع مناطقها الشمالية • وحملوا مدنيتهم ودينهم الاسلامي الى قلب افريقيا السوداء وبقوا أصحاب السطوة والسلطان فيها حتى دخول الاستعمار • فنيجيريا والسودان بمعناه الواسع تدين اليوم كلها بالاسلام تقريبا وتعرف اللغة العربية مع لغتها المحلية • وقد اطلق العرب على البلاد العربية الافريقية فيما عدا مصر اسم بلاد المغرب وعلى أهلها عرب المغرب •

وتقع هذه المناطق العربية الافريقية فوق خطوط العرض ذاتها ، التي تقع عليها بلادهم • وتتحقق الشروط الطبيعية نفسها التي عرفوها في بلادهم تقريبا • فمعظم هذه البلاد صحراوية مفتوحة من البحر الاحمر حتى المحيط الاطلنطي دونما أي عقبة تحول دون تجوال القوافل العربية • فاقصى شمال القارة الافريقية لا يتجاوز خط عرض ٣٨° شمالا ، أي عرض شمال سورية تقريبا بينما يمر مدار السرطان من اسوان في جنوب القطر المصري •

تضاريس افريقيا العربية :

تقسم افريقيا العربية بشكل عام الى ثلاثة أقسام :

١ — القسم المنبسط الشرقي ويشمل مصر والسودان وليبيا •

٢ — القسم الجبلي ويضم بلاد المغرب بمعناها الاصيل تونس والجزائر ومراكش (مملكة المغرب) •

٣ — الصحراء الكبرى •

ان مصر والسودان وليبيا هي تتمة للصحراء الكبرى ولذلك فهي بلاد منبسطة بوجه عام ، ومع ذلك فوادي النيل يفصل بين منطقتين متباينتين :

الشرقية ويطلق عليها اسم الصحراء العربية أو الشرقية ، والغربية وتعرف باسم الصحراء الليبية أو الغربية •

فالصحراء الشرقية هي هضبة ترتفع تدريجيا من النيل حتى البحر الأحمر وتهبط عليه بمنحدرات شديدة وتظهر في قممها الصخور البلورية . بينما ينبسط تحت اقدامها سهل ضيق على ساحل البحر الاحمر تشبه تماما ما رأيناه في الجزيرة العربية من حيث الصخور والتضاريس والتشكل الجيولوجي .

وتخدد هذه الهضبة وديان عريضة تهبط نحو النيل والبحر الاحمر وهي وديان حتية بقايا من عهد مطير مندثر .

والحجر الرملي النوبي الموجود في الجنوب ، قبل ان نصل الى الصخور الغرانيتية في مستوى اسوان ، تختزن فلزات الحديد المستثمرة اليوم في صناعة الصلب في القطر المصري ، كما ان البترول قد اكتشف في السهول الساحلية لشاطيء هذه المنطقة .

اما الصحراء الغربية فمنبسطة تمام الانبساط وقد زالت من على سطحها معالم الوديان الحتية ويدل عليها بعض المنخفضات التي تشكل سلسلة الواحات الغربية في القطر المصري وليبيا كالخارجة والداخلة والفرافرة وسيوة وفزان ... وهذا يدل على قدم هذه الصحراء وجفافها منذ أمد طويل .

وهذه الصحراء الغربية تشمل كل مناطق ليبيا حتى تونس الجنوبية ما عدا هضبة برقة المتقدمة في البحر نحو الشمال والمسماة بمنطقة الجبل الاخضر ، وتتشكل من صخور الدور الثالث الرسوبية وتشترك معها في ذلك شواطيء القطر المصري حيث تظهر الصخور الكلسية والمارنية الحوارية لهذا الدور .

بلاد المغرب :

تشكل بلاد المغرب التي تضم تونس والجزائر والمغرب المراكشي كتلة جبلية مرتفعة تتألف بمعظمها من هضاب تحيط بها جبال عالية هي جبال الاطلس التي تمتد على طول ٢٥٠٠ كم باتجاه شرقي غربي بوجه عام وتشكل دعامة بلاد المغرب ، اما السهول فلا تشغل في هذه البلاد سوى مساحات ضيقة تنحصر على هوامش الجبال في المناطق الساحلية .

وجبال الاطلس هذه ، التي ظهرت مع جبال الالب والبرانس ، تنقسم الى عدة سلاسل : ففي الشمال تمتد جبال الاطلس التلية والريف محازية للبحر المتوسط من مضيق جبل طارق حتى أقصى الشمال الشرقي لتونس . وترتفع في بلاد القبائل في شرق الجزائر الى ٢٣٠٨ م في قمة « لالا خديجة » بينما لا يتجاوز ارتفاعها ١٠٠٠ — ١٢٠٠ م في جبال « خمير » في تونس . وتمتد في الجنوب جبال الاطلس الصحراوية موازية للسابقة تقريبا من جنوب اغادير حتى تذهب لتلتقي بالاطلس التلي في شمال شرق تونس . وتسمو في جبال اوراس بارتفاع ٢٥٠٠ م . ويتفرع عن الاطلس الصحراوي في الغرب جبال الاطلس الكبير وفيها أعلى القمم كذروة « طبقال » ٤١٦٥ م .

وهناك سلسلة عرضانية تصل الاطلس التلي في الريف في الشمال مع الاطلس الصحراوي في الجنوب وهي جبال الاطلس الاوسط في مراكش .

وهذه الجبال تضم مختلف الصخور منها البلورية في قمم الاطلس الكبير ومنها الرسوبية وخصوصا الكلسية في الاطلس التلي والصحراوي .

اما الهضاب فتنحصر ضمن هذا الاطار الجبلي وهي كالحفر الداخلية بين الجبال ويتناقص ارتفاعها من ٩٠٠ م في الغرب في مراكش الى ٤٠٠ م في منطقة الشطوط في الجزائر كما هو الحال في شط «حضنة» حيث تتجمع المياه المالحة فتشبه ما يسمى في بادية الشام بـ « السبخات » • وتنخفض في تونس في شط « الجريد » الى ما دون سطح البحر •

اما السهول الساحلية فاعرضها يوجد في جنوب تونس بين لجبال التي تنحرف نحو الشمال الشرقي وساحل البحر المتوسط ، بينما تضيق الى حد كبير في الجزائر وتصبح في بعض النقاط مستنقعية عند مخارج الوديان نحو البحر • وتكثر السهول الصغيرة على الشاطىء الاطلسي لبلاد المغرب وهي من الشمال الى الجنوب سهول « الغرب ، والشاوية ، دقاله ، وأم الربيع ، وتنسفت ، وسهل سوس » المحصور بين اطلس الجنوبي والاطلس الاعلى وميناؤها « اغادير » • كما ان سهولا داخلية في وديان عريضة توجد في بلاد المغرب كسهل وادي « الملوية » وسهل وادي « الشليف » في الجزائر وسهول وادي المجردة في تونس •

اما الصحراء الكبرى فليست كلها منبسطة اذ ان كتل جبال الحجار « الهوغار » و « تبستي » الواقعة في جنوبها وجنوبها الشرقي ترتفع حتى ٣٠٠٠ م في الاولى و ٣٤٠٠ م في الثانية وتفصل هذه الجبال بين الصحراء الشمالية والصحراء السودانية بينما يوجد في الغرب حفرة الجوف ومنبسطات « العرق الشرقي» و « العرق الغربي » في جنوب تونس • كما ترسل جبال الاطلس الى هذه الصحراء بوديان عريضة حتية قديمة كما هو الحال في الجزيرة العربية ، كوادي « الغير » ووادي « الدرعه » ووادي « السورة » • اما جبال الهوغار الوسطى فترسل الوديان العريضة في كل الاتجاهات وأهمها وادي « الايغرغر » الذي ينحدر نحو الشمال لينتهي الى حفرة الشطوط الجزائرية التونسية المنخفضة حيث يصب وادي « الغير » الآتي من جبال الاطلس •

وأخيرا وادي حفرة « تافيلالت » التي هي ملتقى لوديان اطلسية والتي تشكل واحة نخيل على عشرات الكيلو مترات • وتساعد كل هذه الوديان المتجهة شمال جنوب القوافل في انتقالها في هذا الاتجاه فتصل افريقيا العربية الشمالية بقلب القارة السوداء •

المناخ والمياه :

تقع افريقيا العربية بمعظم اجزائها في المناطق المدارية وفوق المدارية الصحراوية ولا يشذ عن ذلك سوى المناطق الجبلية في بلاد المغرب وهضبة برقة في ليبيا •

وتتصف المناطق الشرقية والجنوبية من انها حارة ولا تهبط فيها درجات الحرارة دون ١٠ درجات في ايام الشتاء بينما ترتفع الى أكثر من ٣٥ درجة لمتوسط الشهر الحار • ويرافق هذه الحرارة العالية جفاف شديد يصل الى أقصاه في صحراء ليبيا التي تمتد حتى المتوسط ، وتعد من أكثر مناطق العالم جفافا • فكثيرا ما تنعدم الامطار عدة سنين • فامطار القاهرة لا تتجاوز ٢٠ مم في وسطها السنوي أي عشر الامطار

الساقطة في دمشق التي تعتبر منطقة صحراوية • بينما لا تتجاوز الامطار على ساحل البحر المتوسط في مصر ١٦٠ مم سنويا في الاسكندرية وتعادل ٤٠٠ مم في هضاب برقة في منطقة الجبل الاخضر •

وهكذا فان هذه المنطقة صحراء تامة تعادل أكثر المناطق جفافا في صحاري الجزيرة العربية ولذلك تنعدم جميع مظاهر الغطاء النباتي الطبيعي في هذه المناطق وتنعدم حياة الرعاية ، فلا يرى البداة الرعاة الا في ساحل المتوسط وفي هضاب برقة ، بينما يستقر الناس في واحة وادي النيل الضخمة والواحات النادرة التي مر ذكرها في الصحراء الليبية •

اما مناطق المغرب الجبلية أي تونس والجزائر ومراكش ، فمناخها يشبه الى حد كبير مناخ بلاد الشام فهو مناخ وسيطي ينتقل بسرعة من الشمال الى الجنوب من مناخ بحر المتوسط الراطب الى المناخ الصحراوي • فالصيف هو الفصل الحار الجاف بينما فصل الشتاء هو الفصل البارد الماطر •

واذا كانت الحرارة معتدلة على شواطيء الابيض المتوسط والمحيط الاطلنطي والامطار غزيرة ، فالامر يختلف عندما ندخل الى الداخل اذ يصبح نظام الحرارة قاربا شديدا وتتناقص الامطار بسرعة كبيرة •

فمتوسط حرارة الشتاء على ساحل المتوسط والاطلس تبقى في حدود ١١ ـ ١٣° درجة فلا يعرف الصقيع والثلج على هذه السواحل اما حرارة الصيف فتنحصر بين ٢١ ـ ٢٥ درجة في شهر تموز •

وفي الداخل يكون متوسط حرارة الشتاء على الهضاب الداخلية ٣ ـ ٤° بينما حرارة تموز ترتفع الى ٣٠ درجة • وكثيرا ما تهبط الحرارة في الشتاء الى ما دون الصفر وتكلل هامات جبال الاطلس بثلوج غزيرة تبقى معظم أيام السنة •

ويشتد نظام الحرارة هذا في الصحراء الكبرى اذ تبلغ درجات الحرارة في الصيف ٥٠ و ٥٧° درجة في الظل وترتفع الى ٧٨° على الرمال في الشمس بينما تسقط درجات الحرارة الى عدة درجات تحت الصفر مدة اشهر الشتاء فوق جبال الحجار • كما يكون اختلاف الحرارة شديدا بين الليل والنهار •

اما الامطار فتسقط غزيرة على السواحل والجبال وتكون بين ٣٠٠ مم في الصويرة بجنوب مراكش و ٦٠٠ مم في الرباط و ٥٥٠ مم في الجزائر وتزداد في الجبال حيث تتكاثف الثلوج على جبال الاطلس وتبلغ الامطار في جبال القبائل الشرقية أكثر من ١٥٠٠ مم وتبقى رطوبة الجو عالية في كل المناطق الساحلية الا ان هذه الامطار تتناقص بسرعة في الهضاب الداخلية وجنوب تونس الى ٢٥٠ مم ودون ذلك، وتتناقص تبعا لذلك الرطوبة الجوية وخصوصا في الصيف وندخل عندها في مناطق السهوب والصحراء •

وتكون الامطار مختلفة من سنة لسنة ومن فصل لآخر وتؤثر كثيرا في الانتاج الزراعي • كما ان فصل الجفاف الطويل يجعل معظم مجاري المياه جافة في الصيف ما عدا بعض الانهار الساقطة من الاطلس الكبير والاطلس الاوسط نحو السهول المراكشية ونهر الملوية والشليف في الجزائر والمجردة في تونس والتي تصب في المتوسط وتكون مياهها في الصيف قليلة • اما الصحراء فلا يمكن ان تحرم منطقة فيها من الامطار الا انها قليلة تزداد في المناطق الجبلية وتنحبس عدة سنين في بعض مناطق قلب الصحراء • وأكثر ما تسقط هذه الامطار على المناطق الجبلية في وسط الصحراء الكبرى وخصوصا جبال الحجارة «الهوغار»

كما انه يمكن ان تهبط أمطار غزيرة في سنة وتنعدم تماما في سنة اخرى فقد سجل في واحة « الورقلة » جنوب الجزائر الشرقية ٦١٨ مم في سنة وصفرا في سنة تالية كما تتراوح الحرارة في هذه المناطق بين + ٥٥ و — ٥٦° في المناطق الجبلية • والامطار تكون شديدة عند هطولها وتسير السيول في الوديان الساقطة من المرتفعات الى مسافات قصيرة وتسمح بتغذية طبقة مائيـة هي الاساس في نشوء كل واحات الصحراء الكبرى التي تقع كلها في مجاري هذه الوديان •

٢ — خصائص الوطن العربي البشرية :

تشكل البلاد العربية كما رأينا رقعة فسيحة جدا تتماسك متصلة دون انقطاع في قلب العالم القديم بين المحيط الاطلسي غربا والمحيط الهندي شرقا • ولعنصر التماسك هذا في هذا الموقع الممتاز من العالم أكبر الاثر في مستقبل البلاد العربية حيث تشكل الامة العربية كتلة بشرية مترابطة واحدة •

فامكانات البلاد العربية المادية الكثيرة التنوع والغنى ، التي استعرضناها في بحثنا السابق ، لا تنمو وتزدهر وتعبر عن قوتنا وتطورنا وتقدم حضارتنا الا بمقدار ما يتمكن الانسان العربي من استثمار هذه القوى الكامنة على الوجه الاكمل والكفاءة التامة •

فالانسان العربي أي رأس مالنا الاساسي ، هو دعامة كل قوة وتقدم وهو الذي عبر عن حضارتنا التي ازدهرت أو تقهقرت عبر التاريخ بتطوره الكمي والكيفي • فعدد سكان أمة هو الذي يمثل القـوة العسكرية التي تحمي كيان هذه الامة وتحرس منجزاتها وحضارتها • كما ان كثرة السكان معناه وفرة اليد العاملة التي تؤمن انتاجا متزايدا وتصنيعا سليما وسوقا داخلية ذات استهلاك ضخم يدعم الانتاج المتزايـد ويؤدي بالتالي الى الازدهار والثراء ورفع مستوى الحيـاة •

غير ان وفرة سكان أمة لوحده لا يكفي لجعلها غنية متقدمة منيعة الجانب ، والامثلة على ذلك كثيرة في آسيا وافريقيا ، فالانسان الذي يعتبر أداة الانتاج الاولى هو كالآلة التي ترتفع قدرتها الانتاجيـة من حيث الكم والكيف بمقدار حسن تصميمها واتقان صنعها • ولذلك وجب اقتران كثرة عدد سكان بلد ما بتمام صحة الافراد الجسدية وارتفاع قدرتهم الفكرية ومهارتهم العملية •

ونعرض فيما يلي ، على ضوء ما قدمنا ، بيئـات السكان في البلاد العربية في الوقت الحاضر واحوالهم وتعـدادهم وتوزعهم ووضعهم الديموغرافي بعد ان تقدم بنبذة تاريخية عن أصل الامة العربية ومفهـوم المواطن العربي اليوم •

١ — الامة العربية وأصول سكانها :

قسم الاقدمون سكان الارض الى أجناس بحسب لون البشرة ، فقالوا بوجـود جنس ابيض وجنس اسود وجنس ثالث اصفر ورابع احمر ، ولكن علماء الاجناس المعاصرين اعتمدوا في تقسيم الاجناس على اختلافات جسدية بينة ومظاهر جسمانية متعـددة ، كلون البشرة وشكل الشعر وتجعده ونسبته في الوجه والبدن والاطراف ، وطول القامة ، ونسبة طول الرأس الى عرضه ، ونسبة طول الوجه الى عرضه أيضا وهو ما عبروا عنه بالنسبة الرأسية والنسبة الوجهية ، كما درسوا الفرق بين الاجناس بالنسبة الى لون عيونهم

وشكل محاجرها ، وبروز الوجنتين ، ونسبة بروز الانف ، واضافوا الى هذه الدراسات الموضوعية دراسة مجهرية بفحص الدم وتصنيف البشر بحسب خصائص خاصة يمكن اكتشافها داخل دمائهم •

ومن المجموعات الجنسية التي وزعها علماء الاجناس بين البشر مجموعة البحر المتوسط الجنسية ، وتتميز عن غيرها من المجموعات برأس طويل وقامة معتدلة ، وشعر سبط اسود ، وبشرة حنطية أو سمراء ، وعيون لوزية ، وقد انشطرت هذه المجموعة الجنسية الى شطرين سكن الشطر الاول منها ، والذي يعنينا ببحثها هنا ، سواحل آسيا العربية ، وأطلق الكتاب على شعوبه اسم الشعوب السامية •

وقد دلت الابحاث الانتروبولوجية على ان جزيرة العرب هي مهد الشعوب السامية التي اكتسبوا فيها صفاتهم الجثمانية المميزة ولذلك فضلوا تسميتها بالشعوب العربية نظرا لان كلمة عرب اطلقت عليهم منذ اقدم العصور ، ولانه لا توجد في الاصل شعوب سامية ، وانما توجد لغات سامية ، ولغات جميع الشعوب التي كان يطلق عليها هذا الاسم والتي خرجت من جزيرة العرب هي لغات ذات اصول لغوية واحدة ، وفيها تشابه كثير بالاشتقاق والمصدر وتصريف الافعال وماشابه ذلك •

وخرجت موجات عربية من قلب جزيرة العرب فغزت بلاد الهلال الخصيب ، وذهب قسم منها عبر سيناء وبرزخ السويس الى وادي النيل ، كما عبر قسم آخر من العرب مضيق باب المندب والقرن الافريقي ونزلوا وادي النيل في الجنوب •

واذا كان المؤرخون يعددون اسماء بعض الهجرات الكبرى ، ويحددون تاريخ نزوحها من جزيرة العرب الى مواطنها الجديدة في بلاد الرافدين والشام مثلا ، فالواقع ان سيل الانتقال من مناطق « الصعوبة الدائمة » الى مناطق « الخصوبة الدائمة » على حد تعبير الجغرافيين أي من مناطق الجدب والجفاف وذبذبات المناخ وشح المياه وصعوبة الحياة ، الى مناطق الرعي والمياه الجارية والمناخ المعتدل نسبيا ، كان هذا الانتقال مستمرا غير منقطع ، وانما اخذ شكل هجرات جماعية كبرى سجلت في التاريخ لانها وقعت في ظروف طارئة ، كتعاقب عدد سني القحط لانحباس المطر ، أو لوقوع كارثة طبيعية كما حدث عند هجرة الغساسنة والمناذرة على أثر خراب سد مأرب ، أو لسبب فكري أو اجتماعي أو ديني أو سياسي كما حدث في موجة الفتوحات العربية عقب الاسلام •

واشهر هذه الموجات العربية ــ السامية ، العربية في دمائها ، والسامية في لغاتها ولهجاتها هي موجة الاكاديين التي خرجت من جزيرة العرب حوالي عام ٣٥٠٠ ق•م واتجهت شمالا ، ثم تفرعت الى فرعين : فرع اجتاز شبه جزيرة سيناء الى وادي النيل ، وفرع اتجه نحو بلاد الرافدين وانشأ الدولة الاكادية •

ثم موجة اخرى خرجت حوالي عام ٢٩٠٠ ق•م ووصلت بلاد الشام حيث تفرعت الى ثلاث فروع : فرع اقام في الساحل وعرف باسم الفينيقيين وفرع اقام في الجنوب في فلسطين ــ قبل ان تسمى بفلسطين ــ وعرف باسم الكنعانيين ، وفرع اقام قرب الانهار الداخلية ومناطق سورية الشمالية وانشأ عددا من دويلات المدن وعرف باسم الآموريين • وبعد ان استقر مدة من الزمن وتحول من الرعي الى الاعمال الزراعية وعرف حياة المدنية ، ذهب فرع منه الى العراق ليؤسس الدولة البابلية ويبني مدينة بابل •

ومثل ذلك يقال عن الهجرات الآشورية والكلدانية والآرامية والانباط والغساسنة والمناذرة •

ولا يعرف بالضبط متى ظهرت كلمة عربي وماذا كانت تعني ، وقد أتت كلمة عربي في القرن التاسع عشر ق•م وفي هذه الاخيرة تدل كلمة عربي على انه البدوي المرتحل وخصوصا في شمال الجزيرة العربية• وقد أشار ابن خلدون الى العرب الرحل بكلمة الاعراب • والواقع ان كلمة « عربي » تستعمل بين البدو الرحل في كل الجزيرة لتشير الى البدوي المرتحل حتى اليوم ، فعندما يسأل البدوي اليوم عن اصله يجيب ان اسم عشيرته كـ « الرولة » و « العنزة » أو الفخذ الذي هو منه كالسبعة وبني خالد ولا يستعمل كلمة عربي الا ليدل بها عن كل العرب الذين يمارسون حياة البداوة والترحال في الجزيرة العربية •

وهكذا نرى بأن معنى كلمة عربي قديما وحديثا يشير الى البدو الرحل في الجزيرة •

وقد أتى القرآن الكريم وسمي لغة أهل المدن في الحجاز باللغة العربية كما ان أهل الحجاز كانــوا يرسلون اولادهم للبادية ليكتسبوا اللغة العربية السليمة الفصيحة التي هي لغة الاعراب •

وقد اطلقت كلمة « العربي » منذ الفتح الاسلامي على كل الفاتحين العرب بدورهم وحضرهم وما ان أتى القرن السابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى زالت كل اللغات غير العربية في نطاق الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومعظم افريقيا العربية •

ومنذ صعفت الامبراطورية العربية وتجزأت الى دويلات ، ثم استولى الاتراك على معظم أجزائها في القرن السادس عشر وتعرف الاقوام التي تسكن البلاد العربية الحالية ــ بالعرب ــ دون تمييز ، وقد اتفق في هذه التسمية الاتراك والاجانب الاوربيون واطلقوا كلمة عربي على كل من سكن البلاد العربية الحالية ان كان ذلك في افريقيا أم في آسيا •

وهذا الواقع العربي لم تغيره كل الغزوات الاجنبية التي تدفقت على البلاد العربية منذ ما قبل الاسلام حتى يومنا الحاضر ، فاليونان والروم والصليبيون والمغول والاتراك والاحباش والفرس الذين استقروا مددا تتفاوت في طولها في شمال البلاد العربية وجنوبها ، لم يتمكنوا من ان يبدلوا شيئا من الطابع العربي أو ان تقوم مجموعات غير عربية مكانه •

واننا فيما قدمنا لا نهدف مطلقا الى ربط الامة العربية باصول عرقية وأسس بيولوجية واحدة ، وان نجعل من الامة العربية أمة تنحدر من دم اصيل لم تخالطه دماء باقي بني البشر ، كما أرادت بعض الاقوام الاوروبية في عصرنا الحاضر ان تجعل من نفسها عرقا صافيا وبشرا ساميا بينما تصنف باقي البشر الى طبقات ودرجات تكون هي في قمتها وتدعي التعالي عنهــا والسيادة عليها • فالبلاد العربية بموقعهــا الجغرافي كانت ملتقى لكثير من التيارات البشرية والحضارات الانسانية ، وهي بحيويتها وحركتها وانتشارها فيمــا حولها بالفتح والاستيطان ، وكذلك باتصالاتها التجارية الحثيثة التي استطاعت من نقل لغتها ومدنيتها الى أبعد بكثير مما وصلت اليها جيوشها وسلطانها (اندنوسيا وقلب افريقيا) جعلت من الامة العربية أمة أبعد ماتكون عن الامة العرقية فهي مزيج من العرب والمستعربين الذين انصهروا في بوتقة واحدة على مر العصور فكانت لهم لغة واحدة وخصائص ثقافية وحضارية مشتركــة وتاريخ يربط كل أفراد هذه الامة الواحدة • وهذه

العناصر بذاتها هي التي تميز الامة العربية عن غيرها وتطبعها بطابعها الخاص بها • فالمواطن العربي اليوم هو كل مواطن يقطن الوطن العربي ويتكلم اللغة العربية بصرف النظر عن العرق والدم ، ويرتبط بآماله وأمانيه بأمته وتجمعه مع باقي أفرادها وحدة التاريخ والحضارة والمستقبل والمصير •

فعندما بدأت يقظة القوميات بمعناها الحديث في القرن التاسع عشر تهز دعائم الامبراطوريات الحديثة المصطنعة التي لم يكن يربط بين اقوامها المختلفة ولغاتها المتباينة وحضاراتها المميزة ، سوى شخص السلطان ، شاركت الامة العربية في هذا الصراع وعملت للتخلص من ربقة قيودها الاستعمارية وتحقيق شخصيتها وكيانها ، وما ان تحررت الشعوب العربية في آسيا وافريقيا وتمكنت من ان تتصل ببعضها بعد ان كسرت اسوار الاستعمار ، وجدت انها لم تفقد شيئا من خصائصها القومية التي ربطت في الماضي بين مختلف شعوب الامة العربية بل على العكس من ذلك رأت انها في فجر عهد القوميات الحديثة تتمتع بكل خصائص الامة الواحدة أكثر من أمة تدعي اليوم انها كتلة واحدة متجانسة بالمعنى الحديث للأمة •

وما ان ارتفع اول صوت عربي على أمواج الاثير في القرن الحالي حتى تفهمه العرب من اقاصي الغرب الى أقصى الشرق • وتجاوبت قلوب كل العرب كأنما وجدوا أنفسهم بعد غياب طويل وحنين شديد • واذا ما نظرنا الى القوميات الحديثة التي تنتظم في دولة مميزة وجدنا ان الامة العربية رغم حداثة يقظتها وبعثها وتفكك الصلات والعزلة الطويلة بين شعوبها هي أكثر الامم تجانسا واعظمها انسجاما ، ففرنسا لم تتحقق وحدتها اللغوية الا بعد مرور عشرات الاعوام من ثورتها المعروفة سنة ١٧٨٩ ولا تزال اللغات البريتونية ولغة الباسك والبروفنسال جارية على ألسنة أهلها في المقاطعات التي تسمى بهذه الاسماء حتى الآن ولا يزال أهل بلاد الغال في انكلترا ينكرون انهم من الشعب الانكليزي ويتكلمون الغالية • وكذلك الحال مع الاسكتلانديين والارلانديين ، ويشاهد الوضع ذاته في المانيا وروسيا وخصوصا في الولايات المتحدة الاميركية حيث يشكل من هم من اصل انكليزي أقل من نصف السكان مع عشرات ملايين الزنوج والتفرقة العنصرية، وفي الهند والصين تعد القوميات واللغات واللهجات بالمئات وتفتش هذه الحكومات اليوم على لغة واحدة تتفق على استعمالها لحفظ الوحدة الوطنية وتأسيس أمة تتكلم لغة واحدة على الاقل •

فليس للأمة العربية الآن ورغم الاستعمار والتفرقة أي مشكلة عرقية أو لغة أجنبية اذا ما قورنت بأكثر الامم تمدنا واعلاها تطورا •

البيئة وانماط الحياة في آسيا العربية :

ان شروط المناخ في جزيرة العرب أدت الى وجود بيئتين مختلفتين تمام الاختلاف بمظاهرهما وانماط حياة ساكنيهما :

١ — بيئة سهوب صحراوية وصحاري تشمل معظم رقعة البلاد العربية يجوبها البدو الرحل •

٢ — وبيئة منطقة زراعية ضيقة هامشية استقر عليها الريف والسكان الحضر •

١ — البيئة السهبية والحياة البدوية : فالبيئة السهبية الصحراوية تقل امطارها عن ٢٠٠ مم تسقط بشكل غير منتظم ، وتؤدي الى ظهور أعشاب فصلية وخصوصا بالشتاء والربيع ولا تسمح بنجاح أية زراعة الا بالري • وتضم هذه المنطقة هضاب نجد وبادية الشام • وقد فرضت هذه البيئة على سكانها ان يكونوا

رعاة ابل وغنم يجوبون البادية طولا وعرضا على مئات الكيلو مترات انتجاعا للكلأ والماء • وقد نظم هـذا الترحال بمناطقه ونجعاته ونقاط مائـة بشكل دقيق حسب مواقيت معينة من السنة ، ترتبط بنظام الامطار ومرابع العشب والكلأ • كما اقتسمت القبائل والافخاذ مناطق الرعاية والترحال ، لا تحيد عنها ، حفظا لحقوق القبائل المجاورة ، وأي شذوذ بسبب تأخر الامطـار أو ندرتها يؤدي الى صدام ودماء وهجرات •

ويكون الترحال دائما بين المناطق الهامشية المطيرة ، التي استقر عليها الحضر ، وقلب البادية • ففي فصل الامطار يبتعد البدو نحو الداخل الذي تلقى الامطار وامتلأت آباره بالمياه ، وفي فصل الربيـع والصيف يقترب البدو من عالم الحضر لارتياد الميـاه وانتجاع الكلأ وتبادل السلع والمحصولات مع أهل الحضر والريف • فيبيع البدوي منتجات قطيعه الى الحضري بينما يشتري من هذا الاخير ما يلزمه من منتجات زراعية ضرورية لحياته واوائل مصنوعة ولباس •

ونقاط التقاء البدو بالحضر تكون في المدن الهامشية كحلب وحماة ودمشق وبغداد ودير الزور الخ•• أو في الواحات الداخلية كالرياض والحائل وتدمر وعديدة وغيرها •

وطبيعة الترحال وعدم الاستقرار فرضت على البدو السكنى بالخيام واقتصارهم على أبسط الاثاث والادوات المنزلية وكلها تقريبا من المعدن والخشب والنسيج ، وبذلك فهم يجهلون كل ما يتعلق بحيـاة الحضارة من بناء وصناعات متقدمة وأثاث •

ويحكم حياتهم الطليقة التي تحتاج الى كثير من الاعتماد على النفس ومجابهة الاخطار ، كان البدو أشد بأسا من الحضر ، فهم محاربون بالطبع وينمي فيهم ذلك ما يقومون فيه من غزوات فيمـا بينهم أو تجاوز على أهل الريف المتاخمين للبـادية في حالات اضطراب حبل الامن وخاصة في أيام الحروب •

غير ان علاقة البدو بالحضر كانت دائما أكثر خصبا وأعم خيرا وذلك بالتبادل التجاري الدائم منذ آلاف السنين ، وبالعنصر البشري الذي غذى فيه البدو ، ويغذى فيه مناطق الحضر بشكل دائم وذلك اما بالهجرات الكبرى أو بالتسرب الدائم الذي يزيد في سكان الريف والحضر • والامثلة كثيرة على ذلك اذ ان معظم أهل الريف على هامش البادية هم من أصل بدوي ، وهكذا تتوالى الموجات البشرية ، وبذلك تحديد وتقوية دائميين للعناصر البشريـة في الريف على هامش البادية هم من اصل بدوي ، وهكذا تتوالى الموجات البشرية ، وبذلك تحديد وتقوية دائمين للعناصر البشرية في الريف والمدن • وهكذا تكون البادية المنبع الاصيل الذي يمد السكان الحضر بتجديد دائم •

ويجب التمييز بين نوعين من البدو الرحل : أولا البدو الجمالة الذين لا يقتنون سوى الجمال ، وهم أسياد البادية بدون منازع بسبب سعة نجعتهم وسرعة تنقلهم كما وانهم المحاربون الغزاة كقبائل العنزة وشمر في بادية الشام ونجد •

اما النوع الثاني فهم البداة الغنامة الذين يربون الاغنام بالدرجة الاولى ، وبـذلك تقصر نجعتهم ، وتبطؤ حركتهم ولا يبتعدون كثيرا عن مناطق الحضر الهامشية ليأمنوا الكلأ لاغنامهم والسوق لمنتجاتهم • وخاصة الاشواك التي تنبت في مناطق واسعة من البادية ، فان الاغنام تحتاج الى مراعي لا توجد الا في

هوامش المناطق المطيرة ، واذا كان الجمل يتحمل الجوع والعطش اياما عديدة فان الاغنام لا تطيق ذلك • فالبدو الغنامة بحكم شروطهم يخضعون عادة للبدو الجمالة الذين هم أكثر مراسا في الغزوات واسرع في الانتقال •

وقد أخذ البدو الغنامة يزدادون على حساب البدو الجمالة وخصوصا في بادية الشام اعتبارا من أوائل هذا القرن وخاصة في الربع الثاني منه حينما قامت وسائط النقل الحديثة مقام الجمل الذي كان له كل الشأن في نقل البضائع بواسطة القوافل من آسيا وافريقيا ، وعم الامن وأصبح الغزو غير ممكن ضد الحضر وفيما القبائل نفسها بسبب ما تمتلكه الحكومات الحاضرة من قوة زاجرة تقف حائلا دون كل تعد أو سطو •

٣ البيئة الزراعية والحياة الحضرية :

قد رأينا ان المناطق المطيرة ذات المياه الجارية تنحصر في هوامش ضيقة على أطراف الجزيرة وبعض الواحات الداخلية ، وفي هذه المناطق تمكن الانسان العربي من الاستقرار على الارض وزراعتها وجني خيراتها وثمارها • وهو الذي أعمر الارض وأقام الحضارات والحكومات وبنى المدن والقرى ونظم هيئة اجتماعية أكثر تعقيدا وتنوعا من الهيئة الاجتماعية البدوية البسيطة ، تنوعت فيها انماط الحياة حسب تباين الاطار الطبيعي وكذلك الفعاليات الاخرى كالصناعة والتجارة • ولذلك وجب علينا ان نلقي نظرة على البيئات الزراعية وانماط الحياة فيها ثم على انماط الحياة التجارية والصناعية •

البيئة الزراعية وانماط الحياة في المناطق البعلية : ان البلاد العربية التي تشرف على البحر المتوسط وتشمل سورية ولبنان وفلسطين والاردن تنعم ببيئة واحدة متشابهة ، فالامطار التي تسقط في ايام الشتاء تترك البلاد جرداء تقريبا من الغطاء النباتي وخصوصا فيما وراء الجبال الساحلية التي تحتجز معظم الامطار ، وتحمل غطاء نباتيا طبيعيا فقيرا مع بعض الاحراش المتوسطية التي أزال الانسان معظمها ، بينما ينجح فيها من النباتات ما يكتفي بقدر قليل من الماء كالزيتون والكرمة التي تعيش دون ري في كل المناطق الساحلية والجبلية وهوامش الجبال الداخلية • ولذلك فان الزراعات في هذه المناطق اعتمدت بالدرجة الاولى على زراعة الحبوب وأشجار الزيتون والتين والكرمة • وبينما تنجح الحبوب في السهوب الداخلية مع الكرمة نرى ان الزيتون يتناقص كلما بعدنا عن المنطقة الساحلية ويحتاج نجاحه الى ري أكثر •

وهذا النوع من البيئة فرض نمط حياة زراعية فقيرة تعتمد على هذه الزراعات التي كثيرا ما أثر الجفاف في مردودها وعرضها لقحط لا يسمح للحياة للحياة الريفية ان تزدهر ويرتفع مستوى حياة أهلها عن عيشة الكفاف • كما ان المجموعات الريفية تتجمع في قرى كبيرة الى حد ما وتشكل هيئة اجتماعية مستقلة متضامنة وخصوصا عندما يسود نظام المشاع في الارض وذلك في كل السهول الداخلية • واذا أضفنا الى ذلك الفن الزراعي القديم الذي يعتمد على ادوات زراعية بدائية ومزروعات محدودة قدرنا فقر هذا النمط من الحياة الريفية ومستوى حياة أفراده •

الا ان هذه الصورة التقليدية التي لا تزال تسود في معظم المناطق على ساحل المتوسط وسفوح جبال زاغروس في الشمال الشرقي من بلاد الرافدين فان تطورا سريعا يلحظ في تغير هذه الصورة القديمة وذلك

بادخال الآلات الزراعية وبعض الزراعات الحديثة التي تعيش بعلا كالقطن والتبغ وبعض الخضار على ساحل المتوسط الراطب .

غير ان هذا التطور الفني الذي عرف اقصى استعماله الآن في منطقة الجزيرة لم يغير كثيرا في انماط الحياة حتى الآن ، أي منظر القرية العربية ونمط حياتها بشكل ملموس ، ولو ان هذا التطور أخذت تبدو معالمه في القرى التي هي ملك للفلاحين بعد ازالة المشاع وفرز الارض وتمليك كل شخص قطعة ارض خاصة به وتوزيع الاراضي على الفلاحين بحسب تطبيق الاصلاح الزراعي .

والحياة الزراعية البعلية في جنوب الجزيرة العربية المطير يشبه كثيرا من حيث التنظيم الاجتماعي والفن الزراعي ما نراه في شمال الجزيرة . الا ان الامطار الصيفية تسمح مع زراعة الحبوب وخصوصا القمح والشعير والذرة والقهوة والقات[1] وذلك في المناطق الجبلية والهضابية في اليمن والعسير وعمان ، واذا ما ظهرت بوادر تقدم زراعي واضح من حيث الفن الزراعي في مناطق الشمال مع اصلاحات كبيرة كالغاء الملكية الكبيرة والاقطاع وتوزيع الارض على صغار الفلاحين ، فان الحالة لا تزال في اليمن وجنوب الجزيرة على ما كانت عليه منذ القرون الوسطى من تأخر واقطاع .

ان هذا النمط الزراعي ، ما كان منه معتمدا فقط على زراعة الحبوب كما هو الحال في السهوب الداخلية ، أو ازدواج بزراعة الزيتون والكرمة كما هو معروف في الساحل أو البن والقات في الجنوب العربي ، رافقه مستوى حياة منخفض وتعرض لأزمات الانتاج الضعيف المتأرجح . ولذلك فان الانسان منذ اقدم الازمنة حاول ان يستعمل موارد المياه السطحية والجوفية للري من أجل تأمين زراعات ذات مردود ثابت ولذلك نشأت هيئة اجتماعية خاصة انتظمت حول مؤسسات الري تختلف بشكل واضح عن نمط الحياة الزراعية البعلية .

نمط الحياة الزراعية في المناطق المروية : لقد عمل الانسان في الجزيرة العربية منذ غابر الازمنة على استعمال موارد الماء في الزراعة وانشاء السدود والاقنية من أجل ذلك وقد انتظمت هيئة اجتماعية ريفية خاصة فوق هذه الارض المروية وتقيدت بنظام توزيع المياه وصيانة منشئاتها بشكل دقيق ، طبع هذه المجموعات الريفية بطابع خاص لكل منها . واذا ما عدنا الى تاريخ هذه المنطقة نرى على ان مدنيات مميزة نشأت وترعرعت بظل هذه المناطق المروية ، ان كان في سورية أو في بلاد الرافدين أو اليمن . واذا كان هذا النمط من الحياة قد تقلص بسبب خراب واندثار المنشئات المروية واندثرت معه تلك المدنيات الغابرة لبلاد ما بين النهرين ، فاننا نرى ان أكثر المناطق رخاء وأكثرها تطورا وأرفعها شأنا هي التي بقيت تعيش في هذه المناطق المروية التي هي من بقايا العهود الماضية . وان غوطة دمشق التي ترجع شبكة اقنيتها الى الالف الثاني قبل الميلاد هي أكبر مثال على ذلك ، وكذلك سد بحيرة حمص الذي يعود الى نفس التاريخ ، يبقى لنا نموذجا رائعا لهذه المنجزات في نطاق الري .

هذا عدا عن الغوطات الكثيرة المبعثرة في الساحل السوري كطرابلس وصور وصيدا ووادي الخابور في الجزيرة واخيرا مناطق شط العرب في العراق الاسفل . وباقي واحات الجزيرة العربية في نجد والخليج

---

(١) القات واسمه العلمي Catho eludis هو نبات مخدر يمضغه سكان اليمن .

العربي واليمن وحضرموت • فنمط الحياة في قرى هذه المناطق المروية هو أكثر تعقدا وأرفع مستوى وأثبت انتاجا من قرى المناطق السهبية • كما ان الفن الزراعي المتقدم وأنواع الزراعات الغنية التي يساعد على ازدهارها الماء وحرارة الصيف هي من الصفات المميزة لنمط الحياة هذا • فقرى غوطة دمشق تعطينا المثل الواضح عن الفرق الشاسع بينها وبين قرى السهوب السورية والعراقية في كل ما تقدم •

وأهمية الري في كل المناطق العربية أصبحت اليوم الهدف الرئيسي لكل السلطات ، وان المشاريع الاساسية في تنمية الثروة الزراعية ورفع مستوى الريف تدور اليوم كلها حول توسيع شبكات الري القديمة وايجاد شبكات ري حديثة ببناء السدود على الانهار الكبيرة والصغيرة وتجفيف المستنقعات واستثمار الينابيع ونضح المياه الجوفية • وقد تطورت الآن انماط الحياة البعلية الى انماط مروية في كل المناطق التي تمت فيها مشاريع الري الحكومية في بلاد الشام والعراق وقد ساهم في ذلك الافراد بما وضعته المدنية الحالية بين أيديهم من وسائط فنية لضخ الماء من جوف الارض ، وفن زراعي متقدم يشمل مختلف الآلات والطرق الزراعية الحديثة •

وان انماط الحياة في اليمن السعيد حيث يوجد القطب الآخر للبلاد العربية المطيرة لا يختلف كثيرا من حيث التنظيم عن مناطق المتوسط وما بين النهرين الا ان الامطار الصيفية التي تتساقط هناك وارتفاع مستوى الحرارة يسمح بزراعات غنية هي البن التي لا تنتج مطلقا في المناطق الشمالية بالاضافة الى الحبوب وخصوصا الذرة •

ولا تشذ المناطق اليمانية من حيث الحاجة الملحة للري ، غير ان الامر يختلف هنا عما هو الحال في الشمال فاذا كانت بلاد الرافدين تتلقى المياه الغزيرة للدجلة والفرات وروافدهما ، وسورية تنعم بمياه جارية كثيرة عدا الفرات ، فان اليمن تنقصها المياه الجارية الدائمة فيما عدا بعض الينابيع التي تخلق بعض الواحات الصغيرة وخصوصا في وادي حضرموت ولم تقصر اليمن سابقا في حجز مياه السيول من أجل الري وسد مأرب الخرب هو خير مثال على ذلك •

الا انه من الملاحظ ان المناطق الجنوبية للجزيرة العربية لا تزال تعيش على انماط حياتها الزراعية القديمة دون تطور يذكر حتى اليوم مما يجعل مستوى حياة الريف منخفضا لاعتماده فقط على الامطار والري على موارد مائية ضعيفة أو على فن زراعي تقليدي قديم وسائطه جد بدائية •

وقبل ان ننتهي من هذه الانماط الزراعية لا بد لنا ان نشير الى تناقص الحرارة من الجنوب الى الشمال يدخل بعض الاختلاف في أنواع المزروعات ، فاذا استثنينا زراعة البن في اليمن الواقعة جنوب مدار السرطان بعشر درجات عرض ، فان زراعة الاشجار الاساسية في واحات الجزيرة العربية هي النخيل على أنواعه • واذا شملت هذه الزراعة مناطق العراق الاسفل وشكلت الاساس في حياته الزراعية المروية فان بلاد الشام تبقى خارجة عن نطاق النخيل بينما تتميز بالزيتون والكرمة التي تنعدم في المناطق السابقة تقريبا •

المدن وانماط الحياة التجارية والصناعية :

كانت المدينة في الشرق العربي ولا تزال مركز الفعاليات التجارية والصناعية • فالطرق التجارية القديمة

التي كانت تتلاقى في الجزيرة العربية برية كانت أم بحرية دفعت أهل هذه البلاد لان يكونوا من أقدم تجار العالم وأبرعهم واجرئهم على الاسفار والاتجار، وكانت المدن هي مراكز هذه الفعاليات دون الريف .

وحسب ما تطورت طرق القوافل القديمة والحديثة ، تطورت معها تجارة المدن وفعالياتها وقد أوجدت الطرق التجارية القديمة مدنا تجارية خلقت حولها ممالك تجارية كمدية تدمر والبتراء ودورا أوروبوس على الفرات وقد اندثرت هذه المدن باندثار طرقها التجارية بعد ان قامت بدور تجاري وسياسي في غاية الاهمية عدة اجيال . وان الآثار الباقية لهذه المدن تفصح ببلاغة عن مقدار الثروة الضخمة التي تملكتها ومستوى العيش الرفيع الذي تمتع به أهلها .

واذا ما انقرضت هذه المدن القائمة في الصحراء ، فالمدن الاخرى لا تزال باقية ولو ان أهميتها تضاءلت كثيرا بانقراض طرق تجارتها وعودتها الى مستوى امكاناتها الطبيعية الدنيا كما هو الحال في البصرة وبغداد ودمشق وحلب ومكة والمدينة وصيدا وصور وباقي مدن الجنوب العربي والخليج .

التجارة البحرية : الا ان العرب الذين تملكوا البحار في وقت ما وجابوا في جميع الاتجاهات وكانوا صلة الوصل مع أمم اوروبا وآسيا وافريقيا اشاحوا بوجههم عن البحر في عصور الانحطاط الاخيرة وتحت ضغط الدول البحرية العصرية الاستعمارية . غير ان عهد التحرر والانطلاق ترافقه عودة للبحر واستثماره من الناحية التجارية والاقتصادية . واذا بدأت الجمهورية العربية بهذا العود الحميد وأخذت تتقدم بسرعة منذ عدة سنوات فان البلاد العربية الاخرى لا تزال محرومة من اسطول تجاري بحري بالمعنى الحديث لهذه الكلمة واذا وجدت هذه الفعالية البحرية فلا تزال تستعمل السفن القديمة وطرق استثمار خيرات البحر بشكل بدائي . وبذلك فان انماط الحياة البحرية ضئيل جدا في نطاق الحياة العربية بالنسبة لامتداد سواحلها وثروة بحارها . وقد بدأت الكويت والمملكة السعودية بتأسيس اسطول ناقلات بترول عربية .

التجارة البرية : وقد توصل العرب بقوافلهم وتجارتهم لان يتغلغلوا في قلب القارة الآسيوية حتى الهند والصين ويتمركزوا على أطراف البحر المتوسط ويصلوا مختلف مناطقه . كما ان تجارتهم البحرية تعاملت مع افريقية الشرقية والهند وبلاد الملايو وجزر اندنيسيا التي حملوا اليها الاسلام .

وقد اقترنت هذه الحركة التجارية الضخمة وتداول الاموال الكثيرة الى نشاط الصناعات الحرفية على مختلف انواعها لحمل نتاجها الى باقي البلاد والامم التي اتصلوا بها . فعرفت دمشق والمدن الشامية بمختلف صناعاتها النسيجية والمعدنية وغيرها كما عرفت بذلك بلاد اليمن وبغداد والبصرة . غير ان سقوط الطرق التجارية بعد غزوات التتار والحروب الصليبية واحتلال الاتراك العثمانيين معظم بلاد العرب، وسقوط الطرق البحرية باكتشاف طريق الرجاء الصالح من قبل الاوروبيين وطرد العرب من بحر الهند والشرق الاقصى من قبل المستعمرين أدى الى تقهقر هذه المدن وصناعاتها وعودتها لحالة ركود وتقلص وصلت فيه الى أخفض نقاطها في أواخر القرن التاسع عشر .

الا ان العصر الحديث منذ تحرر العرب ونهضتهم الحديثة ، أعاد الى هذه البلاد أهميتها كملتقى طرق تجارية عالمية وخصوصا بعد امتلاك قناة السويس واتساع نطاق التجارة الجوية والبرية بواسطة وسائل النقل الحديثة .

ان كل هذه الاسباب أعادت الى البلاد العربية في الجزيرة وخاصة في بلاد الشام والرافدين أهميتها القديمة من حيث انها ملتقى طرق هامة وأخذت تدب فيها الحياة التجارية والصناعية من جديد • وبانشاء المعامل الحديثة واتساع نطاقها استعادت المدن العربية وخاصة المتطورة منها في شمال الجزيرة العربية فعاليتها الصناعية على اصول حديثة وأخذت انماط الحياة الصناعية الحديثة التي عرفت في اوروبا منذ القرن الماضي تأخذ طريقها الى المدن العربية مع كل مظاهرها ومشاكلها التجارية والمصرفية والديموغرافية والاجتماعية •

فمرفأ بيروت وطرابلس واللاذقية ومدن دمشق وحلب وبغداد والبصرة اصبحت مراكز تجارية وصناعية حديثة في طريق النمو المضطرد باضطراد تحسن طرق المواصلات وتصنيع البلاد واكتشاف خيرات ما تحت الارض •

وبهذه المناسبة لا يمكننا اغفال أهم ثروة اقتصادية وضعت العالم العربي في أكبر مركز انتاجي عالمي ألا وهو البترول الذي تدفق في اطراف الخليج وفي بلاد الرافدين وفي الشمال الافريقي •

فهذه البلاد العربية التي أصبحت من أكبر منتجي البترول ، عصب الصناعة الحديثة ، في العالم تتعرض في نفس الوقت نتيجة لذلك الى تطور كبير يشمل النواحي الاقتصادية والتجارية والاجتماعية وبالتالي انماط الحياة في المناطق التي ظهر فيها البترول كالعربية السعودية والعراق والكويت وقطر والبحرين والبلاد التي تمر انابيب تسويق البترول فيها كالقطر السوري ولبنان •

فظهور البترول في مناطق الخليج الصحراوية أوجد نمط حياة صناعية ومدينية حول آبار البترول ومصافيه وتحولت بعض قرى صيادي الاسماك واللؤلؤ على ساحل الخليج العربي الى مراكز بترولية ضخمة كمدينة الكويت التي يتجاوز قطرها ١٢ كيلومترا وتجمع فيها سكان حضريون يمارسون جميع فعاليات المدن التجارية الصناعية الكبرى • وقد دخل هذا التطور على باقي مراكز انتاج البترول في العراق وكذلك في الموانىء العربية للبحر المتوسط حيث أصبحت موانيء بترولية وبعضها كطرابلس وصيدا مراكز صناعية بسبب مصافي البترول واخيرا مدينة حمص التي أصبحت مركز صناعة بترولية سائرة في طريق التوسع والازدهار • وسترون في الدروس التالية أهمية البترول في حياة العرب وتطورهم السياسي والاقتصادي •

البيئات وانماط الحياة في افريقيا العربية :

ان الاطار الطبيعي ، وخصوصا المناخ ، يقسم بلاد العالم العربي الافريقي الى منطقة سهبية صحراوية هي مرتع البدو الرحل • ومنطقة مطيرة يستقر فوقها الحضر كما هو الحال تماما في الجزيرة العربية مع بعض الاختلافات المحلية التي تفرضها التضاريس والغطاء النباتي والمياه •

<u>الحياة البدوية</u> : اذا ما تشابهت الحياة البدوية في الجزيرة العربية وافريقيا ، بانقسام البدو الى بداة كبار يربون الجمال ويقومون بترحال كبير في الصحراء الكبرى ورعاة للاغنام والماعز في المناطق السهبية المتاخمة للمناطق الجبلية فهناك بعض الاختلاف في التفاصيل •

فالبدو الجمالة أو البدو الكبار هم الذين يتنقلون في الصحراء الكبرى ويكون مراكز ترحالهم الواحات في وديان الصحراء الكبرى وعلى أطراف الجبال المركزية ، فالامطار النادرة التي تهطل في هذه المناطق تنبت بعض النباتات والشجيرات القزمة والاشواك التي ترعاها الجمال وتختص كل قبيلة بنجعة خاصة لا تتعداها ، وأهم هذه القبائل هم « الشعمبا » وهم من العرب ويتمركزون في الشمال و « الطوارق » وهم من أصل بربري ويتمركزون في الجنوب وحتى قوس نهر النيجر وبحيرة تشاد • ولا تختلف العادات هنا عنها بالجزيرة العربية فيما بين القبائل ونظم الترحال ، ويرتحل هؤلاء البدو في المناطق الجبلية في الهوغار وتبستي والعاير •

ورؤساء هذه القبائل الذين فرضوا سلطتهم على كل الصحراء هم ملاك لبعض الاراضي في واحات الصحراء يستثمرونها بواسطة فلاحين من الزنوج أتوبهم من الجنوب يسمون « الحراثين » وقد كان لهؤلاء البدو شأن كبير عندما كانت القوافل هي الواسطة الوحيدة للاتصال قبل دخول المستعمرين واستعمال الطائرات والسيارات • ومع ذلك فان معظم نقل الصحراء بين أهلها يكون بواسطة القوافل الا ان شأنها قد خف كثيرا بسبب الاتصال البحري بين افريقيا السوداء والشمال وكذلك السيارات والطيارات • وقد كانت بعض هذه القوافل تعد آلاف الجمال المحملة والتي كانت تبقى تسير مدة اسبوع كي تنتقل بين نقطة ماء واخرى في هذه الصحراء الكبرى التي يبلغ طولها من البحر الاحمر حتى المحيط الاطلسي أكثر من ٥٠٠٠ كم وعرضها من الشمال الى الجنوب أي من المتوسط حتى منعطف النيجر ١٥٠٠ كم •

وطرق القوافل الصحراوية في افريقيا العربية وتنحصر في اربع خطوط :

١ — الطريق من ليبيا أو واحات فزان نحو واحة كفرة ووادي النيل •

٢ — طرق متعددة تذهب من منطقة طرابلس الغرب وجنوب تونس الى منطقة بحيرة « تشاد » بطريق واحات فزان أو واحات غدامس وغات وهذا هو أقرب طريق من المتوسط الى سهوب السودان •

٣ — الطريق الذاهبة من جنوب الجزائر حتى منعطف نهر النيجر بواسطة واحات تنزروفت •

٤ — طريق وادي الدرعة وواحات تافيلالت نحو مدينة تومبكتو على النيجر •

اما البداة الرعاة فهم اشبه بانصاف البداة في بلاد الشام اذ انهم يبقون في الهضاب الشمالية وعلى هوامش الجبال ولا تتعدى نجعتهم عدة عشرات من الكيلو مترات • وهم بهذا رعاة جبال عدا عن انهم يتنقلون بين مراعي الهضاب والجبال العالية في الصيف وينحدرون نحو السواحل والوديان في الشتاء • ولذلك كثيرا ما نرى لهم قرى تامة في مرابعهم الشتوية والصيفية ويتعاطون بعض الزراعة بواسطة فلاحين مأجورين لترفعهم عن حياة الفلاحة والزراعة •

وهضاب المغرب وجبالها تقدم لهم عشبا غزيرا واحراشا ذات اشجار ومراعي خصبة مما يساعدهم على تربية الماعز والبقر مع الاغنام بخلاف الرعاة البداة في الجزيرة العربية الذين يقتصرون على تربية الاغنام فقط من نجعات واسعة تبلغ مئات الكيلو مترات •

وهذه القبائل الرحل تعيش في الخيام وتثبت خيامها في مقرها الشتوي أو الصيفي على شكل قرية

تسمى (الدوار) ويتبادلون منتجات مواشيهم مع الحضر والريف كما هو الحال تماما في الجزيرة العربية.

الا ان دخول الاستعمار الى هذه البلاد حد من غزوات البدو وحرم عليهم كثيرا من المناطق الساحلية المستنقعية التي استملكها وجففها وقلبها الى مزارع لمواطنيه . وبذلك قصرت نجعات كثير من هذه القبائل البدوية كما ان بعضها أخذ يثبت في الارض وخصوصا في مناطق الهضاب الداخلية والجبال .

وتختلف سهوب بلاد المغرب عن بوادي جزيرة العرب بوجود نباتات مثل « الحلفا » واشجار نخيل « الدوم » التي أصبحت منذ اوائل القرن الحالي مركز استثمار وتجارة ، اذ ان شجر الحلفا والدوم تصدر الى البلاد الاوروبية وخاصة انكلترا ، فمن الحلفا يعمل الورق ومن الدوم تستخرج الياف تستعمل لنفس الغرض أو في الصناعات السللولوزية .

وبذلك أصبح للبداة في هذه المنطقة مورد رزق اضافي بقطع هذه النباتات من الهضاب الداخلية خصوصا وان هذه النباتات تغطي مساحة كبيرة تقدر بـ ٤ ملايين هكتار .

حياة الحضر في الريف والمدن :

قبل ان تتكلم عن انماط الحياة الحضرية في افريقيا العربية يجب ان تتكلم عن وادي النيل الذي يشكل نمطا خاصا في العالم كله . فوادي النيل يشكل في مصر واحة مخضرة تمتد على ١٢٠٠ كم بعرض لاينقص عن خمس كيلو مترات ولا يتجاوز ٢٠ كم . وهذه الواحة تمتد فوق سهول النيل اللحقية في الوادي الفيضي للنهر . وبذلك يكون وادي النيل اضخم واحة متماسكة في العالم وفي أكثر الصحاري جفافا .

وقد عاش الناس هنا منذ آلاف السنين على نمط خاص من الحياة الزراعية القائمة على الري من النيل. ولما كان النيل هنا اخفض من مستوى سهل فيضه المروي وكان معرضا لفيض سنوي يطفى على بعض جوانبه ، ولذلك فقد كان الري على نوعين تقليديين : اما بزراعة الارض التي يغمرها الفيض مرة في السنة ، أو بالري الدائم للاراضي المرتفعة بواسطة رفع المياه بالشادوف والنواعير والدواليب التي تديرها الحيوانات. وبذلك يمكن زراعة الارض عدة مواسم في السنة لارتفاع الحرارة طوال السنة وتوفر المياه .

وقد بقي نمط الحياة هذا آلاف السنين حتى استقلت مصر في القرن التاسع عشر فبنت السدود وخصوصا سد اسوان واسيوط والقناطر الخيرية الخ ... التي نظمت صبيب الماء ووزعته في أقنية اضافية سمحت بتوسيع رقعة الارض المزروعة من الوادي وبالراحة . واخيرا استعمال المضخات الحديثة التي أخذت تقوم مقام الوسائل القديمة في رفع المياه . واليوم يقام السد العالي لخزن الماء بكميات ضخمة وتوسيع مساحة الارض المروية بمقدار الثلث .

واذا كان الفن الزراعي قد وصل لدرجة عالية منذ زمن بعيد فان هذا الفن الزراعي في تقدم مستمر بسبب دخول الآلة وطرق الفن الحديث في الزراعة والمكافحة وخصوصا بعد انتشار زراعة القطن المورد الاول في زراعة وادي النيل .

انماط الحياة الزراعية في بلاد المغرب :

ان انماط الحياة الريفية في بلاد المغرب لها وجهان اولهما الوجه التقليدي الذي لا يزال يمارسه السكان

العرب في المغرب ، وثانيهما النمط الاوروبي الذي يمارسه المستوطنون الاوروبيون اللذين استعمروا هذه البلاد واغتصبوا قسما كبيرا من اراضيه الخصبة وأقاموا عليه نمط حياة ريفي خاص بهم يشبه الى حد كبير ما هو موجود في الريف الافرنسي مع الانسجام وبيئة مناخ البحر المتوسط ونباتاته • ويختلف اتساع هذه المناطق حسب قدم الاستعمار ونوعه فأكثرها اتساعا نراه في الجزائر ثم تليها تونس ثم مراكش •

نمط حياة الريفي العربي :

اما النمط العربي فيختلف باختلاف المناطق والشروط الطبيعية ، ففي تونس يتجمع الناس في القرى ويمارسون زراعة الحبوب البعلية وزراعة الزيتون • اذ ان مناطق الزيتون تغطي مناطق واسعة في الشمال من سهول تونس بينما تخف زراعته وتزداد زراعة الحبوب ، وخصوصا الشعير ، في السهول الجنوبية حيث تتناقص كمية الامطار الى ٣٠٠ مم أو تقل • وينخفض مستوى الحياة المادي والاجتماعي بما يتفق مع هذا الانتاج الضعيف غير المستقر •

اما في الجزائر فقد اغتصب الافرنسيون معظم الارض الخصبة الساحلية وتلال الريف الشاطئية ومعظم سهول الوديان الخصبة الداخلية وحصروا السكان الاصليين في المناطق الجبلية والسهبية • ففي المناطق الجبلية تكاثف الناس بكميات كثيرة (١٣٠ كم٢) يعيشون على رقعة صغيرة من الارض يزرعونها بالحبوب واشجار التين والزيتون ويعيشون في مستوى منخفض وفقر كبير أدى الى هجرتهم بكثرة الى فرنسا والمدن كما سنرى في بحث السكان • وقسم من هؤلاء يعمل باجور زهيدة في مزارع الافرنسيين في السهول الساحلية ومناطق التل الساحلي •

وتختلف مملكة المغرب عن سابقاتها بتنوع مناطقها ووفرة مياهها وامطارها بسبب جبالها العالية وقلة المستعمرين من الاوروبيين فيها ، اذ ان الحال لم تستتب للافرنسيين في المغرب الا بعد سنة ١٩٣٦ •

ففي المناطق الجبلية وهوامش الجبال تتبعثر المزارع والقرى على سفوح الوديان وتقوم بزراعة مروية باشتقاق مياه الوديان الهابطة من الجبال بواسطة سدود واقنية نظمت منذ اقدم الازمنة بينما في السهول السلحية الرطبة تزرع الارض بالزراعات البعلية من الحبوب والخضار وكذلك الزراعات المروية كالذرة والاشجار المثمرة والقطن والارز • ومظهر الريف هنا يشبه الى حد كبير ما نراه في الشرق العربي مع بقائه على الطرق القديمة في الفن الزراعي والاستثمار وانتشار الملكية الكبيرة وخاصة بالسهول •

وكلنا تقدمنا نحو الجنوب ، وقلت الامطار ، سيطرت زراعة الحبوب وخصوصا الشعير الذي يكتفي بقدر قليل من الامطار • ويرافق ذلك ريف فقير بزراعته وحياته الاجتماعية بما يشبه الريف في مناطق السهوب الداخلية في شرقنا العربي •

نمط حياة الريفي الاوروبي :

ان نمط حياة الريف الاوروبي يختلف اختلافا بينا عن النمط العربي الذي بقي يمارس فنه الزراعي البدائي القديم ، في الوقت الذي استعملت فيه أحدث الوسائل الفنية في المزارع والقرى الاستعمارية التي تمكنت من توظيف رؤوس اموال كبيرة في هذه المستثمرات الزراعية الحديثة •

وقد اختلف نمط الاستثمار والزراعات حسب قدم الاستعمار والشروط الطبيعية في أقطار المغرب الثلاث .

ففي تونس شكل الاوروبيون جمعيات زراعية على نمط الجمعيات التجارية الكبرى برؤوس أموال ضخمة ومزارع واسعة ، وقامت بزراعة الزيتون وتصنيعه بالدرجة الاولى وبزراعة الكرمة بالدرجة الثانية . وقد اعطيت الارض لهؤلاء المزارعين الكبار من املاك الدولة كما حولت اليهم اراضي الوقف .

اما في الجزائر فقد اتخذ الامر شكل استيطان واستثمار فاغتصب الاوروبيون الذين هم خليط من الافرنسيين والاسبان واليهود المحليين أحسن الاراضي الواقعة في المناطق الساحلية الدافئة الرطبة والوديان التي يمكن ريها بواسطة سدود لخزن الماء انشئت خصيصا لهذه الغاية .

وتقدر الاراضي التي كان يستثمرها الاوروبيون بـ ١/٤ الاراضي القابلة للزراعة وذلك ما يعادل ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ هكتار مع ٨٠٠ قرية و ٣٠٠٫٠٠٠ مزارع .

وهذه القرى هي نسخة مماثلة لما هو حال القرية الفرنسية ومزودة بأحدث الاوائل الحديثة وتدار حسب الفن الزراعي الحديث .

وقد مارس المزارعون الفرنسيون زراعات مربحة ذات قيمة عالية . فزرعوا على التلال والسهول الكرمة التي نافسوا باتتاجها فرنسا نفسها (٤٠٠٫٠٠٠ هـ) ، ثم زراعة الخضار التي تشحن لاوروبا وخصوصا وانها باكورية بالنسبة لخضار فرنسا ، وأخيرا زراعة الحمضيات التي انتشرت انتشارا واسعا بعد الحرب العالمية الثانية وتصدر الى اوروبا وخصوصا فرنسا والزراعات الصناعية كالتبغ وغيرها .

اما في مملكة المغرب فلم يكن التغلغل كبيرا لتأخر وصول الاستعمار الى هذه البلاد ولكثرة سكان المغرب المراكشي واستثمارهم معظم أراضيهم . ومع ذلك فهناك أكثر من ٢٠٠٠ مزارع يملك كل منهم وسطيا ٢٥٠ هكتار ، وخصوصا في السهول الساحلية الخصبة حول مكناس والرباط والدار البيضاء حيث قاموا بتجفيف المستنقعات وتنظيم الري وممارسة الزراعات الفنية كما هو الحال في الجزائر ، بوسائط كبيرة تساعد على تطبيق الفن الزراعي والحصول على أحسن انتاج مع التسويق للاسواق بأحسن الشروط . فهذه القرى نظمت وكأنها قسم من الريف الافرنسي . الا انه بالاضافة الى المستعمرين الاوروبيين نجد ان اليد العاملة في هذه المزارع كلها هي من أهل البلاد العرب الذين يعملون باجور بخسة جدا مما يرفع في ارباح هؤلاء المستعمرين ، ولكن هذه الحال تبدلت تماما بعد استقلال اقطار المغرب العربي ، وهجرة القسم الاكبر من الاوروبيين منها وعودتهم الى بلادهم ،واتباع نظام اشتراكي في الجزائر واستعادة ملكية الارض الزراعية الى أصحاب البلاد الشرعيين في جميع اراضي المغرب العربي .

ولبلاد المغرب ثروة حراجية كبيرة اذ ان ١٤٪ من بلاد المغرب مغطى باحراش كثيرة وفيها أجمل غابات الارز . الا ان ما يستثمر منها من قبل الاوروبيين بشكل خاص هو شجر السنديان الفليني الذي نظم استثماره من قبل المستعمرين الاوروبيين وتصديره الى بلاد العالم . ويقدر فلين بلاد المغرب بثلث ما يستهلكه العالم من هذه المادة .

المدينة وانماط الحياة التجارية والصناعية :

ان المدن العربية الافريقية بقيت في معزل عن الطرق التجارية الكبيرة التي عرفت في العصور القديمة باستثناء مصر السفلى حيث ظهرت فيها مدينة القاهرة العاصمة الكبرى التي بناها العرب في العالم العربي الافريقي ، واذا أصبحت هذه المدينة مع مينائها الاسكندرية أكبر مدن القارة الافريقية فلأنها سوق لوادي النيل كله وملتقى طرق بين اوروبا وآسيا وافريقيا . وقد أصبحت الآن كما هو معروف أكبر مركز صناعي وتجاري ومالي في الشرق العربي . والاسكندرية التي كانت منذ اقدم عصور التاريخ ميناء لملتقى طرق بحرية كبيرة هي بنفس الوقت ميناء مصر الوحيد .

اما باقي مدن المغرب العربي فقد بقيت حتى أواخر القرن التاسع عشر مدنا صغيرة وأسواقا محلية لمختلف مناطقها المنعزلة ولم يشذ عن ذلك حتى أكبر المدن كتونس والقيروان والرباط ومدينة الجزائر . الا ان دخول الاستعمار واستثمار خيرات البلاد الزراعية والمعدنية ومد طرق المواصلات التي ربطت الشمال الافريقي بمستعمرات افريقيا الوسطى بدل الحال تماما، فازدوجت المدن العربية القديمة بمدن اوروبية بسكانها وطرازها وخصوصا في الجزائر ثم تونس والمغرب المراكشي ، اذ تحولت بعضها الى عواصم ادارية وصناعية وموانيء بحرية هامة كتونس والجزائر والدار البيضاء ووهران وغيرها .

ولا تختلف وظائف المدن هنا عنها في الشرق العربي لا من حيث الوظيفة ولا من حيث الدور المعنوي . فهي السوق ومركز السلطة ومكان اشعاع الثقافة العربية والمقاومة السياسية ضد الاستعمار .

هذا وان دخول المستعمرين المستثمرين الى بلاد المغرب أدى الى نشاط فعاليات جديدة أهمها استثمار الخيرات المعدنية للبلاد دون ان يؤدي ذلك الى التصنيع كذلك واستثمار خيرات البحر وظهور صناعات مرتبطة بذلك .

فبلاد المغرب تضم في ارضها ثروات معدنية كبيرة أدت الى ظهور مناطق تعدينية لها نمط حياة يتفق مع هذه الفعاليات في كل من تونس والجزائر ومراكش وقد ظهرت مدن تعدينية حول هذه المناجم تحولت فيها المناظر الريفية التقليدية الى مظاهر حديثة تتفق مع فعاليتها الجديدة ، ولا بد من التلميح الى ان نصف انتاج العالم من فلزات الفوسفات يأتي من المغرب العربي وخصوصا من تونس ومملكة المغرب .

وربع خامات الحديد التي تستوردها انكلترا من الخارج يأتيها من افريقيا الشمالية .

وهناك مناجم مستثمرة للمنغانيز والرصاص مع الزنك ومناجم للفحم في جنوب منطقة وهران (٣٠٠٠٠٠ طن سنويا) .

وأخيرا البترول الذي ظهر في صحراء الجزائر في « حاسي مسعود » وكذلك في ليبيا والذي يقدرون انه يحوي أكبر احتياطي معروف في العالم وقد تم استثماره من قبل الافرنسيين الذين يسوقونه للبحر المتوسط بواسطة انابيب .

وأخذ يبدو جليا يوما بعد يوم ان الصحراء الكبرى في جنوب الجزائر وتخوم الحدود الجزائرية الليبية من أغنى مناطق العالم في البترول والغاز الطبيعي .

ففي منطقة « العجيلة » قرب الحدود الليبية تمتد منطقة بترولية قدر احتياطيها موقتا بمخزون قـدره ٢٥٠ مليون طن (أي حاجة فرنسا لمدة ١٥ سنة) ، وانتجت هذه المنطقة في سنة ١٩٦٣ : ١٢ مليون طن بترول .

اما منطقة « حاسي مسعود » فتحتوي على ٣٪ من المخزون العالمي وقدر انتاجها السنوي سنة ١٩٦٤ (١٤) مليون طن .

وقرب منطقة « الاغواط » اكتشفت آبار بترولية لا تقل أهميتها حسب التقدير عن منطقة العجيلة . كما توجد على ٨٠ كم جنوب « حاسي مسعود » مناجم بترولية تعادل ما هو في « حاسي مسعود » . ويقدر الخبراء ان هذه المناجم البترولية يمكنها ان تنتج اذا استثمرت بحدها الاقصى بما لا يقل عن (٧٠) مليون طن من البترول سنويا أي انتاج الكويت سنة ١٩٦٠ .

ويضاف الى ثروة الصحراء الكبرى العربية منابع الغاز الطبيعي التي تحددت مواقعها في برقا « الصحراء الكبرى » وحاسي مسعود وخصوصا في منطقة « حاسي الرميل » التي تضم أهم منطقة غازية في العـالم اذ يقدر احتياطي الغاز الطبيعي بـ ٢٠٠٠ مليار متر مكعب (كل ١٠٠٠ م٣ غاز طبيعي يعادل طن فحم) اذا استثمرت بحدها الاقصى فانها تنتج قدرة سنوية تعادل ١٦٠ مليون طن فحم على ثلاثين سنة أي ما يعادل انتاج فرنسا والمانيا من الفحم مجتمعتين تقريبا (٢٠٢ مليون طن فحم انتاج فرنسا والمانيا معا) .

هذا وان المغرب العربي أخذ يتجه الى البحر بعد ان هجره سنين طويلة وللملكة المغرب اسطول صيـد فني مع عديد من المعامل لتعليب السمك .

هكذا نرى ان العالم العربي الافريقي ذو امكانيات تعادل وربما فاقت ما هو عليه العالم العربي في الشرق ، الا ان الاستعمار هو الذي جعله يتخلف بالنهوض .

مقومات الوحدة في الوطن العربي

لا تقصد بدراستنا لمقومات الوحدة ان تنفي وجود اختلاف وتباين في كثير من مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فان هذا الاختلاف والتباين أمر طبيعي في بلاد تبلغ مساحتها ١٢ مليون كيلو متر مربع أي ما يزيد عن مساحة أوروبا مجتمعة ، وانما يعتبر هذا الاختلاف أمرا ضروريا ، يتمم بعضه بعضا في الميادين الاقتصادية خاصة ، كما لا نعتبر تشابه الانتاج الزراعي او البترولي مثلا ، عاملا من عوامل ضعف الوحدة الاقتصادية ، بل هو من مقوماتها لان هذا التشابه يجعل الوطن العربي الذي يمتلك ثروة كبرى من البترول أو الحبوب أو غيرها بمركز دولي يساعده على ان يتحكم بالاسعار والاسواق العالمية ويساوم عليها في الظروف الدولية لمصلحته العليا .

وهناك حقيقة لا بد من ذكرها قبل الخوض في مقومات الوحدة ، وهي ان التباين في الانتاج ، وفي الثروات واختلاف الموقع الجغرافي ، يكسب الوحدة العربية المرتقبة قوة ودعما ، لانه يجعل منها وحدة سياسية واقتصادية متكاملة ، يساعد على التبادل الداخلي بين المناطق الزراعية والمراكز الصناعية ، وبين البيئة الصحراوية والبيئة الزراعية السهلية ، وبين بيئة المدن ، ويساعد على التحكم في عدد من الممرات الدولية ، كقناة السويس وباب المندب وجبل طارق ، ويساعد على التخصص في الانتاج .

ومقومات الوحدة في الوطن العربي هي مقومات جغرافية مادية ومقومات بشرية وتاريخية وثقافية .

المقومات الجغرافية المادية لوحدة الوطن العربي : أكد ابن خلدون ان وحدة البيئة الجغرافية تؤدي في النهاية الى وحدة الاخلاق والعادات . وأكد رينان ان الأمة تجد أساسها قبل كل شيء في وحدة الارض . والوطن العربي الذي يشمل رقعة كبيرة ، تمتد من جبال العراق شرقا حتى المحيط الاطلسي غربا ، متصل الارض في هذا الامتداد الكبير ، وله حدود واضحة أعطته شخصيته الجغرافية وهي بحار أو جبال أو صحاري ، وقد فرض موقعه الجغرافي ترابطا بين أقطاره ، ووحدة استراتيجية في الدفاع عن كيانه ، خلال حقب التاريخ المختلفة وفيه بيئات جغرافية متنوعة ، تتبادل مع بعضها المنافع ، ويتم بعضها بعضا .

وقد رأينا التشابه في البيئات الرعوية في جزيرة العرب وصحاري افريقيا العربية وكذلك الحال في البيئات الزراعية والمدن .

المقومات البشرية لوحدة الوطن العربي :

آ — الوحدة البشرية : رغم ان العلماء والسياسيين قد أجمعوا على ان الوحدة العنصرية لا تعني وحدة الاصل على اساس انحدار جميع السكان أو غالبيتهم من صلب أب واحد ، وان التزاوج والاختلاط قضيا على فكرة الدم الاصيل ، رغم هذا كله فان سكان الوطن العربي يأتون في مقدمة الشعوب التي تحتفظ بأكبر نسبة من وحدة الاصل الجنسي ، وقد ذكرنا سابقا كيف كانت جزيرة العرب الموطن الاصلي للعرب ومنها انتشروا الى بلاد الهلال الخصيب ووادي النيل وشمال افريقيا ، وصبغوا ارض الوطن العربي بالدماء

العربية الاصيلة التي غلبت جميع الدماء الدخيلة مع الفاتحين والمحتلين . واذا كانت في الوطن العربي دماء اخرى ، بربرية وزنجية وتركية وكردية وشركسية وغيرها ، فان طبيعة المجتمع العربي لدخول هذه الاجناس فيه وامتزاجهم بالعرب طوال الحكم العربي والعهد العثماني ، وتعربهم عن طريق التزاوج مع العرب ، وغلبة اللغة العربية عليهم وجعلها أداة التفكير والتعبير مما دعم كيان هذا المجتمع العربي شعورا وفكرا واحساسا وسجايا وعادات ونظما في الحكم واساليب في مظاهر الحياة الاجتماعية .

ب — الوحدة اللغوية : لا يقل عن ٩٤٪ من سكان الوطن العربي يتكلمون اللغة العربية والـ ٦٪ الباقية يتكلم معظمهم العربية الى جانب لغاته الخاصة . ونظرا لان اللغة اساس من أسس القومية فقد حاول الاستعمار جاهدا وأد العربية واحلال اللغات الاوروبية محلها كما فعل الفرنسيون في بلاد المغرب العربي وخاصة في الجزائر ، وكما حاول احلال العامية محل الفصحى في الكتابة والادب ليكون ذلك مقدمة لايجاد لغات محلية لا لغة عامة واحدة .

حـ — الوحدة التاريخية : لا تعني وحدة التاريخ الوحدة المطلقة في سير التاريخ وتواكب احداثه في جميع الاقطار ومختلف العصور ، ولكنها تعني وحدة السير التاريخي المشترك الذي طبع عقلية الفرد العربي بمآثر وامجاد وانتصارات وانهزامات وافراح وأتراح ، تثير فيه الروح الوثابة للاستمرار في حمل الرسالة ، رسالة العروبة ، وكما فشلت محاولات الاستعمار ، بالقضاء على اللغة العربية ، فقد فشلت في خلق اقليمية ضيقة وتلاشت الاصوات الخافتة — بفضل الوحدة التاريخية — التي كانت تدعو الى فرعونية في مصر وفينيقية في لبنان ، وافريقية في السودان ، وبربرية في المغرب العربي ، ووجد الجميع في مختلف اقطار الوطن العربي جذور شخصيتهم العربية وأصولهم القومية في ثنايا التاريخ العربي .

د — وحدة الهدف والعمل المشترك : اقطار العروبة جميعها تعمل في سبيل تحقيق « وحدة عربية » واذا اختلفت اساليب تحقيق هذه الوحدة ، فان الهدف المرسوم واحد ، ولكن الطريق اليه بنظر البعض مختلف عن نظر الآخرين ، ونتيجة للتعاون المشترك بين مختلف الاقطار العربية في حربها ضد الاستعمار والصهيونية من ناحية ، وفي حربها ضد التخلف والجهل والمرض والاقطاعية والاقليمية والرأسمالية الرجعية ، ونتيجة لاجماع شعوبها وحكوماتها في الخطوط السياسية الدولية العامة فيما يتعلق بشؤون العرب كأمة واحدة ، كما ظهر في مؤتمري القمة الاول والثاني ، وكما يظهر في جميع المؤتمرات الدولية ، نتيجة لهذا جميعه ، وللروح التي تسود الوطن العربي من المحيط الى الخليج بجميع فئاته الشعبية ومنظماته التقدمية ، فان خط السير نحو الوحدة لن يعود القهقري وستتحقق الوحدة السياسية ، ان عاجلا وان آجلا ، كما تحققت الوحدة الطبيعية والبشرية والتاريخية .

اوضاع الاقطار العربية العامة

(الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والمشاكل الرئيسية ، وامكانات التطور)

اقطار العربية : الناظر الى خريطة الوطن العربي يشاهد داخل هذه الوحدة الطبيعية والبشرية ، فسيفساء من الالوان تفصلها حدود اصطناعية ، أوجدتها ظروف سياسية معينة ، وقواها الاستعمار بشكليه: الظاهر حين احتلها لوقت من الزمن ، والخفي بتسييره لسياستها الداخلية ، وتوجيهه لها فكريا واقتصاديا ودوليا ، وعدد هذه الاقطار العربية يبلغ ١٤ قطرا عربيا مستقلا بالاضافة الى مجموعة مشيخات وامارات ومناطق لا تزال تكافح الاستعمار بالثورة المسلحة كالجنوب العربي وعمان ، أو لا تزال ترتبط بعجلة السياسة البريطانية عملا بمعاهدات وقعها مشايخها مع بريطانيا كمشيخات الساحل المتصالح .

دراسة مقارنة لوضع الاقطار العربية : تمر الاقطار العربية بمرحلة تاريخية متشابهة وحاسمة في حياة هذه الارض العربية ، فمشاكلها الرئيسية الداخلية والخارجية تكاد ترسم خطا بيانيا موحدا فلقد دخلت منذ القرن الماضي دائرة الاطماع الاستعمارية واستطاع الاستعمار اقتطاع اجزاء الوطن العربي واحدا بعد واحد ، حتى تم له ما بعد الحرب العالمية الاولى ان يبسط يده عليها جميعها ، وان يسيطر بنفوذه على مالم يحتله احتلالا عسكريا من جزيرة العرب (السعودية واليمن) ولكن المقاومة العربية الضارية والثورات العربية المتلاحقة ، والتعاون التام بين الحركات التحررية العربية ، أنقذ هذه الاقطار واحدا بعد واحد من الاستعمار ، فجلا الاجنبي عن أرضها وهو لا بد ان يحمل عصاه ويرحل عن البقية الباقية من المناطق التي يحتلها في أطراف جزيرة العرب الجنوبية ، ولا بد ان يتحول نضال العرب المسلح أثناء وبعد التخلص من رواسب الاستعمار الى الاحتلال الصهيوني في قلب الوطن العربي وفي أعز اجزائه ليقضي عليه ويزيل اسرائيل ، ويعيد لسماء العروبة صفاءها وحريتها ، وقد خلق هذا النضال المشترك في جميع أجزاء الوطن العربي روحا دبت في العرب لمكافحة أساليب الاستعمار الذي رحل بجنده عن أرض الوطن ، ولكن بقي بنفوذه، ويحاول التسلل بأشكال معاهدات ومساعدات واحلاف واستئجار قواعد وغير ذلك من طرق يحتفظ بها لنفسه بالنفوذ واستثمار الخيرات وتسيير الامور .

هذه الروح التي دبت في العرب تتمثل في الشعارات العربية العامة وفي طليعتها « الوحدة » فاينما اتجهت وفي أي قطر حللت رأيت مطلب « الوحدة » مطلبا جماهيريا ، وهو ليس مطلبا خياليا بل هو رغبة في احقاق واقع طبيعي للامة العربية ، لان التفرقة القائمة على تفرقة مصطنعة أوجدها الاستعمار وأيدتها الرجعية لمكاسب حققتها ، ولذلك كان مطلب « الاشتراكية » لاعادة توزيع الثروة التي جناها بعض أبناء الامة بالظروف السابقة توزيعا عادلا ، وقيام القطاع العام بتأمين حاجات الشعب الرئيسية ، وقد اتخذت الاشتراكية اشكالا تختلف باختلاف مخلفات الاستعمار، فهي في أقطار المغرب مثلا قد اتجهت اول ما اتجهت الى تأميم المزارع والمصانع الفرنسية والاجنبية التي هجرها اصحابها ونجو بأنفسهم بعد استقلال أقطار المغرب العربي وخاصة الجزائر بعد ان شعروا ان استمرارهم في امتصاص دماء الشعب العربي مستحيلا ،

وهي في مصر وسورية ظهرت بشكل اصلاح زراعي ثم تأميم المعامل ، ثم وضع يد الحكومة على التجارة الخارجية وتوجيه الثروة القومية نحو التنمية الاقتصادية .

وأقطار الوطن العربي تبني الداخل الاقتصادي بيد ، وتحمل السلاح ضد الصهيونية والاستعمار بيد ، وتعمل في نفس الوقت ، باليدين لمكافحة الجهل الذي كان يخيم على كثير من اجزائها نتيجة حتمية للاستعمار ، والفقر الذي كان أحد اهداف الاستعمار أيضا ، لان السياسة الاستعمارية وخاصة السياسة البريطانية ، كانت تقسم الشعب ، أي شعب تفرض سيطرتها عليه ، الى قسمين : قسم له المنافع والمكاسب لتأييده للاستعمار ، وقسم فقير عليه الغرم ، ويعمل ليلا نهارا في سبيل لقمة العيش . ولمكافحة التخلف بشتى صوره ومظاهره سواء التخلف الفكري أو الاجتماعي .

واذا كان طابع البلاد العربية الاقتصادي هو الزراعة ، فان جميع الاقطار العربية اتجهت نحو التصنيع ، لتأمين حاجاتها الداخلية محليا ، والاستغناء عن الاستيراد الخارجي وهو الذي كانت تفرضه الدول المستعمرة ، وقد خطت الاقطار العربية خطوات مختلفة في هذا السبيل ، وكانت مصر وسورية ولبنان في طليعة الاقطار الصناعية ، كما اخذت المناطق المنتجة للبترول والتي تمرر البترول باراضيها تتدارس امورها وتتخذ موقفا موحدا من شركات البترول التي كانت تستثمره وتغتني من ورائه ولا تدفع من عائداته الا نذرا يسيرا ، واستطاعت بفضل تعاونها وتنسيق مطالبيها ان تحصل على امتيازات أفضل من السابق ، واستطاع الانسان العربي ان يستثمر البترول بنفسه فقضى على اسطورة الغرب وهي ان البترول لا يمكن استثماره الا على أيدي الغربيين أنفسهم ، وها هي مصر تستثمره بأيد عربية ، وها هي سورية تعلن ان بترولها لن يسمح باستثماره لشركة اجنبية .

ويمكن تقسيم البلاد العربية من حيث المواد الاولية التي تنتجها الى أربعة انواع متميزة هي :

١ — الاقطار التي تعتمد على الزراعة كأساس اقتصادي لثروتها كالسودان والاردن وليبيا وتونس ، ويسهم القطاع الزراعي في هذه الاقطار بحوالي نصف الدخل القومي . وفي احصاء عام ١٩٥٧ كانت نسبة الايدي العاملة الزراعية في الاقطار التالية كما يلي :

السودان	٨٥٪ من السكان
الاردن	٨٥٪ من السكان
ليبيا	٨٠٪ من السكان

٢ — الاقطار التي تعتمد على الزراعة كأساس اقتصادي لثروتها ، وأضافت اليه الصناعة كمصر وسورية ، أو المعادن كمملكة المغرب ، فالى جانب الزراعة ، ودخلها القومي من حبوب وأقطان في سورية ، وأقطان في مصر ، أصبحت الصناعة المنتشرة في القطرين تؤلف ركنا هاما من دخلهما القومي .

٣ — الاقطار التي تعتمد على الزراعة كأساس لثروتها بالاضافة الى موارد البترول وتتمثل في العراق حيث يعمل ٦٠٪ من مجموع السكان في الزراعة (الحبوب ، والقطن) واستثمار أشجار النخيل ، وحيث

تشكل موارد البترول ١/٣ دخل العراق القومي • ويمكن ان ندخل مع الزمن الجزائر وليبيا ضمن هذا النوع لارتفاع العائدات البترولية عاما بعد عام فيهما •

٤ — الاقطار التي تعتمد على البترول كأساس اقتصادي ، بالاضافة الى موارد اخرى تجارية أو زراعية أو خدمات مثل الكويت والسعودية والبحرين •

ومن الناحية السياسية فقد انتظمت جميع الاقطار العربية في « جامعة الدول العربية » التي مرت بمراحل ضعف وقوة ، وبقيت كمنظمة اقليمية ذات مركز دولي رغم الاحداث التي مرت بها ، كما انضمت هذه الاقطار الى هيئة الامم المتحدة ، واتخذ مندوبوها مواقف موحدة في القضايا العربية وتجاه الاطماع الصهيونية ، وأعلنت جميع الاقطار العربية اتباع سياسة الحياد وعدم الانحياز ، وأيدت مقررات مؤتمر باندونغ وقضت على احتكار السلاح وساهمت في التعاون الافريقي الآسيوي ومنظماته ومؤتمراته ، وأصبحت تلعب دورها في احداث العالم وفي تأييد الحركات الثورية التحررية في كل مكان •

والمجتمع العربي متشابه في وضعه العام في جميع الاقطار العربية ، الا أن مشاكله الداخلية تختلف باختلاف وضعه الخاص خلال المائتي عام السابقتين ، وموقعه الجغرافي وتعرضه للاستعمار المباشر أو غير المباشر • فنسبة التعليم مثلا في لبنان تمثل القمة من حيث العدد وكثرة المدارس ، وحملة الشهادات ، واطلاع على ثقافة الغرب نتيجة لظروف سياسية وتاريخية كثيرة ، بينما تمثل هذه النسبة الحضيض في جنوب السودان وبعض اجزاء اليمن وسواحل الخليج العربي — عدا الكويت — والمناطق الصحراوية من المغرب العربي ، وذلك لاسبابها الخاصة أيضا ، وقل مثل ذلك في القدر الذي اقتبست فيه حضارة الغرب واستخدام الانسان العربي لمظاهر هذه الحضارة المادية •

والاقطار العربية على اختلافها في بدء نهضة شاملة عامة ، فيها امكانات للتطور لا حد لها ولا حصر ، وتفجير طاقاتها ، تفرضها حتمية التاريخ وحتمية المرحلة التي يجتازونها ، واذا كانت مصر بعد ان أممت قناة السويس وأخذت تبني السد العالي وتخلصت من الاستغلال الاجنبي قد تطورت داخليا واصبحت الصناعة تشكل ركنا اساسيا من مقوماتها اقتصادية ، فان سورية قد خطت خطوات مشابهة بالتصنيع وستبني عما قريب سد الفرات وتستثمر بترول الجزيرة ، وتجعل من ميناء طرطوس ، بعد اللاذقية ، ثغرا هاما لتجارة منطقة الشرق الاوسط ، وأنفقت الكويت جزءا من واردات البترول الضخمة على تحسين مستوى الفرد الكويتي وتغذية نهضة عمرانية عامة ، والبدء في قروض كويتية للبلاد العربية من أجل مشاريع التنمية الاقتصادية • وسارت الجزائر خطوات هامة نحو تحرير التراب الجزائري من المستوطنين الاجانب المستغلين ، ووضعت الحكومة باسم الشعب ، يدها على جميع ممتلكاتهم ومصانعهم وحولت اربابها ومنافعها الى الشعب المجاهد ، ولم تستطع بقية الاقطار ان تقف من هذه الحركات التقدمية والاشتراكية موقف المتفرج بل اضطرت الى المسايرة أو الثورة على الوضع الجامد ، كما حصل في اليمن ، وثورتها الجمهورية ضد الملكية الجامدة ، وكما حصل في السعودية بتنحية ملك ومحاولة اصلاح في عهد ملك آخر ، وما احداث السودان الحالية الا مظهر من مظاهر وضع أسس جديدة أصلح لبناء مستقبل أفضل •

ومتى تخلصت الاقطار العربية بالتدريج من التحديات التي تواجه وحدتها وقوميتها من الخارج

كالاستعمار والصهيونية أو من الداخل كالشعوبيـة والاقليمية والطائفية والتخلف في شتى صوره وتقريب طبقات المجتمع من بعضها ، وهي امور سندرسها فيما بعد ، متى تم للامة العربية ذلك ، وحققت وحدتها ، حققت بنفس الوقت امكانات عسكرية ، بانشاء جيش وطني موحد ، لا يقل تدريبا ومركزا حربيا عن أي جيش غربي حديث ، وامكانات دفاعية بحكم موقع الوطن العربي الجغرافي ، وامكانات اقتصادية هامة بما تخزن ارض هذا الوطن من احتياطي البترول في مشرقه ومغربه ، وما تعطيه ارضه الخيرة من انتـاج زراعي ورعوى وغابات ، وما ستنتجه معاملـه من صناعات ، وامكانات بشرية بما يذخر به ارض الوطن من اعداد هائلة للسكان وما يتمتع به هؤلاء السكان من فعاليات ونشاطات مختلفة وامكانات حضارية ، لان العرب قد حملوا في التاريخ البعيد والقريب ولا يزالون يحملون رسالة انسانية خالـدة يورثها الآباء للابنـاء .

الاقطار العربية (تعريف اجمالي بكل قطر) :

١ — القطر السوري : يؤلف القطر السوري الجزء الشمالي من بلاد الشام وهو بحدوده الحالية من وضع الانتداب الفرنسي ، تحده شمالا جبال طوروس وتركيا وشرقا بادية الشام والعراق وجنـوبا الاردن وفلسطين ، وغربا لبنان والبحر المتوسط . مساحته ١٨٩ر٢٨٥ كم٢ وسكانه قرابة (٥) ملايين نسمة . تخلص القطر السوري من الاحتلال الاجنبي في ١٧ نيسان ١٩٤٦ بعد كفاح مرير ، عاصمته دمشق (٤٠٠ الف نسمة) ومن مدنه حلب (٥٠٠ الف نسمة) وحمص (١٥٠ الف نسمة) وحماه واللاذقية ، ودرعـا ، والسويداء ، ودير الزور ، والرقة ، وادلب والحسكة والقنيطرة . نظام الحكم رئاسي (رئيس مجلس الرئاسة ، مجلس الرئاسة ، المجلس الوطني لقيادة الثورة ، مجلس الوزراء) .

يرتكز اقتصاده على الزراعة ، وسهوله الخصبة الواسعة ، يصدر المنتجات الزراعية القطنية والحبوب ومشتقاتها ، وفيه نهضة صناعية تؤمن أكثر من حاجته، وفيها امكانات تصدير المنسوجات القطنية وكثير من الصناعات المحلية ، وقد أممت الدولة المعامل ، وبعض الشركات وأسست شركة رسمية للاستيراد والتصدير وأمنت باسم القطاع العام حاجة الشعب من المـواد الاستهلاكية الضرورية كالشاي والبن والسكر والادوية وغيرها . ويحل القطر السوري مشاكله بالعلم ، فوزارة التخطيط تدرس هذه المشاكل وتخطط للقضاء عليها . والموازنة الانمائية تهتم بالمشاريع الانمائية ، والقوانين الاشتراكية تعمل على ازالة الطبقات وتمنع سيطرة رأس المال ، ومجانية التعليم والمساعدات الجامعيـة تفتح ابواب العلم للجميع دون استثناء .

ومن اجزائه السليبة لواء الاسكندرون ، وهو امتداد طبيعي للاراضي السورية ، مساحته ٤٨٠٦ كم٢ وقد سلخ عن الوطن الأم عام ١٩٣٨ ، ومن مدنه الاسكندرونة وانطاكية .

٢ — لبنان : يقع على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، ويتاخم سورية من الشمال والشرق ، ويتاخم فلسطين من الجنوب . مساحته ١٠ر٤٠٠ كم٢ وسكانه حوالي ١ر٦٤٦ر٠٠٠ نسمة . نظامه جمهوري ، جلت عنه الجيوش الاجنبية في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٦ . عاصمته بيروت (٥٠٠ الف نسمة) وهي مركز تجاري وثقافي هام في البلاد العربية ، ومن مدنه طرابلس وصيدا وصور وزحلة وبعلبك ، يعتمد في دخله القومي على انتاج الفاكهة وخاصة التفاح وعلى تجارة الترانزيت والوساطة التجـارية لجميع البـلاد العربيـة ، والاصطياف وتوظيف الرساميل العربية فيه ، وفيـه نهضة صناعية وعمرانية ، مستوى الفرد فيه من الناحية الثقافية والاجتماعية وتكاليف المعيشة مرتفع .

٣ — الاردن : كان الاردن يقتصر في رقعته على المنطقة الواقعة الى شرقي نهر الاردن جنوب سورية وقد ضمت اليه الضفة الغربية منذ ١٩٤٨ واصبحت مساحته ٩٦٫٦١٠ كم^{2} وسكانه ١٫٧٥٢٫٠٠٠ نسمة (احصاء عام ١٩٦١) وعاصمته عمان (٢٤٥ الف نسمة) ومن مدنه القدس ونابلس والزرقاء ومعان واربد والعقبة . نظام الحكم فيه ملكي دستوري . بينه وبين اسرائيل المغتصبة حدود مشتركة طويلة ، يعتمد في ميزانيته على المساعدات الاجنبية ، فهو يأخذها تارة من بريطانيا وتارة من الولايات المتحدة الامريكية ، وحينا قليلا من الاقطار العربية الاخرى ، ويحاول ان يصل الى درجة الاكتفاء الذاتي لتوازن دخله ومصروفه باستثمار بوتاس البحر الميت ، وتنمية موارد السياحة والزيارة المقدسة وانشاء بعض المصانع واستثمار المعادن وخاصة الرخام ، وتأمل حكومته الاستغناء عن المساعدات الاجنبية عام ١٩٧٠ . أهم ثرواته الزراعية الحبوب والكروم والزيتون والخضراوات الباكورية.

٤ — فلسطين : تشمل فلسطين حسب التقسيم السياسي لبلاد الشام الذي تم في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، المنطقة الغربية لنهر الاردن ومساحتها ٢٧ الف كم^{2} وكان سكانها عام ١٩٤٧ مليوني نسمة ليس فيهم سوى ٦٠٠ الف يهودي ، ولكن منذ نكبة عام ١٩٤٨ فقد احتل الصهيونيون جزءا من فلسطين مساحته ٢١ الف كم^{2} ونقلوا اليه الكثير من يهود العالم وزعموا انشاء دولة اسرائيل .

من مدن فلسطين القدس وعكا وحيفا ويافا والخليل ، ومشاكل فلسطين سندرسها مع دراسة القضية الصهيونية .

٥ — العراق : يؤلف العراق المركز الشمالي الشرقي للوطن العربي تحده شرقا جبال زاغروس وشمالا تركيا وغربا بادية الشام وجنوبا الخليج العربي . مساحته ٤٤٤٫٤٤٢ كم^{2} وسكانه يزيدون على ٧ ملايين نسمة ، نظام الحكم فيه جمهوري ، عاصمته بغداد (٧٨٥ الف نسمة) ومن مدنه الموصل والبصرة والنجف وكربلاء . غني بآبار النفط الذي تستثمره شركات أجنبية وتدفع له عائدات محدودة تساعده على تركيز ميزانية دولته ، والقيام ببعض المشاريع وخاصة السدود الذي هو بحاجة ماسة اليها . ومن مشاكله القومية البارزة ثورة البارازاني في الجبال الشمالية والشرقية حيث ينتشر الاكراد .

٦ — المملكة العربية السعودية : تؤلف اراضيها معظم مساحة الجزيرة العربية وتضم الحجاز وعسير ونجد والاحساء بمساحة ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كم^{2} ، وسكانها لا يتجاوزون الستة ملايين والنصف وعاصمتها الرياض قاعدة نجد موطن الحكام من آل سعود ، وأشهر مدنها مكة والمدينة واحتلت مركزها لوقوع الكعبة والمسجد النبوي في اراضيها ، فيفد اليها الحجاج المسلمون من كل فج عميق ، ولسعة حقول النفط المنتشرة في منطقة الاحساء المطلة على الخليج العربي ، وما يدر عليها هذا النفط من اموال ، كان قسم كبير منها ينفق على الاسرة المالكة وانصارها ، ويبدده أفراد هذه الاسرة على هواهم ، والقليل منه ينفق على المرافق العامة ، وقد هبت روح الوثبة العربية التحررية على صحاري جزيرة العرب ، وحركت السكان ، واضطرت الحكومة الى الحد ولو ظاهريا من الانفاق غير المشروع والاهتمام بالمشاريع العامة ، ويلاحظ فرق حضاري بين منطقة الظهران حيث آبار النفط والاجانب العاملون فيها وبين بقية اجزاء المملكة . كما يلاحظ الفرق أيضا بين مدينتي الرياض وجدة وبين بقية مدن المملكة ، اما كل من مكة والمدينة فلهما وضعهما الخاص بمناسبة الحج وقد

وسع السعوديون حرمهما وأنفقوا في سبيله قرابة الف مليون ريال ، وهي كمية لا قيمة لها بالنسبة لمواردها منهما منهما كل عام .

والى جانب موارد الدولة من البترول والحج ، تعتمد البلاد على الزراعة وتربية المواشي وصناعة الالبان . ومن مشاكلها الرئيسية القضاء على الامية ونشر التعليم وايجاد موارد ثابتة للبدو المتنقلين فيها لمسايرة الركب الحضاري في بقية الاقطار العربية .

٧ — اليمن : تقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب ، تتاخم المملكة العربية السعودية شمالا وشرقا تخوما ليست واضحة المعالم ، والبحر الاحمر غربا ، ومنطقة عدن وحمياتها جنوبا . مساحتها ١٩٥ الف كم٢ وسكانها حوالي ٥ ملايين نسمة تقريبا . كان النظام فيها ملكيا استبداديا عمل على عزلها عن سائر العالم المتمدن ومنع دخول مظاهر الحضارة الحديثة بحجة المحافظة على استقلالها ، وبعد سلسلة من المحاولات والانقلابات الفاشلة ضد حكم ملوكها من آل حميد الدين ، نجحت فيها ثورة شعبية عسكرية وحولتها الى نظام جمهوري ، ولا يزال التنازع بين الجمهوريين والملكيين مستمرا .

عاصمتها صنعاء (٧٠ الف نسمة) ومن مدنها تعز (٢٠ الف نسمة) والحديدة (٤٠ الف نسمة) . مواردها الرئيسية من البن والجلود والمواد الزراعية ، ويعتقد وجود معادن في جبالها وبترول في جوفها ، وقد بدأت فيها تباشير نهضة حديثة .

٨ — الكويت : يقع على الخليج العربي جنوبي العراق وشمالي الاحساء وكان قطرا فقيرا يعتمد سكانه على صيد اللؤلؤ كسائر سكان الخليج وعلى الرعي ويرتبط مع بريطانيا بمعاهدة حماية ، القصد منها قبل الحرب العالمية الاولى منع النفوذ العثماني عنها ، وقد اكتشفت في الكويت حقول واسعة من البترول يستخرج منها يوميا ٧٠٠ر٠٠٠ برميلا تستثمره شركة اميركية انكليزية تقتسم ارباحه الظاهرة مناصفة مع حكومة الكويت ، وتقع حقول البترول جنوب مدينة الاحمدي حيث يوجد حقل البرقان أعظم حقل مفرد للبترول في العالم .

سكان الكويت في تزايد مستمر بسبب سيل الهجرة العربية ولايرانية اليه ، وقد تنبهت حكومة الكويت الى خطر الهجرة الايرانية فعملت على الحد منها ، ويزيد سكانه حاليا عن ٢٥٠ الف نسمة ، واشهر مدنه مدينة الكويت ، ومن مدنه السالمية والاحمدي وقد انفقت الكويت بسخاء على رفع مستوى الفرد وتحسين مدينة الكويت حتى غدت مدينة عصرية بجميع مظاهرها وسط اقليم صحراوي .

٩ — المنطقتان المحايدتان : تقع الاولى جنوب العراق وهي منطقة حياد عراقية سعودية وفيها آبار مياه ينتفع بها بدو العراق والسعودية . وتقع الثانية في جنوب الكويت وفيها آبار نفط يتقاسم ارباحها مع شركات النفط الاجنبية كل من الكويت والسعودية .

١٠ — البحرين : مجموع جزر صغيرة بين قطر والاحساء سكانها ١٤٧ الف نسمة وقاعدتها المنامة (٣٠ الف نسمة) يحكمها امير تحت الحماية البريطانية ، كان سكانها يعتمدون على موارد غوص اللؤلؤ والملاحة البحرية ، الا ان البترول المستثمر اغناهم عن هذه المهن الشاقة . وتدعي ايران حقوقا وهمية بالبحرين

بتشجيع من السلطات الاستعمارية ، وقد تنبهت جامعة الدول العربية الى اطماع ايران بالبحرين وبالمناطق السلحية من الجنوب العربي فبعثت وفدا عربيا لدراسة الاوضاع هناك ولايجاد حلول لوقف هذه الاطماع .

١١ — قطر : شبه جزيرة كلسية تقع بين بحر البنات شرقا وخليج البحرين غربا ، مساحتها ٢٠ر٧٢٠ كم٢ ، وسكانها ٤٥ الف نسمة من بينهم اعداد كبيرة من العرب القادمين اليها عقب اكتشاف البترول فيها . عاصمة قطر هي الدوحة وتقع على الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة ، وفي شمالها بلدة الخور . ولا تزال تقع تحت الحماية البريطانية .

١٢ — سلطنة مسقط وعمان : تمتد هذه السلطنة على طول السواحل الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة العرب ، من حدود مهرة الى شبه جزيرة قطر لمسافة ١٦٠٠ كم ومساحتها ٢١٢ر٣٨٠ كم٢ ، وتختلف المصادر بتقدير عدد السكان وهم في أكثر التقديرات تفاؤلا لا يتجاوزون الثلاثة ملايين نسمة . وتقسم المنطقة سياسيا الى :

١ — سلطنة مسقط على السواحل الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة .

٢ — امامة عمان وتشمل الجبل الاخضر والسهول الداخلية وهي الثائرة ضد النفوذ البريطاني تؤيدها القوى التقدمية في الوطن العربي ، وقد عثر على البترول في اراضيها في عام ١٩٦٤ بكميات ضخمة .

٣ — ظفار والامارات السبع على ساحل عدن الشمالي .

والعاصمة السياسية هي مسقط وتقع على خليج صخري وتشرف على خليج عمان ، وسكانها ٢٥ الف نسمة وفيها يقيم المعتمد البريطاني المعين بصفة وزير مستشار ويدير البلاد وينظم مع القوات البريطانية العدوان على العمانيين .

والمنطقة فقيرة بالزراعة يعتمد اهلها على صيد السمك والغوص من اجل اللؤلؤ والملاحة البحرية وتربية الماشية .

١٣ — الساحل المتصالح : ليس في التاريخ الحديث ولا في الجغرافيا الحديثة اسم موحد لهذه المنطقة الممتدة من الشمال الغربي لعمان على ساحل خليج البصرة ، والتي تتألف من عدة امارات ومشيخات لا تتعدى الواحدة منها ان تكون قبيلة متواضعة أوضيعة متوسطة ، فيقال لها الساحل المتصالح ، أو مشيخات الهدنة ، أو مشيخات عمان المتصالحة . والمهم ان هناك مشيخات تقول بريطانيا عنها انها دول عربية مستقلة وذات سيادة لكنها مشمولة بالحماية البريطانية . مساحتها ٨٤ الف كم٢ وسكانها ٨٠ الف نسمة أي لا يزيدون في مجموعهم عن سكان مدينة من مدن القطر السوري كدير الزور . وهذه المشيخات هي : رأس الخيمة ، دبي ، ابو ظبي ، عجمان ، أم القيون ، الفجيرة . يستثمر البترول حاليا في مشيخة ابي ظبي التي يحكمها الشيخ شخبوط .

١٤ — مستعمرة عدن — محمية عدن : ان ما يعرف بمستعمرة عدن هو جزء من الارض اليمنية احتله الانكليز في القرن الماضي ، ويتألف من ميناء ومجموعة قرى وجزر تصل مساحتها الى ٢٠٧ الف كم٢ وسكانها ١٥٥ الف نسمة كثرتهم عرب خلص مع أقلية مهاجرة من الهنود (١٦ الف) وصوماليين (١١ الف) والاوروبيون

(٥ آلاف) . والجزر الرئيسي من المستعمرة يتألف من مرفأ عدن القائم على شبه جزيرة يصلها بالبر برزخ (خور مكسر) ووراءه مطار (خور مكسر) ، وفي شبه جزيرة مقابلة مصفاة نفط انشأها البريطانيون عام ١٩٥٢ لتزويد السفن بحاجتها من الوقود السائل . والجزر التابعة للمستعمرة هي بريم وقمران ، سقطري ، كوريا موريا . ومجموع مساحتها ٢٠٠ كم٢ .

اما ما يسميه البريطانيون بمحمية عدن فيشتمل على جملة امارات ومشيخات وسلطنات تزيد في الامتداد عن الجزر البريطانية وبلجيكا مجتمعة ، ولكن جميع سكانها لا يتجاوزون ٦٥٠ الف نسمة . وتبلغ مساحتها ٢٧٢ الف كم٢ وتقسم الى قسمين : المحمية الغربية وتتألف من تسع محميات محيطة بعدن يحكم كلا منها امير ، وأهمها امارة لحج ، والمحمية الشرقية وتشمل حضرموت ومهرة وتقسم الى اربعة سلطنات وأهم مراكزها المكلا الساحلية .

١٥ — مصر : تقع في الزاوية الشرقية الشمالية لافريقيا وتشرف على البحر الابيض المتوسط والاحمر مساحتها حوالي مليون كم٢ وسكانها حوالي ٢٧ مليون نسمة . نظام الحكم فيها جمهوري نيابي ، عاصمتها القاهرة (٢ر٥ مليون نسمة) ، ومن مدنها الاسكندرية وبور سعيد ، والسويس واسيوط . أممت قناة السويس وانشأت السد العالي وبنت محطة كبرى لتوليد الكهرباء استثمرته في صناعة السماد الآزوتي وحصلت منه أيضا على الماء الثقيل المطلوب في صناعة الذرة ، وصنعت البلاد ، واتخذت عدة مقررات اشتراكية ، وتأمل متى تم بناء السد العالي ان تعمر واديا زراعيا يوازي وادي النيل وتقتطعه من المناطق الصحراوية الغربية فتحل بذلك مشكلة تزايد السكان والنقص في الحبوب وبعض المواد الغذائية .

١٦ — السودان : يقع جنوب مصر ويتقاسم معه امتلاك وادي النيل واستثمار مياهه ، مساحته ٢ر٥ مليون كم٢ ، فهو اوسع الاقطار العربية مساحة ، سكانه ١١ر٧٧٠ر٠٠٠ نسمة . استقل السودان عام ١٩٥٦ واختار النظام الجمهوري ، عاصمته الخرطوم (١٢٠ الف نسمة) وتقع عند ملتقى النيلين الازرق والابيض ، ومن مدنه أم درمان (١٢٦ الف نسمة) الابيض (٨٥ الف نسمة) وبور سودان (٦٠ الف نسمة) . يعتمد في حياته الاقتصادية على الري ، وقد انشئت فيه عدة مشاريع للري وسدود أهمها سدسنار على النيل الازرق الذي يروي جانبا من منطقة الجزيرة السودانية ويساعد على انتاج القطن الذي يمثل ثلثي صادرات السودان من حيث القيمة المادية . ومن محاصيل السودان الى جانب القطن الذرة البيضاء (وتشغل نصف مساحة الارض المزروعة) والدخن الافريقي و السمسم والصمغ العربي والاخشاب الثمينة كالابانوس والمواشي .

١٧ — ليبيا : تقع في المنطقة الوسطى من شمال افريقيا ، تحدها مصر شرقا والمغرب العربي غربا وتشاد والنيجر جنوبا ، مساحتها ١ر١٧٦ر٠٠٠ كم٢ وسكانها ١ر١٩٥ر٠٠٠ نسمة . وتتألف من ثلاث مناطق طبيعية هي : برقة وفيها الجبل الاخضر وطرابلس وفيها سهل ساحلي وبقاع جبلية ، والصحراء وفيها عدد من الواحات كواحة الكفره وجغبوب واوجله ، وفزان حيث اكتشفت حقول البترول ، وأخذت عائدات النفط طريقها الى عمران ليبيا وتحولها العلمي والاقتصادي ورفع مستوى الفرد فيها . وتعتمد في حياتها الاقتصادية — الى جانب البترول الذي بلغ انتاجه عام ١٩٦٤ مقدار ٤٠ مليون طن — على زراعة الشريط الساحلي

بالحبوب والقطن وفستق العبيد ، وزراعة السفوح الجبلية بالاشجار المثمرة والتبغ ، وحصد نبات الحلفا الذي ينمو في الواحات وتصدره الى اوروبا لصناعة الورق • وتربية المواشي وخاصة الماعز والغنم والابل• ونظام الحكم في ليبيا ملكي دستوري في الاسرة السنوسية •

١٨ — تونس : تؤلف تونس مع الجزائر ومملكة المغرب اقطار المغرب العربي ، التي تؤلف وحدة جغرافية داخل افريقيا ، وضمن الوطن العربي ، وتربط بينها جبال اطلس ، كما تشرف جميعها على البحر بشريط ساحلي وتلفها من الجنوب الصحراء الكبرى• واذا كانت تونس تطل على البحر المتوسط بواجهتين هما الواجهة الشرقية والشمالية فان حدودها مع جاراتها العربيات : ليبيا من الشرق والجزائر من الغرب ، حدود غير واضحة المعالم لانها حدود غير طبيعية • وتونس اصغر شقيقاتها دول المغرب ، مساحتها ١٥٥ الف كم٢ وسكانها ٤٫١٦٨٫٠٠٠ نسمة ، نظامها جمهوري وعاصمتها تونس (٣٧٥ الف نسمة) وتقع على بحيرة داخل خليج تونس ، وفيها جامعة الزيتونة المشهورة في تاريخ العرب والاسلام كمعهد ديني كالازهر• ومن مدنها بنزرت وهي أكبر مرفأ عسكري حربي ، والقيروان أول مدينة بناها العرب (انشأها عقبة بن نافع) ، وصفاقس الواقعة على خليج قابس وتحيط بها مزارع الزيتون الذي يعد محصوله مع زيته أهم ثروة اقتصادية تونسية ، الى جانب ثروتها من زراعة الحبوب والكروم والحمضيات والمواشي •

وتشترك تونس مع قطري المغرب الآخرين بانتاج الفوسفات ، وتنتج منه سنويا ٣ ملايين طن •

١٩ — الجزائر : تتوسط بلاد المغرب • وليست لها حدود طبيعية الا في الشمال حيث تطل على البحر، اما حدودها مع جارتيها الشقيقتين تونس ومملكة المغرب ومع الصحراء الكبرى فهي غير واضحة المعالم • مساحتها ٢٫٣٨١٫٧٤١ كم٢ وسكانها ١١ مليون نسمة • قاومت الاستعمار وقدمت ما يزيد عن مليون شهيد في ثورتها ضد فرنسا وضعف ذلك العدد بين جريح ومعلول ، ولكنها ضربت المثل عاليا لجميع شعوب الارض بمقدرة الشعب المؤمن بعدالة قضيته بالتغلب على أقوى الدول وأكثرها جبروتا ، ورفعت اسم النضال العربي في أعين العالم • نظام الحكم جمهوري شعبي • عاصمتها مدينة الجزائر (٣٢٥ الف نسمة) ومن مدنها قسنطينة في الشرق (١٣٠ الف نسمة) ووهران في الغرب (٢٧٥ الف نسمة) • وتتعدد ثروتها وتتنوع ، ففيها مزارع الكروم وصناعة الخمور ومزارع الزيتون والحمضيات وفي سهولها تزرع الحبوب والقطن وعلى سفوح الشطوط والجبال تزرع التبغ والنباتات العطرية ، وفي الغابات اشجار السنديان الفليني وفي الشطوط الحلفا ، ويتنقل على ارضها ملايين القطعان من الغنم والماعز والبقر ، وفيها ١٤٠ منجما معدنيا مستثمرا وخاصة مناجم الفوسفات والحديد الخام والليننيت والفحم الحجري ، واخيرا فاحت رائحة البترول على ضفتي وادي الشليف وفي جنوبي الصحراء الجزائرية وبدئت باستثماره واضيف اليه الغاز الطبيعي الذي نقل الى البحر بانابيب خاصة، وهذا كله ما يفسر تمسك فرنسا الاستعمارية بالجزائر العربية ومحاولتها القضاء على عروبة الجزائر وفرنستها• وعلى الحكومة الجزائرية اليوم مهام صعاب لبناء مرحلة ما بعد الثورة ، وتعمير ما خربته الحروب والقضاء على مخلفات الاستعمار واعادة الوجه العربي الاصيل للبلاد •

٢٠ — المملكة المغربية : تشغل مملكة المغرب الجزء الغربي من بلاد المغرب العربي ، وتطل على المحيط الاطلسي بواجهة عريضة وتشرف على مضيق جبل طارق مفتاح البحر الابيض المتوسط الغربي ، وهي ذات

مركز جغرافي واستراتيجي هام ، وأرض تجمع بين الجبال والساحل والوديان ومناخي البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ، وهي اوسع أقطار المغرب العربي مساحة (٤٦٥ الف كم٢) وأكثرها سكانا (١١٫٦٢٦٫٠٠٠ نسمة) ويتألفون من عرب وبربر تجمعهما الوحدة الدينية والتاريخية والمواطنة الصالحة لبلد يحبوه ويدافعون عنه ضد المغيرين والطامعين . كان التراب المراكشي موزعا بين ثلاثة اقسام : مراكش - طنجة الدولية - الريف الاسباني ، ثم استقلت مراكش سنة ١٩٥٦ وحررت الريف وأنهت دولية طنجة وجمعت هذه الاقسام باسم المملكة المغربية ، لان نظام الحكم فيها ملكي ، واتخذت الرباط عاصمة للمملكة وهي ميناء هام ٢٨٠ الف نسمة) . ومن مدنها الدار البيضاء على ساحل المحيط الاطلسي واكبر مدن المملكة (٨٧٥ الف نسمة) . وطنجة وتشرف على مضيق جبل طارق (١٥٠ الف نسمة) . ومراكش وهي مدينة داخلية واقعة وسط غوطة من البساتين والنخيل (٢٥٠ الف نسمة) .

واقتصاد المملكة المغربية يعتمد على زراعة الحبوب (٣ ملايين هكتار) ، والكروم (١١٠ آلاف طن عنب سنويا) ، والزيتون (٨ ملايين شجرة) ، والحمضيات والنخيل ومختلف الفاكهة والخضار الباكورية والثروة الغابية ، واشجار الصنوبر والارز والسنديان الفليني ، ثم على الثروة الحيوانية وخاصة الغنم (١٢ مليون رأس) ، ومصائد الاسماك ، وعلى الثروة المعدنية وخاصة الفوسفات في الميزيتا المراكشية وجنوب شرقي الدار البيضاء (٦ ملايين طون) والحديد ١/٢ مليون طن سنويا ، والفحم الحجري والانتراسيت والمنغنيز ، وفيها معامل متعددة للصناعات المعدنية والغذائية وحاجات الاستهلاك المحلي . وانشأت جامعة الدول العربية لجنة للتعريب مهمتها توحيد المصطلحات العلمية باللغة العربية واعادة تعريب ما حاولت فرنسا تحويله الى الفرنسية سواء في دوائر الحكومة أو التعليم أو القانون أو غيرها .

٢١ - موريتانيا : كانت جزءا من المستعمرات الفرنسية الافريقية وقد استقلت حديثا واعترفت فيها فرنسا وعدد من الدول الاوروبية والامريكية ، لكن مملكة المغرب لم تعترف بسيادتها ، لانها تعتبرها جزءا لا يتجزأ من التراب المراكشي وتطالب بالحاقها بها ، وتحاول اثارة هذه القضية في أكثر المؤتمرات الدولية التي تدعى لها هاتان الدولتان . وموريتانيا تقع جنوب المملكة المغربية ، وتجاور الصحراء الجزائرية من الشمال الشرقي ومن الشرق ، وتطل بواجهة صغيرة على المحيط الاطلسي ، لان الجزء الاطول من الساحل تحتله الصحراء الاسبانية ، كما تطل حدودها الجنوبية الغربية على السنغال . عاصمتها نواكشوت وأكثر اراضيها صحراوي ، وتغلب على سكانها حياة البداوة .

الفهرس

دراسات
في
المجتمع العربي

ص

٢ فكرة القومية

١١ الحركات القومية

٢١ الأسس التاريخية للمجتمع العربي

٦٣ القومية العربية وعوامل اليقظة

٧١ مرحلة اليقظة العربية الحديثة

٧٩ مرحلة التحرير العربي

١٠٧ مرحلة الاستقلال والوحدة

١٢٧ التحديات التي تواجه القومية العربية وتجابه وحدة الوطن العربي في المجتمع العربي المعاصر

١٤١ الأسس النظرية والعملية لقيام الدولة العربية الواحدة

١٤٩ الدراسة المقارنة للتخلف

١٧١ اختلاف نظم الحكم في الاقطار العربية وتباين الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية

١٩٢ مشاريع التنمية الاجتماعية والاقتصادية

٢٠٥ الوطن العربي : خصائصه الطبيعية والبشرية ومقومات الوحدة فيه

٢٣١ أوضاع الاقطار العربية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمشاكل الرئيسية وامكانات التطور .

